ABD ELOUAHEB AISSAOUI

عبدالوهاب عيساوي

الديوان الإسبرطي

رواية



الديوان الإسبرطي



دار ميم للنشر، الجزائر

E-mail : mim_edition@hotmail.fr

الديوان الإسبرطي

رواية

عبد الوهاب عيساوي



الديوان الاسبرطي
اسم الكاتب: عبد الوهاب عيساوي / كاتب من الجزائر
سنة الإصدار: الطبعة الأولى سنة 2018
دار ميم للنشر، الجزائر

ردمك: 978-9931-585-60-2
الايداع القانوني: السداسي الثاني، 2018

الشرق والغرب على السّواء
يقدّمان إليك أشياء طاهرة للتذوّق
فدع الأهواء، ودع القشرة،
واجلس في المأدبةِ الحافلة:
وما ينبغي لك، ولا عابرًا
أن تنأى بجانبك عن هذا الطعام.

جوته -الدّيوان الشّرقي-
ترجمة عبد الرحمن بدوي

إلى روح الصديق الشاعر والناقد حميد ناصر خوجة
أهدي هذه الرواية ذكرى أحاديث لم تنته.

القسم الأول

ديبون

مرسيليا مارس 1833

إنّ الشّيطان إلهُ هذا العالم يا صديقي المبجّل ديبون، وإنّي لمشفقٌ عليك مما يحمله رأسك من أوهام، أنت الذي لا تزال تعتقد أنّ كل النّساء هنّ المجدلية، وأنّ كل القادة تجلٌ للمُخلّص... أفق يا ديبون، أفقِ أو عُد إلى مرسيليا.

صديقك اللّدود كافيار.

******

اثنا عشر عاما انقضت على موت نابليون، وثلاث سنواتٍ بعد سقوط الجزائر، وما زالتْ هذه الكلمات تضجُّ في رأسي، صديقي القديم لم يشأ أن يُغيِّرها في كل خطابٍ. أجوب شوارع مرسيليا، الناس تناسوا ضجيج السّنوات الماضية، وزيارة ولي العهد. آه آسف لم يعد وليًا للعهد بعد أن انقلبوا عليه وصار هو الآخر منفيًا، أو ظِلا ضئيلًا تبدّد في الذّاكرة الضعيفة للنَّاس. في الـمُلك لا فرق بين عشرين دقيقة أو عشرين عامًا، ولا بين لويس التاسع عشر أو نابليون!! من يا ترى بقي يحتفظ بأحلام المجنون الذي أراد أن يُتوّج ملكًا على العالم؟! بالرغم من أن اسمه بقي ينوس في ذاكرة الناس،

إلا أن صديقي كافيار كان أكثرهم اشتعالًا بسيرةِ القائد المجنون، أُحب أن أُسميه شاول اللَّعين، يضحك حين يسمعها. يتّفق مع تجّار مرسيليا في جدوى بقاء الفرنسيين في هذه المدينة الإسبرطية التي ترتفع خلف البحر، فالتجّار في مرسيليا يريدونها بالتأكيد ليس فقط من أجل أمجادهم السَّالفة، بل لأشياء أخرى، المال كما يقول شاول إله جديد وما أكثر الآلهة! آلهة في البحر وأخرى في البَّر.

ديبون.. ديبون.. يتناهى لي صوته يناديني من خلف الحُجب، ساخرًا من أوهامي، خُيّل لي أنه خلفي، وفجأة ألتفت، أرى وجوهًا لا أعرفها تُخبّئ أجسادها داخل معاطف صوفية، تجوب الشَّوارع في عجالةٍ، يمتد بصري إلى نهاية الطريق حيث الزُرقة والميناء، يتراءى لي صديقي القديم هناك واقفًا يدخن غليونه. هل يمكن أن يكون كافيار قد عاد؟؟ لكن كافيار اختار مصيره منذ افترقنا قبل سنتين في إفريقية، قالها لي وهو ينفث دخانه في وجهي: عد يا عزيزي ديبون إلى مرسيليا وإلى جريدتك، مثلك لا يصلح للعيش هنا، نوبة زُحار واحدة كافية لإنهاء حياتك، أنا أكثر الناس دراية بهذه الأرض وهؤلاء البرابرة، لا يمكنك تصوّر أن ما تفعله أو تفكر فيه ما هي إلا أوهامٌ صنعتها مخيلتك. وهكذا عدت.

ربما كان صديقي على حق، غير أنني الآن مدركٌ أن هذه الأوهام كانت في يومٍ ما حقيقة، وأن يأسي جعلني أُخدع بيُسر رغم رجاء ابن ميّار، وحتى صديقه السّلّاوي، كانا مُتشبّثين بي مثلما تشبّثت المجدلية بيسوع، وعِوَض أن أُطمئنهما فررت، قادني يأسي إلى التخلّي عنهما مثلما تخلّيت عما كنت أؤمن به.

أفيق على نسمة ريحٍ باردة تتسلَّل إلى جسدي بينما وقفت متصبًا أراقب الميناء. لم يكن صديقي هناك، الزُرقة توغل في ذاكرتي، والبرد يحدّ إبره لتَنخسني، فأعود بوجهي إلى دربي الأول، أحثّ الخطى وأنعطف يمينًا إلى شارعٍ جانبي، ثم شمالًا ألج آخر، ويقابلني مبنى المسرح الكبير، أعدُّ أعمدته الستّةَ وأفر منه إلى بقية الدُروب أخطوها مسرعًا كأنني مُطاردٌ، أتجاوز مبنى المسرح إلى شارعٍ أوسع يقودني مُنعطفه الثاني إلى شارع فنتور، وما إن أعبر مدخله حتى تقابلني لافتة الجريدة، أتهجّى حروفها: جريدة «لوسيمافور دو مارساي». وقبل أن أخفض عينيّ امتدت يدٌ من خلف الباب وسحبتني إلى الداخل، ثم عبرتْ بي الرِّواق إلى مكتب المدير، الذي ظلّ ينقل وجهه بيني وبين الرجل الخمسيني الجالس قبالتي، ثم خاطبني:

- يبدو أن أصدقاءك القُدامى حين فرغت جيوبهم من الذَّهب ملأوها بالعظام!

- من تقصد؟؟

- أصدقاءك من الضباط يا ديبون، ألم تكن مُراسلا للحملة التي أرادت أن تُحيل إسبرطة إلى أثينا، ثم فوجئنا بمدينة رومانية في إفريقية؟

لو أنك كنت هنا يا صديقي كافيار، لعرفت أنني كنت دومًا على حق، ولكنك تؤثر الانتصار لروحك التي عبّأتها سنوات الأسر والعُبودية بمشاعر مظلمةٍ، أنار الربُّ روحك يا صديقي. كنت أُصلّي لك في قلبي حين أردف المدير:

- أتعرف باخرة باسم بون جوزفين؟

- لعلّي سمعت بها.

- لم يبق الكثير عن موعد رُسُوِّها بالميناء قادمة من الجزائر، وسترافق الطَّبيب إلى هناك.

رمى المدير الكلمات في وجهي مشيرًا إلى السيّد الذي قابلني، ثم حمل معطفه وغادر المكتب، وتركني أحاول تقديم نفسي للطبيب.

تأمّلني الطبيب مليًا ثم قال:

- يُقال إن الباخرة تحمل عظامًا بشرية؟

- أهي لجنود أوصوا بذلك؟

- لا. بل لمصانع السُّكر. يقال إنها تستعمل لتبييضه.

ذهلت وأنا أسمع كلماته:

- أتَعِي ما تقوله سيدي الطبيب؟!

- أنا هنا من أجل هذا، ما عليك إلا مرافقتي إلى الميناء.

حين غادرنا المكتب كنت مندفعا، كأنني أُثبت لنفسي أو ربما لصديقي القديم أن ما حدث قبل سنوات ثلاث كان خطأ أحاول التطهّر منه بأي طريقة، وإن اضطرّني الأمر للعودة إلى الجزائر. عند باب الجريدة تراءت لنا العربات من منعطف الشَّارع، ركبنا على متن إحداها مُتجهين إلى الميناء في انتظار بون جوزيفين.

في الدَّرب الحجري استعدت كلمات الطبيب، سحابة الإشاعات ظلّلت مرسيليا أيامًا، ثم أمطرت مسحوقًا أبيض تقزّز منه الناس، ولكن هل صدّقوا أنه لعظامٍ بشريةٍ؟ لم أكن لأدري سوى ما أراه من تغيُّر على ملامح الطبيب. فكّرتُ لو أسأله هل يصدّق فعلا هذه الإشاعة؟! شعرت باضطرابه كلما تقدّمنا من الميناء، كدت أوعز للحوذي أن يتوقف دقائق غير أنه بادرني بالكلام:

- أريد إقناع نفسي بألا أثق في هذه الإشاعات ولكن الضمير يُحتّم عليّ الـمُعاينة، أنا خائفٌ من وزر هذا العار.

- أنت تعلم أنه ليس عارنا الوحيد، وكل الأمم لها ما يسوؤها من المثالب.

- كلها أوجدتُ لها المبررات، ولكن أي شيء يُبرّر بيع عظام أمةٍ أخرى وبدعوى مثل التي تُشاع؟!

- إن الـمال إله جديد، يُغريك كي تحفر القبور وتأكل عظام إخوتك بدعاوى كثيرة، وإني لموقنٌ أننا سنجدها بالباخرة، ليس لأن لي نبوءات صادقة بل لأني عرفتهم بصدقٍ، وعن كثب.

اهتزّت العربة عند المنعطف الأخير، وحاولت أن أعتدل في مكاني، رفعت رأسي لأطلّ من النافذة، رأيت بعض البحّارة يجوبون المكان، تتغيّر ملامحهم كلما حدّقوا إلى امتداد الزرقة الدّاكنة للبحر. هل قاسموا بعض السّاسة في باريس آراءهم؟ لطالما كان الجنوب مُثيرًا للمشاكل، لكن البحارة غير السّاسة، البحر يجعلك تؤمن أن هناك يقينًا ما وإن كان غامضا لكنه ينتابك حين تشتاق إلى اليابسة، أما السِّياسة فهي شيء آخر حيث اللاّيقين هو اليقين الوحيد الذي عليك اعتناقه. انتبهت إلى توقّف العربة وإلى نداء الحوذي يطلب منا النزول، فتحت الباب ونزلت ليتبعني الطبيب، جابت عيناه الفضاء من حوله فلم يتراءَ له غير خطِّ الأفق، قلت:

- إذن لم تصل بعد بون جوزيفين؟

التفت إلي واتّخذ وجهه سَمةً أكثر جدية:

- علينا إذن الانتظار.

انقضت ساعة أو ربما أكثر، خفّت حركة البحارة، وبعض التُّجار بعد أن حملوا أشياءهم رحلوا، وبقي آخرون مثلنا يحتلون المقاعد، حتى تراءت باخرة

في الأفق، ولم أجزم إن كانت فعلا بون جوزيفين أم لا، شككت أنها هي حين انتبهت إلى وقوفهم في الزاوية الأخرى، ثيابهم وقبّعاتهم فضحتهم من أول وهلةٍ تقابلت فيها الوجوه. وها هو الترقُّب والاندفاع يؤكّدُ بقية شكّي.

وقف الطَّبيب عند عتبة الرَّصيف ينتظرها، كان مدركًا أول ما رآها أنها هي، عيناه كانتا تقولان هذا منذ البداية، في حين انشغلت عنه بتحليلاتي البائسة مثلما كان يسمّيها صديقي كافيار: ديبون يا ديبون لماذا تشغل نفسك بهذه الأفكار السَّخيفة؟ أتعتقد أنك سوف تنتصر لهؤلاء البرابرة؟

لو كان كافيار هنا لماَ انتظرتُ طويلًا مع الطبيب، ولاستخرج من جَيبه عظامًا قد تكون لطفلٍ صغير، أو ربما لعجوزٍ ويهديني إياها: خذها إنها تصلح أن تنحت منها صليبًا تعلّقه في عنقك.

ولِمَ لا يا كافيار؟ ما الفرق بين أن أعلّق صليبا من العظام أو أن أُحوِّلها سُكّرا، أليس الأمر سواء؟! ومهما يكن الإله الذي تؤمن به فإنه لن يرضى بهذا. في القديم كان الناس يؤمنون بآلهة متعدّدة تتصارع فيما بينها، واليوم صاروا يؤمنون بإله واحد يُتاجرون بأجساد بعضهم من أجله! أليس هذا ما كنت تريد قوله يا صديقي كافيار في كل مرة يَحتدُّ فيها النِّقاش بيننا حول مآخذك على المدينة التي أسميتها إسبرطة، ألم تقل إنك اُستعبدت بها وليس مثلك جديرًا أن يتكلم عنها؟؟ نعم إني مُقدِّرٌ عذابك ولكنك لن تتطهّر منها بتعذيب الآخرين، العذاب يُولِّد المعرفة لا الكراهية، والحكمة لا الحقد، والإيمان لا الكفر.

حين أُرخيت القلوع وشُدّت المرساة تراجع الطبيب إلى الخلف خطوات متفاجئا، أتراه تكهن أن تكون الباخرة التي ينتظرها تحمل عددا لا يستهان به من المدافع؟ أم أنه خمّن أنها سفينة تتبع الأسطول التجاري؟ كنت أرى

مدى خيبته وهو يكتشف المفارقة العجيبة، محاولًا المقارنة بين عدد التُّجار الذين كانوا يتوافدون أمامه وعدد الجنود الذين يستقلّون الباخرة. لحظاتٌ ثم عاد يراقب بعضًا من المسافرين في نزولهم، الخواء الذي كان بيني وبينه لم يلبث أن امتلأ بالناس، تُجّار مرسيليا الصغار كانوا ينتظرون الغِلال التي أتت بها بون جوزيفين، وآخرون أرسلوا وكلاءهم وقعدوا خلف مكاتبهم في الجهة الأخرى من المدينة. حملت نفسي ووقفت إلى جانبه بينما اقترب منه أحد البحارة، لم ألتقط الكلمات الأولى من الحوار غير أني رأيت يد الطبيب الممدودة بالوثيقة، تفحّصها البحّار ثم صعد الدَّرجات مسرعًا، غاب دقائق وعاد مُلوحا لنا من الأعلى أن نتبعه، صعدنا حتى بلغنا سطح الباخرة، وتجاوزَنا البحّار بخطواتٍ ثم توقف فجأة ووجّه الخطاب إلى الطبيب:

- هنا غرفة النَّقيب.

كان النَّقيب يقف في نهاية الغرفة، وجهه أمام النّافذة، يفصلنا عنه مكتبٌ صغير فوقه خرائط وبوصلة وكتاب ضخم، التفت إلينا وحدّق في الطبيب مليًا، وعاد يُقلّب الوثيقة كأنه غير مصدقٍ ما دُوّن:

- الوكيل المدني يرسل لنا طبيبا ليُفتّشنا، أليس هذا ما جئت من أجله؟

- ليس بهذه الصورة سيدي النقيب، إنما هو تَحقُّقٌ من شيء لا يصلح له إلا الطبيب. وقد أراد الوكيل المدني تدارك الفضيحة إن كانت الإشاعة حقيقية.

صمت النقيب لحظة ثم قال:

- قدمتما من أجل صناديق العظام؟

أجبته مستفهما:

- أفي الباخرة غيرها؟!

- لا يعنيك غير ما تبحث عنه، هذا شرطي إن أردتما رؤيتها.

رد الطبيب:

- ليس لنا غير ما نبحث عنه سيّدي.

ارتفع صوت النقيب مُناديا، وفجأة دخل البحار الغرفة، لحظتها طوى الوثيقة وخبّأها في جيبه وطلب من البحار مُرافقتنا إلى أسفل الباخرة، خطا الطبيب إلى الأمام مُتجاوزا البحار الذي نبّهه كي يُعيده إلى مكانه، وخطا هو الآخر إلى الباب الـمُفضي إلى أسفل الباخرة. رفعه ونزل عبر سلّمٍ مُشيرا أن نتلوه. تبعه الطبيب حينئذٍ، ثم كنت أنا في أعقابهما، وما إن لامَستْ رجلاي الأرض حتى تراءت لي الصناديق مصفوفة دون عناية ظاهرة، خلفنا انتصب البحّار عند السلّم وتقدّم الطبيب إلى أول الصناديق، حاول فتحها وعجز عن ذلك، إذ كانت أقفالها الكبيرة تتأرجح على جانبها، ولم يدر أي شيء يفعله وهو يقلّب بصره بيني وبين البحّار، لكنّ عينيّ كانتا تُفتّشان المكان بحثا عن أي شيء للمساعدة. لم يمهلني البحّار إلا دقيقة غاب فيها خلف السلّم ثم عاد بمطرقة، وتقدّم إلى الصندوق وهوى على قُفله فحطّمه، ثم راح ينتقلُ من قُفل إلى آخر وكأنها لُعبة استهوته! البحر أحيانًا يجعل مرتاديه أقرب إلى فعل الحماقات مثلما كان يقول كافيار، هذا المجنون أتذكّره دائمًا في أوقاتٍ غريبة، بودّي لو كان معنا، هل تراه سيتفاجأ بالذي تحويه الصَّناديق؟ بِمَ أجيبه لو لم تكن بها إلا عظام حيوانات؟؟ سيقهقه ويكرّر جملته الأثيرة: ديبون أيها الطَّيب، إنك تذكّرني بأطفال الشُّموع في الكنائس، أستغرب أنك كنت ترى الجنود وهم يتناثرون من حولك مُضرّجين بدمائهم وما زلت تفكّر بهذه السذاجة.

دائما كان كافيار أفصح مني، ولكنه يعترف دومًا أني أشدُّ عنادًا منه، ومع هذا افترقنا ولم يُغيّر كلانا أيّ شيء في صاحبه.

رفع الطبيب الغطاء بهدوء وأزال كومة القش أعلاها، تأمّلها مليًا ثم أغلق الصندوق والتفت إليّ، فدنوت أكثر ثم انحنيت على الصُّندوق وأعدت فتحه، كانت عينا الطبيب تحدّقان في كومة العظام أمامه، ثم مدَّ يده تستكشف أوّلها، وما كان في حاجةٍ أن يقلّبها كثيرًا، بدت من أول وهلةٍ أنها فك إنسان، وضعها جانبا وشرع يخرج العظم تلو الآخر حتى أتى على الصَّناديق كلها، عيناه كانتا تقولان كل شيء. افترش الأرض وأشار إلى أقرب العِظام إليه: هذه ساق طفلٍ لم يتجاوز العاشرة، والأخرى تبدو لشابٍ، وهذه... أتراها يا سيد ديبون؟ إنها لشيخٍ أعرفها من انحناءاتها، ثم أعادها إلى الصندوق، لينتقل إلى آخر، ومدَّ يده فعادت بجمجمةٍ صغيرة، وفي تلك اللَّحظة اضطربت، كانت الجمجمة ماتزال تحمل لحمًا على جوانبها، تعفّن وحال إلى السَّواد، قلّبها الطبيب بخيبةٍ في يده، وتراءى الطفل يُطلُّ علينا من باب المخزن، يبكي وينادينا بأسمائنا، بالتأكيد لم يكن ليهتم به البحّار، كان صراخه يتعالى بيني وبين الطبيب، أو لعله يلوّح لنا من قبره: هل هذا ما أردت أن تسجّلهُ يا سيد ديبون من انتصارات قائدك العظيم؟ ألم يكن أجدى لك الكتابة عن سيرة عظامي لا عن عظمة سيدك؟! كنتم تقولون سنكون مثل النَّاصري مخلّصين، فافتحوا أبواب قلوبكم، وفوجئنا بآلاف من شاول يهرعون تجاه مقابرنا بمعاولهم، لك أن تفخر الآن أصبحت مقابرنا حقولًا، وعظامنا غلالًا لكم.

لم يكن بمقدوري الاحتمال. سحبت نفسي وتسلّقت السُلّم في عجلةٍ، باحثا عن هواءٍ نقي، العفونة تتّسع، والعالم يزداد ضيقًا من حولي، كل شيء في عينيّ حال إلى جماجم صغيرة تنادي باسمي، ما الذي تريده مني الآن؟ هل أقطع المتوسط عائدا إلى تلك المدينة التي فررت منها في يوم ما؟

وما تراني فاعلٌ بها؟ وكيف أُقبل عليها؟ أأسمّيها مثلما يحب كافيار إسبرطة، أم مثلما يُسمّيها السّلّاوي وابن ميّار المحروسة. يتضاءل الصّوت الصارخ حتى يغيب، وأبقى محدقا تجاه الفضاء المزرقّ منتظرا ظهوره ثانية، ولا يسمع عدا أصوات الأقدام المقتربة، مناداة الطبيب لي. ترافقنا حتى بلغنا باب قُمرة النَّقيب، ودّعناه ببرودة وسارت بنا العربة مُبتعدين عن الميناء.

كنا في الشَّهر الأخير من الشِّتاء لكن البرد يأبى الرحيل عن مرسيليا. عبرت بنا العربة شوارع عديدة متباينة الطُّول، وطوال الطريق شغلتني صور انبعثت من الذَّاكرة، لنساء يُطللن من شرفات بيوتهن يهتفن للجنود العابرين، طولون تحوّلت إلى ثكنةٍ كبيرة، يُقبل عليها الجنود من كل صوبٍ، امتلأت البيوت والفنادق والسّاحات، واختنق الميناء بأعدادهم، الكلُّ كان يريد المشاركة في حملة الجزائر، حتى القَسّ رأيته مُتشبّثا بالقائد العام، تتلاحق أنفاسه بالكلمات: حُلمي يا سيدي القائد الانضمام إلى زمرة هؤلاء المباركين الذين يُعلون شأن المسيح. من مكاني داخل العربة كان همسه -وهو يوزّعُ البركات على الجنود- يصلني، ولم يحمل الجنود إلا القليل من بركاته، التي لم تُنج بعضهم من الزُّحار والوباء، وآخرون سئموا إفريقية بسرعة وتجمعوا أمام خيامهم يريدون العودة، لكنهم أُجبروا على البقاء.

كلما استعدت آخر الأيام التي جمعتني بكافيار تزداد رغبتي في العودة إلى الجزائر، وحين أحاول التخلّص من مشهد العظام أُفاجأ بنفسي أمامهم، الأطفال الذين يتراءون لي من نافذة العربة، إنهم أبناء هؤلاء التُّجار، يتحوّلون إلى هياكل عظمية في عينيّ وينادون باسمي، كيف يمكن التخلّص من هذا الحصار؟ لم يبق لي إلا خلاصٌ أخير يا كافيار، أن أعبر المتوسط إلى مدينة المحروسة أو مثلما تُحب تسميتها إسبرطة.

ودّعت الطبيب عند عتبة الباب، لوّح لي حين كانت العربة تنعطف مُغادرة شارع فنتور، لم نتّفق إن كنا سنلتقي ثانية أم لا، لكني حدست أنني سأراه مجدّدًا، وجلست في مكتبي أتتبّع رحلتي إلى الميناء، لم تُطاوعني يداي أن أكتب شيئا إلا في اليوم الثاني، فما إن وقفت عند باب مبنى الجريدة حتى كان الحوذي نفسه ينادي باسمي ويسلّمني تقرير الطبيب، في مكتبي قرأته، لم يكن تقريرًا طبيا بقدر ما كان احتجاجًا تجاه ما حدث. الوعي بالحقيقة أحيانًا أو ربما دائما يكون مثل سوط، ليس بمقدورك تجنّبه.

الجُمل الأخيرة من المقال كانت أشدّ عُسرا، وأكثر اقتضابا، بصعوبة فرغت منها وسلمت المقال إلى المحرّر، وحملت نفسي وفررت خارج مبنى الجريدة، صارت الأماكن الضيّقة تُعيد مشاهد المقابر وحقول العظام، وفي منتصف شارع فنتور تحسَّست رسالة الطَّبيب، كانت في جيبي، لحظتها طافت بي خواطر عديدة، ونداء يطلب مني نسخ الرسالة وإرسالها إلى صديقي القديم كافيار، ونداء آخر يسخر هازئًا من الفكرة، كأنه يقول ما الفائدة مما تفعله، أتعتقد أنك بمقالك أو بهذه الرسالة يمكنك إيقاف صراخ الأطفال في داخلك؟ لن يصمتوا حتى وإن أصبحت حارسًا في مقابر المحمّديين، أو في حقول المسيحيين!! ولِـمَ لا؟! سأرجع إلى المحروسة وسأصبح حارسًا ليس فقط على المقابر، بل على حياة الجميع، قُلت هذا بصوتٍ مسموع التفت له بعض السَّابلة، فخطوت مسرعًا فارًا من شارع فنتور.

في اليوم الثاني خمّنت أن هناك ضجيجًا سينبعث بعد قراءة المقال، تناولت الجريدة من أول الأكشاك ورأيت العنوان بحجمه الكبير في الصَّفحة

الأولى، كان الناس من حولي يتهافتون على النُّسخ حتى لم تبق ثمة واحدة، وكل من يفرغ منه يسير مسرعًا تجاه الميناء، كانوا يُدركون أن قوانين الحظر الصحي مازالت سارية وأنه على كل سفينةٍ البقاء أيامًا حتى تُنزل حمولتها. تتبّعت المقال بسرعة، ثم رميت نفسي في المدِّ السَّائر تجاه الميناء حتى بلغته.

لو قُدِّر للذاكرة إعادة ما حدث في ميناء طولون قبل ثلاث سنواتٍ ستشي حتما بأنهم كانوا أكثر من هؤلاء، بالرغم من أن الأهواء كانت مختلفة، بالأمس الكل ينتفض من أجل سُمعة هذه الأمّة العظيمة حين أُهين قُنصلها، واليوم هل تراهم ينتفضون من أجل الشيء نفسه، صناديق من عظام الأطفال والشيوخ تُسحق لتزيد السُّكر بياضًا؟! المجد لكم أيها المصنِّعون، المجد لك يا صديقي كافيار، بعض الهزائم تبدو انتصاراتٍ في القلوب التي أظلمت بالخطيئة، وبعض الانتصارات تجلب الخيبة لحاملها. من يريد الآن إعادة سيرة الكورسيكي المجنون ويحتل العالم؟؟ ينفلت الصوت من داخلي:

- مازال هناك الكثير منهم يا ديبون، إنهم هناك ينتظرونك في إفريقية.

أجبته:

- تيقّن أنني لن أعترض على كلامك، أريدك فقط أن تتأكد أني سأعيد هذه الرحلة بدءًا من طولون وانتهاءً بالجزائر.

اكتظ الرصيف بالناس، وتعالت أصواتهم من هناك، ثم تبدّدت وهم يلتفتون إلى العربات التي وصلت، تغلغلتُ بين الصفوف حتى كنت عند أولها، ومددت بصري أراقب النَّازلين، فُتح باب أولها ونزل الوكيل المدني يرافقه الطبيب، وانتظرا حتى انضمَّ إليهما مُحافظ الشُّرطة وشيخ البلدية

وصعدوا إلى الباخرة، ساعة من الغياب ثم رأيناهم في نزولهم، قرأ الناس كل شيء على وجوههم، ضجّوا ثم صمتوا ثم ضجّوا مرة أخرى، وعادوا يراقبون العربات وهي تغادر الرَّصيف، مُخلِّفة وراءها عددًا من الشُّرطة على متن بون جوزيفين.

أثناء مغادرتي الرصيف سمعت نداء على اسمي، التفتُّ ووجدت الطبيب هناك، تَرافقنا إلى مقهى البحرية واحتللنا أول طاولة بها، أحسست أن الطبيب كان يريد محادثتي عن أشياء كثيرة لكنه صمت وهو يراقب الناس، ثم همس حتى بالكاد سمعته:

- لن ينتهي الأمر عند هذا الحد يا سيد ديبون. ولن تتوقّف تجارة العظام كن مُتيقنا من هذا!!

- ولِـمَ هذا اليقين؟

- انظر إلى الرَّصيف، قد أضحى خاويًا من البشر، هؤلاء يجمعهم الفضول وتفرّقهم الحقيقة.

- والذين رافقتهم في عرباتهم؟

- عدا ما سيفعله الوكيل المدني، الباقي لا معنى له، غرامةٌ بفرنكات وربما قد تعود الصَّناديق إلى الجزائر.

- وما الذي سيفعله الوكيل؟

- بل قل ما الذي ستفعله أنت، الوكيل سيزور الجزائر محاولا منع هذه التجارة، ولا يمكنه فِعل شيء، أنت أدرى مني بالطريقة التي تسير بها الأمور في إفريقية، نحن لسنا وحدنا، وكل يوم يزيد تعداد الأوروبيين، أما الضباط فقد صاروا يرون إفريقية أملاكا خاصة.

- لو كنت تعرف كافيار صديقي القديم لقلت أكثر من هذا.

- نعم، أمثاله كثيرون، قرأت بعض تقاريرهم، ولكن ألا تفكر في مواصلة ما بدأته؟

- أيّها؟ الأشياء التي بدأتها وتخاذلت عنها كثيرة؟!

- أتكلّم عن حقول العظام التي في الجزائر.

- أتقترح عليّ العودة إلى هناك؟؟

- سيغادر الوكيل المدني بعد يومين، فكّر في الأمر.

رمى الطَّبيب جملته الأخيرة ثم غادر المقهى، وخلّفني أراقب جدرانها الرّطبة تارة وأخرى أتوه في زرقة المتوسط، بدت قاتمة تميل إلى السواد، موجات مُتعثّرة تختبئ مسرعةً قبل إنهاء دورتها، هكذا أنت يا ديبون، لا تستطيع أن تضع حدا لمزاجيتك، قالها لك كلوزيل ثم أعادها لك الدُّوق روفيغو ساخرًا: أصبحت يا ديبون تتصرّف مثل هؤلاء الشَّرقيين، وتنفعل مثلهم، مخُالطتك لهم أصابتك بالعدوى، والآن أراك تماثلهم في كثيرٍ من الطِّباع. ما الذي يُجبرك على الانحياز إلى هؤلاء البرابرة، وقد ساهمت في مجد أمتك، ودوّنت مسيرة فاتح إفريقية حتى أضحيت من نجوم الصالونات الباريسية؟! أتريد مجدًا آخر تضيفه للإنسانية من أجل حقوق البائسين، أم أنك تعتقد نفسك مسيحًا جديدا؟ دعْ عنك هذا وعُد إلى باريس.

أيعقل هذا الذي تفكّر فيه يا ديبون، هل ستعود مجددًا إلى بلد الزُحار والغُبار، ألا تُغنيك مرسيليا أو باريس؟ في باريس لن يرغب فيك أحدٌ الآن! لم ينسوا ذلك الحوار الذي أجريته مع الباشا المخلوع أثناء زيارته إلى باريس، أتذكر متى كان ذلك؟! أيامًا فقط بعد فرارك من الجزائر، يومها

قال أو لعلّك قلت على لسانه كلماتٍ لم تُعجب الكثير، يكفي أن يقول «إن كل شيء مكتوبٌ من الله» حتى يثير السُّخرية من قدرية هؤلاء الشرقيين.

انتبهت على حركة النادل قربي، فرحلت عن المقهى، متسائلا عن جدوى بقائي في مرسيليا ولعامين لم يحدث شيء، مدينة تستيقظ وتنام على تجارتها، ما الذي يدعوني إلى البقاء هنا وآلاف من الأفكار تحثني على العودة إلى المحروسة. سأعود يا كافيار، تأكّد أنني لن أستسلم لك هذه المرة. سأصرخ بما أريد وإذا شئت بعدها اقذف بي من أعلى أسوار المحروسة، لن أتوقّف ولن أُسايرك. هُزم نابليون في واترلو واحتفظتَ به منتصرًا في قلبك، بينما ما زلتُ أراه مجنونًا كاد يقود العالم إلى الهلاك، وانتصرتَ للملك الجديد وما زلتُ وفيًا لعائلة البوربون، وكنتَ ميالًا للبحرية، بينما افتخرتُ في كتاباتي بالمشاة، واحتضنتَ العَلَم الثلاثي الألوان، ولم يُغادرني حبّي للعَلَم الأبيض، وفتنتُ أنا بالأمة الإنجليزية لكنك سخرتَ منها، فافترقنا منذ التقينا، وكانت المدينة شاهدةً على حكايات أخرى بيننا، فكيف نتفق! ثم كان انتصارك في فراري، وها أنذا عائدٌ إلى الجزائر.

لم أنتبه إلا أمام نهج دارسي حيث أُقيم، وقفت عند باب بيتي، فتحته وعبرت إلى غرفة نومي ورميت نفسي على السَّرير، وحين أفقت كان النُّور يتسلل خافتا من النافذة يعلن عن بداية يومٍ جديد.

وصلت إلى مبنى الجريدة متأخرًا، ودخلته أكثر ثقة، ألم تُسحب جميع النسخ؟ ألم يجعل مقالي الناس تتجمهر عند الميناء؟ بهذه الرّوح عبرت الرِّواق إلى مكتبي، وقبل ولوجه التفتُّ إلى إشارة المدير فعدت إلى مكتبه، وجلست قبالته، كرّر كلمات الطَّبيب، كأن هناك تحالفًا بينهما، كل يوم تزداد

ثقتي في ضرورة العودة إلى الجزائر، ثم حسمت أمري وقررت الرحيل. كانت كلمات المدير تشير أيضا إلى رحلة الوكيل المدني، بينما كان هناك شيء في داخلي يرفض مُرافقته، يسحبني إلى طولون، يريد تكرار المسيرة المغايرة، أو ربما المعاكسة، وقد أسمّيها رحلة التَّطهير، كان المدير يبحث عن إثارة يكون الوكيل بطلها وأنا كاتبها، ولكني أبصرت أشياء غير التي يُريدها، وقبل إنهاء كلامه قلت:

- سأغادر في الغد ومن طولون، ولا يعنيني ما سيقوم به الوكيل المدني.

- كيف لا يعنيك، وما فائدة رحيلك إذن؟؟

- اشتقت إلى أصدقائي الإسبرطيين سيدي المدير.

- نعم، لك أن تسخر.

- هذا العالم أصبح مدعاة للسُّخرية، إننا لم نترك شيئًا لم نسخر منه: الموت والحياة، والله والشيطان، الروح والجسد... والآن ما الذي بقي لنا لنفكِّر فيه بجدية؟؟

صمت المدير مُنهيا النِّقاش، بعض الحوارات لا تحتاج إلى الإطالة، كلٌّ يحتفظ بوجهة نظره، ولن يتخلى عنها ولو ملأوا له المدى براهين وأدلة، الاقتناع لا يولِّده العقل فقط بل القلب أيضا. وقفت وودّعته بعد أن أخذت عنوان الطبيب، وانسحبتُ إلى مكتبي وحملت بعض الكتب وغادرت الجريدة آملا ألا أرجع.

تعود طولون إلى الذَّاكرة كمهرجانٍ من الهُتاف، ووجوه مألوفة وأخرى غريبة تجوب الشّوارع. جنودٌ في صفوف لانهائية، خطواتها رتيبة تهدف إلى الميناء، الكل يودُّ أن يكون جزءا من الحرب المقدَّسة، التي تبعث المجد

لأمة خُدش شرفها وأُهين، الكـلُّ يريد القضاء على ربـوة القراصنة التي تستعبد المسيحيين، الكلُّ يحلم بالقضاء على أسطورة الأتراك المتوحشين في المتوسط، ولكن كيف هي طولون اليوم؟ أتراني سأسمع صدى الهُتاف، وأتبع آثار الجنود؟ أم أن الناس التفتوا إلى همومهم اليومية وتناسوا كل أحلامهم الماضية؟ بالتأكيد هذا ما حدث. ألم تنتـه المدينة التي أرعبت الجميع وانتقلت من الأتراك إلى الرومان؟ هذا ما حدث، وما سأفكّـر فيه حين أعبر المتوسط إليها لأراها بوجهها المختلفِ، بعد انتهاء عامين من غيابي وثلاث سنوات على احتلالها.

في فجر اليوم التالي التزمت كرسيًا في المحطة تحوطني حقائبي في انتظار الحوذي. لحظات من الغياب ثم أقبل، حمل عني الحقائب ووضعها في مؤخرة العربة، ومضى إلى مقدمتها يدندن بأغنيةٍ قديمة لم أتبيّنها، أما حين سارت العربة فقد سمعت بعض كلماتها، أو ربما توهّمتُ أني فهمتها، أغنية عن الرَّحيل والحب، أو الحرب، لا أدري... تختلط المعاني في ذهني المشوّش، وتلجأ عيناي إلى مشاهدة شوارع مرسيليا وقد تكون للمرة الأخيرة، ثم غابت المدينة عن ناظري، وفي انتظار بلوغ طولون غبت في غُلالة النوم.

كافيار

الجزائر مارس 1833

أيها المبجّل ديبون

إن الربَّ الذي صرت أومن به لا يرضى لي مدّ خدي الآخر، إنه إله مسرّته في سفك الدّماء من أجل مجده، لذا ليس عليك لومي ونحن نَستَقي من الكتاب نفسه، فالكلُّ يقرأ الأسفار على طريقته، كنت أومن بعالمٍ أفضل في ظلِّ قائد واحدٍ تجلّت لي فيه صورة المسيح، غير أن الهزائم التي مُنيتُ بها جعلتني أفكّر في مصيري الذي قادني إليه حلمي، ثم وجدت الطريق بعد تيهي.

مثل آخر الرسائل لن تُغادر هذه الجزائر، فبالنسبة لديبون لم تعُد هناك جدوى من إراقة الحبر بعدما أُريقت الدّماء، يتمسّك بإصراره على أنني قاسٍ، وأبحث عن مجدٍ فوق الجثث، أو أسمو إلى تاجٍ من العظام، ولم يدر أن العالم كله يجدّف في هذا البحر، وإنما نحن من نَتغاضى عمّا نراه، وندّعي أن بحر الخطيئة هو ما يجر الناس على قتال بعضهم. مجد هذه الأمة كان منوطا برجلٍ ثم خانوه. لم يكن مجنونًا بل أكثر الناس حكمة حتى ونحن في واترلو، تقطعت أحشاؤه لكن ملامحه حملت مقدارا لا يستهان به من التّبجيل لجنوده، ولولا هؤلاء الإنجليز الذين تعتزُّ بهم لما حدث ما حدث،

ثم أراك تُدافع عن أولئك الـمُور والأتراك، وكأنّك مُتجاهـل ما فعلوه بنا؟! وعِوض أن تفكّر في مصلحتك، تحمل الصّليب في وجهي وكأنني كافرٌ أو ممسوس، وأنا الذي ذُقت من الهزائم ما يكفيني، واترلو قَصَمت ظهري، ثم أسرني الأتراك مُتقزّزين منّي، صيّروني عبدا وقد كنت قائدا على كتيبتي، لكن ما الذي أفعله أمام أوهامك! لم يعد العالم الآن يحتمل أصحاب الفضيلة، سيكون جحيمًا لهم، ولعلّي كنت فاضلا بما يكفي، فمن يذق شرّ العالم لا بد له من التحلّي بجزء منه. الإنسان فيه من الشرّ ما يُغريه بإشعال الحرائق في العالم، لكن شيئا ما يمنعه، شيء غامض في خبيئته. لكن روحي لم تكن قد امتلأت به بعد انسحابي من واترلو، ولست مضطرا إلى تقديم هذه الـمُرافعة أمامك يا ديبون، إنما أحيانا وفي لحظات الضعف ينبغي على الإنسان استحضار خسائره كي يُعيد بعث صموده. كنا هناك في السهل بالآلاف وتراءوا لنا في الجهة الأُخرى منه كأنهم ضعفنا! لم نفكّر في التراجع بل كنا سعداء ونحن نستقبل التّحايا من قائدنا، ظلّ يطوف بين الصفوف، ويهتف الجنود بحياته، ولو لم يمت مبكرا لانتظرت انبعاثه من جديد، بعض الرجال مثل الفينيق، ليس موتهم إلا مرحلة من مراحل حياتهم، أذكر أنني قفزت فرحًا عندما سمعت بفراره من منفاه في آلبا، قلت في نفسي: الوداع لهؤلاء الملوك، وفعلا لم يمض إلا شهر على فراره حتى استعاد جيشه. لا يمكن أن يفعل هذا إلا نابليون يا ديبون، ومن الـمُخزي مقارنته بمن خاننا في واترلو، ذلك القائد الذي تتبّعت فتحه للمدينة الإسبرطية، كان أفضل لو بدأت يومياتك بقصّة خيانته لنا حين فرّ قبل بلوغه مكان المعركة، فأيّ مجدٍ سيجنيه هنا أمام هؤلاء البرابرة الذين لا يُحسنون المعارك!

يومها زاد المطر من وحولة السّهل، وقد سبقونا واختاروا المكان الأفضل، وحين اشتدّ المطر اعتقدنا أننا لن نُحارب، كان الألم يزداد أكثر في بطن نابليون لكنه لم يظهره، القليل فقط منا اكتشف حركاته الانفعالية، حينما كان يلج إلى مكتبه، يظلّ يتحرّك دون توقّف، يطلُّ من النافذة يرى الغيوم تسحُّ المطر، فيزداد اضطرابه، يحاول إخفاءه في لقائه بنا، أما حين تقترب نوبات الغثيان، فيغادرنا مُسرعا ليرمي ما في معدته، ثم يعود بملامح قاسية تسأل عن معنويات الجنود. عندما بزغت الشمس، كان لا يزال في غُرفته مُتعبا من السّهر ومن المهدئات التي أخذها، خرج إلينا وسلّم القيادة إلى الضابط المقرّب إليه، ثم جاء الأمر بالهجوم. بدأت المدفعية تقصف الصفوف الأمامية للتَّحالف، كانت كُرات المدافع ترتفع في السماء وتصل إلى صفوفهم، صحيح أن العديد منهم قد قضى هناك حتى خُيِّل إلينا أننا كسبنا الجولة الأولى، ومع هذا لم نرهم يستعملون مدافعهم، إذ كانت التلة ترتفع دونهم، ومدافعنا تقصفهم ولكنهم لم يفروا ولم يبادلونا الإطلاق، استغربت كيف يموت كل هؤلاء بينما لم يحرّك قائدهم ساكنا، كان يُبصر المعركة بمنظاره كأنه ينتظر شيئا ما، وكل مخاوفنا كانت في وصول المدد من حلفائه البروسيين. كنا أفضل ما استطاع نابليون تحصيله، جنوده المخضرمون الذين يعتزُّ بهم ولم يُهزموا منذ سنوات.

وهكذا تقدّمنا لأننا رأينا انسحاب الجنود الإنجليز من خلف الرّبوة، وبعد لحظات كنا نوشك أن نبلغها، ولم نعلم أنهم كانوا خلفها بتلك المسافة الضئيلة، آلاف من الإنجليز والبروسيين الذين انضموا إليهم في غفلةٍ منا يُصوِّبون بنادقهم تجاهنا، واشتعلت النار آخذة منا عددا كبيرًا، أُصبت في ساقي فسقطت على الأرض الوحلة، وحين رفعت رأسي وجدت جنودنا

يجرون فارّين، والحُلفاء خلفهم، عبروا فوقي بأقدامهم، كان عددها كفيلا بإفقادي الوعي، أما حين استفقت فلم يكن هناك سوى عدد قليل من جنودنا يحاولون مواراة الموتى في حفرة كبيرة، زحفت حتى بلغت أحدهم، حملني على حصان وعاد بي إلى باريس، حيث تراجع نابليون وبقية الجيش.

بعد أيام الاختباء سمعت بأن نابليون قد سلّم نفسه للإنجليز الذين نفوه إلى أقصى جزيرة في الأطلسي، وأن ضابطه المفضّل قد أعدمه الملك! سألت نفسي ما الذي تبقّى لك؟ وقد أضحت واترلو مثل شبح يطاردك، ولم تعد تطيق رؤية السَّيف، ولا إصدار الأوامر، ولمن؟؟ للجنود الذين ماتوا أم لأولئك الذين خذلونا وتراجعوا؟ قرّرت آنذاك التخلي عن البدلة العسكرية، وفررت من البرّ إلى البحر، أحتمي بطفولتي الأولى كصيّاد رنكة في المتوسط، وبالرَّغم من أني تخليت عن كل شيء إلا أنني لم أعش في سلامٍ، ولم تنقض إلا ثلاثة أشهر حتى وجدتني شخصًا آخر وباسم مختلفٍ وفي بلادٍ أجهلها، وبين أناسٍ قُدِّر لي قضاء جزء كبير من حياتي مُحاولا التخلّص منهم.

يفضِّل ديبون الـمُور على الأتراك، غير أنني أجدهم سواء، لأن مقدار الطَّمع الذي يحمله الأتراك، يحمله الـمُور خبثًا، يُصغون في انتباه لأوامرك ويبتسمون في رضى، وحينما يعودون إلى أشغالهم تجدهم وكأنهم لم يسمعوا منك شيئًا، هذه الصفة العجيبة من النِّفاق لا يتَّسم بها الأتراك، ربما لنقاءِ جنسهم، الأتراك طمّاعون وجشعون، يحبّون المال والسلطان أكثر من أي شيء حتى من أولادهم، أما هؤلاء الـمُور فمزيجٌ غريب من حضاراتٍ متعددة، وعليك الحذر فقد تقفز إليك صفة لا تدري عن أي أمة ورثوها، ربما بهذه الطَّريقة توصلوا إلى مسايرة الأتراك في جشعهم، وحتى نساءهم تزوَّجن بسادتهن وولدن لهم أبناء مُحتقرين من آبائهم، ومترفّعين عن

أخوالهم. في البداية لم أكن أعرفهم بهذا المقدار، بدوا في حوانيتهم مُسالمين وقدريين، وحتى الأتراك كانوا يُقاسمونهم هذه القدرية المثيرة للسُّخرية، لكنهم أشدُّ وحشية وبأسًا منهم إذا ما تعلق الأمر بالبحر، فكل ما يأتي به مشاع، سواء أكان سفينة للتّجارة أو قاربًا للصّيد، يكفي أن يتراءى لهم في الأفق، حتى يتعالى صراخهم: كريستياني كريستياني!

لا أذكر أنني أنهيت في يوم ما كتابة رسالة إلى ديبون ورضيت عنها! كنت أدوّن خواطر عابرة، لكنني لم أرسلها كلها، لا أريد أن يعتقد ذلك الغرّ أنني ضعيفٌ حينما أعود للذّاكرة، متسائلًا كيف تولد وجهات النظر، أو كيف أصبحت وإياه على طرفي نقيض، وبهذه الطريقة امتلأ درج مكتبي حتى فكّرت في حرقها، ما فائدة رسالة لا تصل إلى صاحبها؟ تساءلت بالرَّغم من يقيني أن بعض الرسائل نكتبها لأننا نريد الاحتفاظ بها، كشاهدٍ على اعتراف أو على خطيئة نقترفها، ولكن إن كان بالفعل اعترافًا فلِم لا أحسّ بأنني تغيّرت؟ بل كل يوم يزيد إيماني بنظرتي لهؤلاء الـمُور وبما خبرته عن الأتراك، حتى أني ضجحت حينما سُمح لهم بالرحيل دون أدنى مساءلةٍ، ولكن ما يُنتظر من خائن واترلو غير ذلك؟ أفضل الحوادث بعد هزيمة إسبرطة كان نفيه هو الآخر منها.

أُطل من نافذة مكتبي فأراهم. هؤلاء الـمُور لم يكفهم الأمان الذي أعطيناه لهم، والآن صاروا يكتبون العرائض يُريدون الأملاك التي خلّفها الأتراك، كم كانت مُخزية تلك الوثيقة التي وقّعها القائد بورمون مع الباشا، ما الذي جعلهُ يمنحهم كل تلك المزايا؟ المساجد والزوايا، مزايا لم تكن لتُمنح لمسيحي آمن في عرض المتوسط. من أجل الذهب ضيّع علينا بورمون راحة في حكم هذه المدينة، ومن أجل أولئك البوربون ضيّع الأحمق نفسه،

ولم يجد حتى سفينة تحمله إلى منفاه، كم كانت البدايات في هذه المدينة شاقَّة ومُتعبةً على عبدٍ كُنتُه، يجرُّ سلاسل ثقيلةً في رجليه. كم أصبو لوضع السَّلاسل في أرجل كل الـمُور هنا، وأرغمهم على عمل السُّخرة في محاجر الرُّخام حتى تمتلئ أنوفهم ببياضه، وتحرق الشَّمس وجوههم، سينظفون السُّفن، وينزلون ما بها من سلعٍ حتى تنحني ظهورهم، ولن أعطيهم سوى رغيفٍ واحدٍ من الخبز الأسود، ومَبيتهم في غُرفٍ مظلمة مليئة بالبول والجرذان، ليشعروا بألم الأسر والعُبودية.

من مكاني عند نافذة مكتبي انتبهت إلى طرق على الباب، التفتُّ وأذنت للجندي بالدُّخول، أدّى التحية ثم سلَّمني رسالةً من الدوق روفيغو. كان الدوق المفضَّل لديّ من بين كل الذين حكموا الجزائر، لكن تغيُّره لم يرق أحدا من الضباط، أشاع خادمه أن نوباتٍ تُصيبه فيقفز هلِعا، ثم يبقى طوال الليل مستيقظًا يحدِّق في الجدران، ويتمتم بكلماتٍ غير واضحةٍ، أخبر طبيبه ولم يصدقه، ولكن الضُباط المقربين أخفوا جزءًا من الحقيقة لئلا تشيع بين الـمُور، وحينها ستُلاك الحكاية في حي المقاهي، ولن يكون بمقدورك تكميم هذه الأفواه، فليس أسهل من انتشار الفضائح في هذه المدينة.

للنّميمة عند الـمُور سحر، لا يمكنهم العيش دونها، يحشرون أنوفهم في كل شيء، ويعرفون عن بعضهم أدقَّ التَّفاصيل، تجد من يبوح بها في أول مقهى يقابله، لذا لم يكن من الحكمة أن يعلم الجميع ما الذي أصاب الدوق روفيغو.

حسبت أن الرسالة إدارية لكن الجندي الذي كان قبالتي أخبرني أن خادم الدُّوق هو من سلّمها له، وبعجلةٍ فتحتها، ثم بنظرةٍ واحدة قرأت ما فيها:

«عمت صباحًا سيد كافيار، لا أراسلك بوصفك نائبًا لقائد الهندسة المدنية، بل بما أعرفه من تاريخك المثير في مدينة الجزائر، أطلب منك بصفة شخصية أن تتكرّم وتزورني هذا المساء في بيتي. تحياتي الخالصة».

الدوق روفيغو حاكم الجزائر السابق.

من سيرة نابليون تتعلم أشياء كثيرة، أهمها أن الملوك والقادة لا يمكنهم بناء حاجز بين حياتهم الخاصة وبين أهدافهم السِّياسية أو العسكرية، حتى الدوق روفيغو يحاول إقناعي بخطابه أن الأمر لا يتعلق بمنصبي، بل بتاريخي، وهل هناك فرقٌ بينهما؟! ثم يضيف جملة أكثر غموضًا إذ يصف نفسه الحاكم السَّابق للجزائر، تُرى ما الذي يحدث لهذا الرجل الذي اعتقدت أنه الأنسب لحكم إسبرطة، أتراه تهاوى من علله الكثيرة، أم أن هناك أخبارا جديدة؟ فباريس كانت دائما متقلبة، لا يلتفت حكامها تجاه الجنوب إلا حينما يتعلّق الأمر بما تحمله السفن من ذهبِ أمس وقمحِ اليوم.

ساعاتٌ كثيرة كانت تفصلني عن موعد الدُّوق، وحوادث أكثر بتُّ أستعيدها بعد هذه الدّعوة المفاجئة. هل يريد أن يسألني عن واترلو، وقد كان الرجل وزيرًا في حكومة نابليون؟ أم عن أسري وحكاية عبوديتي! لا أذكر أني رويت تفاصيلها إلا لرجلٍ واحد، كان قنصلًا للسُّويد حيث أقمت سنواتٍ في بيته. أو ربما يودُّ الدُّوق التسلّي بحكايتي، بعدما أضجرته الحياة هنا! ولكن أتراني ما زلت أذكر تلك التفاصيل؟ ومن أين سأبدأ له؟؟ من سات، تلك المدينة الجنوبية! سأفعل هذا، سأروي أيضا لديبون كيف اكتشفت القسوة في إسبرطة، بل كيف صرت كافيار القاسي.

وبعد الهزيمة تسللتُ إلى الجنوب، كنت أخشى في كل دقيقة أن أُكشف، بالرغم من أن وجهي لم يكن مألوفًا للكثيرين، واستفقتُ على نفسي في مدينة سات بعد شهورٍ ثلاثة قد شُفيت فيها من ساقي. صحيحٌ أنني فررت بعيدًا عن واترلو لكنها بقيت في داخلي حتى وأنا أجوب المتوسط باحثًا عن الرنكة. تتحوّل الزُّرقة من حولي إلى سهلٍ موحلٍ، وأسمع أصوات المدافع والصياح. ريح الخريف كانت تدفع الموجات فترتفع قليلًا حتى أحسبُ أنها جنودنا الفارّون. وأستفيق إثر صياح الصيادين. لم تكن تلك المرة الوحيدة التي أغيب فيها عن نفسي، الأصدقاء كانوا يأسفون لي، وكم انتبهت إلى صوت البحار العجوز ظانًا أني لا أسمعه: على صديقكم أن يبحث عن امرأة، النِّساء في سات يحلمن بشابٍ مثله، النِّساء يخفِّفن من وطأة الوحدة والحزن. ابتسمت بسخريةٍ، من ظنِّه أني وحيد، وأنا الذي كنت مكتفيًا بما لدي من أصدقاء ماتوا في واترلو لكنهم كانوا معي على الدَّوام، ومن يعرف رجلًا مثل نابليون، لن يضيره البقاء وحيدًا بعدها.

كانوا في سات يتكلّمون عن الأتراك بخوفٍ مثلما يتكلمون عن ريح المايسترال، يقتلعون البحارة من مراكبهم مثلما تجتث تلك الرِّيح الأشجار بيسرٍ. يمرُّون فجأة ثم يختفون بالطّريقة نفسها، وتظلُّ الأمكنة التي عبروها محظورةً على الصيادين. يُخبرون بعضهم ما إن يصلوا إلى ميناء سات. كانت لفظة الجزائر تتردّد كثيرًا حتى في السَّنوات الأولى لنابليون، وحلم بفتح هذه المدينة، وخاب أمله في الشرقيين بعد عودته من مصر، لكنه ظلَّ يتوق لمعرفة كل شيء عنها، ثم أرسل أفضل جنوده كجاسوس، مكث أشهرًا يُعِد التَّقارير وفي عودته قَبض عليه الإنجليز، كعادتهم يحبّون السطو على جهود غيرهم دونما تعبٍ، ولكنهم لم يحركوا ساكنا.

قبل أن تنقضي السنة بشهرين، كان ذلك آخر أسبوعٍ لي في سات، غادرت بيتي في صباحه الثاني تجاه الميناء، وقفزت تجاه المركب، كان النوتي حينها يراقب الأفق، تراءت لنا غيومٌ داكنة تُنذر بعاصفةٍ تجاه سيرنا، فتوقفنا عن شحن ما نحتاجه، واضطرّ أحد المسافرين معنا للبقاء منتظرًا في الرّصيف حتى نتبيّن الأمر، وبعد برهة وصلت أول نسمةٍ باردة وتبعتها ريحٌ قوية، قال النوتي: إنها ستستمر. لكنها بعد هنيهة توقفت، كان بعض الصيادين مُصرّين على الإبحار، وأمام معارضة أغلبية من احتل الميناء تأجّل رحيلنا إلى صباح اليوم الثالث.

في صباح الغد كان كل شيء معدًا، حملنا ما نحتاجه من متاعٍ وخمرةٍ، واضطررنا أن ننتظر المسافر الذي كان يقصد ميناء طراغونة قرابة الساعة، صعد إلى المركب والاستياء ظاهرٌ على النوتي وبقية الصيادين، ثم رفعت السفينة المرساة مع طلوع الشّمس، ونشرت قلوعها تجاه البحر، وتحرّكت رويدًا رويدًا مبتعدة عن الميناء، بينما كان صاحب السفينة يُشيّعنا من على الرَّصيف. وهكذا استقبلتُ النَّسمة الأولى من البحر، ثم التفت تجاه الغرب حيث ستنعطف بنا السفينة مع حلول المساء.

ألف الصَّيادون تلك الجهة، كانوا يدركون أنها أكثر ثراء بالسَّمك، وربما أقلَّ خطرًا، فالعداء القديم الذي يُكنّه الإسبان للأتراك المحمّديين كان كفيلًا بمنعهم من الاقتراب من هناك، هذا ما فكّر فيه البحّارة والصّيادون دائما، ولكننا لم نتكهّن أن المساء كان يحمل لنا مفاجأة، فكلما توغلنا ميلًا ازدادت سرعة الرياح، وجعلت تدفعنا تجاه الشَّرق، وشد البحارة الحبال كيلا تتقطَّع الأشرعة، ولكن سرعة الريح تضاعفت وصاحبها المطر، كانت

الأمواج تضرب السفينة حتى تكاد تنقلب ثم تعود فجأة إلى حالها الأولى لنُرخي الحبال، ثم طفا الماء على السطح، يميل كلما مالت بنا، تتبعه بعض البراميل. وحين عجز البحارة عن التحكم في السَّفينة أرخوا قلوعها خشية أن تسحبهم أكثر إلى الشَّرق، وسلّموا أمرها إلى الموج.

استفقنا على ضبابٍ كثيف يحوط المكان، وقفت حينها على سطح السفينة ووقف قربي، حيّاني بفرنسية أثّرت فيها الإيطالية، ثم أردف:

- الرِّيح دفعتنا تجاه الشّرق أكثر مما ينبغي.

- نعم هذا ما يبدو.

- الشَّرق أكثر خطرًا مما تظن، أشعر أنهم يحومون حولنا وفي أية لحظةٍ يقفزون نحونا.

- تقصد القراصنة الأتراك؟!

- ومن غيرهم؟!

- ولكننا مجرَّد صيادين.

- ولو كنت صيادًا، فإنهم لن يتركوك، حتى سفينة البابا لن تسلم منهم إن صادفوها.

قال المسافر هذه الكلمات ثم مضى عائدًا إلى أسفل السفينة، وبقيت أتأمل انجلاء الضَّباب، كانت أصوات أقدام البحارة تتناهي، التفتُّ إليهم وتجلّت لي ببطء أخيلتهم مُتوزّعين عند حواف السفينة. وبعد هبوب نسمةٍ خفيفة، فتحوا الأشرعة وتركوها تنبسط بتأنٍّ. وتحرّكت السفينة من مكانها دون أن ندري أين نحن بالضَّبط. سرنا يوما آخر في الاتجاه نفسه، وفي المساء

غيّرناه معتقدين أننا على صوابٍ. وفي صباح اليوم التالي استفقنا على صراخ أحد البحارة، خرج الجميع بمن فيهم المسافر، وتراءت لنا من بعيدٍ قافلة من السُّفن الإنجليزية، مرَّت دون أن تنتبه لهتاف البحّارة، وظلَّت تحت أعيننا حتى غيّبها الأفق، ثم عاد كل واحدٍ إلى عمله. وفي منتصف النَّهار، كنت أقف يجاورني المسافر، نحدِّق في خط الأفق ولا شيء غير زرقة البحر السّاكن، وفجأة تراءت لنا، وكأنها كانت مُخبأة في عمق البحر، ظهر ساريها ثم كانت أمامنا، ألجمتنا المفاجأة عن فعل شيء غير الصياح: إنهم الأتراك إنهم الأتراك!

في صراخي كنت أراهم يتقافزون من على سطح سفينتهم، الجنود كانوا يحملون سيوفًا معقوفةً، وصدورهم عارية، وفي لمح البصر كانوا أمامنا، وقفز بعضهم إلى أسفل السفينة يطاردون بحارتنا، ولم أنتبه إلى المسافر الذي كان قربي بالأعلى، رأيت أحد الأتراك يوجِّه ضربةً إلى وجهه أسقطه بها، وشرعوا يجمّعوننا أسفل السفينة ثم أوثقوني والصَّيادين وتركوا بعض البحارة فقط من أجل القيادة، أما المسافر فقد وضعوه غير بعيدٍ عنا، وتناهت إليّ أصواتهم وهم يُحاورونه بالإيطالية وكان يجيب عن كل أسئلتهم، اقترب منا لحظتها جندي وتحسَّس جيوبنا، أخذ مني ساعتي، وسلبوا البقية كل ما لديهم، ثم ظهر جُنود آخرون يحملون ألبسة ملوَّنة، كانوا سعداء بها وكأنهم يرونها للمرة الأولى، اقتربوا منا وراحوا يعرضونها أمامنا وحين لم نبد أي تعاطفٍ معهم شرعوا يركلوننا، كلٌ يأخذ حظَّه دون مراعاة أي مكان في أجسادنا، وعلى نداء ضابط توقفوا عن ضربنا، وقادوا المسافر نحونا، ثم طلبوا منه أن يُترجم لهم، مثلما قرّروا حملي وإياه إلى سفينتهم، وقفت أمام

ربّانها، كان يرتدي عمامة أكبر، ويتربّع على أريكة أمام قمرته، تفحّصني وأشار إلى المسافر أن يُترجم لي، وبدأت أسئلته تتهاطل عليّ، عن الأمكنة التي أبحرنا منها، وعن وجهتنا؟! وكلما أُجيبه يهزُّ رأسه في سرورٍ ثم يكمل، سألني بعدها عن سات وهل من تحصيناتٍ بها، طلب أن أخبره بعدد المدافع هناك، ولم يُصدّقني حين أجبت أنني لا أعرف شيئا عنها، وأومأ للجندي لضربني حتى جثوت أمامه، ورجوتهم أن يُخلوا سبيلنا لكنهم قهقهوا. ربما كانت تلك المرة الوحيدة التي أرجو فيها أحدًا جاثيًا على ركبتي. لم أدر مقدار الضعف الذي أصابني، ربما لأنني كنت بعيدًا عن ساحة المعارك، صمتُّ أراقب قهقهتهم وقررت أنني لن أرجو أحدًا بعدها.

يُصِرُّ ديبون على الدفاع عن هؤلاء، مثلما يلجأ إلى مسيحه الشخصي ليحاججني. أيها البائس: حتى البابا نفسه لم يعد يؤمن بالمسيح الذي تؤمن به، من أجل سلطة المال تحوّلت الأديان إلى أقنعة. هؤلاء الأتراك المحمّديون كانوا يأخذون أموالنا ثم يستعبدوننا، هذا إن لم نُقتل، ثم يقولون إن الله يأمرهم بذلك، هذا هو الربّ الذي صار الجميع يؤمن به، في أوروبا أو إفريقية.

حُملنا بعدها إلى سفينتنا، وتقاسمت والمسافر غرفةً واحدة، وسُجن البقية في القبو. سارت سفينة الأتراك في المقدمة، وكنا في أعقابها، وقُدِّر لنا التوجه إلى الجنوب. في لحظة ما اهتزَّ باب الغرفة بركلة التركي ثم فُتح، وتلاه آخر، وشرعا يفتشاننا مرة ثانية، وحين لم يجدا شيئا نزعا عنا لباسنا ولم نبق إلا في سراويلنا القصيرة، أخذوا الأحذية أيضا، ثم صُفق الباب خلفهما، بعد أن أشبعانا ركلات وكلمات لم أفهمها، قال المسافر إنها كانت سبابًا للمسيحيين. لم أشعر بوطأة السّباب بل ببردٍ يتسلّل إلى عظامي من

الألواحِ التي افترشناها، وحين أظلمت تكلم المسافر: كنت أنتظر ظهورهم على الدَّوام، حتى في سات، حمل البحر لي أنفاسهم الحارّة ولهاثهم، أما مع هبوب العاصفة فتيّقن لدي أننا سنلاقي مصير يونان، دون أن نخطئ خطيئته. صمتَ المسافر حين سمع وقع أقدام تقترب، ثم فُتح الباب ودُفع إلينا بصحني البرغل.

في الصباح التالي استفقنا على ركلاتهم، وهم يجرّوننا إلى الرُبان، وقفنا أمامه، على يميننا أسيرٌ آخر لم أعرف هويته إلا حينما سُئلت إن كنت أتكلم الألمانية، ومن توي أنكرت درايتي بها مثلما أنكر المسافر، فَضربنا حتى جثونا وأعادوا جرّنا إلى الغرفة حيث لا أدري كم يوما قضينا. ما أذكره أننا في اليوم الأخير كنا على سطح السفينة، وشاهدنا في الأفق مدينة الجزائر، تراءت لي في بياضها الرُّخامي، وشكلها المثلّثي المنحدر. صفوف من السُّطوح يرتفع بعضها فوق بعض، وتتوزَّع القباب والمنائر والقصور داخلها، وكلما اقتربنا تزداد وضوحًا وأرى حركة الميناء من هناك، دهمني شعورٌ بالخوف من المجهول، ولاحظت وجه المسافر أكثر طمأنينة مني، حتى شككت أنه جرّب الأسر من قبل، ولم أجرؤ على سؤاله والأتراك حولنا، يدخّنون غلايينهم الطويلة ويشربون القهوة سعداء بعودتهم. ليتك قاسمتَ معي يا ديبون سطح السفينة، لأرى وجهك حينها، وأثر الحبال في يديك، وأصغر جندي تركي يمكنه ركلك حتى تسقط على فمك.

إن مصائر الناس يا ديبون ليست مقرونة بإيمانهم بأشياء غير محسوسةٍ، بل بأنفسهم فقط، ودائما آمنت بنفسي رغم كلّ ما حدث، وتيّقنت من عودتي وثأري، لذا حين حرَّرنا الإنجليز بعد عام، رفضت العودة إلى

سات، واخترت المكوث في بيت القُنصل السويدي، عزمت على قراءة المدينة بعين رجلٍ أوربي حر، من أجل هذا تشجعتُ يوم رست السفينة بالميناء، ونحن نُحمّل في قوارب إلى رئيس البحرية، كانوا يلقبونه الباشا، يتكئ على أريكة وثيرة، من منظره تدرك كم يُحب الأتراك مظاهر البذخ، كان يلبس معطفا مُطرّزا بالذّهب، حتى أزراره من المعدن نفسه، وسروالًا قصيرًا وعمامة أكبر حجما وأجمل من تلك التي يرتديها الضُّباط، وأمامه نرجيلة يسحب الدُّخان منها بهدوء، ويتفحّص وجوهنا في ابتسام، كان منظره أحسن من البقية، رغم ملامحه القاسية، التفت ورمى كلماتٍ مُقتضبة إلى الضَّابط الذي أسرنا، فدفع المسافر يقدمه للباشا، تسمّر أمامه دقائق، وكلّمه الباشا بجملٍ إيطالية رد عنها باقتضاب، فسُرّ منه ووضع يده على لحيته وردد كلماتٍ لم أفهمها إلا في السجن، إذ حدّثني بعض العبيد القُدامى أن الأتراك حينما يُريدون القسم فإنهم يُقسمون بلِحاهم، ثم أردف: وتأكّد أنهم لن يحنثوا بها.

ودّعت المسافر ذلك اليوم، ولم أعرف منه سوى اسمه الأول، كانوا يُنادونه ألونزو. وبقي هو في مبنى البحرية، ورحلنا نحن مقيّدين في ركبٍ إلى السِّجن.

سرنا في شوارع الجزائر الضيّقة عُراة حُفاة والسَّلاسل في أيدينا، وكان الصبيان يرموننا بالحجارة، ويتنادون من حولنا: كريستياني كريستياني، ويزداد صراخهم حين يرمقون أهاليهم مسرورين بهم. وقفت مُتفاجئا مما يحدث أمامي، وددتُ لو يقترب السجن فيكون بعد أول منعطفٍ لألوذ به، وفعلًا لم نقطع إلا مسافة قصيرة حتى وقفنا عند بابه، واصطففنا في سلسلة

ليَسهل عدُّنا، ثم عبرنا الباب إلى عالمٍ مختلفٍ، لم يعد فيه كافيار مثلما خرج، شخصٌ آخر ولد، هو الذي التقاه ديبون فيها بعد. وهو الذي يودُّ الدُّوق أن يتكرّم عليه بزيارة شخصية، في تلك اللَّحظة تساءلت: ما الذي يريده الدُّوق روفيغو؟

لم أكن لأجزم، فأمثال ذلك الرجل مليئون بالمفاجآت، ودوما آمنت أن الرِّجال ذوي التَّاريخ البوليسي لا يوثق بهم، يشكُّون في كل شيء، في أبنائهم وزوجاتهم، حتى في أنفسهم، فكيف يفكر الدُّوق وقد كان في يوم ما وزيرًا على الشرطة في باريس.

انتبهت إلى أنه لم يبق الكثير على موعد الزيارة، حملت نفسي وغادرت المكتب، وأوعزت للجندي أن يُعِدّ العربة، خلفت المبنى، وانعطفت تجاه حي القناصل، ثم أشرفت على حديقة بيته، تراءى لي الخادم ينتظر قدومي، ورافقني إلى الداخل، ثم انصرف بعد نداء سيده.

في أول يوم وصل الدُّوق إلى الجزائر، كان أكثر نشاطًا وحركية قبل هذا اليوم، أمعقولٌ أن سنة تجعل الإنسان بهذه الضعف؟ بدا غائبا عمّا حوله، جلس يقابلني وظلّ صامتًا دقائق بينما كان الخادم يرتِّب الطّاولة ويضع الكؤوس، مدّ يده المختلجة إلى الكأس وحملها، ثم رشف منها وقال:

- بعض المناصب يا سيد كافيار توفِّر لك مزايا كثيرة عدا راحتك الجسدية، لعلّك ترى، فمنذ أيامٍ لم أغادر بيتي، بسبب هذه العلة التي أصابتني، وحملت اليأس إلى نفسي من حكم هؤلاء الأفارقة. بالأمس حينما قدمت كنت أعتقد أنه لكل شعبٍ طريقة في الحكم، هناك من تحاربهم، وآخرون يُشترون بالمال أو المناصب، أما هؤلاء الـمُور والأعراب فقد

أعيوني، وبقدر ما قتلت منهم زادوا صلابة، وبعد أن أفنيت تلك القبيلة التي قتلت حلفاءنا لا أدري ما الذي حدث لي؟! أشجار شوكٍ نبتت في داخلي، وكل يوم تتمدَّد في جسدي.

- إن هي إلا وعكة عابرة، وستزول بأيام أخرى من الرّاحة، وعلى هؤلاء الـمُور أن يشكروا القدر الذي ساقنا إليهم مُحرّرين من تسلُّط الأتراك.

- بعض الـمُور لهم وجهة نظرٍ أخرى، مكتبي مليء بعرائضهم التي يكتبها ابن ميّار دون مللٍ، والرَّسائل التي تصلني من باريس تقول إن الدَّعاوى نفسها كانت في مكتب الوزير.

- لقد خبرت ابن ميّار أكثر من الجميع، كيف تنتظر تعاونه وقد تربّى في حضن الأتراك، وكانت له تجارة معهم، الـمُور في الأصل تجار، والتاجر لا ينظر إلى السِّياسة إلا بما تقدّمه له من ربحٍ، كذلك ابن ميّار، نال حظوة عند فاتح الجزائر بورمون، وقد نصَّبه في مجلس البلدية الذي أنشأه، ثم طُرد منه حينما حلَّ كلوزيل، ومن ذلك اليوم يا سيدي شنّ حملة على كل ما نقوم به من أعمال التوسعة في المدينة، يجمعُ الناس ويوهمهم أننا نأخذ المساجد لأننا مُزمعون على القضاء على دينهم، ونضطرُّ إما للانسحاب، أو لأخذه بالقوة، وقد سمعت أنه يراسلك كي أعيد ضيعته التي امتلكتها، أقترح إصدار أمر بنفيه ليلتحق بأسياده في إسطنبول.

- هذه ليلتي الأخيرة في الجزائر، وأردتُ أن أشرب نخبها معك، أفضل من شربه مع الأشباح التي بِتُّ أراها تطوف حولي في هذا البيت الخاوي، كل ليلة تغادر المقبرة شرق المدينة، تلج البيت وتعوي عواء حادًا، أستيقظ إثره، فأراهم يتجمّعون حولي بملامحهم العربية القاسية،

من بينهم أطفالٌ يبكون وينادون أمهاتهم، أفزع لرؤيتهم، ويفرُّ النوم إلى غاية رحيلهم. أتصدق أن هذا يحدث لي؟!

- نعم قد يحدث أكثر من هذا في الجزائر، في السَّنوات الماضية كانت الحمَّى تنتشر في الناس فيبدون مثل مجانين يهذون في الشَّوارع. لا تقلق يا سيدي في باريس أوجدوا لمثل هذه الحمَّى دواءً.

- آمل ذلك، لكن الحمَّى الحقيقية والقاتلة هي بقائي هنا، في هذه البلاد.

قال الدُّوق تلك الكلمات ثم صمت حينما دخل الخادم وذكّره بموعد الدَّواء والنوم، فوقفت إذ ذاك مودّعًا، وعبرت البوابة وحيدًا، لتحملني العربة إلى بيتي خارج المدينة.

كانت أصوات النُباح ترتفع حول البيت تقطعُ صمت اللَّيل، أُصغي لها ثم أبتسم في سخريةٍ، أهي الحمَّى يا كافيار التي أصابت الدُّوق، أم أن هناك خللًا ما انتابه؟ كنت مدركًا أنها لم تكن حمَّى، ولكن ليس على المرء قول الحقيقة للحكام، هم يُحبّون الكذب عليهم خصوصًا إن كانوا مرضى، أوهمهم أنهم أقوياء، دعهم يقابلون الوجه القبيح للموت، ووحدهم سيكتشفون الحقيقة.

عندما وقفت أمام رصيف الميناء لم أنتبه له، ثم لاح لي وجه الحارس من بعيد، خطوت تجاههم وحييت الدُّوق روفيغو للمرة الأخيرة، كان أفضل من اللَّيلة السَّابقة، ربما لم تزرهُ الأشباح تلك الليلة، أو أنها قد زارته لا لتصرخ في وجهه بل لتودعه، صعد إلى الفرقاطة بثقلٍ، وغاب داخلها دون أن يلوّح لي. ذلك اليوم عجّ رصيف الميناء بقادمين من مرسيليا وطولون، التفتُّ إلى سفينةٍ كانت قد رست لتوّها، تفاجأت بوجهٍ كنت أعرفه، ولكن

لم أخمّن أني سأراه في الجزائر، اللّعنة إنه يشبهه! هل كان ذلك الشّاب هو ديبون؟ شككت في البداية، لكن مقدار الشّبه كان كبيرًا، اقتربت أكثر، ولكنني حين بلغت السفينة لم يكن هناك أحد، عُدت إلى مراقبة الفرقاطة وهي تغادر الميناء وظهر الدُّوق روفيغو من أعلاها فلوَّحت له، وبدا لي أن ذلك الوجه الذي رأيته قبل قليل لم يكن إلا شبحًا من أشباح الدُّوق.

ابن ميار

المحروسة مارس 1833

رغم رحيله ما زلت أنتظر خادمه يدقُّ بابي ويومئ لي أن ألتحق به، أتسلَّق الدُّروب المؤدية إليه، ألج القصبة وأعبر أزقّتها الضّيقة، ثم أنعطف غربا فيقابلني القصر والشُّوّاش على جانبي الباب، يسبقني الخادم إلى باحته ثم ألتحق به، أتأمّل النافورة ومياهها التي نضبت اليوم، وحتى شجرة اللِّيمون لم تثمر بعد رحيله. من مكاني يقابلني باب الدِّيوان، يُفتح وأسمع صوت الخادم يناديني باسمي: سيدي ابن ميّار الباشا ينتظرك.

لم يكن المشهد ليغيب عن ذهني، أصواتهم تتعالى وقهقهتهم وهم يدخّنون غلايينهم ويحتسون القهوة، مُعيدين سير المعارك القديمة، يومها كانت المحروسة عرسًا لنا ولهم، وبعد رحيلهم أضحت مدينة تختلط فيها الدِّماء بالغُبار، تُرى لِـمَ حدث هذا؟ ولِـمَ رحلوا، وأين سلطان البَّر والبحر؟؟ ولِمَ لا يجيب على العرائض التي أرسلها كل يوم؟ لم أترك نداءً لم أناده، ولا وزيرًا لم أرسل إليه شكايتي، حتى أعدائي كنت أشكوهم لأنفسهم لعلّ الضَّمائر تحيا، غير أنهم لا يعقلون. أو أن سيل الدِّماء الذي أُريق صار مثل نهرٍ بيننا وبينهم، لا يستطيع أحد تجاوزه، كان عميقًا يحمل كل الجثث التي سقطت في سيدي فرج، أو ربما في سطاوالي أو الحرّاش.

قد أصبحتَ وحيدًا يا ابن ميار لا مال ولا سلطان، تكاد تكون فقيرا بعدما سلبوا منك كل شيء، التِّجارة والضِّياع وحتى الأصدقاء، كان آخرهم المفتي الحنفي، دبّروا له المكيدة في بيته ثم نفوه إلى الإسكندرية. كان أجدى لك لو رافقته، لكنك تظلّ تعتقد أنك بعرائضك ستعيد المجد لهذه المدينة بعد رحيل بني عثمان، ثم تثاقلوا عن سماع شكواك وشكوى أهلك، الذين يُلِحُّون عليك بمواصلة الكتابة وهم من اتهمك في البداية بالعمالة للفرنسيين، حين كنت عضوا في مجلس البلدية، ثم سعِدوا وهم يرونك مطرودًا منه، ولِمَ؟! ألم يكن ذلك من أجلهم؟ ألم تعترض حتى صرت مدعاة للسُّخرية من رئيس المجلس ومن الأعضاء اليهود؟ ولكنك لم تكن لتَهتمّ. آمنت بأن العثمانيين سيعودون، وما لبثت تُروِّج لهم حين كانت رسائل الباشا تصلك مُقنَّعة مليئة بالوعود، ثم لم يحدث شيء، ومرَّت السَّنة ثم السَّنة، ورحل بورمون منفيًا، وتلاه كلوزيل معزولًا، ثم بيرتزن، وها أنت الآن تتسلَّل إلى رصيف الميناء، لترى وجه الدُّوق روفيغو وآخر الملامح التي يحملها عند رحيله هو الآخر معزولًا من الجزائر.

كان لا بدّ أن يحدث هذا منذ اليوم الأول لوصوله، لم أكن لأُقَدِّر رجلًا قتل نصف أهلي وشرّد الباقين. أردت فقط رؤيته وهو يصعد الفرقاطة التي ستحمله إلى مرسيليا أو طولون، وقفت أراقبه من زاوية في رصيف الميناء، ولمحت ضابط الهندسة كافيار يُلوِّح للفرقاطة الرَّاحلة، بدا اليوم شبيهًا بآخر قبل سنتين حينما رافقني السّلاوي لنودّع ديبون، قدم مع الحملة لكنه رحل في الأيام الأولى للدُّوق روفيغو. ليتك يا ديبون هنا، كي ترى ما الذي حلّ بذلك الرجل الذي اضطهدنا جميعًا، ولم تُستثن وأنت من بني جلدته. كافيار هو الآن في مدى بصري، مازال يلوّح للفرقاطة حتى تغيب، أعجبُ

من قدرة هؤلاء على تغيير وجوههم، في الأيام الأولى لوصوله طلب اكتراء ضيعتي، وأُرغمت على موافقته، وحين طالبته بالأجر بعد شهرين ضجّ في وجهي وطردني، ولا يلقاني إلا بعد موعد، وإن أُذن لي، يسمح لي عمالي بالمرور، وهم يدركون أنها ضيعتي، ولكنهم مثلي مُجبرون على الخضوع له. رفض كافيار حتى أن أطوف في بستانها، أتفقّد حوض الزَّهر الصَّغير الذي لم يعد هناك. أسرّ لي البستاني في الأيام الأولى أنه كان يحفر الحديقة طوال النهار، بعدما أُشيع أننا خبّأنا كنوزنا بها، ولم يُحَصِّلوا شيئا إلا خراب الحدائق الجميلة.

مرّ الضابط غيرِ بعيدٍ مني في عربته، تجلّت لي ملامحه عن كثب، بدا وكأنه كبر عشرين عامًا منذ رأيته المرة الأولى قبل سنواتٍ ثلاث، بعض الناس تهرم من مرور السنين وبعضهم من حجم الشُّرور التي يحملونها، هكذا كان كافيار دومًا ومنذ وصوله إلى مبنى الهندسة المدنية حتى وضع بين عينيه شوارع المدينة ومساجدها، في كل مرة يطلب مسجدًا من أجل أعمال التوسعة، وكيف لنا منحُ مسجد أو زاوية وهي موقوفة منذ عشرات السِّنين. هؤلاء الفرنسيون أتوا إلينا بذهنيات مشوشة عن الملكية في الشرق، لا يفهمون أن نظام الأوقاف كان يُسيِّر حياتنا منذ آلاف السِّنين، يضمن الحياة لطلّاب العلم وللفقراء وعابري السَّبيل، وحتى أولئك الذين يحملهم الحنين إلى زيارة النبي الكريم، ولا تسعفهم جيوبهم، كان الوقْف هو من يَتحمّل النفقة، والعثمانيون كانوا يبجّلونه ويهبون جزءا من أموالهم وقفًا يستفيد منه فقراء الجزائريين وعلماؤهم، وبعد رحيل بني عثمان داهموا مساجد الأحناف، قالوا بأن مرتاديها رحلوا ولم تعد تلزمكم

في شيء فأنتم مالكية، وعجِبت من الضَّابط، إذ اعتقد أن الفروق بيننا كالتي بين الكاثوليكية والبروتستنتية، هممت أن أشرح له، فدفعني وأمر الجنود باحتلال المسجد، ثم صار ثكنةً.

وهاهم حينما بدأت الأموال تنضب التفتوا إلى مقابرنا، أولئك المالطيون في البداية كانوا يتسلَّلون مثل خفافيشَ في اللَّيل، يعبرون الباب الغربي للمدينة، وينزلون المنحدرات إلى مقابرنا، ثم تجرَّؤوا وصاروا يغزون مقابرنا نهارًا، يُفتِّشون عمّا تبقى من عظام أطفالنا وشيوخنا، ويحملونها في أكياسٍ إلى الميناء، كتبت مئات العرائض أشكوهم إلى الدُّوق، قلت إنه لم يحدث هذا في زمن الباشا، كنا مُصانين أحياء وأمواتا، فصاح في وجهي متهمًا إياي بالولاء للأتراك. أحينما يطلب المرء صون جسده وهو في حفرة يصبح عميلًا!!

كل الضباط الذين التقيتهم اتّهموني بالسعي لعودة العثمانيين، ولم أكن لأُنكر ولا لأوافقهم، أحاول فقط جرّهم إلى المقارنة فيخيب أملهم، ويُنهون الحوار بالتُّهمة نفسها، وكافيار كان أسرعهم إلى ذلك. حين يملأ الحقد القلوب فلن تتجلّى لها الحقيقة، ردّد ديبون هذه الكلمات قبل رحيله، يئس من محاولاته القليلة وتركني مع السّلّاوي نُجابه الفرنسيين وحدنا داخل المدينة، يُعيدني الحنين إلى زمن بني عثمان، يومها كان السّلّاوي يقذف سبابه غير عابئ بالجنود اليولداش، يسخر منهم، فيركضون خلفه، لكنه يفر بعيدًا متوغلًا في شوارع المحروسة، لم يحبّ بني عثمان يوما، كان يسخر من حُمرتهم، مردّدًا أنهم متسلّطون، أنانيون، ولا يقاتلون إلا من أجل المال، وليست لهم مزية سوى نسائهم الجميلات. أضحك من كلامه، ويسرُّني

اختلافه عن الشّباب الآخرين، كانوا تجارا فقط، ولا يهمّهم الكثير من أمور السِّياسة، لكن السّلّاوي ينتقد كل شيء حوله، يتكلَّم العثمانية مثل بني عثمان، ويصرُّ على حفظ الكلمات البذيئة فيها، وحين أحتجُّ يُجيبني: يا سيدي أنت على العين والرأس، ولكن أية مصلحةٍ ستجمعني معهم حتى أنـمِّق لهم الكلام، ما أنا بتاجرٍ ولا بكاتبٍ عندهم، يكفيني ما أجنيه في المقهى. ولم أخمن أنه سيتهوَّر ويقذف نفسه في أتون آغا العرب، ولولا وساطتي لكان قد هلك.

يمضي كافيار بعربته عبر شارع باب الجزيرة، وأخطو في الشَّارع نفسه خطواتٍ، عن يميني ينحني باب الزاوية المهترئ، لم تتناه إليّ أصواتهم تصدح بالذِّكر، في الماضي كان الطَّلبة يردِّدون الآيات ويتغنّون بالأذكار، يرتفع صوت المدرِّس بينهم يحثّهم على المزيد، وقفت أصيخ السمع، ولم يتناه لي أي شيء، لعلّ الشّيخوخة أثقلت سمعي. التفتُّ إلى الجامع الكبير، انتظرتُ رؤيتهم هناك مجتمعين يقرأون البخاري، أو يتدارسون مُختصر خليل أو رسالة القيرواني. بيد أنه كان خاويًا منهم ومن الناس، صار مثل أي مؤسَّسة فرنسية، يُفتح ويغلق في أوقات الصَّلاة المعلومة، فررت من هناك وسرت حتى أشرفت على حي المقاهي، ربما هو الوحيد الذي بقي ضاجًا بالناس، مزيج من الجزائريين والأوروبيين من غريبي الأطوار، يلبسون لباسنا، وبعضهم يرتدي العمائم العثمانية ويحمل الغلايين، يحتلون مداخل المقاهي على مقاعدهم، تجاوزتهم بعجلةٍ وقطعت مسافةً قصيرة حتى قابلني الجامع الجديد، يُناظر البحر فزعًا من العمَّال الذين كانوا يقتربون كل يوم، لم يعد الأمر مثلما في السَّابق، كان النداء يتعالى رخيمًا إلى فضاء المحروسة، فترى

الناس مثل أسراب طيورٍ بيضاء، يتسرّبون من الأحياء إليك، حي النّحاسين والصّباغين والغزّالين، كل الدكاكين تُترك مفتوحة على ساحات الأسواق، سوق الزّيت، سوق السّمن أو سوق الذّهب أو حتى سوق الصّوف والقمح، هل يمكن لي اليوم عدّها وجُلها اختفى أو فرَّ تُجاره إلى الجبال؟ ومن حالفه الحظ ارتحل إلى المشرق، القليلون سيُصلّون أمام محرابك خائفين من يوم يستيقظون فيه فلا يجدونك. وتجاوزت المسجد على مضضٍ متخذًا شارع باب الجزيرة، عبرت حارة النَّحاسين وما تبقّى من سوق الخشب، حتى قابلني شارع المحروسة الكبير، الذي يصل بابه الغربي بالشَّرقي، باب الوادي وباب عزّون، خطر لي أن أنعطف تجاه الغرب، لكنني تذكَّرت أحياء اليهود، لم أعد أثق بهؤلاء الناس، كانوا يقاسموننا الخبز والملح ثم فجأة بعد دخول الفرنسيين بدأوا يهتفون لهم. الـمِلل الصغيرة دائما ما تحاول إيجاد مكان لنفسها ولو بالخديعة، خمسون عامًا أو أكثر بقليل، كانت كفيلة بأن يمسك هؤلاء اليهود كل شيء، حتى الباشا نفسه كان يشتكي منهم على الدّوام. يقول لي: سامح الله حسن باشا ومصطفى باشا هما من سمحا لهذه السُّوسة أن تنخرنا، وأورثاني معها مشكلة ديون اليهوديَّيْن مع فرنسا، وهاهما يفرّان إليها ويُصبحان من تلك الأمة.

لو وقف الباشا اليوم معي في شارع المحروسة الكبير لكان حزنه أكبر وهو يرى الجنود يعبرونه جيئةً وذهابًا، حتى فرّ أهله منه، ولا يقتربون إلا حينما يُضطرون لذلك. يسحبهم الحنين إلى بيوتهم القديمة وإلى دكاكينهم التي احتلها الأوروبيون، ولكنهم يفرُّون مسرعين منها تجاه الغرب. أخطو في أعقابهم فيرتفع قصر الـجُنينة أمامي. كم من الباشوات مرُّوا بك

وحكموا المحروسة؟ التفت أبحث عن جامع السيّدة، فلا أرى إلا الفراغ، هدموه وسوّوا أرضه كي تغدو ساحة مثل التي رأيتها في باريس ولندن. ليس له داعٍ اليوم فبروتستنت المحمّديين قد رحلوا مثلما ظلّ كافيار يكرِّر. لم يكن في استطاعتي الاستمرار، المحروسة اليوم ليست محروسة الأمس، أحثّ الخطى أبحث عن نهاية الطّريق، مثلما أخشى في الوقت نفسه بلوغه. أخاف أن أطلَّ على المقابر فأرى أولئك المالطيين ينبشون المقابر ويسحبون أكياس العظام.

في اليوم الموالي أفقت على صوته يناديني باسمي، وقد هجرته حينا عندما يئست من حالي، أتاني الصَّوت هادئًا في الحلم، وأسرّ لي أنني لا بدَّ زائره فحملت نفسي ولبست أجمل ما لدي من ثيابٍ، ونزلت عبر منحدر القصبة حيث بيتي، وأسرعت المشي لأبثّه ما في نفسي، وقد تعوّدت البوح له دائمًا لولا الحواجز التي باتت تعترض طريقي، إما يسي وإما الجنود الفرنسيو

أسي وإما الجنود الفرنسيون، يحتجّون بأي شيء ليمنعوا زواره عنه، عبرت الشَّارع ثم انعطفت شرقًا، وتجلّى لي المسجد الصَّغير بمئذنته الواطئة، ثم دخلته، على يميني الشجرة وعلى يساري باب المقبرة الصغيرة، اقتربت وارتقيتُ الدّرجات، على جانبيها كان الفقراء يفترشون الأرض نائمين، فتحت باب الضَّريح، وتركت حذائي هناك ودخلت مُتمتِمًا بالدعاء كأني أعتذر إليه على فراقٍ دام أكثر من شهرين، ثم دنوت من ضريح سيدي عبد الرحمن الثّعالبي وهمست: هم لا يُريدون إبقاء أحد في مدينتك. رحل أكثر من ثلثي المدينة والذين بقوا أغلبهم من الفقراء، وكل من رحلوا أُخذت ديارهم وأُسكنت، ولا نستطيع أن نفعل شيئا. وظلَّ سيدي صامتًا لم يجبني

مثلما في السَّابق. لكنّ طيرا صغيرا حلّق في سماء القبَّة، صفّر ورفرف ثم طاف فوق الضّريح وغادر عبر خصاص الباب، فتبعته، رأيته يحطُّ على شجرةٍ قرب المسجد، فاقتربت منها، ثم رفرف راحلًا. وظللت أتبع طريقه، وأنعطف مع كل طريقٍ ينعطف معها حتى بلغت مكانًا يُشرف على البحر، رأيته حينها يحلِّق فوقه، وقد حال لونه الأبيض إلى لونٍ أزرق، ثم لم أعد أراه.

تساءلت لحظتها عن معنى الإشارة، هل يريد شيخي سفري من المحروسة؟! وربما العودة كذلك، تكهّنت هذا حينما رأيت الطَّائر يعود، يحلِّق فوق رأسي ثم يمضي تجاه الضَّريح، أوّلت المعنى من رحلته، كان سيدي يريد مني السفر إليهم هناك في باريس، وأطلب لقاء الملك، فللملوك طبائع مختلفة عن القادة، ولكن ماذا سأقول له؟ فمنذ سنواتٍ ثلاثٍ وأنا أدون العرائض وأرسلها دون فائدة. ولكن ما الضير في محاولة أخرى؟ حملت نفسي وسرت في شوارع المحروسة حتى وجدتني في وجه المزوار. كان الـمِزوَار ضابطا مسؤولًا عن المبــغى، يَعُدُّ نساءه ويحصِّل الضَّرائب منهنَّ. وظلّ محتقرًا من الجميع، حتى من الخزناجي الذي يجني له دراهم البوجو، والآن بعد أن أصبح الفرنسيون هم الملاك الجدد، أضحى أسوأ وأقلَّ حياء من ذي قبل.

تجاوزت الـمِزوَار، ومررت بين جنوده المحتفين ببدلاتهم الجديدة، وقبل أن أنعطف سمعت صوته يخاطبني:

- لو اكتشفت أن دُوجة تختبئ في بيتك، فلن يشفع لك أحد!!

دوّت الكلمات في رأسي، وشككت أنه وضع رقيبًا على بيتي. استدرك الكثير بعد دخول الفرنسيين، وكأنه ليس ذلك الأحمق الذي كان يطارد

البغايا بين الشَّوارع من أجل المال، لم ألتفت إليه حين انعطفت، وددت أن يصدق أن دُوجة لم تعد تعنيني لا أنا ولا السّلّاوي عدوه القديم، ولكن عينيه ظلتا تتعقّبانني حتى وأنا ألج درب القصبة، لأصل إلى بابها ومن ثم أعبره، وأدقّ باب بيتي ومفتاحه في جيبي. فُتح الباب وكانت دُوجة تقف خلفه مُندهشةً من تقطّع أنفاسي. توسطت باحة الدَّار وارتميت على أول مقعدٍ صادفني، فاقتربت مني زوجتي وقالت:

- لم تعتد المغادرة وحيدا، ألفنا مرافقة السّلّاوي لك، ما الذي حدث؟

- كنت في مكان يستدعي أن أكون وحيدًا.

ولم تواصل الكلام بل عادت إلى المطبخ. وغفوت أنا هنيهة رأيت فيها السّلّاوي راكضًا بين الشَّوارع، وخلفه جنود اليولداش والـمِزوَار، ثم رأيتهم مرة أخرى خلفه، ولكن الجنود لم يكونوا يولداشا بل في زي فرنسي، ثم أفقت على يد دوجة تهزّني، وأصخْتُ من هناك للنداء الضئيل للمؤذّن، يدعو الناس للصّلاة فهل يا ترى من مجيب؟!

الأيام التي تَلَت زيارتي للضَّريح لم تنبئ بجديد، سوى وصول حاكمٍ جديدٍ للمحروسة. فكّرت في حمل العرائض إليه، ثم تراجعت حين حدستُ أنه لن يختلف عن غيره، كان بورمون يصغي إلينا، وكلوزيل يطردنا، وبيرتزن ألْـهتهُ أحلام التَّوسع إلى عنابة ووهران والتيطري، أما روفيغو فكان مضطهدنا، فما الذي سيفعله بنا فوارول؟ الشّائعات قالت إنه نصف قائد فقط، ولا يمكنه توقيع القرارات الخطيرة إلا حين يستشير وزير الحربية، وإن إقليمي عنابة ووهران صار لهما قائدان يُشرفان عليهما. أما المحروسة فلها نصف قائد، ومغلولٌ أيضا، هل سيتركهم ينهبون المدينة؟ ولكن ما الذي بقي للناس؟ بيوتهم وبعض حوانيتهم، والأرض وزِّعت على الأوروبيين القادمين منذ

عام. رحم الله أيام السيد بيشون، زعمنا أننا ظُلمنا بها وكانت أفضل من اليوم. كان بيشون متصرفًا مدنيا للمدينة حين فصلوا بين العسكر والمدنيين. ومنذ وصوله أعلن حربًا على الدُّوق روفيغو وعلى أولئك الكولون الذين توزّعت خيامهم على رصيف الميناء. أراد طرد كل من ليس له رأس مال، وجُلّهم كانوا كذلك. رفض الدُّوق قراره ثم وزَّع عليهم أراضينا وضياعنا، بعدما أخذت أبهى مساجدنا ونصف أوقافنا، صارت لمعيشة الجيش الذي يحاصرنا، بعد أن حاصره الثُّوار خارج المحروسة.

تفاصيل الشّائعات التي انتشرت في الجزائر لم تكن هيّنة، بل إن الشّخص الذي روّجها عليم بما يجري في مكاتب الحكومة، ولم يكن سوى رجلٍ واحد له هذه السُّبل. ولكن أي شيء يُبطنه من هذا؟ هل يبحث عن مكاسب جديدة في المحروسة؟ ألم يكن من الذين غرّروا بأعيانها في بداية الاحتلال، ثم اختفى، أتراه عاد فعلا إلى المدينة؟ اعتاد في البداية إيهامنا أنه مرغمٌ على كل شيء، واليوم ما هي الأكاذيب التي يحملها كي يأخذ ما تبقّى من ريالاتنا؟ كنت أذكر يوم ترافقنا إلى القائد بورمون، أسرّ لي: زمن بني عثمان قد ولّى، ينبغي علينا نحن المغاربة حكم المدينة، إنها مدينتنا وعليهم العودة إلى الأناضول. فاوضنا على الاستسلام، وأصررت ألا تحوي المعاهدة على بند طرد أحد من المدينة، بل سيعيش الجميع فيها بسلام، المغاربة وبنو عثمان وحتى اليهود. ولكن ما حملته الأيام فيما بعد علّمني أن العسكر هم آخر من يلتزم بالمواثيق. وفعلًا لم تمض إلا أيام قليلة حتى كان جنود اليولداش يُسحبون من بيوتهم، في البدء قالوا إنهم سيرُحّلون العُزّاب فقط، ثم فجأة رأينا المتزوجين يساقون إلى الميناء يلتفتون إلى زوجاتهم المغاربيات اللَّواتي خلفوهن في الجزائر، والأطفال بينهم احتاروا أي جهة سيختارون.

قبل سنواتٍ بعيدة عرفت ميمونًا، رأيته في سوق الميّارين يجمع القمح، ثم قيل لي إنه سافر إلى مرسيليا حيث أصل تجارته، ثم عاد بعد سنتين، وبتُّ أراه أحيانًا مع اليهوديَّيْن تاجري القمح، وفي السَّنوات الأخيرة حين توقفت أعمال الجهاد، وغلت المعيشة وأضحى القمح شحيحًا -إذ أتى الجراد على الكثير منه- كان دائم الحركة بين الميناء وسهول متيجة، ابتاع كل ما امتدت إليه يداه، ثم اختفى من المدينة أيامًا وعاد بعدها. التجّار الذين وصلوا إلى المحروسة قادمين من وهران قالوا إن سفينةً فرنسية حمّلت قناطير القمح من الميناء، بينما كان الناس يتضوّرون جوعًا، ويأكلون خبزًا معجونا من القمح الأسود، ولم تكن المرَّة الأولى، كانوا يتساءلون عن أوامر الباشا التي تتعلّق بمنع بيع القمح خارج البلاد. وهل هم في وهران معنيون بها، كان لا بدّ لي من لقائه، وعثرت عليه في سوق الميّارين، وحين تقابل الوجهان قلت:

- كيف يمكنك بيع القمح للفرنسيين بينما يتضوّر الناس جوعا؟؟

- ومن قال هذا يا سيد ابن ميّار؟ أنا بعته لليهوديَّيْن!!

- وكنت تدري أنهما سيبيعانه هناك؟

- وما دخلي أنا في الذي يبيعانه له؟!

- ولكنك تدري أن الباشا منع بيع القمح لغير الجزائريين حتى تزول هذه الجائحة.

- إذا كان الباشا يحرص على الناس فليفتح مخازنه، هو والخزناجي وآغا العرب، فما يملكه هؤلاء من أراضٍ لا يملكه أهلك.

وعجزت عن الإجابة. مع أن الباشا كان دائمًا كريمًا معنا، حتى أنا كانت لدي أراضٍ كثيرة، القليل منها سلِم من الجراد، وصار بالكاد يكفيني

وأهلي، تركت ميمونًا هناك وعدت خائبًا إلى ضيعتي التي يستمتع اليوم بها كافيار.

الناس في المحروسة أنواع، وأغلبهم كانوا يحترمون بني عثمان ويتجنبونهم. يكفيهم أن مساجدهم مشرَّعة أبوابها، وفقراءهم مكفيون، وعلماءهم مُحترمون، وأنهم يعيشون بأمانٍ، وأن الجهاد مُعلنٌ منذ قرونٍ ثلاثة، فإن قاتل الباشوات بعضهم بعضا فهذا لا يعنيهم في شيء مادام الأمر لن يختلف عن سابق العهد. ولكنّ آخرين في المحروسة كانت لهم وجهة نظر مختلفة.

يلتقي السّلاوي وميمون في كرههم لبني عثمان، كانا يريدان أن يحكم المغاربة بلادهم، ولكنهما افترقا في وجهة النَّظر بعد دخول الفرنسيين. عرض ميمون نفسه كمساعدٍ في فتحهم الجديد إذ كان أكثر الناس معرفةً بالبلادِ وأهلها. بينما كان السّلاوي من الذين قاتلوا في سيدي فرج ثم سطاوالي وأخيرًا في الحرّاش.

أوهم ميمون بورمون بأشياء كثيرة حتى نصّبه رئيسًا علينا في مجلس البلدية، ثم حين حلّ كلوزيل نصّبه على الأوقاف بما يقدمه له من ريعها. ومع رحيل كلوزيل فقد افتضح أمره، وصارت مئات القضايا تتابعه في المحاكم، ثم فجأة لم نره، وانتشرت شائعات كثيرة تقول إنه فرّ إلى مرسيليا، فهل عاد ثانية إلى المحروسة؟!

كانت العرائض ماتزال متناثرة أمامي، أفكّر في ضرورة إرسالها إلى الحاكم الجديد، وهكذا حملت أوراقي كلها وانحدرت عبر الدَّرب الأول الذي صادفني، أسرع الخُطى مُتعجلا الوصول إليه، وبعد جهدٍ كنت أمام باب المبنى، لحظات وقفتها هناك ثم أُذِن لي بالدخول.

كل حاكمٍ كان يأتي إلى المحروسة يعرفنا بأسمائنا وتاريخنا، وعلاقاتنا بالضباط الذين تعاملنا معهم. إذ لا تحتاج لقول الكثير حتى تجده يستبقك بأشياء لم تخطر لك ببال. تجاوزت الباب إلى الدَّرجات وصعدتها، ثم أذن لي بالدخول إلى المكتب، جلس الحاكم صامتا منتظرًا أن أُعلمه عن أسباب الزِّيارة، فبسطت الأوراق فوق مكتبه، وقلت:

- سيدي، منذ ثلاث سنواتٍ سلّمنا المدينة على شرط الاحتفاظ بأموالنا وضياعنا ومساجدنا وأوقافنا، وقد أُخذت منا. ثم ها هم يسرقون عظامنا من المقابر ولا أحد يردعهم. وهذه العرائض بها كل التَّفاصيل، سأتركها بين أيديكم آملا أن يحرّككم شرف هذه الأمّة التي قامت بالثَّورة من أجل الحرية والمساواة والأخوّة. فانظروا لنا بعين عطفكم، واستجيبوا لما جاء بالعرائض.

- يسعدني يا سيِّد ابن ميّار أن تتكلّم لغتنا، وتكون عليها بتاريخنا، ولكن ما تريده ليس من صلاحياتي، وزير الحربية الآن هو من يحكم الجزائر.

- تجارتي جعلتني أزور مدنًا كثيرة من بينها باريس، وتعلمت لغتكم وتاريخكم بالقدر الذي أذكّرك فيه أن بلادي كانت أوّل دولةٍ تعترف بالثّورة الفرنسية، وحينها قاطعتكم أوروبا كنا نحن نزودكم بالقمح كدينٍ طويل المدى.

- لم يعد مهمًا هذا الكلام يا سيِّد ابن ميّار، كما لا يمكنني خدمتك في قضيَّتك، أتمنى أن تحمل عرائضك وترحل.

- لم يبق لي إلا طلبٌ أخير، منحي تصريحًا للسَّفر، فلا أريد أن يضايقني أحد في الميناء.

- لك ذلك.

لممت أوراقي وغادرت مكتبه، كنت أشعر أنه لا سبيل لإعادة شيء، يظلُّ السّلّاوي محقًا في وجهة نظره، هؤلاء القادة الذين يحكمون المحروسة لا رجاء منهم، وإشارة شيخي لم تكن لتحمل الخيبة معها، سأجرِّب حظي إذن وأسافر إلى باريس حاملًا معي العرائض كلها، أو سأكتفي بعريضةٍ واحدة أُلخِّص فيها كل شيء، والباقي أُعيد صياغته في شكل كتابٍ. أحيانا يبدو أهمّ من العريضة التي ربما لن يقرأها أحد. سيطبع الكتاب هناك في باريس، وسيقرؤه الجميع. سأكتب عن كل شيء حدث مذ دخل بورمون إلى رحيل روفيغو، وأيضا سأدوِّن الكلمات الأخيرة التي قالها لي فوارول، ستكون شاهدةً على وجهة نظره.

في الشَّارع رأيته، كان يقابلني في الجهة الأخرى من الطريق، ثم وقف أمامي وأدركت حينها أن ديبون قد عاد في الأسبوع الذي سأغادر فيه، تعانقنا مثل آخر مرّة ودّعني فيها. ملامحه أعلنت أنه لن يرجع، ثم فعلها، ولكن بأية صورةٍ؟؟ أهي التي فرّ من أجل ألا تتلوّث، أم التي دخل بها المحروسة أول مرّة مستعمرًا؟ كان متعجلًا يهدف إلى زيارة الحاكم الجديد، وقبل أن أودِّعه أخبرني عن الفندق الذي يقيم فيه، وسلمني جريدة ثم غاب داخل المبنى.

«لو سيمافور دو مارساي» هكذا قرأت العنوان الكبير، أخذت عظامنا حيّزا لا يستهان به منه، قرأت كل ما جاء في مقال ديبون وأنا مُتسمِّرٌ في الشارع، ثم أعدته في المقهى العربي. والمرة الثالثة وأنا مستلقٍ على فراشي في بيتي، وترجمت ما حواه لدوجة وزوجتي، وتشوّقت أن يطالعه السّلّاوي. لكن غيابه أثار في نفسي أشياء قديمة، ولم يفعلها من قبل إلا لأمرٍ جلل،

الموت كان دائمًا يرافق غيابه. طلبت من زوجي إعداد متاعي، لكنها وقفت مُتصلِّبة، ثوانٍ ثم تكلمت:

- ألم تملّ بعد من محاولاتك، إنهم لن يُرجعوا النا شيئا، ولن يُغيِّروا من معاملتنا!

- هذه الرحلة مُختلفة، سيستمعون فيها لشكواي.

- لا أظن هذا.

ثم صمتت زوجتي لالّة سعدية، ومضت تعِدُّ لي متاعي، في حين ظلّت دُوجة تراقبني، والأسئلة مُعلقة في ملامحها، ولم أشأ تركها على حالها، قلت: لن يرافقني السّلّاوي، كما أني أجهل مكانه. وابتسمت حينها دُوجة ثم مضت في اتجاه زوجتي، وشعرت أن هناك أشياء مُضمرة بينها وبين السّلّاوي، وربما كانت الوحيدة التي تحتفظ بسرّه.

أفقت على الصوت نفسه لشيخي، يناديني أن أمضي في طريقي، فحملت متاعي ومال ادّخرته لمثل هذه الأيام، وسرت عبر شوارع المحروسة، شاعرًا بأن غيابي سيكون طويلًا.

تركت الشّوارع خلفي، ولم تبق لي إلا مسافة قصيرة لأطأ رصيف الميناء، التَّصريح في جيبي أتحسَّسه خشية أن يضيع، وأنا أنزل الدّرجات إلى الميناء، وأراقب السُّفن الرّاسية هناك، تراءى لي الريّاس وهم يُلوّحون لأهاليهم يَعِدونهم بغنائم الجهاد، وفي مقدمة الميناء يقف وكيل الحرج يحثهم على العودة مبكرًا واحترام مواثيق السلام، ثم تختفي الرؤى وأنا أقف أمام السفينة الراحلة وأصعد درجاتها، في آخرها التفت، تجمهر بعض الناس في الرصيف، ويدٌ تلوح لي وصوتٌ يُنادي باسمي بينهم، ربما كان الواقف بالأسفل السّلّاوي إذ لم يغب إلا حين غاب الرَّصيف وتوسطت السفينة البحر.

حمة الشناوي

المحروسة مارس 1833

كانوا يتصايحون خلفي بلكنتهم: اقبضوا عليه. حثثت الخطى ثم وجدتني أوسِّع بينها، لحظات وحملت الريح رجليّ، قفزت إلى الأمام ثم انعطفت، والتفتُّ فجأة وتراءوا في سراويلهم القصيرة، ومعاطفهم الحمراء، همست: اللّعنة عليكم. كان جنود اليولداش مُسرعين خلفي، ولكني لم أكن لأتوقف، فلا يعرف الإنكشارية الرَّحمة حينما يتعلَّق الأمر بنا نحن المغاربة. انعطفت غربا وواصلت القفز حتى قابلتني السَّقيفة المفضية إلى القصبة، كان بابُها يبتعد كلما توغَّلت تجاهه. واقترب الجنود حتى أوشكت أن أكون بين أيديهم، ومن حسن حظِّي أنهم لم يُصوِّبوا بنادقهم نحوي. تحاملت على نفسي حتى بلغت مدخل السّقيفة، وانحنى قوس الباب فوق رأسي ورأيت إطاريه الكلسيين، وسلسلة الأمان معلَّقة عليهما، وامتدت يدي وأمسكت طرف السِّلسلة، ثم صرخت حتى سمعني كل ساكني القصبة: «شرعَ الله يا سلطان». واندهش الجنود حين رأوني مُتشبثا بعهد السُّلطان، كانت ألسنتهم تتدلى من التعب، ووجوههم مُتورِّدة يملأها الغيظ فليست المرة الأولى التي أفلت منهم، إما بعهدٍ يتجاوز أَوْجَاقهم، أو بمالٍ يشتري ضبّاطهم، وعادوا ذلك اليوم خائبين، وخضتُ سقائف مجهولة لهم كيلا ألتقيهم ثانية.

الحياة في المحروسة هي شكلٌ آخر للموت، أراه كل يومٍ في عيون الناس، وأولئك الذين كانوا يرتادون مقهى الشاوش، الدُّخان يصّاعد من غلايينهم، صوتي يتناهى إليهم من مكاني، وخيالات العرائس التي تهتزُّ في يدي، تنعكس على حائط المقهى، يضحك الرّيّاس لاهتزازها وحواراتها، ويغضب اليولداش مما أفوه به، ولكنهم لا يجرؤون على الاقتراب مني بل يترصدونني خارجها، وما إن أتجاوز الشَّارع الكبير حتى يتراكضوا خلفي. ويظلُّ ابن ميّار ينقذني في كل مرة، ويوصيني بالصمت خشية غيابه في يوم ما. لا أبالي بنصائحه، وعندما تُؤخذ عرائسي تخيط لي دُوجة أخرى. وهكذا دواليك.

في السنوات الأخيرة سيطر اليولداش على المحروسة، وصار الرِّياس محتقنين من حياة البَر، إذ أكثر الباشا من المواثيق، وأضحوا مُكبَّلين كلما رأوا سفينة تلوح لهم في الأفق يتراءى لهم عَلَمها لدولة حليفة، وأصبحت المقاهي مكانًا يَعُجُّ بهم، بعد أن كان من النَّادر وجودهم هناك. لا تلبث المشاحنات تقوم بينهم، مما جعل هذا المقهى مأمونا جانبه لي، فلم يكن الرِّياس يوما مصدر إزعاجٍ للنّاس بقدر ما كان اليولداش. ولم تكن كراهيتي لهم مثل كراهيتي للذين لا يغادرون أوجاقهم إلا لضرائب جديدة تؤخذ منا أو لمؤامرةٍ لقتل باشاهم.

استعدت كل تلك الحكايات وأنا أعبر باب عزون فارًا تجاه الشَّرق. كان الجنديان الفرنسيان ينظران إليّ في ريبة، ولم يجرؤا على اتباعي خوفا، إذ مازالت الأودية تعجُّ بالثُّوار، ومازال شيخ القبائل المتحالفة يترصدهم خارج أسوار المدينة.

أثناء عبور السّهل فكَّرت في ابن ميّار، وفي المحروسة، وفي دُوجة التي تعدُّ عرائس جديدة، بعد التي خلفتها في المقهى، حين هاجمني الجنود الفرنسيون،

كانوا يتّهمونني مثلما اتهمني الأتراك، أنني أدعو الناس للثورة عليهم، غير أن أهل المحروسة خانعون ومنذ سنواتٍ كانوا يطأطئون رؤوسهم ويتجنّبون الأتراك في الشَّوارع. المدينة تجعل الناس أكثر جبنًا وتقبلًا للغزاة، ألم يفرَّ الـمُوسرون ما إن رأوا طلائع الجيش تعبر الأبواب؟! لم أر أحدا منهم في سيدي فرج، وفي انحدارنا إلى سطاوالي سمعنا أن بعضهم غادر المدينة ليلًا. وبعد استسلام المدينة لم نر إلا القليل منهم. اعتدتُّ الهتاف بهم منذ سنوات، حتى بحَّ صوتي، وتقطَّعت عراشي ورقَّعتها فبدت أشدَّ قبحًا، وأكثر بذاءة.

كان مُقدّرا عليك يا حمّة الركض طوال عمرك، ومذ كنت صغيرًا، لا يحتمل التُّجار رؤيتك. تخرج الكلمات من فمك بذيئة فتفرّق الناس من حولك، وكنت تتساءل دومًا عن سر تفرُّقهم مع أن البذاءة حقيقة لا يمكن نكرانها. حين أصبحت شابًا عزفت عنهم مثلما تجنّبوك، ولكنهم مع ذلك كانوا مُعجبين بالشَّجاعة التي تواجه بها الأتراك ولا يبدون لك ذلك، حتى صديقك ابن ميّار الذي عرفك أكثر من الجميع، ظل يردد: ما زلت صغيرًا يا حمّة، ليست كل الحقائق تُقال، بعض الكذب يجعل الحياة يسيرةً.

ولم يكن كلامه ليقنعني، فطالما كان متعلقا بالأتراك، وصديقا مقربًا من الباشا الكبير، لهذا اختلفنا، أَحبَّهم وكرهتُهم، ورجا بقاءهم وتقتُ إلى رحيلهم، كل سنةٍ كنت أراهم يفدون بالمئات من أناضولية، لا يحملون شيئًا معهم سوى كونهم أتراكا، يبنون لهم أوجاقًا جديدةً. أيام فقط حتى يصبحوا جنودًا يسيّرونهم إلى أريافنا، من أجل ضرائب تعود إلى خزينتهم، أما في سنوات الوباء فلم تُرفع الضرائب، ولم تُفتح مخازنهم لأحدٍ منا، بل ظلّت معاشاتهم تزداد. يحذَر الباشا أن ينتقص منها ريالًا وحدا. لا أدري لماذا لا يذكر ابن ميّار كل الأشياء وقد كان شاهدًا عليها!

منذ وعيت رأيتهم يملأون المحروسة. كانوا مختلفين عنا، يُنبّهني التُّجار أنهم مسلمون مثلنا ولم يبد لي أن الأمر متعلقٌ بالدِّين بل بعِرقهم. بسهولةٍ تكتشف طبع هؤلاء الأتراك، كبرياؤهم لا حدود لها، ميّالون إلى إهانة الناس، كانت بيوتهم أجمل من بيوتنا، ومزارعهم أوسع من مزارعنا، ومُفتيهم له الكلمة الأخيرة عند الباشا الكبير. بالرَّغم من أننا أكثر عددًا.

تجاوزت السّهل بمسافةٍ، حتى بلغت وادي الحرّاش، وخمّنتُ أني سأراهم، لكنني لم أعثر إلا على قبورهم، جلست عند أولها، وشرعتُ أنقل بصري بين البقية، عام مرّ وما زلت أسمع صراخهم في رأسي، الأطفال يتراءون لي يقفزون بين القبور، والشُّيوخ يفترشون الأرض يراقبونهم، والنِّساء يكشفن عن شعورهنَّ ويندبن. أذكر أن هذا ما حدث قبل عامٍ، تسلَّلت خفية عن الجنود الفرنسيين أقصد الثُّوار، حين قيل لي إنهم على مشارف وادي الحرّاش، وصلت إلى القبيلة صباحًا، وصوبًا إلى خيمة شيخها ثم كانوا هناك. حين كان الناس لاهين عنهم، ولم تمض إلا لحظاتٌ ثم صوّبوا نيرانهم تجاهنا، تساقط الأطفال من حولي، وبعض النِّسوة كنَّ يجلبن الماء فرمين الدِّلاء وهربن، ولا أدري كم واحدة نجت لكنني رأيت الكثيرات يسقطن، أما الشُّيوخ فلم يبرحوا أمكنتهم، بعض الشَّباب فرّ تجاه الغابة وآخرون من الذين حملوا البنادق انتبهوا متأخرين، وحاولوا صدّهم، صمدوا قليلا ثم سقطوا مضرَّجين بدمائهم، ومرَّ الجنود الفرنسيون بأقدامهم قربي ولم ينتبهوا لي في مخبئي. وعندما انتشرت الظُّلمة سمعت وقع أقدامٍ قربي، عاد بعض الذين فروا إلى الغابة، لم أر تفاصيل وجوههم لكنني سمعت أنينهم وبكاءهم، حملت معهم الجثامين، ولم نفرغ من دفنهم إلا بعد بزوغ شمس يومٍ جديد، غابت فيه قبيلةٌ إلا قليلًا عن الوجود.

جررت رجليّ راحلا عن القبور، ورجعت على طريقي أقصد المحروسة، ولكنّ رغبةً انعطفت بي إلى بابها الجنوبي. الباب الجديد، وحين وقفت في مواجهته سنح لي خاطر أن أطوف المحروسة مثلما كنت أفعل صغيرًا، تبدو لي أسوارها عالية كأنها تُناطح السّحاب، واليوم لا يتراءى لي السُّور بذلك العُلو، مثلما لم أعد أشعر أنه يحمينا كما أوهمونا في السَّابق، ليست الأسوار من يحمي المدن بل محبة أهلها هي التي تحميها، والأتراك لم يكونوا من أهلها لذا كانوا أكثر حرصًا على بناء الحصون والأسوار. سرت بمحاذاة السُّور، ورأيت القصبة من الجهة الجنوبية، ثم تجاوزتها مسرعًا وتراءى لي حصن الإمبراطور من هناك، ودومًا اعتقدت أنه بُنِي لقصف المدينة لا للدفاع عنها، فما إن سقط في أيدي الفرنسيين حتى استسلمت المدينة لهم.

حمّة يا حمّة، شئت أم أبيت، المحروسة التي كنت تدافع عنها بالأمس لم تصبح محروسة اليوم، تناهت إلي أصواتهم من المقابر أسفل القصبة، ركضت فارًا منها لكنها اقتفت أثري، حتى وأنا أعبر باب المدينة الغربي، وأتجاوز الشَّارع الممتدّ إلى الميناء، غابت أصوات الموتى لكن الحقيقة لم تغب، تقرؤها عند كل منعطفٍ للمحروسة، شارع شارل الخامس، شارع دوكين، شارع دوربا، شارع كليبر، باب فرنسا، لم تعد الأسماء نفسها، وبعض الحواري اختفت أشكالها القديمة، ونبتت أخرى وبأسماءٍ مختلفة.

هل تنصفك اليوم عرائسك مثلما أنصفتك من الأتراك؟ تغدو وجوههم ورديةً، وهم يسمعون حواراتها السَّاخرة، وحينما تجعل مؤخراتهم وعمائمهم كبيرة الحجم، أو عندما تجعل النِّساء تمتطي ظهورهم وتضع اللُّجم في أفواههم ثم تهذر بصوتٍ نسائي ببذاءات بلغتهم الأناضولية، يوشكون على الهجوم عليك، لكنهم يتردّدون، ثم يرتفع ضحكهم على مشاهدها.

والآن ماذا سيفعل الفرنسيون حينما يرونها؟ يقولون إنهم أكثر تفتحًا على الانتقاد ولن يلتفت أحد إلى بذاءاتك، أو ربما يصفِّقون لك ثم ينفضُّون من حولك، ربما عليك يا حمّة تغيير طريقتك، يجبُ أن تهتف في أهالي المحروسة أن ينضمّوا إلى الثُّوار، ما الذي يُبقيهم في المحروسة خانعين، ينطلق الصَّوت من داخلي، ولكنك صرخت في وجوههم آلاف المرَّات في مقاهي الشارع الكبير، ألم ينفضوا من حولك قبل أن يُدركك الجنود الفرنسيون! نعم هذا ما حدث، فإما أن تصمت أو أن ترحل إلى الثُّوار الذين تلهج بذكرهم.

لم يكن ليؤمن بك أحد سوى دُوجة، في كل مرَّة تُرقِّع عرائسك، لم تتغيّر منذ سنوات الأتراك، ظلَّت وفية لك، ولكنها بقيت تنوس بين قلبك وعقلك، الأول يُريدها مثلما هي، تعلن حركتها عن محبتها لك. والثاني لم ينس أيامها الأولى في المبغى قبل أن تخرجها منه. وخلقت عدوًّا جديدا، ولم ينسك الـمِزوَار بالرَّغم من أن الأتراك قد رحلوا ولكنه وجد نفسه مرة أخرى مع الفرنسيين.

قبل سنين بعيدة حلّ بنو عثمان بالمحروسة، قتلوا أميرها الذي استنجد بهم، وجلسوا على كرسيه، واضطهدوا أهله. ثم دخلت دوجة إلى المحروسة، وما إن رآها الـمِزوَار حتى سحبها إلى فراشه، ثم إلى فراش الخاصة من بني عثمان، وأضحت دُوجة مشاعًا للرجال كلهم. والآن أقطع شوارع المحروسة جيئة وذهابًا، أرى وجوه الرِّجال وملامحهم، من منهم يا تُرى رأى عُريَك يا دُوجة؟ من منهم اكتشفت يده تفاصيل جسدك؟ من منهم قبّل شفتيك، أو ضغط على نهديك المكوَّرين؟ من منهم بات ليلة طويلة يُضاجعك؟ من منهم وكم هم؟! يزداد ضجيج الأسئلة في رأسي، ولا مجيب عنها سوى أسئلة أخرى أشدّ قسوة منها.

عند باب السوق الجديدة، في المنعطف الذي يسبق باب عزّون، رأيت دُوجة للمرّة الأولى، كانت عند عتبة الخامسة عشرة، لكن جسمها يُبديها على أعتاب العشرين، رأيتها في ثيابها الرثّة، بدت ملامحها من أهل السُّهول، فاصطحبها شيخ الحي إلى بيته كخادمة لزوجته، ولم تمض إلا ثلاثة أشهرٍ ثم رأيناها حاملة صرتها تتجوّل في السوق حافية، ثم اصطحبها تاجر نحاسٍ إلى بيته، ومرّت أربعة أشهر وعادت بالصُّرة نفسها إلى باحة السوق، وبهذه الطريقة لا تمكث في بيتٍ حتى تغادره. وكل الذين استضافوها قالوا أشياء غريبة. تستيقظ في الليل، تجوب فناء الدار، وتتمتم ثم يرتفع صوتها بالغناء. اعتقدوا في البداية أن مسًا قد أصابها، غير أن عودتها إلى حالها في صباح اليوم التالي زادت حيرتهم. قد يصبر المستضيف يومًا أو شهرا، ولكنه لا يني يُرحِّلها خوفًا على نفسه وعلى عياله، هذا ما تناقله التُّجار، بينما ظلّت الحقيقة لدى دُوجة، وهي صامتة لا تتكلّم. ولم أجرؤ أن أسألها عن حكاية قد مضت عليها سنواتٌ، ولم يكن قلبي قد حمل أشياء غامضة نحوها، بدأت يوم رأيتها تُغنّي في فرقة لالّة مريم، كانت تلبس فستانًا أبيض يميل إلى الصفرة، تُغطي شعرها بخمارٍ مشنشلٍ تتدلّى خيوطه الوردية على جبهتها، لم أُميِّزها حينما وقعت عيناي على وجهها، بدا أكثر وضاءة وبياضًا من ذي قبل، أتكون هذه هي نفسها الفتاة التي تعوّدت رؤيتها تجوب السوق؟

ولم أزل أراقب العرس من خصاص النافذة، حتى تناهى لي صوتها رتيبًا، حزينًا، وما فتئ أن تعالى بكلماتٍ مزهوة بالفرح، وقفزت بعض النِّسوة يرقصن، يحملن في أيديهن المناديل يُلوحن بها، على وقع الدُّفوف وعلى الصوت المهيمن على بقية الأصوات، صوت لالّة مريم، التي كانت كل أعراس المدينة تزدهي بحضورها، حتى أن بعض بني عثمان يستعينون

بها لتُحيي حفلاتهم، تُردِّد أنهم يُجزلون لها العطاء، ومن يعرف لالّة مريم لا يمكنه إلا فعل ذلك، فلا تمكث المغنيات عندها زمنًا ثم يختفين زمنا ليظهرن في حي المبغى.

كانت عيناي معلّقتين بدُوجة، وأذناي ميّزتا صوتها بين جميع الأصوات، لحظات من الاستماع حتى تناهت إليّ أصوات وقع أقدام مُقتربة، اختبأت في أول منعطفٍ، وتحت الضوء الضَّئيل تراءت لي مجموعة اليولْداش ثملين يسيرون تجاه أوجاقهم، مروا دون أن ينتبهوا إلى النّافذة، لكنني حينما عدت إليها وجدتها مقفلة. منذ ذلك اليوم أشياء كثيرة تغيرّت في نفسي، مثلما انفجرت مرارةٌ أخرى في داخلي، لأن دُوجة التي اكتشفتها هناك رأيتها مرة أخرى تجوب شارع البغايا، وغدا لها بابٌ تقف عنده، وتطلُّ على العابرين من رجال المحروسة الذين كانوا يبحثون عن مكانٍ يصبحون فيه رجالًا حقيقيين، فنحن الرِّجال دائما هكذا، حين يضطهدنا الحكَّام نبحث عن أقرب امرأة لنثبت لأنفسنا أننا أقوياء، مع أن البغاء الحقيقي هو ما يمارسه هؤلاء الحكّام علينا، كل يوم كانوا يضاجعوننا بالضّرائب والإتاوات وكنا نرضخ لهم، حتى في الطرقات كان العربي حينما يمرُّ بالتركي ينتحي مكانا أقصى الطريق، يخشى تلامس الأكتاف ببعضها، وإن حدث فسيكون مصيره مئة فلقة. لو أعاد صديقي ابن ميّار سيرة دُوجة فقط لأدرك بسهولةٍ أنها لا تختلف إلا بالقدر اليسير عن هذه المدينة، ولاستوعب أيضا ما حدث في الأيام التي سبقت دخول الجيش، وتهاون إبراهيم آغا، ثم فرّ وتركنا نواجه مصيرنا حين انهزمنا في سطاوالي. وحتى باي وهران سلّم المدينة من تلقاء نفسه، وارتأى أن يكون خادمًا للفرنسيين، وفي قسنطينة أعلن نفسه باشا جديدًا للجزائر بدل أن يزحف ليحرِّر المحروسة، ووحدهم شيوخ القبائل من همّوا بتحريرها ولكن قوتهم خانتهم.

لم أفهم لماذا يكره ابن ميّار أولئك الناس، يعتقد أنهم كانوا حجر عثرة في طريق الأتراك. يثورون على الباشا وضرائبه، يُكلمني عن الرعيّة التي تحترم حكامها، ولكنه لا يكلّمني عن الحُكام ومحبّتهم لرعيتهم. وقد كنا شاهدين على أولئك البحّارة الجزائريين الذين قُتلوا في البحر على أيدي الأمريكان وتناقلت الأفواه ما قاله وكيل الحرج: إنهم مغاربة يستحقون ما حدث لهم. ثم بعد أيامٍ سمعنا أنهم تذكروهم عندما أرادوا المساومة بهم على سفينةٍ أُخذت منهم. لا يلتفت الأتراك إلينا إلا لأننا مجلبةٌ للمال لهم، وأيضا أولادهم من نسائنا كانوا يحتقرونهم مما يجعلهم يحتقروننا، والصُدف وحدها تدخل أولئك الكراغلة إلى القصر الذي ظلّ مغلقًا سنواتٍ دونهم، منذ أن قرروا انتزاع الـمُلك من آبائهم، ولكنّهم فشلوا. وأضحت حكايتهم أسطورة ترويها عجائز المحروسة، يومها ساروا في جماعاتٍ بليل المدينة، حاصروا أوجاق اليولداش والقصبة، ولكنهم لم يلبثوا أن تراجعوا، وطاردهم اليولداش فاحتموا بحصنٍ على طرف المدينة، ظنّوا أنهم في مأمنٍ فيه، لكن بني ميزاب أمازيغ الصّحراء كانوا أكثر دهاء من الجميع. أرادوا اغتنام حظوة لأنفسهم عند الباشا، والتخلّص من احتقار أولئك الكراغلة. ساروا في جماعاتٍ نحو الحصن، مُتقنّعين في ألبسة نسائية، يتباكون ويطلبون اللُّجوء من قهر الأتراك، وما إن رأوهم من نوافذ الحصن حتى صدّقوهم، وفُتحت الأبواب ليروا وجوها غير التي كانت ترجوهم قبل قليل. وهجموا عليهم بأسلحتهم وتبعهم اليولداش إلى هناك، ومات من مات، وآخرون نفوهم إلى أزمير والإسكندرية، ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد يجرؤ أن يفتح حمامًا أو مخبزة، إذ أصدر الباشا احتكارًا أبديا لبني ميزاب، ولم يزُل إلا حينما رحل بنو عثمان.

حدث هذا قبل مئتي سنة، لكن وجوه الأحفاد تعيد الحكاية كلما التقت بوجوه الأتراك، أما بنو ميزاب فقد ظلّوا انطوائيين منغلقين على أنفسهم، الأرقام وحدها التي تحدِّد علاقاتهم بغيرهم. يقول ابن ميّار: إن مذهبهم الفقهي المتشدِّد، هو ما يُبديهم بتلك الصُّورة. ولا أدري إن كان الدين يبرر لهم رفضهم تزويج بناتهم من أبناء المحروسة. حينما تصرُّ أقلية مختلفة في مدينة مثل المحروسة على النأي عن الجميع خوفًا على نفسها. ما الجدوى من بقائها هناك بشروطٍ لا تحتملها المدينة؟!

وجه الـمِزوَار. ما زلتُ أراه في الحلم واليقظة، يجوب الشوارع، ويقفز من مكانٍ إلى آخر يطارد البغايا، يجرُهُّن من شعورهنَّ، ويعيد من تهرب إلى غرفتها، لم أره في تلك الأيام القصيرة قبل دخول الجيش إلى المحروسة، بينما كانت البغايا هنّ من يضمدن جراحنا بعد هزيمتنا، ولا أدري كم واحدة قضت في تلك الأيام. كنت أرى بعضهن يتساقطن من حولي، وحملت أخريات بنادق الرجال الذين سقطوا في سطاوالي. على رجال المحروسة اليوم استيعاب أن أولئك النِّسوة اللاتي يعلِّقون هذا الإثم في رقابهنَّ قد أنقذن نساءهم من البغي. وعليهم إحناء رؤوسهم كلما مروا بحيِّهن، فليس البغاء أن يكون جسدك مشاعًا، بل أن تبيع روحك للذي بغى عليك وعلى أهلك.

وبالرغم من اختفائه في الشهر الأول من احتلال المدينة، إلا أننا رأيناه يطوف الحي للمرّة الثانية، جمع النساء في الساحة، وألقى عليهن خطابًا يعلمهن فيه بقانونه الجديد، ولم يلبث أن غزا الجنود الحي، وبدأت المدينة تستقطب وجوها لنساء من أمكنةٍ عديدة، حملن معهنَّ لهجاتهن المختلفة، وأضحت المحروسة مبغى كبيرا أصبح الـمِزوَار أميرًا عليه.

في طفولتي كنت أحبُّ التسلّل إلى بيوتهن، أراهُنّ في نصف عريهن، لم تكن الرَّغبة قد تولّدت في الطفل حينها، لكن الدهشة ركضت بي سريعًا تجاه الشباب، كنّ لا يحتشمن من طفلٍ يعبر الرِّواق، أو يتلصّص على الرجال وهم في أحضانهن. من كُوات الغُرف رأيت كيف يرضخ الرِّجال للنِّساء. التِّجارة والعمل والمال والسُّلطة، كل تلك الأشياء لن تحمل أي معنى حينما يلتحم الجسدان. في أحضان النِّساء يتحول الرِّجال إلى أطفالٍ، يُعبِّرون عن رغباتهم بحركاتٍ صبيانية في خجلٍ. اعتدت أن أرى التَّفاصيل الدَّقيقة، والكلمات المحترقة التي تغادر أفواههم، كان سؤال الطِّفل دائما يحاصرني بعد سنواتٍ، هل كان رجال المحروسة يشعرون بالظلم من الأتراك حتى صار المبغى هو الملاذ لهم؟ ولكن لم يكن كل رجالها يجرؤون على الانعطاف عبر طريق الحي، بعض الرجال فقط كانوا لا يحتملون ذلك الظلم، أما البقية فربما تقاسمهم زوجاتهم جزءا منه ثم ينجبون أبناء لا يختلفون عنهم.

والآن لم أعد أطلُّ من كوات الغرفِ، واستبدلته بإبصار آخر في النُّفوس، لتغدو عيون دُوجة كتابا مفتوحًا أقرأ منه كل العابرين الذين مرُّوا بجسدها. مثلما كنت أقرأ كل يوم اسمًا أوروبيا جديدًا على شوارعِ المحروسة، أتهجّى الحروف الحادّة للغة، لم تحمل انحناءات حروف العربية، ولكنها في كل يوم تتكاثر من حولنا، وبتُّ أسمع رطانتها حتى بين أطفال المحروسة وهم يقلّدون الجنود بسخرية. ولم تمض إلا سنواتٌ قليلة على دخول أولئك الجنود.

ثلاث سنواتٍ تمرُّ على الاحتلال، ولم يتغيّر شيء، بل إنهم كانوا في كل يومٍ يسحبون عددا من الشباب، يختفون أيامًا ثم يعودون في زي عسكري يشابه زي جنودهم، ويحملون بنادق أقصر من تلك التي حملها الأتراك،

يقطعون الشّوارع الكبيرة للمحروسة في صفوفٍ طويلة، ويهتفون لحياة هذه الأمّة. الجوع قاد آخرين تجاه ثكناتهم يطلبون ما حصّله غيرهم، بينما أنا واقفٌ في مكاني. الزّمن يعيد في رأسي كوابيس قديمة، أردت مغادرة المحروسة، فحملت صُرتي وسرتُ عبر دروبها حتى عييت. بحثت عمّا تبقّى من أصدقاء هزيمة سيدي فرج وسطاوالي، ولكن العديد منهم قد فرّوا إلى الجبال وآخرون عادوا إلى أعمالهم القديمة، أما حين تلتقي الوجوه فيطأطئون وكأن ما حدث يومها كان خطأ فادحًا. ولم نكن وحدنا نحمل ذلك الوِزر، أخّرنا بنو عثمان عن المسير إلى شبه الجزيرة، قالوا لنا: انتظروا حتى يتوغّلوا في السّهل، إنهم يجهلون هذه الأرض. لكن الجنود الفرنسيين كانوا يدركون أيّ شيء هم مُقبلون عليه، وما إن وضعوا أقدامهم على اليابسة حتى تكاثروا عليهم فتراجعوا، وظلوا على حالهم تلك إلى أن أغلقوا على أنفسهم أبواب المدينة.

كلما خلّفتُ بابًا من أبواب المحروسة ورائي، شعرت أنني أعيش حلمًا طويلًا انتظرت الاستفاقة منه، فأرى الناس من حولي مثلما في السّابق، الصّيادون يتصايحون عند الميناء، يُصلحون شباكهم أو يتخاصمون على أسعار السمك، التُّجار يسيرون في خطواتهم التي لا تكاد تُسمع، في عجلةٍ يفتحون دكاكينهم، البُخار المتصاعد من الحمّامات، وعيون الرجال تترقّب خروج النِّسوة من بابه، رائحة الخبز المنبعثة من بداية درب الخبّازين، والأطفال يركضون على أحجاره كلٌّ يحمل في يده قطعة، مزيج من الأصوات واللهجات في سوق الكتّان. حتى حانات المحروسة كانت لها نكهتها المختلفة، أفضلها كان حانة بوجي، أضحت اليوم بار ريفو، وبعد أن

كانت تقدِّم نبيذًا هو أفضل ما في المدينة صار الجنود اليوم يشربون أي شيء ليتحملوا قسوة المناخ. والمبغى لم يعد مثل سابق عهده، كان هناك نوعٌ من الألفة فيه، تراها تقف عند الباب تنتظرك، كأنّ معرفة قديمة بينكما والآن يتم الأمر بسرعةٍ، وربما لا يسعفهما الوقت ليتطلّعا إلى وجهي بعضهما.

لحظة اكتشفت أنني ما أزال أقف رافعًا رأسي تجاه أسطح البيوت، تذكرت حارة السّلّاويين، هدموا جزءا كبيرا منها، وفتحوا طريقًا واسعا يفاجئني المارَّة الأوروبيون كل صباحٍ، يستكشفون وجهي كأنّي غريب، وأنا لا أحرِّك ساكنًا، لم أدر ما الذي حدث عندما خفضت رأسي، شعرت برغبةٍ في الركض، ونداء يتعالى، مصيرك يا حمّة أن تركض طوال حياتك، خَطَت رجلاي أول الخطوات ثم ازدادت اتساعًا، وركضت حتى كنت أعبر باب المدينة الغربي. كأنما لم يرني الجنود، ثم تعالى الصُّراخ من ورائي، وأوشكوا على الرَّكض خلفي ولم يجرؤوا، قطعت مسافة غير قصيرةٍ تحملني أشياء غريبة إلى وجهةٍ هجست بها، اعتاد الغرب أن يكون جهة غامضةً لي قبل سنواتٍ، ثم تحوَّل إلى مكانٍ للهزيمة. واليوم لماذا تريد العودة إلى مكان الهزيمة؟ لماذا تريد الوقوف ثانية في سيدي فرج، هل ستعيد حكايتك أنت أيضا؟

لم أعتقد أن المسافة بذلك الطُّول، مثلما لم أدرِ كم ساعة مشيتها، خانتني رجلاي منتصف الطريق، وتوقفت بأمكنة عديدة لكنّ الرّغبة ظلّت مشتعلة، إلى أن تراءت لي القلعة أعلى التَّل، طوري شيكا كانت بداية الهزيمة، تجاوزتها في عجلةٍ وأسرعت تجاه البحر، فوحده البحر يهب النسيان.

ذوجة

المحروسة مارس 1833

الكلُّ كانت له محروسته، عداي أنا، خلّفت حراسي كلهم، عند آخر حفنة رملٍ دثّرت بها أبي. ثم شققت طريقي فرارًا إلى هنا، مُصدِّقة بما كانوا يقولون عن المحروسة. قبل سنواتٍ عبرت شوارعها حافية القدمين، واليوم وحيدة، أنتظر السّلّاوي كل يوم. يرتج قلبي كلما دقَّ الباب، ولكنه لا يأتي إلا لمامًا، وعرائسه تنتظره إلى جانبي في الغرفة، أهملها مثلما أهملني. ابن ميّار ظلّ يردِّد كلما اجتمعنا على قِطع الخبز الأسمر والزَّيت، يقول: لم يعد السّلّاوي مثلما كان في الماضي، صار يتطلّع إلى الشوارع غائبًا عنها، إني أخاف عليه أن يلتحق بالثّوار.

وأركن إلى الصمت حينها. يظلُّ ابن ميّار يرى الأشياء بطريقة مختلفة عن السّلّاوي. في زياراته القليلة إلى البيت، يتكلمان عن حكاياتٍ قديمة من عُمر المحروسة، كل واحد يرويها بطريقته، ثم يتشبّث بها، يجتمعان حول الطعام ثم يغادران، ويعود ابن ميّار ولكن السّلّاوي لا يعود في اليوم نفسه. وأظلُّ أنتظر من لا يأتي.

لم ترَ جدوى من رحيله، ولم تجادله، اليأس الذي تسلّل إلى قلب لالّة سعدية صعد إلى ملامح وجهها، رأيت كيف غيّرها. كانت تُعِدُّ له

صرَّة الطَّعام بيدين مختلجتين. عيناها تقولان له لا ترحل، فلا فائدة مما تفعله. وظلّت على حالها بينما يتضاعف إصراره على الرّحيل، عرائض عديدة كان يُرتبها أمامه، ويعيد نسخها في أوراقٍ أخرى، وضعها كلها في جرابٍ جلدي صغير، وخبأها في غرفته في انتظار السّاعات القليلة الباقية له على موعد الرَّحيل.

لم تتكلم لالّة سعدية ونحن متحلقون حول الطَّعام، لكنها همست وهي ترفع اللُّقمة إلى فيها:

- هل سيرافقك السّلّاوي في رحلتك؟

بدا وكأنه لم يسمعها، ثم رفع رأسه فجأة تجاهها:

- منذ أيامٍ لم أره، ولا أدري أي شيء حدث له. في الأيام الأخيرة ما عاد يُقاسمني أسراره، وصرت لا أتنبأ بما سيفعله.

ما إن نطق بتلك الكلمات حتى اهتزّ قلبي، فاستأذنتها، ثم وقفت وسرت في عجلٍ إلى غرفتي، وارتميت أحضن العرائس فوق الفراش. كان السّلّاوي دومًا يظهر في أوقات لا يمكن التنبؤ بها، يخلّصني من مآزق ظلَّت تتكرَّر في حياتي، أفيق على صوته الخشن، ويده التي تخترق كل الأيدي التي تريد أن تنال شيئا من جسدي، وإن ظللت شهورًا عديدة تحت ناظريه لم يقترب، بل ظلّ جسده بعيدًا. أحيانًا إخالُ أنه لم يرني إلا بعين الـمُشفق، وأحيانا أراه عاشقا، ثم تتغيَّر تفاصيل وجهه تغدو قاسيةً حينما يرى كوكبة اليولداش، أو يلمح الـمِزوَار عن كثبٍ يصيح في النُسوة أن يلزمن أبوابهن ولا يكثرن الكلام، يَعُدن إلى أمكنتهن في خضوعٍ يرقبن المارّة، هل من رجلٍ ينحرف تجاه إحداهنَّ، كل واحدةٍ لا تعرف نصيبها من يومها، إلا وتعلم

ما يأخذه الـمِزوَار منه، هكذا فكّرت بهم بعد رحيلي من هناك، وبفضله وحده مكثت في بيت زهرة اليهودية. كان الجميع يعرف السّلّاوي، خصوصًا اللَّواتي تقدَّم بهنَّ السِّن، يُحصين خُطوط جسده وانحناءاته، مُذ كان صغيرًا، حكين لي كل ذلك في إقامتي بينهن، الحكايات المختلفة شوّقت الصغيرات منهن لاكتشاف جسده، ثم خبّأن أحلامهن حين أدركن أنه توقّف عن زيارتهن منذ زمنٍ. الكلمات التي فاه بها السّلّاوي زادت من احترامهن له. إذ لم يستقم عنده عداؤه للأتراك والـمِزوَار، واعتياده المرور بهنَّ، أُعجبن بطريقته وكيف يجد العلاقة بين معاني الكلمات، وكيف يُرتّبها، احترمن رغبته، والصغيرات استطالت رغباتهن أن تنال كل واحدة هذا الرجل الذي شاهدنه كيف أسقط الـمِزوَار بضربةٍ واحدة، ثم تجاوزه كأن شيئا لم يحدث، وعجز عن تقبيل أجملهن حين اعترضت طريقه، كان الجميع يراقب المشهد من هناك، تحدّتهن أنها ستجعله يُقبِّلها، ارتدت أجمل ما لديها ووقفت تنتظر مروره، وحين لمحته قادمًا اعترضت طريقه، اقتربت منه ولفّت ساعديها حول عنقه، ثم حرّكت رأسها تدنو منه، لم يجفل ولم يُسايرها بل ظلّ شامخًا برأسه، عيناه تستكشفان الوجوه التي أحاطته هناك، أبعدها عن طريقه بلينٍ، وخطا مسرعًا يكمل طريقه. من مكانها لم تجرؤ على الالتفات، كانت ما تزال مطأطئة حين اقتربن منها، وعُدن بها إلى غرفتها، باتت ليلتها في غم، وفي الصباح وقفت مثل الأخريات عند باب البيت، تستقبل الرجال وتُشيِّعهم حين يرحلون في صفاء.

في تلك الأيام عرفت السّلّاوي، رجلا يرفض كل نساء المبغى، ولكنه أول من يدافع عنهنَّ، بدا لي موقفه غريبًا، ثم زادت دهشتي وأنا أراه مثلما رأته البقية يلوِّح بقبضته تجاه الـمِزوَار ويلقيه أرضًا، كان يوما مختلفًا حتى

بعد سنواتٍ ظللت أذكره، إذ أخذت العلاقة بيننا منحى مختلفًا، في بيت اليهودية زارني في أيام مُتقطّعة، يسألني في عجالةٍ، ثم ينفرد باليهودية ولا يلبث أن يُغادر في عجلةٍ.

عرائسه القبيحة مازالت في حضني، أتأمّل جدران الغرفة الضّيقة، مال بياضها إلى الصفرة وتقشّر جزء منها، يخفق قلبي كلما أعدت سيرته، ردّد أبي على مسامعي دومًا: قلبك يا دُوجة مثل عصفور الدُّوري، لا يتوقّف عن الرفرفة. لكن السلاوي خلّفني وحيدة في هذه الغرفة الضَّيقة، يُقابل وجهي السَّطح وأعدُّ أعمدته، عناكب مسرعة على شباكها، رأيت الخطوط الشّفافة لها عبر الضّوء المنبعث من كوة في الجدار، وقفت ومازالت العروس في يدي. حاولت جاهدة الإطلال من الكوة، وبصعوبة رأيت السَّقيفة الضيّقة خاوية من الناس، لا ضجيج اليوم في الحي، ثم تراءى لي خيال الطّائر المرفرف من هناك. تحاملت على نفسي واستجليت الرؤية، وخيّبني الظِّل المنبعث من الحائط المقابل، تراجعت إلى مكاني، لكن الصوت الحاد عاد بي إلى الكُوة، وحدّق اللَّقلق الأبيض بي من مكانه على الحائط الواطئ لعين الماء، وقف في نهاية السَّقيفة يسحب الماء بمنقاره، ويرفرف بقوةٍ محلقًا إلى الأعلى ثم يعود، يحدِّق يمينا وشمالا ويميلُ بعنقه الطويل إلى الماء، يغمس فيه منقاره، ثم يرفعه ليراقب السَّقيفة الخاوية، في المرة الأخيرة قفز من على الحائط، وحام في علوٍّ منخفض حتى وازى الكُوة، رأيت بياضه النَّاصع عن كثبٍ. لا أدري لِمَ شعرت أنه يُشبه السّلاوي في أشياء كثيرة. تردِّد أمي: روح الإنسان حينما يموت تحلُّ في طائر مُلون، يصفر كل فجرٍ عند بيت أهله. ولكن السّلاوي لم يمت، والطائر لم يكن مُلونا، وصوته ليس جميلا، بل لقلقة حادَّة. فرّ الطَّائر من هناك ولم أعد أرى سوى ظله منعكسًا على الجدار، ثم اختفى.

كنت عند الكُوة عندما دُقّ باب غرفتي، ثم دخلت لالّة سعدية في لباس الخروج، طلبت مني مرافقتها إلى ضريح عبد الرحمن الثعالبي. رغبةٌ ألحّت عليّ أنه لا بدّ من الخروج معها، أشهرٌ عديدة لم أزره. انقبض قلبي مذ رأيت من مرتفعه صفّ السُّفن، شعرت أن الأيام القادمة لن تكون سعيدة. وقفت يومها أمام الضَّريح، سمعت لقلقة الطائر من مكاني، فتطلّعت إلى المئذنة ولمحت جزءا من بياضه، أهل المحروسة يعتقدون أنه طائر صالح يُجاور ضريح حارس المدينة، بينما اعتقدت أن روح أبي تجسَّدت في الطائر الأبيض، وحرص على حمايتي مثلما يحمي فراخه، ولكنّ ذلك لم يدم، إذ كان الطَّائر وحيدا في عشه الكبير يُرفرف بقوةٍ، ثم لمحته يحوم حول المئذنة دون توقفٍ، عدت بوجهي إلى باب الضّريح وصعدت درجاته، ثم دخلت.

لا أدري كم هي النُذر التي ألزمتُ بها نفسي مذ عرفتُ السّلّاوي وربما منذ قابلت الـمِزوَار. ليالٍ طويلة قضيتها أتضرَّع إلى الله كي يخرجني من المبغى، وفررت عدة مرات ولكنه يُعيدني، للمِزوَار عيون خفية، وأهالي المحروسة كانوا يتواطؤون معه، إذ يُصرّون أنه لا مكان للبغيِّ إلا في المبغى، وألا توبة لها. كان الليل يطول فأنزوي في طرف الغرفة، أرفع يدي وأدعو: يا الله أخرجني من هنا. وفي الصَّباح أجد وجها جديدًا يطلب النوم معي، ثم توقّفت عن الدعاء، ولكن شيئا غامضًا كان يهتف لي، أنّي على خطأ، وأن بابًا من بين أبواب كثيرة سيُشرع في وجهي. فلُذت إليه بعد غيابٍ، أبسط كفّي وأناديه ليحرِّرني، ولم تمض إلا أيام قليلة حتى تحقّقت رغبتي.

كان آخر يوم لي في المبغى لا يختلف عن أول يوم فيه، تعطّرت ووقفت عند الباب، أنظر تجاه العابرين، بعض الشباب لم تظهر لحيتهم بعد، علا الزَّغب الأصفر شفاههم، ينظرون تجاهنا لكنهم في الأخير لا يختارون

سوى من تقدَّمت بهنَّ السِّن، كأنهم يبحثون عن أمهاتهم، لا يختلفون عن الكبار إلا في خيباتهم وهم يكتشفون اللّذة للمرّة الأولى، كان الكثير منهم يفرُّ ما إن يرَ العُري، وآخرون ترتخي أعضاؤهم ما إن تتلامس الأجساد بعضها. المومسات القديمات فقط من يخبرن كيف يُعالجن خيبات الشّباب، يُولِّدن الثِّقة فيهم من جديد. وهكذا يكسبن زبائن جددا يبعثون الحياة في أجسادهنّ المترهّلة. وننتظر نحن مقدم الكهول، أو أولئك الذين يتحدّون كل يوم أنفسهم، بأن العمر لا يحدث أي تغيير في أجسادهم، أسخياء حين يتعلّق الأمر بالمال، لكن أجسادهم اللاهثة فوقنا لا تُسعفهم بالقدر الكافي، وتتقطّع أنفاسهم ويتفصّد العرق البارد من أجسادهم. أما حين تخمد شُعلة الشَّهوة الضَّئيلة فيهم، فينظرون تجاهنا كأنهم يعتذرون، ويدفعون بكرمٍ، ثم يغادرون المكان مسرعين.

في ذلك الصَّباح وقفت أُطالع العابرين، وتراءى أحدهم يقترب بخطواتٍ تجاهي، قُلت في نفسي هذا الوجه ليس غريبًا، وعرفته حين اقترب، كان في منتصف الأربعينيات، شاحب الوجه، اعتادت البنات طرده، فيُسرع فارًا باتجاه السّقائف التي تقطع الطّريق إلى المبغى، ثم يعود وترفض النِّساء استقباله، وهذه المرة أراه يسير تجاهي، أتراه يعتقد أني سأقبل ما ترفضه الأخريات؟ أيريد إتياني من الخلف مثلما كان يشتهي منهنّ؟ أتراه يستوعب الخوف الذي داهمني حينما طلب مني التُّركي ذلك. اضطرّني إلى الفرار ليلا من بيته. فكّرت في كل تلك الأشياء بينما كان لا يزال يحدِّق نحوي، ثم دنا وأمرني بالدخول فرفضت، وطلبت منه الرَّحيل، ولكنه تسمّر عند الباب وكرّر طلبه بصوتٍ مسموع، وواصلت رفضي، فنهرني بينما كان الكلُّ يراقبنا من هناك، وهمّت بعض النساء بالاقتراب لو لا

وصول الـمِزوَار حاملا سوطه، نظر تجاهي وأشار بسوطه أن أدخل، ارتخت رجلاي، وهممت بالامتثال لطلبه، لكن أصوات النساء تناهت إليّ تحثني ألا أدخل، فتماسكت وبقيت مُتشبِّثة بالباب، وحرَّكت رأسي بالرَّفض، فرفع سوطه عاليًا وهمّ أن يهوي به، فتمسّكت أكثر بالباب أنتظر ألم الضَّرب، وأغمضت عينيّ ثم حين فتحتهما رأيتُ شيئا غريبًا، يد السّلّاوي تُحكم قبضتها على ذراع الـمِزوَار، ثم بحركة سريعة هوى الـمِزوَار على الأرض، حدث كل هذا بسرعة، فما إن رفعت رأسي حتى رأيت الرجل راكضا، وقام الـمِزوَار من على الأرض ينفض عن نفسه الغبار، ويسرع الخطو باحثًا عن أعوانه، والنساء تجمهرن حول السّلّاوي، حال غضبه إلى خجلٍ، عدّل لباسه، ثم فجأة تطلّع إلى وجوه الذين من حوله وكأنه يستأذنهم في شيء ما، وقبض على ذراعي، وقادني إلى نهاية الحي حيث كانت تقيم زهرة اليهودية.

عندما لامست لالّة سعدية كتفي كنت غائبة عما حولي، والعروس في يدي، ثم انتبهت وأومأت بالموافقة، وارتديت أنا الأخرى لباس الخروج، وعبرنا الرواق إلى الباب، ثم كنا عند باب القصبة مُنحدرين عبر الطَّريق الحجري. شوارع المحروسة لم تعد مثلما في السّابق، القليل منها احتفظ بنظافته، فالغبار الخانق يملأها. كل يوم يهدمون بيتًا جديدا، عدا حي المبغى، لم يتغيَّر فيه شيء، بل أضحى أكثر ضجّة. حدّثتني زهرة اليهودية في آخر زيارة لها، قالت بأنها كل يوم ترى الجنود الفرنسيين يقبلون عليه، مثلما تُقبل عليه بنات من خارج المحروسة، كنّ صغارًا ولم يجدن ما يأكلنه. مثلما شاهدت بناتٍ من أهل المحروسة يتسلّلن إلى هناك، ألم مُمضٌّ كان يعتريها وهي تروي ما يحدث في الحي، اعتادت رؤية نفسها أقصاه في منأى عن أحداثه، وإذ به تمدّد الآن، وقد اُحتلّت بيوت الناس الذين فرّوا من المدينة،

فأضحى بيتها يتوسّطه. كل يوم ترى الـمِزوَار يطوفه في حُلّته الفرنسية، قالت لالّة زهرة تلك الكلمات ثم غادرت مُسرعة خشية أن تعود وتجد بيتها قد أُحتل من جنود أو من بناتٍ قَدِمن حديثا.

انحدرتُ ولالّة سعدية عبر شارعٍ آخر، والجنود يراقبون العابرين من النساء والرجال. مشينا وحيدتين في الشارع المنحدر إلى المدينة، ثم انعطفنا وتراءت لنا الشجرة التي تُجاور مبنى الضَّريح، اقتربنا حتى بلغناها وصعدنا الدّرجات ثم فجأة عنّت لي رغبة الالتفات. حين أدرت رأسي امتدّ البحر إلى نهاية البصر، تكرّر المشهد أمامي وقد مضت عليه سنوات، أول ما اكتشفت الصفّ المرسوم فوق زرقة البحر، يومها كنت أُقيم في بيت زهرة اليهودية، وحينها قرّرت زيارة الضَّريح حذّرتني من الـمِزوَار، لم أهتم لحديثها وشققت الدُّروب إلى أن بلغته، ومن أعلى الدّرجات تراءت لي السُّفن الفرنسية التي شكّلت صفًا، تظهر في البحر وتغيب حتى ألفناها، واشتبكت مع سفننا التي كانت في كل مرة تحاول الخروج إلى البحر، فيتصدى لها الصف. في طفولتي حدثني أبي عن قوة بني عثمان، وسفنهم التي لا تُهزم، وأنهم سيَستردون الأندلس التي سلبَها منا الإسبان، لكنّ صفّ السفن الفرنسية بدّد كل كلام أبي. طفا الصف بعد عامين، وما لبث أن اختفى في الشّمال، ولكنه عاد بعد أشهرٍ، اقتربت السُّفن من ميناء المدينة ورمته بالقنابل.

كنت ما أزالُ أطلُّ من هناك على تلك الأيام، حين سمعت صوت أزيز الباب وهو يُفتح، ثم ولجنا الغرفة وقابلت بوجهي الضّريح، بينما انزوت لالّة سعدية عند طرفه، تُتمتم له وكأنه يسمعها، ترجّت بقاء زوجها إلى قربها، دموعها أشعلت بي رغبة البكاء، رأسي مُسند إلى الضَّريح، وساحت دموعي، دنت مني لالة سعدية، ثم وضعت يدها على رأسي، فرفعتُ

وجهي إليها، كانت الدّموع معلقة بخديها، مسحتها وامتدت يدها إلى وجهي، ثم اتكأنا على جدار الغُرفة، وحدّقنا طويلا في الضَّريح. في كل يوم تزدادُ نُذري في انتظار السّلّاوي، أقول في نفسي لو حمل ما أحمله له سأسير حافية إلى الضريح، وأُطعم الدراويش بيدي، وأرجع حافية كذلك إلى البيت. في اللّحظة نفسها كانت لالّة سعدية مُستغرقة في دعائها، وربما أيضا كانت تفكّر في نذرها وكيف ستكون.

كنا ما نزال نحدِّق في الضَّريح حين سمعنا أزيز الباب، بدا لنا زوارٌ آخرون يدخلون الغرفة، فعدَّلنا ثيابنا وغادرنا الغرفة. مع خروجنا من سقيفة الضَّريح لمحت اللّقلق يحوم حول المئذنة، ثم حطّ فوقها وتتبّعنا بعينيه، فمضينا في طريقنا، وكلما قطعنا مسافة كنت أنتبه إلى ظلّه المنعكس على الأرض، وأسمع لقلقته الحادّة. ولما تجاوزنا باب القصبة غاب الظلّ، لكنّ اللّقلقة تنتقل إلينا من حين إلى آخر، وقبل ولوجنا السّقيفة المؤدّية إلى البيت رأيته هناك منتصبًا فوق جدار العين الواطىء، حدّق تجاهنا ثم غمس منقاره في الحوض، مصّ منه قليل الماء، ثم راقبنا حتى ونحن ندخل الدَّار، وبسرعة عبرت الرِّواق، ودخلت غرفتي وقفزت أحاول رؤيته من الكُوة، نظر تجاه البيت، ثم حرّك جناحيه بسرعةٍ وحام بِعُلو مُنخفض، حتى عبر بموازاة الكُوة، وعن كثب تأملته، وهتف صوتٌ بداخلي يقول: إنه لم يكن هنا إلا لحراستي.

أحيانا يداهمني شعورٌ أنني لم أكن إلا لعنة على السّلّاوي، فالأيام التي تلت رحيلي عن المبغى لم تبشّر بالخير، صحيح أن عيون النساء اللواتي كنّ يراقبننا ذلك اليوم، حملت مزيجا بين السعادة والحسد، الـمُسنّات أحببنني

وأشفقن عليّ، أما الصغيرات فلم تعجبهنَّ كفُّ السّلّاوي القابضة على ذراعي، حتى الـمِزوَار، لم يلبث أن عاد، ولكنني حينها لم أكن هناك، روت لي لالّة زهرة بعد عودتها لتجلب لي ما تبقى من أشيائي، أنها رأت الـمِزوَار وأعوانه يحيطون بالسّلّاوي، اعتقدت أنه يمكنه أن يصرعهم جميعًا، ليس لأنه قوي، بل لأنه شجاع، ولكنه هذه المرة هُزم، تحلّقوا حوله من كل جانب، والنساء واقفات عند أبواب بيوتهنَّ يشاهدنهم مفزوعات. حرّك الجندي الأول قبضته تجاه السّلّاوي وتفاداها، وأرسل بدوره قبضته فأسقطته أرضًا، ولكن القبضة الخاطفة الثانية من الجندي الذي على يمينه أصابته، ترنّح منها حتى سقط، وتهاووا عليه بالرَّكلات وهو ملتفٌّ على نفسه. ثم أوثقوه وحُمِل بالعربة إلى الأوجاق. ولم أستطع حبس بكائي عندما حدثتني لالّة زهرة عنه. تساءلت عن جدوى ما قام به السّلّاوي، ولم أخمّن أن تضرّعاتي ستدخل في المقابل إنسانًا إلى السِّجن، وهكذا عُدت إلى سيرتي الأولى، في الغرفة الوحيدة التي تقاسمتها ولالّة زهرة، أركن إلى زاويتها وأبكي مُتضرعة إلى الله ليفكّ أسره.

أسبوعا لم أر فيه السّلّاوي، ولم أتوقف عن الدعاء، وفي منتصف الأسبوع الثاني سمعنا دقا على الباب، كان اليوم لا يزال في بدايته، جزمت أنه هو، وقفزت من مكاني دون وعي مني، وضحكت لالّة زهرة وهي تراني على حالتي تلك، إذ في برهة قصيرة كنت أقف عند الباب وأفتحه، ثم رأيته واقفًا هناك، أردت احتضانه، مثلما فعلت تلك الشّابة أمام الجميع، ولم أجرؤ، فليس هيّنا أن تفتحي ذراعيك لرجلٍ، ثم يبعدك بلين، لا يريد أن يحرجك أمام الناس، ولكنه في الأخير سيكسر قلبك، الرجال يعتقدون

ألا قلب للمرأة التي تهب جسدها، ينظرون إليها مثلما ينظرون إلى شيء يلتهمونه، حتى المتديّنون منهم لا تختلف رؤيتهم، شيوخ المساجد كانوا يُلحُّون في مطالبهم من الباشا أن يغلق المبغى، يترحّمون على الباشا السَّابق إذ جَرُؤ على غلق الحي وطرد النساء إلى الريف، وأعادهن إليه الباشا الجديد، لم يتحمّل سطوة اليولداش، إشاعات انتشرت في المحروسة، أنهم أضحوا يدهمون بعضهم ليلًا، وربما اعترضوا بعض نساء المدينة.

ابتسم السلاوي في وجهي وصافحني بيده، كانت خشنة وكبيرة بما يكفي لتختبئ يدي الصغيرة داخلها، أحسست بالدِّفء، ثم سحبها ونحن نعبر الرِّواق المؤدي إلى باحة البيت، وقفت لالّة زهرة عند باب الغرفة تُراقبنا مُبتسمة، قبّل السّلاوي يدها ورأسها، ثم جلسنا مُتقابلين هناك، تأملته، أثر الكدمات مازال على وجهه، حتى يده الأخرى كان يحاول إخفاءها، لا يزال أثر الحبل بها.

عذّبوك هناك؟ سألت لالّة زهرة وحرّك رأسه نفيًا، ثم أجابها بأن ابن ميّار دفع مالا وأخرجه من السِّجن قبل أن يشرعوا بتعذيبه، يومها سمعت للمرَّة الأولى باسم ابن ميّار. وغاب عني أنها ليست المرة الأولى التي يُنقذه فيها، بعد رحيله حدثتني لالّة زهرة عن أشياء كثيرة عن السّلاوي، بدت غامضة في البداية ولكنني بعد سنواتٍ وعيت ما هجس به السّلاوي، ولِمَ ارتبطت حياته بالرَّكض الدائم، سواء في زمن بني عثمان، أو حين دخل الفرنسيون.

يظلُّ السّلاوي يشغلني، بينما تشتغل لالّة سعدية بزوجها، تدنو منه في محاولةٍ أخيرة لعله يَعدِل عن رحيله، لكن ملامحه الجادة حالت بينها وبين محاولاتها. حين عادت من الضَّريح تحوّلت جُل رغباتها إلى عودته سالـمًا.

تتبعت لالة سعدية رحيل ابن ميار من ثقب الباب، وراقبته أنا من الكوة، وقف وملأ صدره بالهواء ثم تطلّع إلى جدران السَّقيفة، تعبأت عيناه منها، وخطا تجاه عين الماء، بلغها وانحنى عليها، ومدّ كفيه تحتها ثم طفق يتوضأ، ثم اعتدل واقفًا ومضى يُتم طريقه، إلى أن انعطف ولم أعد أراه.

الأماني التي كانت تحملها لالّة سعدية انتقلت إليّ، لو أن السّلّاوي قاسمه الطريق، لكنّ خاطرًا راودني أنه لا يرى طائلا من رحيله. أو ربما سيقول: إنهم هناك لن يصغوا إليك. ولكن أي دُروب غيّبتك يا حمّة؟؟ أتُراك التحقت بالثُّوار مثلما ظلّ يردِّد ابن ميّار؟ شيء ما بداخلي يجزم أنك فعلًا ستفعلها، منذ ذلك اليوم الذي غِبت فيه، حاملًا صرَّة طعامك، وعابرًا شوارع المحروسة الضاجّة بالناس، بعض شبابها كانوا إثرك يتصايحون بالموت للفرنسيين، هممتُ بالركض خلفك، وأكون إلى جانبك في سيدي فرج، أما حين أبصرتك تركض في نهاية المنعطف، فقد رغبت بالقفز تجاهك، لكن لالّة زهرة منعتني، تشبّثت بي، وجررتها مسافة، وأنا أرى نساء المبغى كل واحدة تحمل في يدها صُرّة طعامها وقماشًا يسرن خلف الرِّجال، رجوت لالّة زهرة أن تُفلتني، فأحكَمت قبضها على جسدي، ثم أفلتتني عندما غابت أصواتهنّ.

انتبهت إلى نفسي متشبِّثة بحافة الكُوة، أُراقب السَّقيفة الخاوية، التفتُ ومددت يدي إلى العرائس، وكلما نويت صناعة أخرى أبهى، أتذكّر أنه لن يأخذها، لم يعد يؤمن بأن هناك مكانا للأشياء الجميلة في المحروسة، ولا أدري ما الذي يبقيني هنا؟ بعض النّساء اللّواتي لقيتهنّ، ردّدن أنهنّ سيرحلن إلى قسنطينة، بنو عثمان مازالوا هناك يحكمونها، وحتى اليوم لم

يتغير شيء، رحلن ولم يعدن، وجهلت ما حدث لهنّ، تُرى لِمَ لا يرحل ابن ميّار إلى هناك وهو الذي صادق باشا المدينة وزاره أكثر من مرّة، كرسول أو كصديق؟ أليس أجدى له الإقامة هناك؟

حرّكت العروس في يدي، أنثى قبيحة، صدرها كبيرٌ كمؤخرتها، كانت من بقايا عرائس قديمة تخلّى عنها السّلاوي، ثم عادت يدي بأُخرى من صندوقٍ على يميني، لرجلٍ يحمل عمامة ضخمة، وجهه أميَل إلى الحُمرة، تتقدَّمه كرشٌ، يتمنطق بحزامٍ عريض يُعلق على طرفه سيفًا خشبيا، ثم طفقت أسحب من الصندوقَ العروس تلو الأخرى، وأطلُّ منها على أيامٍ كانت فيها للسّلاوي أحلامٌ بزوال الأتراك، ثم اندثرت ولم تبق منها إلاّ الوجوه القبيحة للعرائس، إلى أن تفاجأت بوجهٍ جديد، كان لرجلٍ أوروبي. افتقدتها قبل أيامٍ حينما سألني عنها، وبحثت في كل مكانٍ وما عثرت عليها، انتبهت إلى اختلافها عن بقيَّة الوجوه، اعتاد السّلاوي مناداته ديبون، أذكر ذلك الصّباح عندما قدِم في عجالة وطلب مني أن أخيط له عروسًا جديدة، ثم شرع يصِف شكلها ولباسها، وأسرّ لي أنه استمدّ شكلها واسمها وحتى طريقة كلامها من صديقٍ له، ولابن ميّار، كان شابًا فرنسيًا وصل مع الحملة، وبقي عاما بعدها ثم عاد إلى مرسيليا. بدا اسمه مألوفا إذ سمعت ابن ميّار يحدِّث زوجته عن لقاءاته به، ولكنه لم يكن ليُطيل الكلام، إن هي إلا جملٌ قليلة ثم يُغيِّر الموضوع. الرِّجال في المحروسة لا يُحبُّون مقاسمة مشاغلهم زوجاتهم، يفضِّلون عشيقاتهم أو نساء المبغى، وبعد أن تتهدّل الأجساد بعد انقباضها من حدَّة اللذّة يقولون كل شيء، تتّخذ شكل اعترافات يبوحون بها ثم يحملونها بعد مغادرتهم الحي، يبدو الأمر كلعبةٍ

يحبُّ الرِّجال ممارستها دومًا عدا السّلّاوي، لم ينظر إليهنّ مثلما رآهنّ رجال المحروسة أو الأتراك. أحيانًا أتساءل: ألأنه يا دُوجة أخرجك من المبغى تقولين عنه هذا؟ أم لأنه لم يلتفت إلى جسدك حينما أراده الجميع؟

يركن السّلّاوي للصمت كلما اجتمعنا، ثم يرحل إلى أمكنة أخرى لا قِبل لي بالمسير إليها، سنوات وأنا أبحث عن فرصةٍ لأقول كل شيء، أحكي له حكايتي منذ ولدت، إلى اليوم الذي التقينا فيه. عليه إدراك أن المسافة بين القرية والمحروسة كانت كلها قبورًا، دثّرت أمي، وأتبعتُها أخي، ثم غاب أبي، لأجد نفسي وحيدة أمام قبره. لم أتوقّع يومًا أن الأوجاع التي كنت أحملها ستعينني على تحمُّل المبغى، ثم أتحول إلى امرأة لا تعرف سوى الانتظار، ربما الذي لن يأتي، ولكنه إن أتى فلن أفلته هذه المرّة، سأتشبّث به وأروي له سيرتي كلها، وليس عليه إلا أن يصغي إلي.



القسم الثاني

ديبون

يوميات مراسل لحملة 1830 : نُشرت في «لو سيمافور دو مرساي» بتصرف.

أفريل شهر الضّجيج والفوضى، عيدٌ مُغاير حلّ على طولون، بعد أن كانت مدينة تتكئ على البحر في سكينةٍ، أضحت اليوم مهرجانًا مُختلطا. يركض الناس إلى الجهات كلها، لا يكادون يستقرّون في بيوتهم، حتى يغادروها. قيل أو قال، كلماتٍ تحملها الأفواه ثم تقذفها لتُحلّق في الفضاء الرحب من جانب المدينة الآخر. النساء والأطفال يتأبّطون صُرَر الطّعام والثّياب، يهرعون بها إلى السّاحات العامة، يبسطونها حيث تكوّم الجنود. ضاقت بهم منافذ المدينة، ترى صفوفهم اللانهائية، مثل النّمل يزحف كل هؤلاء على المدينة يهدفون إلى الميناء، اليوم الكلُّ يودُّ العبور إلى الضِّفة الأخرى حيث ترتفع الرَّبوة التي أقضّت مضاجعنا طويلًا. يُردِّد الجنود أغانيهم الاحتفالية بصوتٍ واحد تهتزُّ له الأبنية، ويعيدها خلفهم الناس متشوِّقين إلى سرد حكاية نصرهم. قصص البطولات فاكهة الفقراء في الشّتاء، حينما يجتمعون حول المواقد. لم يبق الكثير، تكلّم العجوز الذي قاسمني المقعد في إحدى السّاحات، كانت عيناه تنفران تجاه الجموع، وفمه يلهج بذكر الـمَلك، ثم يهمُّ بالصياح لكن صوته لا يسعفه، المجد للملك

المجد للمسيح. لا يمكنهم مجابهة هذا النّهر المتدفق. وما هي إلا أيام قليلة حتى تعود إفريقية إلى سابقِ عهدها. لم أُجِب العجوز الذي كان إلى جانبي. قُمت دون أن أُودّعه، وتركت بصره يتوغّل بين جموع الجنود، والنّساء اللّواتي كن يُوزِّعن عليهم الطّعام والضّحكات.

سرت مسافةً حتى انتهيت إلى الميناء، سفنٌ جديدة قد احتلته. بحّارون عديدون يجوبون أسطح السُّفن مثل النّحل. لم أتبيّن وجوههم، وجزمت أنها كانت أكثر صرامةً من السابق، وأنا العارف أن أسطولنا لم يكن في يوم ما منبعًا خالدا لانتصاراتنا. التفت إلى الجهة الأخرى فأبصرت السّفينة التي اخترتها، لوناجور كانت هناك، يتقدّم جُؤجؤها إلى الرّصيف وتشهقُ بِكبرٍ. كنت أحبُّ هذه السفينة، ومؤمنًا أنها ستعود منتصرة. اقتربت أكثر منها حتى رأيت قبطانها يدخِّن غليونه من هناك. وددت لو دوّنت بعض ما يجول برأسه، هل تُراه يتفاءل بهذه الحملة؟؟ أم أنه يخشى الأتراك؟ فلم يكونوا في يوم ما لُقمة سهلة. ربما كان القبطان يُشاركني الأفكار، وربما سُحب الدُّخان التي ينفثها بعصبية، تعلن لمن كان حوله مدى خوفه مما ينتظرهم عند السّواحل الإفريقية. سرت حتى جاورت سُلّم السّفينة، أظهرت التّصريح وصعدت إلى سطحها، ثواني فقط حتى كنت قربه، حيّيته، فردّ التّحية ببرودة دون أن يلتفت، وحين تمثّل وجهي مدّ يديه يحيِّيني بحرارة استغربتها، ولم ينتظر طويلًا ليضيف:

- بالتأكيد أنت ديبون، الصّحفي الذي اختارته «لو سيمافور دو مرساي» لتغطية الحملة؟؟

- أجل أنا هو!

- اعتبرني صديقًا هنا، وتأكّد أنه لن ينقصك شيء.

كلمات قليلة وانفعالات أكثر، بدا أن مقدار الحميمية التي يُفضي بها هذا الرجل فيه افتعال، كنت أعرف أشياء كثيرة عن الجريدة وصاحبها، فمنذ بدايتها اهتمّت بالمال وكل السُّبل التي تؤدي إليه، ولم تكن مرسيليا إلا ميناء تجاريًا تحدث به أشياء غامضةٌ تتعلّق بالتّجارة، اتهاماتٌ كانت تشير إلى مخازن السُّفن، وشائعاتٌ عن تورُّط الأسطول في تجاراتٍ ممنوعة. ولم يَبدُ لنا نحن الصحفيين إلا القليل، فحينما تريد السُّلطة والمال صناعة رأي ما فإنه ليس أسهل من ذلك. عَلِقت بلساني كلمات الشكر التي أردت قولها، ليس باسمي فقط، بل باسم صاحب الجريدة، فلم يعُد الأمر متعلقا بي وحدي. تشجّعت وهمست أشكره، وتذكّرت الشّرخ الموجود بين البحرية والمشاة. كلماتٌ سمعتها من ضُباط كانوا يعيدون سيرة الأميرال الجديد الذي اختاره الملك ليقود الحملة، فكّرت قبل سؤاله، ثم قلت:

- أأصاب الملك باختياره بورمون لقيادة الحملة؟

- لا يمكننا إطلاق الأحكام إلا بعد انتهاء الحملة.

- ولكن هناك ملامح مشتركة في كل القادة الذين يؤدون إلى النصر!

- أنت محقٌّ، كان نابليون أفضلهم ولكنه هُزم في واترلو؟!

- وبورمون؟

- نعم، كان من الذين خانوا، والآن يعود ليحقِّق حلم نابليون باحتلال إفريقية. أليست هذه يا ديبون أجمل نكتة سمعتها؟

- ولكنها للأسف ليست مضحكة.

الكثير من ضبَّاط البحرية كانوا يُؤاخذون القائد الجديد على خيانته القديمة. حدست بأن عار واترلو سيلاحق هذا الرجل بعد خمسة عشر عامًا من الهزيمة، لن يُمنح صكوك الغُفران حتى حين تُتوَّج الحملة بالنَّصر، ومع ذلك لم أرَ أنه بهذا المقدار من السُّوء، بل آمنت أن ذلك الكورسيكي الذي اتّفقوا على أنه أعظم قادة أوربا، لم يكن إلا مجنونًا يركض خلف أحلامٍ لا حدود لها. لذا حملت في نفسي أشياء أكثر نبلًا لبورمون. والآن أراهم هنا في البحرية أكثر تشاؤمًا من الجميع، إذ لم يكن الأمر متعلقا بواترلو فحسب، بل حتى بالـمَلك، كانت البحرية أكثر تعاطفًا مع المعارضين، في الحانات يجهرون بحنقهم على آل البوربون، ويعودون إلى سفنهم في انتظار أوامر الإقلاع وقد مضى على وجودهم أكثر من أسبوع، ولم يحدث شيء، عدا وصول أميرال البحرية في سفينته، وجلس هو الآخر يحتسي النّبيذ ينتظر بحنقٍ القائد المغضوب عليه.

بمزيدٍ من التّبغ حشا القبطان غليونه، ثم طالعني وهو يبتسم بسخريةٍ، وتكلم: الوعي الذي يملكه ذلك القائد لا يؤهله لفهم كيف يُخطّط أو يقاتل الأتراك. دائما كان الأمر مختلفًا هناك، هؤلاء البرابرة لا يمكنهم أن يعيشوا إلا بالنَّهب والسطو على السُّفن التي تعبُر البحر، لا يبصرون إلا فيما ندر الرّايات التي تحملها، حياتهم مُعلَّقة على صواري سُفنهم وليست في جيوش تزحف عبر الأراضي الأوروبية، إن أردت احتلال مدينة الجزائر، عليك إحراق أسطولها ومن ثمّ يمكنك احتلال ما شئت. اعلم يا سيد ديبون أنه لا حرب حقيقية على الأرض الإفريقية. هم لا يفقهون من نظامها الكثير، وكل ما يعوِّلون عليه طوال سنواتٍ كانت سفنهم، وشجاعة ريِّاسهم.

27 أفريل

تُرى ما الذي يعرفه الطولونيون عن هذه الحرب، أو حتى عن الجزائر؟ أم أنهم اكتفوا بما حمله العدد الأخير من جريدة «الومونيتور» عن أسباب الحملة؟ أسئلة بقيت مُعلّقة في ذهني في الوقت الذي اتخذتُ فيه مكانًا بين جمهور الناس، كانوا يُشكّلون صفوفًا طويلة احتلّت الشّارع الرئيس للمدينة يهتِفون بصوتٍ واحد، منتظرين القائد. بالأمس كان الكثير يجهله واليوم أضحى بطلًا حتى قبل إقلاع السُّفن. من بعيدٍ تراءت لي الخيول وهي تعبر البّوابة، هتف لها الجنود والناس دفعة واحدة، ثم سمعت دبيب العربات السّائرة في موازاتنا، ومثل الجميع لم أكن قد رأيت بورمون، تَغلغَلتُ بين الناس المتدافعين إلى صدارة الصفوف، واجهتُ عَنَت بعضهم ودفعت آخرين حتى كنت في مقابلة الطريق، أحدّق تجاه كوكبة الخُيول التي تقدّمت الموكب، ثم تلتها خيولٌ أخرى لضباطٍ انتبهت إلى الشّارات التي عُلِّقت على ثيابهم. بدا لي أن بعضهم كانوا من الذين جرّبوا الحروب طويلًا، اهتزّت الصلبان الذّهبية على صدورهم. ثم رأيته هناك يتوسط أبناءه، أبصرته عن كثبٍ، رجلٌ في نهاية الخمسينيات، يرنو إلى الهاتفين بحياته وحياة الملك والمسيح، يُحيّيهم بيده، فترفع الأيدي مُلوِّحةً لموكبه، وظلّ على تلك الحال حتى تجاوزهم بحصانه مسافة طويلة، انسحبتُ من الجمع، وأسرعتُ الخطى تجاه السّاحة التي كان يقصِدها الموكب، ثم أشرت إلى إحدى العربات، لتخترق بي الشّوارع الجانبية الخالية، ولكننا ما إن نقابل طريقًا رئيسا حتى يُوصد بكتل الأجساد المتراصّة، فنغيّر وجهتنا. تجاوزنا نصف شوارع المدينة إلى أن وجدنا منفذا، قفزت من العربة وتجاوزت المنعطفات كلها، من دربٍ إلى آخر حتى كنت

في مواجهة السّاحة الضاجّة بالناس. توسّط موكب القائد المكان، وترجّل الجميع عن أحصنتهم في مواجهة قسّ كنيسة طولون، عانقه القسّ بحميمية، اغتنمت فرصة مُعانقة القس للضباط، وتسرّبت بين الأجساد، سمعت شتائم بعضهم، وخدعت آخرين أني من الشرطة، وبُجهدٍ اقتربت أكثر من الموكب، وقف القس حينها إلى جوار القائد، ينظر إليه ويحدثه مثل صديقٍ. سمعت بعض الكلمات التي تفوّه بها: أنا حزين يا سيدي القائد، فلو لم أجاوز سن الشباب لأبحرت معكم، أصلّي لكل خطوة تخطونها، وأمنحكم مباركة الرّب لمشروعكم في نشر كلمته وإعلائها في إفريقية. رأيت انحناء القائد وابتسامته، كأنما كان يعطيه الأعذار، إذ تكفي صلاته للجيش الذي سينشر السّلام في المتوسط بعد غيابه قرونا، حينها واجه القس الجمهور وهتف: المجد للرّب، فتعالت الهتافات تجيبه، بل ربما هتفت المدينة كلها المجد للرّب المجد للرّب.

28 أفريل

ريحٌ خفيفة هَدهَدت الأمواج صباحًا. تطلّعتُ إليها من لوناجور، وقف القُبطان إلى جانبي يحدِّق تجاه البحر، وينفث الدُّخان بهدوء. قابلتني سفينة لابروفانس، وحين أطلت التّحديق تجاهها خاطبني:

- يجدر بنا الالتحاق بهم هناك!!

- ولِـمَ؟

- سيجتمع وزير البحرية بضبّاط الحملة.

الجميع كان يعرف لابروفانس، قبل أشهرٍ فقط رست في ميناء الجزائر. خَبَرَ ملاّحوها مزاج الأتراك، وكيف ينظرون إلينا كمسيحيين. وددت لو

أسرع إلى هناك، ليس من أجل الاجتماع، بل من أجل ما حدث قبل أشهرٍ، حين عادت السّفينة وقد حُطِّم جزء منها، بعد فرارها من قذائفهم. لم يشفع لهم السّلام الذي عقده باشاهم مع رسولنا.

أشار القُبطان أن أتبعه، نزلنا من لوناجور وسرنا على الرّصيف حتى انتهى بنا إلى لابروفانس. كان هناك بعض الصحفيين الفضوليين من طولون، لم يُسمح لهم بالصُّعود عدا اثنين منهم، قفزا أمامنا وصعدا مسرعين. ثم كنا في أعقابهما حتى بلغنا سطحها، ربما كانت تلك أعظم سفينة ركبتها في حياتي. ولكنها لم ترهبني مثل لوناجور. لا يمكن للإنسان تجاوز انبهاره الأول بالأشياء بسهولة، تظلّ عالقةً بذاكرته، ثم تتحوّل إلى جزء من شخصيته. لهذا وضعت لوناجور شرطًا لرحيلي إلى الجزائر كمراسلٍ حربي. نزلت عبر السّلالم، وقابلني باب الرواق المؤدي إلى غرفة الاجتماع، سبقني القبطان إليها. وحين هممت بمغادرة الرّواق سمعت نداءه، ثم أشار بيده إلى الأسفل وقال: ابحث عن بحار يدعى برنار، إنه أقدم بحّارة لابروفانس. نزلت إلى الطّابق السفلي، حيث تحلّق بعض البحارة حول طاولةٍ، اقتربت أكثر منهم وسألت عن البحّار، فأشار أحدهم إلى اليمين. وحين التفت رأيت طاولة في أقصى الغرفة، يجلس إليها بحار واحد. دنوت منه واستأذنته مقاسمته الطاولة فسمح لي، ولم يبادرني بالكلام، اكتفى باحتساء نبيذه في هدوءٍ، فطلبت أنا الآخر كأس نبيذ، رشفت منه القليل وخاطبته:

- أنت السّيد برنار؟

- ويبدو لي أنك أحد الفضوليين؟

فاجأتني ردّة فعله، فأشحت وجهي دون أن أنبس بكلمة، وحين أطلت الصّمت فاجأني بسؤاله:

- هل ستظلُّ تحدِّق بي طويلا؟

قالها بعنفٍ، بالرَّغم من أني كنت أرنو إلى الطاولة الأخرى. بدا لي أنه لا يختلف عن الآخرين في سأمه من الانتظار، وربما كان أكثرهم حنقًا، لذا تشجعت وقلت:

- أهذا الحنق بسبب تأخير الرّحيل أم خوفًا من الأتراك؟؟

وأجاب بالحنق نفسه:

- اللَّعنة على حاملي الأوراق والأقلام.

بصق على الأرض، ثم عاد ينظر تجاهي:

- جميعكم متشابهون، أنت وزمرة المثقّفين، والملك ووزراؤه، حينما يريدون حماية مناصبهم يرسلوننا لنحارب. قبل أشهرٍ كنا نحمل لباشا الجزائر الهدايا ليرضى عنهم، واليوم يسوقوننا إلى هناك لنُقتل بيد الأتراك القراصنة.

لم يكن مجديًا مجادلة البحّار، كان سيصرخ في وجهي، وربما يتّهمني بأنني من كلاب الوزير بوليناك، مثلما كان يقول الكثيرون حينما احتدّت الصّراعات بين الصّحافة والحكومة. أصحاب الجرائد اللّيبيرالية في باريس كانوا يوافقون البحّار، لطالما وقفوا ضدّ السّلطة المطلقة للملك، ولم يروا في الحملة إلا أنها بحثٌ عن المال، ليُطيح الملك بمعارضيه، ولأن هذه الأمة كانت تؤمن بالانتصارات باسم المسيح فلم يكن يلزمهم سوى نصرٍ آخر يُحقَّق كي يصبح الملك هو الآخر مسيحًا في نظر الناس.

غادرت الغرفة، وعُدت حيث خلّفت القبطان، وحينما تجاوزت الباب الأخير من الرواق، رأيته صحبة بعض ضُباط البحرية. لم يكن الوزير هناك، لكنني أبصرت أميرال البحرية السيد دوبيري، ومن أول وهلةٍ يراه الإنسان

يكتشف المزاجية التي يتحلّى بها. وكأنه في حالة نزقٍ دائمة، لا يعجبه شيء، يتذمّر من تعيين الأميرال بورمون قائدا على الحملة. ولم أدر إن كانت هناك مآخذ أخرى غير العار الذي عاد به من واترلو.

بعد عودتنا إلى لوناجور، بسط أمامي القبطان بعض الخرائط التي تتعلّق بمسيرنا، من طولون إلى ماهون، ثم إلى السّواحل الإفريقية، وإن استدعى الأمر ربما سنعرج على بالما، تفحّصت الخرائط ودوّنت منها بعض الملاحظات، وعدت إلى غرفتي التي خصّصها لي القبطان. ظننت أنني كنت وحيدا بها، وفُوجئت بشخصٍ آخر يقاسمنيها، كانت المرّة الأولى التي أراه فيها، بدا لي في نهاية الأربعينيات، نظرته هادئة، وميّزت لكنته الجنوبية من تحيّته.

3 ماي

لم تحمل الأيام الأخيرة من أبريل أي جديد، أبواب طولون ما زالت تكتظّ بجنودٍ يَفِدون كل حين، والميناء أضحى هو الآخر مكتظًا بالسفن. كان لدى البحارة ما يشغلون به أنفسهم، إذ التقوا بأصدقاءٍ لم يروهم منذ سنواتٍ. بعض السُّفن كانت في أقصى الشّرق، وأخرى قادمة من الهند، وأخرى تحمل العبيد خِلسة من إفريقية بالرّغم من أننا قبل سنواتٍ عشر أمضينا المواثيق مع الإنجليز، بمنع هذه التجارة. لطالما كنت مُؤمنًا بمجد هذه الأمة، بينما كان الجميع يراها عدوًا لدودًا لنا، لكنني أبصرت بجلاءٍ كيف سعوا إلى إنهاء العار الذي بقي لصيقًا بنا نحن الفرنسيين، أن يستعبد الإنسان إنسانا آخر لأنه يختلف عنه في لون البِشرة، أو لأن أسباب الحضارة لم تجتمع لديه، أصرّ العالم المتحضّر على الاحتفاظ بهذا العار. لكنني اليوم متفائلٌ، وأنا أرى الملك أكثر مَيلًا من سابقيه إلى مبادئ الرّب، يريد إعادة

المجد لهذه الأمّة التي أفقدها نابليون الكثير من سمعتها. ولم يكن هذا المشروع إلا بداية لإنهاء العبودية التي جعلها الأتراك في أعناق أبناء المسيح، نعم المسيح الذي يُدافع الملك عنه، لأنه من سلالة القدِّيس لويس التّاسع. واليوم تصل إلينا الأخبار عن زيارة ولي العهد لطولون. حدّثني القُبطان يوم الاجتماع عن زيارة الأمير لليون، حيث استقبله الناس بالهُتاف والجنود بأصوات البنادق، حتى المدافع دوّت مرات عديدة في سماء المدينة، لكنه لم يلبث طويلًا بها، إذ غادرها إلى مرسيليا، وهناك كان الاحتفاء به أكثر، تجمّع الناس مثلما اعتادوا في شارعها الرئيسي، يهتفون بحياته وبحياة الملك. كان ذلك في اليوم الأول من ماي، ونحن الآن في يومه الثاني، والناس تتجمّع في الشّارع الرئيسي لطولون، أكاد أجزم أن هذه الأُمة لن تعرف مجدًا مثل الذي يحدث الآن. الأُمة كلها تُجمع على ملكها، وترى فيه تجليًا للمُخلِّص، ليت مَن في البحرية ينزلون إلى شوارع طولون أو مرسيليا أو حتى ليون ليَروا بأعينهم، كيف يهتف الناس والجنود لآل البوربون.

في اليوم الثّالث استيقظت متأخرًا على أصوات دوّي المدافع، ارتديت ثيابي، وفتّشت عن شريكي بالغرفة فلم أجده، نزلت من لوناجور مسرعًا، حتى حللت بالشّارع الرئيسي، تجمهر الطولونيون أكثر من الأيام السّابقة، زُيِّنت الأبنية بالأعلام، حتى الأطفال كانوا يحملون في أيديهم العلم الأبيض، كنت سعيدا وأنا أقترب أكثر وأرى وليّ العهد، أبعدني تدافع الناس عن مكان وقوفه، فبقيت أراقب موكبه يتوغّل أكثر تجاه الحي الإداري للمدينة.

بقية الأسبوع الأول من ماي

لن تحتمل طولون تلك الضجّة وهؤلاء القادة كلهم: وليّ العهد، قائد الحملة وزير البحرية، أميرال البحرية، وأولئك النُّبلاء الذين كانوا يرافقون الأمير. الجنود يتوزّعون مثل النّمل في المدينة وساحاتها، والسفن يكاد الميناء يلفظها، لم يكن الأمر هينًا، والناس تقطع الشّوارع جيئةً وذهابًا منبهرة بما تراه حولها. أحيانًا أسأل بعض العابرين عن الأتراك، وعن أسباب الحملة عليهم، يُردِّدون مثلما يردِّد السِّياسيون: قد أُهين شرف الفرنسيين حينما ضُرب القُنصل بمروحة الباشا، ولن تسمح غيرة هذه الأمّة باستعباد المسيحيين في أراضي المحمّديين. لم يكن هناك الكثير من الحُجج التي يحملها الناس في عقولهم، لكنهم متشبّثون بها. هل كانوا مثلا يعرفون سيرة القُنصل؟ هل قرأوا التّاريخ الذي جمعنا بهذه المدينة؟ الكثير من الأسئلة المشابهة طرحتها جرائد اللِّيبيراليين والمعارضين لهذه الحملة، ولا أعتقد أنها ستؤثر مادام الناس يحملون في نفوسهم التبجيل للملك ولقائد الحملة.

مكث ولي العهد أيامًا ينتقل من ساحةٍ إلى أخرى، يزور الجنود، يحمل لهم رسائل الملك، وعودًا وهِبات تنتظرهم بعد النّصر. تطلّعوا إليه غير مصدِّقين أنه يقاسمهم السّاحات القذرة. كانوا أكثر سعادة بتواضعه من الوعود التي يحملها. في آخر أيام زيارته مكثتُ غير بعيدٍ منه، حيث اجتمع بقائد الحملة ووزير البحرية، من بين مئات الصحفيين كنت إلى جانبهم، أسير بين الطاولات التي أُعدّت في القصر، بالحفلة التي نظّمها على شرفه نُبلاء طولون، قبل رحيل الحملة بأيام، كانت الكؤوس تَصطَكُّ ببعضها والتهاني تنتقل بين الأفواه، حملت كأسي ودنوت منه، وقف إلى جوار وزير

البحرية، والأميرال بورمون كان إلى جانبه، بدا أكثرهم تواضعًا، سمعت وليّ العهد يخاطب الأميرال: «كم أنت محظوظٌ بقيادة هذا الجيش!» رأيت علامات الخجل التي حاول الأميرال مواراتها، في حين أقبل الأمير بوجهه تجاه الوزير: «عَلِمت أنكم ستعودون قبلنا إلى باريس، وعندما تلتقون بوالدي الملك، أبلغوه عني أنني قضيت أفضل أيام حياتي رفقة الجيش، وأكثر ما يؤسفني أنه ليس في مقدوري قيادة هذه الحملة».

انسحبت حين تراءى لي القُبطان من هناك، وتفاجأت بالرجل الذي يقاسمني الغرفة إلى جواره. انضممت إلى المجموعة، كان هناك ضابطان لم أعرفهما. بدا لي أنهما من لابروفانس، جلس الجميع ينفث الدخان ويحتسي النبيذ، انتبهت إليه وقد ظلّ طوال الجلسة صامتًا بينما كان الآخرون ضاجّين. أعلن أحد الضباط:

- تجاوز عدد السفن الخمسمائة، ستحمل الجنود وتسير إلى السواحل الإفريقية.

وأردف القُبطان:

- جُلّها قد حُمّل بالبضائع والأغذية.

وابتسم الضابط الثاني:

- ولا تنس النبيذ، فلن تجده في إفريقية بهذه الجودة.

في هذه اللّحظة سمعت تعليق كافيار الساخر:

- كما لا تنس الزُحار والوباء.

صمت الضابط قليلا ثم أضاف:

- نحن لم ننس شيئا يا سيد كافيار، الجيش لديه ما فيه الكفاية من الأطباء والأدوية، ولكن لماذا تتبجّح دائما بما تعلمه عن الجزائر، ألأنك مكثت طويلًا بها تظلُّ تكرر نصائحك؟!

- أنا أُذكِّرك فقط.

- وأنا في غنى عن ذلك.

- ولكنك بعد أيام ستكون مرغمًا على سماعه.

زادت الجملة الأخيرة من حنق الضابط، ولكنه لم ينبس بكلمة، ربما خمّن مثلي أن علاقة خفية تربط الرجل الذي يقابله بالذين اجتمعوا خلفه، أو ربما بدوائر الملك في باريس، الثقة التي كانت تصاحب جُمله المختصرة والكثيفة، لم تكن إلا دليلًا على ذلك. لحظات أخرى من الصمت. ثم عاد الجميع إلى ضجيجهم، ينفثون دخانهم في سماء الغرفة، أرفع رأسي نحو السطح، تشدُّني رسومات لأطفالٍ بأجنحتهم الصغيرة، يُحلقون في سماء الجنّة، يطوفون بالعذراء، المجد لك أيتها العذراء. عُدت أستكشف الوجوه، لم أر الأمير هناك، وكذلك الوزير والأميرال. كان الجميع من حولي يستعدون للرحيل، حملت نفسي وسرت بمجاورة القبطان، ثم كانت العربة تعيدنا إلى لوناجور.

الأسبوع الثاني من ماي

أفقت على ضجيج يملأُ المكان، هرولت عبر الرواق، وعندما بلغت الباب رأيت مئات الجنود يصطفون على سطح السفينة، يحملون أكياسهم وبنادقهم. آلافٌ من الجنود تدفّقوا من منافذ الميناء كلها، الأبواب لا تكاد تتّسع لمرورهم. يسير كل صفٍ في طريق إلى سفينته المختارة، في نهاية الرصيف رأيت الخيّالة يسوقون خيولهم إلى سفنٍ أقصى الميناء. عُدت إلى مكان الجنود، وقد شكّلوا مجموعاتٍ، وكل مجموعة تحلّقت حول رئيسها.

اقتربت من إحداها وأصغيت لها، وفي التّو عادت إليّ آخر جملة وجهها كافيار للضابط، كانت تعليمات للجنود الذين سينزلون إلى الجزيرة الإفريقية. بدا الصّوت صارمًا وهو يتلوها: عليكم بالاستحمام مرتين في اليوم، لن تسبحوا إلا مدّة قصيرة. تفادوا شرب الماء بكثرةٍ، تفادوا أكل الفواكه الفجّة. لا تأكلوا اللُّحوم المملّحة إلا بعد غسلها. لا تشربوا من مياه البِرك. وأدركت يومها أن كافيار كانت له كلمة عند الذين قرروا إيفاد الحملة.

ثلاثة أيامٍ أخرى، لم يهدأ الميناء، كل يومٍ يوقظنا ضجيجٌ يتعالى من رصيفه، وأصوات جنودٍ يُقبلون وآخرون يقودون الخيل، يُصعدونها على متن السفن، ثم تنشر أشرعتها وترحل عن الميناء. وتتلوها أخرى للجنود، قال لي القُبطان الذي وقف قربي:

- دوِّن الآن يا ديبون في دفترك أننا قد بدأنا الحملة على الجزائر.

ثم أشار إلى السُّفن وأردف:

- من اليوم ستغادر سفن الأسطول تِباعًا ونجتمع هناك في جزيرة ماهون، لنواصل طريقنا.

فتساءلت حينها:

- ولوناجور؟

- ستكون في أثر لا بروفانس.

- وبورمون؟

- سيكون هناك رفقة الأميرال دوبيري.

انتبهت في اليوم الرابع إلى السّكون الذي عمّ الميناء، حتى شريكي في الغرفة لم يغادرها مثلما اعتاد، كان يتمدّد على سريره، يطالع كتابًا لم أقرأ

عنوانه لعجلتي، غادرت الغرفة إلى سطح لوناجور، وتراءى لي الجنود متسمِّرين يحدِّقون تجاه لابروفانس. نزلت إلى الرصيف متجها إليها، وحين اقتربت كان بورمون يستعدُّ لخطابه، وعلق بذهني بعضه: إن الرجل العربي قد عاش سنواتٍ طويلة مُضطهدًا من زمرةٍ غاشمة، وسيجد فينا نحن المحرِّرين، وسيَلتمس تحالفنَا وبهذا لن تدوم الحرب إلا زمنًا قليلا، ولن تُسفك إلا دماء أقل.

خطابه غمرني بالسّعادة، في كل جملةٍ يتوطّد ما بيني وبين هذا القائد، يحمل في روحه الدّعوات التي أتى بها النّاصري، لا يريد إلا تحرير الإنسان الذي اضطهد، ولا يريد مزيدًا من سفك الدِّماء. وسحبت نفسي عائدًا إلى لوناجور، دخلت الغرفة ووجدته يستلقي بكسلٍ على فراشه، فانتحيت مكانًا ليس بعيدا عنه، وقلت:

- ألا يستحق القائد أن يُسمع خطابه؟

رفع عينيه من على الكتاب، وابتسم بسخريةٍ كعادته:

- أتتكلم عن خائن واترلو؟

- بل أتكلم عن قائد الحملة!

- دعك من هذه الأوهام يا سيّد ديبون، أنت تجهل أشياء كثيرة لتدافع عنه.

يقطع هذا الرجل كل الدُّروب المؤدية إليه، ألوذ بالصمت، ويعود هو إلى كتابه. لا أدري كم مرّة حدث هذا، وكم مرّة يصمت منهيا الحوار بيننا، ولكني لن أستسلم، فالبحر مثلما يصنع المجانين يجعلهم أيضا عقلاء.

الأسبوع الثالث/ الرابع من ماي

ريح المايسترال تهبُّ بقوةٍ، يقذفها الشّمال تجاهنا، ترتجُّ السّفينة حينما يضربها الموج، أقول في نفسي لو تتمسّك بهذا العنف فلا بدّ أنها ستلقي الكثير مما تحمله لوناجور إلى البحر. كان يومًا سيئًا ابتدأ به الأسبوع الثّالث. ثم تراجعت حدّة الرّيح في اليوم الثاني والثالث، إلى أن أضحت نسيما عليلًا في اليوم الرابع منه، وقفت أتطلع إلى الحركة البطيئة على الميناء، وألتفت من حين إلى آخر تجاه لابروفانس، لا جلبة على سطحها، شعرت أن أيام مكوثنا في طولون باتت معدودةً، وحتى بالسّفينة التي نحتلها، كان كل شيء معدًا، ولم يبق إلا سماع طلقات المدافع معلنةً وداعنا.

في اليوم الأخير من الأسبوع الثالث وردتني أخبارٌ أننا سنُقلع مع الفجر، لم أنم تلك الليلة، أشياء كثيرة دارت في خلدي، إلى أن وصل شريكي بالغرفة مُتأخرا، وخمّنت أنه لم يكن في لوناجور بل في لابروفانس، قال وجهه إنهم اتّفقوا على أشياء تُغاير ما خططنا له. ثم تمدّد على فراشه وخاطبني:

- ربما عليك يا ديبون أن تنام، لن نرحل إلا بعد أربعة أيام.

ارتميت على فراشي، وتمنيت مرور الأيام سريعا، ولم أنتبه إلا على ندائهم. صعدت إلى سطح السّفينة، واستنشقت نسيم الفجر النّدي، امتدّ بصري تجاه لابروفانس حيث أعطى الأميرال إشارة الإبحار. فتلقّت جميع السفن التي كانت حوله الأوامر برفع الزَّوارق. ورأيت الحركة من حولي، كان الملَّاحون يرفعون الأشرعة، وآزرهم الجنود في إقلاع السفينة. تحركت لابروفانس ثم كنا في إثرها. مسافة سرناها شاهدت أهل طولون يتطلعون إلينا من حصونها، وآخرون يُلوِّحون لنا من السُّهول، ترتفع أصواتهم ولم يُقدَّر لي سماعها ذلك اليوم.

كافيار

لم يكن مُجديا أن أُسأل عن اسمي القديم، أو عن مهنتي. تذوب الألقاب يا ديبون حينما تقبض السّلاسل على رجليك، ويُصبح تاريخك هراءً. لذا لم يكن في صالحي التفوه بكلمة عما أعلمه أو أتقنه، الصمت وادِّعاء الجهل هو سبيلٌ آخر للنجاة في هذه المدينة المتوحشة، كانت القيود تُثقل يدي، يسحبها السجين الذي يسبقني فأُوشِك أن أسقط، أُصغي إلى الصوت الحاد، ثم يدنو الظل مني، وفجأة أصرخ من حرارة الألم، ولا أجرؤ على الالتفات. ثم يواجهني الحارس التركي، يُكوِّر البَلغم في فمه ويقذفه على وجهي. أحدِّق بوجهه في تحدٍ فيزداد حنقه، ويهمُّ أن يهوي بالسوط عليّ، لولا نداء حارسٍ آخر، ترتخي يده ويعدو نحوه، متوعدًا إياي بتأجيل العقاب.

يرتفع الباب الخشبي عملاقا، ونصطف تحته مثل قصب الذُرة، سار الصّف الطويل مسافة إلى الأمام، تدافعنا تحت ضربات السياط، والأصوات التي تتعالى من حولنا. تجاوزنا البوابة حتى بلغنا باحة السجن، وتغلغلت رائحة العفن الحادّة إلى أنفي، واشتعل حلقي بحرقة من جرّائها، ثم امتدّت إلى عيني وصار لزامًا عليّ مدّ يدي لأحكّها. وكلما هممت بذلك أسحب السّجين الذي خلفي، وهكذا دواليك يسحب هو الذي خلفه. صرخ الحراس علينا، ولم أفهم مُرادهم لو لم يتحرك بعضنا مشكلين جماعاتٍ في

قلب الباحة. تطلّعت إلى جُدران السِّجن العالية، انتبهت لنفسي أفكِّر كأسير حربٍ، بينما لم أكن سوى عبدٍ مغلول في مدينة معبّأة بالمتوحشين. جُلت ببصري فرأيت الحرّاس من حولنا، وآخرين يحتلّون الطابق الأعلى للسجن، أخفض بصري إلى محيط الباحة، فأرى فَجَواتٍ باتِّساع الغُرف في نهايتها، وآثار الرّماد على أطرافها، وبقايا خشبٍ مرمية عند الجدار. لم أعرف مصدر الروائح الحادّة التي كانت تصلني إلا حينما التفتُّ ورأيت بقايا الحيوانات ملقاة هناك، وقبل التفاتي سمعت نداء الحارس التركي مرة ثانية، لم أدر أنه يعنيني إلا حينما انشقّ الصّف عني، ووقف أمامي وأخذني من صدري، ثم دفعني بقوةٍ ولولا السلسلة التي كانت بيدي لسقطت أرضًا. ثم وقف يراقب تجمعنا من الخلف. بقينا متسمِّرين هناك حتى أقبل جندي بدا مختلفًا عن البقية، كانت حُلّته أفضل من حُلّة الجميع، أشبه بما كان يلبسه وكيل الحرج، وضعوا له كرسيًا أعلى المصطبة، وفتح دفترًا أمامه، وشرع ينادينا بأسمائنا، وكل من يسمع اسمه يعلن عن نفسه بالصّياح. فيهرع الحارس تجاهه ينزع عنه الأغلال، ويتقدّم حتى يكون في مقابلة الضابط، يسأله عن عمله قبل أسره، ثم يقاد إلى نهاية الباحة دون أغلال. لحظات من المناداة سمعت اسمي حتى لم أتبيّنه، وخطوت تجاه الضابط. تفرّس في وجهي، وحين أخبرته أنني لم أكن إلا صيادًا أومأ للحارس فقادني إلى نهاية الباحة، وعلى هذه الطريقة حلّ المساء، وخمدت أصوات الحراس فجأة حين فُتحت الأبواب، ورأينا صفًا طويلًا للعبيد، كانوا قد عادوا حينها من الميناء حيث وُرش العمل. وآخرون من مقالع الحجارة. اعتقدت أننا الوحيدون هنا، نحن المسيحيين الأوروبيين، بيد أنني تفاجأت برجال من الـمُور، وجوههم يملأها غبارٌ أبيض دقيق، تكهّنت أنهم من مقالع الرُّخام، كانت

السلاسل تكبِّل أيديهم ولم تفكّ عنها إلا حين أغلقت الأبواب خلفهم. وانتبهت إلى القيود الحديدية في أرجل المسيحيين والزنوج دون أولئك الـمُور. حال بيننا وبينهم صفٌ من الحراس، لم ينسحب إلا حينما أقبل ثلاثة حدّادين بمطارقهم وكلاليبهم، وثبّتوا لكل واحد منا قيدًا حديديًا في رجله. احتدّ ألمي حين أُحكم عليّ، كتمت الصوت في صدري، وسرت مثل أعرج حين قادونا إلى العنابر.

في الظُّلمة لم يكن حولي سوى الشّيطان يطلُّ من شقوق الجدران، أرى لُمعة عينيه وشررهما، يُردِّد في ظلام العنابر العَفِنة أنه إله جديد لهذا العالم. وما كان لي إلا تصديقه، حينما يريد الإنسان الإيمان في جحيم هذا العالم فليس له إلا أن يؤمن بإلهٍ لا تتغلغل الشّفقة إلى قلبه، إلهٍ مسرّته في سفك الدِّماء من أجل مجده، لا في إعطاء خدّك الثاني عندما يُصفع الأول. ليس هناك ما يجعلني أتّفق مع هؤلاء الأتراك المحمّديين، ولهم إلههم الذي يدعوهم لاضطهادنا، أليس غريبًا أن أول ما حفظته من لغتهم هي سبابهم إياي بمسيحيتي وكفري» كريستياني قَذر، أو كافر» تلك هي الكلمات التي كانت تتردّد في باحة السجن. كنت أتحسّس القيد في ظلمة العنبر، الذي لم أستطع تحديد مساحته، وتوقعت كم كان ضيّقا، مزيجٌ من الروائح الكريهة للأجساد ورائحة البول تعبئ الغرفة، التي تزداد ضيقا حينما تضغط الأجساد أكثر على صدري، لا أدري كم من عبدٍ جثم فوقي، أو كم رفسني أحدهم بقدمه بينما صرخت في داخلي كلما حرّكت رجلي، أو ضغطتُ أكثر على القيد، كأنه بات يتقلّص على رجلي. أحاول التقلّب في مكاني، ولكن لا مساحة للحركة. يتسلّل البرد من كل مكان، عيناي تجوسان الظّلام فلا تعثران على منفذٍ به، تمنيت بزوغ شمس يوم جديد، على الأقل أرى الضّوء

فأستأنس به، ولكني سأستيقظ على إنسانٍ مختلفٍ عما عهدته، ستتوغّل واترلو في الذّاكرة البعيدة، وسيصبح نابليون اسما مُعلّقا في شجرةٍ تيبّست ولكنها ترفض السقوط.

أُنادي على الضّوء أن يُقبل مُسرعًا، ولا جواب غير أنفاسٍ حارة تنبعث من أفواهٍ جائعة، لا أراها ولكن نتانتها تُصيبني بالغثيان، أقذف ما في بطني ولا أدري أي وجهٍ استقرت فوقه، إلا حينما يرتفع السباب. ثم أقذف دفعةً أخرى من معدتي أكثر دفئا ومرارة، كادت روحي تُغادر جسدي على إثرها. أنكمش منها وأنتظر المزيد، وتأبى إكمال مسيرتها إلى حلقي، تغيب حتى أقول إني شُفيت وتعود لتتصاعد من جديد، ثم فجأة أحسست بالبرودة تتسلل إلى جسدي، بدأت بقدمي ثم امتدّت إلى ساقي، وانتشرت إلى بقية الجسد، ثم لم أعد أُدرك شيئًا إلا صراخًا حادًا، وضوءًا ينبعث من كُوة العنبر. أفقت وصورة سات تَنوس بذاكرتي. ووقفت لأطلّ على الصيّادين من المركب، ولم أر إلا مزيدًا من الوجوه الشّاحبة، وغرفة ضيّقة عجِبت اتسعت لنا، إلا إن كنا مُكوّمين فوق بعضنا، وحتى الروائح كانت لا تُطاق، يتعالى الزّعيق يُنادي على السُجناء أو العبيد، أن يستيقظوا ويهرعوا إلى نهاية الرواق حيث الكنيسة الكاثوليكية.

لا تستغرب يا ديبون أن أعيد عليك كل هذه الحكايات، لست مُجبرا على بسط مرافعات أنا في غنى عنها، لم أُهزم بعد، ما زلت مُقدَّرًا من الجميع، سواء في باريس أو في الجزائر. والآن تصلني رسائل الحاكم العام للجزائر فوارول، ألتقيه ونشرب الأنخاب من أجل أعمال التّوسعة الجديدة، ونستمع إلى أخبار القائد الذي صار العرب اليوم يجتمعون حوله. لكني موقنٌ أنهم

لن يُطيلوا التَّحلّق حوله. إنهم لن يجدوا عند الأمير أي شيء مما يحلمون به، لا يريدون النعيم المؤجل وأنهار الخمر التي يعدهم بها. والحوريات التي تنتظرهم في جنّتهم. عاشرت هؤلاء العرب وصرت أفهم كيف يُفكِّرون، خاصة إذا تعلّق الأمر بمصالحهم. كانت السنوات التي قضيتها في بيت القُنصل كفيلةً بأن أُصبح عليمًا بما يجول في أذهانهم. الخبثُ هو سِمة العرب، والخداع هو أقصر الوسائل التي يستعملونها لبلوغ غاياتهم، يُقبلون عليّ في مكتبي حينما تتقرّر توسعة شارعٍ ما، يبكون أنهم لا يملكون المال، ثم حين يتعلّق الأمر ببيوتهم التي ستهدم، فإن الأموال سوف تظهر، يُريدون إبعاد التّوسعة عن بيوتهم، ولا يأبهون عندما تشمل بيوت جيرانهم. أتحايل عليهم كي آخذ أموالهم، وبها أهدم جزءا من بيوتهم، فالمخطّط الذي أحلم به لهذه المدينة يتجاوز أحلامهم وتفاهاتهم الصغيرة. لذا ليس عليك التعاطف معهم يا ديبون، عقلك لا يدرك ما أعرفه عنهم. ورحلتي الطويلة في اكتشافها مدينة تسطو على المدن التي تجاورها، وتَستَعبد المسيحيين، ليعينوها على بناء أساطيل جديدة، كنت أكتشفها كل يومٍ، والسِّياط تُلهب جسدي.

من الرِّواق رأيتهم يسرعون في اتجاه الباحة، خطوت في إثرهم، ثم انعطفت مثلما انعطفوا، وتراءى لي باب واطئ، سرت حتى انتهيت إلى غرفةٍ واسعة، وأكثر نظافة من بقية الغرف، كانوا مصطفِّين يحدِّقون في العجوز الذي وقف يتلو الصّلوات، هممت بالانضمام إليهم وسنح لي خاطر بالعودة إلى العنبر، فسحبت نفسي إلى مدخل الرواق، وانتبهت إلى رواقٍ آخر يحاذيه، فكّرت بالعبور إليه، وخشيت ضربات السياط، ثم تشجّعت حين أبصرت الباحة من مكاني، حركة كثيفة للسجناء يصطفون

في طوابير لينالوا خبز الصباح. عدت أتأمّل الرواق الثاني، عرضه لم يتجاوز الأربعة أمتار، وقدّرت طوله بعشرة أمتار، قطعتها باحثًا عن غرفٍ مثل التي نحتلها، كانت كل الأبواب مُشرعة، عاينت إحداها ولم تختلف عن التي نتكوّم بها. أيعقل أن يحتلّ ثلاثون شخصًا، غرفة عرضها مثل طولها ثلاثة أمتارٍ! كنا محشورين بعضنا فوق بعض مثل السّمك في الصناديق الخشبية، اندهشت من نفسي وكيف أمكنني المبيت بها اللّيلة الماضية. وقبل أن أخطو سمعت كلمات إنجليزية التفتُّ إليها، ورأيت ثلاثة شبابٍ وقفوا يراقبونني منذ عبوري إلى الرّواق، ثم اقترب أحدهم مني:

- ألست من الفرنسيين الذين اقتيدوا بالأمس إلى هنا؟

- أجل، أنا أحدهم.

- الباقون يقاسموننا الغرفة، بحثنا عنك بالأمس ولكنك لم تظهر.

- لأنهم أجّلوا دخولنا إلى الخنادق.

طلب مني الشاب مرافقته، وسار إلى جانبي صديقاه. حين بلغنا باب الغرفة قدّم وليام نفسه على أنه أمريكي أُسر قبل سنةٍ في مضيق جبل طارق، ثم سحب باب الغرفة لأكتشف وجوه الصيّادين الذين غادروا معي سات. قفزت سعيدًا بهم، وعانقتهم كأني لم أرهم منذ سنواتٍ، كانوا في ثيابٍ نظيفة غير التي افترقنا عليها. وقبل أن أُتم حديثي معهم وجدت وليام يمدُّ يده بقميصٍ وسروال نظيفين، ثم خاطبني:

- أعيرك إياهما حتى تقبض أوّل أجر لك.

وإلى حينها فقط اكتشفت أن العبيد يمكنهم الحصول على المال من عملهم. قَبَضت يدي ما أعارني وليام، وقبل مغادرته العنبر أضاف:

- يمكنك من اليوم مقاسمتنا الغرفة، أما الآن فعلينا الرحيل إلى العمل. وأنتم فلا أعتقد أنكم ستغادرون هذا اليوم إلى الوُرش.

كنا إلى جانبهم في صفوف الخبز، وانتظرنا سماع أسمائنا، كل من يسمع اسمه يقترب من الكاتب، يحدِّق فيه مليا، ثم يمدُّ يده إلى كيس خبز الجاودار يسحب منه واحدة، ويعود إلى مكانه، ثم غادروا هم إلى أعمالهم بعد أن وُضعت السّلاسل في أرجلهم، وعدنا نحن إلى عنابرنا.

ابتدأ يوم آخر بزعيق الكاهن ينادي على الكاثوليك، يدعوهم للصّلاة لإله المآسي. ولم ألتحق برفاقي الصيّادين إلى هناك، قررت ألا ألجَ الكنيسة التي يرتادونها. الإيمان بالله في لحظات الضُعف ليس إلا هراءً، المؤمنون الحقيقيون هم من يؤمنون في لحظات القُوة والنّصر. إنني أحتمي بالله حينما يعتقد الناس أنني لست في حاجةٍ إليه.

في ذلك الصباح سرت إلى الباحة، متأملا الانحناءات وقد بدت مثل غرف نهاية السور، كانت تتوزع بها القدور، ورماد النّار التي أشعلناها بالأمس من أجل حساء البرغل. يُردِّد الأمريكيون أن القُنصل السويدي اعتاد زيارتهم، يُرسل مع موظفه اللباس وبعض الأكل، أما حين يتعلق الأمر بالمال، فإنه يأتي بنفسه، يسلمنا نحن والسويديين بعض الريالات لشراء الأحذية، ويدفع لصاحب الحانة التي كانت في نهاية الرواق مالا يجعلنا نتلذذ بالنبيذ كل مساء، ولكن أولئك الحُراس يَسُدُّون الباب يقلّبون التصريح الذي يحمله مساعد القنصل، ثم يرفضون إدخاله إلا بعد رشوة يقدمها، لم يكن الحراس من مُحبي الخمر، يُحرّم دينهم عليهم التلذّذ به، وإن فعلوا سيُحرمون من أنهار الخمر بالجنة التي وُعِدوا بها. لعلّك يا ديبون

لو سمعت هذه الأساطير لأصبحت محُمّديا، ولحملت السيف وركبت البحر غازيا مثلما يفعل هؤلاء الأتراك. أتدري لو كان الحراس يُحبّون الخمر، لـمَا نعمنا بتلك الرشفات التي حرمنا منها منذ أيام. سؤال انتابني يومها: أين قنصلنا نحن الفرنسيين؟ ولماذا لا يزورنا مثلما يفعل القنصل السويدي، على الأقل من أجل المواساة، ما المجد الذي تملكه هذه الأمة حتى تتجاوزنا نحن الفرنسيين؟ ثم أتذكر أنهم لم ينشغلوا بغيرنا في واترلو، وما كانوا ليركضوا إلا خلف مصالح جديدة مع الملك المتوّج. قلت هذا في نفسي وأنا أقترب من الصف الذي تشكّل بانتظار خبز الصباح، والمناداة التي بدأها الحراس، ثم وضعوا السلاسل في أرجلنا، وفُتحت الأبواب على إسبرطة الإفريقية. الخروج من السجن الصغير إلى آخر أكثر اتساعا، كان الأطفال في انتظارنا، ينظرون تجاهنا بعيون كبيرة، يقتفون أثرنا كلما انعطفنا مع سقيفة وولجنا أخرى، ولما لحقوا بنا أطلق الحارس زعيقا حادا فروا على إثره. العرب يخشون الأتراك بصورة عجيبة، إذ يضطهدونهم مثلما يفعلون مع العبيد الذين يأسرونهم، كان صف السجناء العرب في موازاتنا، أسمع وليام من خلفي: هم لم يدفعوا ضرائبهم فقط، العرب هنا لا يختلفون عن العبيد إلا في كونهم مسلمين مثل الأتراك، لذا هم مُستعدون لخيانتهم. صمَتَ وليام حين اقترب الحارس أكثر منا يبحث عن مصدر الصوت، ثم ابتعد لما انعطفنا إلى شارع أكبر وأكثر اتساعا، وأضاف وليام أنه شارع البحر، لم أكن في حاجة لسماعه. إذ ارتفعت أمامنا بوابة الميناء، ووقفنا هناك ننتظر وكيل الحرج ليُوزع المهام علينا، بينما ساروا بصف الأسرى العرب غربا، حيث مقلع الرخام. ألِف وليام إعلامنا بكل الأشياء التي ستحدث، بالرغم من أني تكهّنت ببعضها. فُتحت البّوابة حينها، ورأينا ضُبّاط البحرية

يسيرون تجاه سُفنهم، عماماتهم الضّخمة كانت مثيرة للسُّخرية، حتى تلك التي حملها وكيل الحرج وهو يقف أمامنا، نظر إلينا نحن الذين أُسرنا حديثا، وأشار إلى الأمريكيين أن يمضوا إلى ورشة الأشرعة. بعدما فُكّت قيودنا أُمرنا بالمسير إلى حيث ترسو السفن، وقف الحارس يُراقبنا، ثم صاح بنا ولم نفهم أوامره، وكرّر نداءه علينا بينما وقفنا جاهلين سبب ثورته، فهمّ بضربنا ولكن ضابطا أدركه، اقترب منه متسائلا، وكلمني بفرنسية ركيكة، لكنني فهمت معناها، أراد منا إنزال الحمولة، ثم رحل الضّابط بعد صعودنا إلى المركب، نعبئ قِفاف الملح، وننزل بها من هناك إلى رصيف الميناء، ثم نخطو حتى نبلغ صناديق أُعدّت لها، لم تكن القِفاف ثقيلة ولكن الأرض الزّلقة أسقطتني مرّات عديدة، والحارس ما إن يرَ سقوطي حتى يتلقّفني سوطه، كانوا يعتقدون أنني أدّعي الضعف، مثلما يفعل الكثير، يبحثون عن فرصٍ في ورش أخرى، حيث يفكّون الحبال، أو يطوون الأشرعة. حملت القُفّة وهربت من سوطه صعودًا إلى المركب، وعدت بينما جلس على صندوق، كان الصيّادون الآخرون يسيرون في إثري، تعثّر أحدهم، وانهمر الملح من قفته إلى ظهري واشتعلت النّار به، حبست الصُّراخ في داخلي وأنا أصعد المركب، وهناك انكمشت على نفسي، وتكثّف الصوت حتى حال إلى دموعٍ حارقة طَفرت من عيني، وبثقلٍ عدت إلى القفّة، ثم أعدت المسير حتى انتهى النّهار.

استقبلنا العام الجديد، على مرأى الأعلام الإنجليزية، سرنا ذلك الصّباح في تؤدة، وقد مرّ على مكوثنا بالسجن أكثر من شهرٍ، جرّبت الخوف حتى أضحى جزءا من يومياتي، صرت أتقن التصرّف مع الحراس حين يرفعون أسواطهم في وجهي، أرشوهم بقطع البوجو. استيقظنا ذلك

اليوم قبل سماع صوت الكاهن، صار نومي قليلًا، أربع ساعاتٍ تكفي جسدي الذي ضمر، سرت عبر الرواق إلى الباحة، فرأيت أحد الحراس الأتراك في نهايتها، غسل يديه ووجهه ورجليه، ثم وضع أمامه فِراشه، وبدا كأنه يمارس صلاته الـمُحمّدية، مدّ يده إلى السّماء، ثم صاح بكلماتٍ، وعاد يهمهم بصوتٍ غير مفهوم، وانحنى بعدها وعاد إلى وقوفه، ثم شرع يلامس بوجهه الأرض، مرات متوالية، وفي كل مرة يزاوج بين الهَمهَمة والصّياح، ثم قام ورفع الفراش، وعاد إلى مجموعته، بدا لي لوهلة أن الصّلاة المحمديّة ينوب فيها واحد عن الجماعة، إذ لم يكن الحراس ليصلّوا معه، وحتى طريقة صلاتهم كانت فيها رتابة وحركاتٌ متكررة كأنها تدريبٌ على شيء ما، خصوصًا إذا ما تكرّرت في اليوم الواحد. لحظات حتى بلغني نداء الكاهن، ينادي عبيده الكاثوليك المخلصين إلى الصَّلاة الصَّباحية، انكفأت إلى الرواق أراقب الصُّفوف، صاح الحراس على من تجمّع في باحة السّجن، مشيت تجاههم، ووقفنا مثلما اعتدنا في الصّف الطّويل، أحث عيني لتُراقب أولئك العرب، كانوا مفاتيح على عوالم مُبهمة، وعلاقات غير مبررة بينهم وبين الأتراك.

في ذلك اليوم وما إن فُتحت بوابة البحر أمامنا حتى رأينا سُفن الإنجليز ترسو هناك، وعَلَم المفاوضة يجاور أعلامهم، اعتقدت أن الخلاص قد اقترب، ولكن الأمريكيين كانوا أكثر تشاؤمًا مني، همس لي وليام قبل انعطافه إلى ورشة الأشرعة: هذه ليست زيارته الأولى، اللّورد إكسموث قد جاء من قبل إلى هنا من أجل تحرير العبيد، ولكنهم رفضوا رسوّ سفينته في الميناء.

في إسبرطة تتغيّر مُعاملة العبيد كلما رست سفينة تطالب بهم، بالتأكيد لم يكن الأمر للأحسن، بل كانت ضربات السِّياط تتضاعف على أجسادهم، أذكر أنهم عادوا بنا مرة أخرى إلى البوابة، كان ذلك أمرًا من وكيل الحرج، لم يشأ أن نرى السُّفن المسيحية التي جاءت لتُحررنا، قادنا الحراس في الطّريق، والسِّياط تلهبنا كي نسرع، تعثّرنا وسقط بعضنا لتتلقفه الرَّكلات، ولكن الأشياء التي أثارت استغرابي، لماذا هؤلاء الإنجليز هم السبّاقون إلى الادِّعاء؟ ألم يكن أولى لسفننا نحن الفرنسيين أن ترسو في ميناء الجزائر تطالب بتحريرنا؟ ما الذي اعتقده أولئك الإنجليز حين تواطأوا عليّ في أوروبا وأورثوني هزائم واترلو؟! ثم أُفاجأ بهم هنا تحريري من عبودية الأتراك!

بلغنا باب المدينة من الجهة الغربية، تجاوزنـاه، ونزلنـا منحدرًا ينتهي بجبلٍ، وتراءى لنا الغبار من هناك، أبيض منتشرًا في مساحةٍ شاسعة، وجدنا العرب هناك، البعض يحمل معاول في يده، ويضرب الصخور، وآخرون يحملون قطعًا كبيرة ذُهلت كيف احتملوا ثقلها، ويسيرون بها مسافة غير قصيرةٍ، ويصفّونها هناك، وُزِّعنا على المجموعات، رأيت الذين كانوا معي يعجزون عن حملها فتُلهب السيّاط ظهورهم، ويحيط بهم الحراس يرغمونهم على ذلك ولكنها أثقل من أن تحتملها أجسادهم، وحين عدت بوجهي رفع العربيان الصّخرة واستقرّا بها بين كتفيّ، انحنيت من ثقلها، ثم شعرت بعظامي تتداخل مع بعضها، ولم يسمحا لي بأن أتحرّر منها، وبصعوبةٍ خَطَوت ثلاث خطواتٍ، تراجع العربيان حين رأوني على حالتي تلك، ثم لم أستطع المواصلة، أردت رمي الصّخرة لكنها لم تبتعد كثيرًا، وسقطت أمامي، ولم أنتبه أنني سقطت إلى جانبها، أما حين أفقت

وجدت الأمريكي قربي، وكما قيل لي بعدها إن الصّخرة قد وَقَعت على أصبعي وهَرَسته.

أتعرف يا ديبون كم هو حقيرٌ هذا العالم الذي تظلُّ تدافع عنه، معارك كثيرة خُضتها مع نابليون، كسبنا جُلها وخسرنا بعضها، ولم أفقد جزءا من جسدي. والآن صخرة في إفريقية تبتر جزءا منه دونما مبرر، لو فقدت عينًا أو ذراعًا في الحرب تيقن أنني لن أحزن حينها بل سأكون فخورًا، ولكن قل لي أي مجدٍ هذا الذي جنيته وأنا مُستلقٍ في المستشفى اليسوعي الذي يشرف عليه الإسبان؟ يقف إلى جانبي وليام، ويقابلني الطّبيب الإسباني، الذي غادر بعد أن أعاد لفّ قدمي، وبقي صديقي الأمريكي إلى جانبي، يعيد لي تفاصيل الحادث مثلما رُوي له.

قد تلومني يا ديبون إنني لم أذكر هذه الحكاية من قبل، فلم أرَ جدواها. مقدار الحجج يكون مؤاتيا لمقدار أسئلتك، ولست مُضطرًا أن أكشف لك عن كل تشوّهٍ في جسدي حتى تقتنع، أردت فقط أن نتفق، ثم اضطررت إلى رواية جزء من سيرتي حتى تقتنع، ولكنك ظللت أسير أوهامك.

كان الإنجليز سيكسبون مزيّة واحدة إن هم حرّرونا من ربوة القراصنة. ولكن صديقي الأمريكي قال إنهم رحلوا. ولم يعد هناك أي شيء يلوح في الأفق. بعد أن مرّ على مكوثي أيام بالمستشفى، تم اقتيادي إلى السّجن مرة أخرى. زارنا القُنصل السويدي، حمل إليّ لباسًا وحذاء جديدين، وللبقية كذلك. وخصّني دونهم بزجاجةٍ من النّبيذ اشتممت رائحتها من بعيدٍ، رغم العفونة التي تتمدّد في السِّجن، احتضنتها حين مدّها إلي، ثم وضعتها بيني وبين الذين قاسموني الغرفة. احتَمَيت بالكأس التي شربتها، وما

زوّدنا به صاحب الحانة احتفالًا بعودتي جعل ليلتي مختلفة، كأنما سُرِّبت من أيام الانتصارات، قبل أن نكتشف شيئا اسمه هزيمة واترلو.

عدت إلى السِّجن بعد أسبوعٍ من الغيابِ، أتأمّل جدرانه كل يوم، ما إن أُفق حتى ينتابني الدُّوار ويُغمى عليّ. يحاول الحراس تحريكي بأرجلهم، ثم تمتدُّ أيديهم فتسحب جسدي، وأفيق دون قُدرة على الحراك، وفي اليوم الأخير حضر الضابط إلى العنبر، وأمرهم بوضعي مع العاجزين عن الأعمال الشّاقة. ومضى شهر قضيته بين المعتوهين والشُّيوخ، وأولئك الذين حملوا تشوهاتٍ في أجسادهم. سحابةُ النّهار نَفكُّ بها الحبال، ونرتِّب ألواح السُّفن بعد تفكيكها، هناكَ رَثيت المركب الذي قدمنا به، وأنا أتهجى الحروف المُتبقّية من اسمه على اللّوح، كانت مفككة، وحين انتَهَيت من ترتيبها، نادى الحراس عبيدا حملوا الألواح إلى المواقد، سيُحرق المركب الذي جال المتوسط سنوات، يحمل الزّنكة إلى سات، وقد كان ملجأ لي بعد الهزيمة. بخيبةٍ عدت إلى الحبال أحلُّها وأحدِّق تجاه البحر، ربما قد يأتي الفرنسيون يوما ما. ثم سخرت من نفسي، لطالما كان قُنصلهم في المدينة لكنه لم يفكر في زيارتنا. السويديون كانوا أشرف منا، وقُنصلهم أكثر شجاعة من قنصلنا، لم نفتقده، عامل الحانة يُذكّرنا كل ليلة بصنيعه، كؤوس النّبيذ تعيد الحياة إلينا حينما نُوشِك أن نفقدها نهاية كل يومٍ.

كانت لحظات الوعي تُفيقني بين الحين والآخر، مثل رؤيا مُرعبة، وأتساءل كأنني أكتشف الحقيقة للمرّة الأولى. كافيار ما الذي تفعله هنا؟ أحدِّق إلى وجوه البائسين حولي، ثم أتأمّل الثياب الرثّة التي على جلدي، يداي لم تعودا مثل السّابق، رجلاي أضحتا مقوّستين، صدري عظامه ناتئة، وجهي الذي

أنكرتُه حينما رأيته على صفحة الماء، وصوتي كأنه قادمٌ من بئرٍ عميقة، ما الذي تفعله في هذا العالم يا كافيار؟ هل أنا في كابوسٍ مرعب، قد أُفيق منه في لحظةٍ ما؟ لم أكن لأصدِّق نفسي وأكذِّب الوجوه التي كانت تُحدِّقُ بي، محاولة أن تفهم سبب وقوفي عند الصُّخور، مثلما كانوا يريدون تحذيري من الحارس الـمُقبل نحوي، ولكنه كان حينها إلى جانبي، وبركلةٍ منه سقطت أرضًا، ثم عدت إلى مكاني أفك الحبل الذي لا يريد أن ينتهي.

لم أفهم سبب تغيّر موقف الأمريكيين إذ جزموا أن سفينة اللورد ستعود حتمًا، وقف وليام إلى جانبي وأسرّ لي: إنهم عائدون لا محالة يا كافيار، نَقَل عن القُنصل السويدي حوادث غابت عني، الإنجليز يرشُون الأوروبيين لترسيم قانون يحرِّم الاسترقاق، والفرنسيون يُماطلون، يبحثون عن سنواتٍ أخرى. بهذا تكلّم وليام ثم أردف: لا يتعلَّق الأمر بالرِّق فقط، بل بالقرصنة كذلك. كانت كلماته تبعث في نفسي الشَّجاعة، ثم تخبو، الإنجليز هم الإنجليز، هم سبب الهزيمة كلها. صمتٌ وهم يكيلون المدائح لِلُّورد إكسموث، ودرجت على ذلك كلما أعادوا سيرته، وفعلًا لم يُخيِّب الإنجليز ظنّهم، فلم يمض زمنٌ طويل حتى فُوجئنا بالأسطول على مشارف المدينة.

في تلك الأيام كنا نَهبًا لشمسٍ أوت، سيرُ خطواتٍ قليلة يتطلّب جهدًا كبيرا، ولم تبق هناك أمكنةٌ نَستَظلُّ تحتها. وابتدأ اليوم بصباحٍ مختلف، أكثر لطفًا، وسرنا مثلما اعتدنا تحت نظرات الحراس. عبرنا الشّوارع حتى كنا عند بوابة الميناء، ولجناها بعد أوامر وكيل الحرج، وقد سمعنا في اليوم الذي سبقه دويّ المدافع، تكهنا وصول زُوارٍ جدد، ولكن الأمريكيين كانوا واثقين أنه اللُّورد إكسموث. كانت أشغال الميناء تسير على عادتها، وكأنه لم يكن هناك أسطول على مشارف المدينة، وقبل منتصف النَّهار بقليلٍ تراءت

لنا بارجةٌ عظيمة تنفصل عن الأسطول وتَتقدّم تجاه الميناء، ترفع علم المفاوضة ولكنها لم تبلغ الرّصيف. بل أرسلت تجاهه مركبًا، وبقيت مكانها ساعة ثم التحق بها بقية الأسطول وكأنه يستعدُّ للهجوم. من هناك رأيت علما آخر يرفرف على بقية السُّفن، إذن الهولنديون أيضا قرّروا الانضمام لهذه الحملة، قالها لي صديقي الأمريكي وشككت أن يتجرؤوا على فعلها. لبثوا حتى جاوزوا الزّوال بساعتين، وإذ ذلك تقدّمت البارجة وتبعتها سفينتان، وتَركت بينها وبين الأسطول مسافة، وكلما تقدّمت كانوا في إثرها. ومن الجهة الثانية رأينا بارجة أخرى تدنو أكثر في موازاة السُّفن الأولى، وفي هذه اللَّحظة عمّت الفوضى الميناء، ولم ننتبه إلا على ضربات الحراس يخرجوننا منه، كانوا يهرعون في كل مكان. ثم أقبل على باب الميناء جنود آخرون، خلّفوا فناجينهم وغلايينهم وأسرعوا نحو المدافع. وحين كنا أمام بوابة الميناء سمعنا دويا من المدافع التي تُحصِّن المدينة. قدّرت أنها الثالثة عندما انفجر الدَّرب أمامنا، وانهَمرت القذائف من السفن الإنجليزية، ولم تمر إلا نصف ساعة حتى توقفت مدفعية الميناء، ورأيت بعض جنودها يركضون في إثرنا، بينما ركضنا دون وجهةٍ، أحيانًا تبدو لنا طريق السجن ومراتٍ أخرى نلج سقائف لم نعبرها من قبل، غير أنها تُعيدنا إلى درب السجن، القَذائف تَتَساقط من ورائنا وأمامنا، وبدا أننا لن ننجو من هؤلاء الإنجليز، القَذائف نفسها التي رُمينا بها في واترلو وأبادت أفضل جنودنا. انفجرت قذيفة غير بعيدة عني، أصابت الجدار فانهدّ فوق حارسنا، سعِدتُ ولم ألتفت إليه، يستحق الموت هكذا. بلغنا البوابة المشرعة، ولم ندرِ أي فائدة قد نجنيها من بقائنا هناك، ستُهدُّ أسواره فوقنا، ومع هذا ولجناه، وتناهت إلينا أصوات القَذائف تَتَساقط على المدينة. كنا نَقِف ثم نَقعُد ونحاول

رؤيتها من باحة السجن، لكننا نخشى أن تسقط فوقنا، ومرّت السّاعة الأولى والثانية ومازالت المدافع ترمي من الجهتين. ثم سمعنا صوتـا حادا تبعه انفجارٌ، حنينا رؤوسنا وتمدّدنا على الأرض، وحين زال الغُبار رأينا حائط السجن الشّمالي قد انهار نصفه، ثم تعالى صوتٌ آخر تـلاه انفجار، ورأينا البوابة تتحوّل إلى شظايا. قام بعض السجناء وشكّلوا مجموعة تقدّمهم الكاهن وشرعوا يصلُّون كي تبتعد القذائف عن غُرفنا، دامت هَمهَمة الصَّلاة والظلام يهوي على المدينة فنرى ضوء القذائف في السماء، ثم تُحدث دويًا تهتزُّ له الأرض. خمّنت أنها التاسعة، حين تضاءل الدَويُّ، أما بعد ساعتين صار يسمع بين فترات متباعدة، ثم توقّف في منتصف اللّيل. تسلّلت وصديقي الأمريكي إلى بقايا السُّور وتسلّقناه، ومن هناك رأيت جبلًا من النار يرتفع في الميناء، وتيقنت من حينها أن أسطول الإسبرطيين قد احترق كله.

مع الفجر وصل مزيدٌ من الحراس، وضعوا القيود في أيدينا فقط، وساروا بنا إلى الميناء، مازالت النار مُشتعلة في بعض السفن، وأضحت البقية كلها رمادا، وحين رفعت رأسي تجاه أعالي المدينة رأيت الدُّخان يصعد منها، جزء كبير من المدينة قد تحطّم. اختبأ الناس في بيوتهم، ولم يعد هناك سوى الجنود يجرون مثل مجانينٍ بين الشّوارع. تمنيت لو أنّ الفرنسيين هم من فعل ذلك، وهُم من حمل هذا الشّرف الذي سيتباهى به الإنجليز أعوامًا طويلة. كان وليام يقف إلى جانبي عندما قال: سيفاوضون الآن. وأمر الأتراك جنودهم بجلب الأسرى إلى الميناء. ساعة مكثناها هناك، قبل رحيلنا أعطوا كلًا منا خُبزتين، وقطعةً من الجبن، حملناها وسِرنا تحت عيون الحراس شرقًا، ومضينا على تلك الحال ساعتين حتى أشرفنا على

الخليج، وعَبرتْ إليه قافلة الأسرى في خُطى مُسرعةٍ. كان الكلُّ ينتظر تلك اللّحظة التي يضع فيها قدميه على سطح السّفينة الإنجليزية أو الهولندية. وانتظرنا إلى أن تراءت في الأفق السّفينتان، اقتربنا أكثر من الخليج وأرسلت قواربها، وشَرعتْ في تَحميل الأسرى إليها، ووقف القُنصل إلى جانبي ثم قال:

- قد أُلغي استِرقاق المسيحيين يا سيّد كافيار. وها أنتم اليوم أحرار. وقد تعهّد الباشا بتعويض الإنجليز عن كل خساراتهم، ويعتذر عما بدر منه بصفة رسمية.

ابتَسمت بسُخريةٍ، وأجبته:

- أي ذكاء هذا الذي يتّقد في أذهان هؤلاء الإنجليز. هذه الفُرصة لا يمكن تعويضها، فَقَدَ الأتراك أسطولهم.

- وما الذي تريدهم أن يفعلوه؟

- إذا لم تُحتل المدينة لن يتوقفوا عن القرصنة.

- فعلًا، إذا لم يفعلوا ذلك سيعود الأتراك إلى سيرتهم القديمة، فليست لديهم خيارات أخرى.

- ولكن ما العمل الآن؟؟ أَأُهزَم مرة ثانية وأحمل هذا الديْن للإنجليز. لا لن أعود يا سيدي القُنصل ولو بِتُّ في العراء.

- لست مضطرًا إلى ذلك يا كافيار، وإذا أردت فإنك رعية سويدي، منذ التقيتك لم أصدّق أنك كنت مجرّد صيّاد رنكة.

لا يمكن يا ديبون أن يُقال كل شيء دفعةً واحدة وبتفاصيل أدقّ، لأنك لم تَخبر إسبرطة كفاية، أو لعلّ الكُتب أفسدتك. الكُتب أحيانًا تزرع

في الناس أفكارًا لا وجود لها عن الحياة، تَخلق منهم كائنات لا تحسن إلا الكلام، وأخشى أن تكون من بينهم، تقرأ عن الشّرق وعن الـمُور ثم تأتي لتلقي المحاضرات، أو تتصفّح الإنجيل ثم تهذي أمامي بما فهمته. هذه المدينة التي يسمونها الجزائر، لم تكن إلا إسبرطة.

ابن ميار

الآن فقط أصبح البحر آمنا...

تناهت إليّ جُملة الضّابط، بينما كنت عند حافة السفينة أراقب البحر، لم ألتفت لكنه دنا أكثر مني، وقال:

- ما الذي يجعلهم يسمحون لرجلٍ مثلك بالسفر إلى أوروبا؟؟

التَفتُّ إليه فجأة، إذ لم يكن الخِطاب إلا للدُّوق روفيغو أو لرجلٍ يتبعه. قلت في نفسي: ولكنّه قد رحل. ثم عدت وهمست: لم يكن الدُّوقَ رجلًا واحدا. بل كان فكرة يشترك فيها الكثير. تأمّلت وجه الضَّابط، بدا لي مألوفًا، لحظات من الاستغراق أستعيده بها، رغم السّنوات الثلاث التي مرّت، أعادني وجهه إلى الأيّام الأولى من لقائي بورمون، كان لا يفارقه في أيامه الأولى، وتذكرت عينيه اللّتين كانتا تَترصّدانني، أنا وميمون، يوم سرنا مع الخزناجي إلى قائد الحملة، وبسطنا أمامه مطالب الباشا وسُكان المدينة، وافق عليها، وكان الضَّابط يؤجِّل توقيعه، لم يرد إبقاء أحد من بني عثمان في المدينة. كان لا يزال يحدِّق بي مستغربًا سهومي، ثم أردف:

- أستغرب يا ابن ميّار أنك ما زلت هنا، بعد رحيل كل الذين تواليهم عن المدينة، أتصدّق فعلًا أنهم عائدون؟!

آمنت دائما بأن السُّلطان المعظّم لن ينسى المحروسة، حتى وإن شطّ الباشوات في أحلام الانفصال. ولكن السُّلطان ظلّ كبيرا على الدَّوام، يُرسل لهم قفطان الباشوية، وفرمان الحُكم، عند تولّي أي باشا جديد. كنت موقنًا على الدَّوام بأن المساعي التي تكلّفها سفير السلطان في باريس لا بدَّ تأتي بثمارٍ. لذا لم أُبد انكساراتي للضابط مثلما كان يلمحُها الدُّوق روفيغو كل مرة، بل حدَّقت به، ثم قلت:

- لن تكون المحروسة إلا لنا نحن أهلها.

- ولكنها دونكم يا سيِّد ابن ميّار.

- يبدو لك ذلك.

- أحلام يقظة، ستصحو منها في باريس.

ردَّد الضَّابط كلماته ومال إلى قُمرته، وعدت بوجهي إلى البحر، كلما تطلّعت إليه تعودني خيالاتٌ قديمة، يداي كانتا تلامسان حافة السفينة، أحاول التمدّد أكثر لأرى البحر، ولكن الطِّفل الذي كُنته لا يكاد يبلغها، ثم تمتد يدان تحملانني، وتضعان رجليّ على الحافة، وأهتف مناديًا على المحروسة حين يغيب بياضها، يُنزلني أبي من هناك، وأسمع رطانته مع قبطان السفينة الإنجليزية، فلا أعي منها حرفًا، يكرر أبي على مسامعي: هؤلاء الإنجليز هم أصدقاء الباشا، لذا يُصرُّون على حمل هدايانا بسفينتهم إلى السُّلطان المعظّم بإسطنبول. ثم يستطرد في حكاياته عن بني عثمان، وعن ملوك ملأوا الأرض عدلًا، والطِّفل الذي كُنته تتعبأ ذاكرته بهم، ثم أضحى الوجدان كله يميل إلى تلك المدينة شرق المتوسط، ولم أكن لأستوعب مقدار الكراهية التي حملها السّلاوي لبني عثمان، إذ لم تُقطع

مصالحه معهم، مثلما قُطعت على ميمون، ولم يكن من بين أهله من أُودع السِّجن، أو طارده اليولداش. رغبته الجامحة تريده أن يُغيِّر كل الأشياء التي حوله، يعتنق أفكارا هو الوحيد الذي آمن بها، وأراد إيهام الناس بها، ولكنهم ظلوا أكثر تعقّلًا منه. بالرغم من كل المساوئ التي حملها السّلّاوي إلا أنه كان أقرب الناس إلى نفسي، مثلما كنت أكثر من والدٍ بالنسبة إليه.

غابت المحروسة منذ يومين، ولا أرى غير امتداد الزُّرقة، وصور تتجدد كل حين، يوم جلس الباشا سعيدًا بالذين من حوله، لولا أن الأيام جعلت من حالات سوء التقدير مآلا لموت الكثيرين. وبعد هذه السَّنوات، يتجلى لي الآن كيف كان موت الآغا يحيى بدايةً لانحدار المحروسة. اعتاد الباشا استشارتي، لكنه لم يلتفت لكلامي في ذلك اليوم، وهمّ بقتل أفضل آغوات المحروسة، ظلّ رأيي معلقًا إلى اليوم الذي دَخل فيه الفرنسيون. وفرّ الآغا إبراهيم من مُعسكره. أتذكّر أنني قلت له حينها: لو كان الآغا يحيى هنا، لما حدث كل هذا. نحن لا نواجههم إلا بما بناهُ.

صمت الباشا يومها، كان أكثر حزنًا وندمًا على قتله الآغا، ولم يسعفني الزمان ولا المكان، كنت أعدت له سيرة المقتول، وكيف غرَّروا به حتى سِيق إلى نفيه بمدينة البليدة، ثم خُنق ليلًا بها.

صادقت يحيى منذ تولّيه منصب آغا على الجيش، كنت ألتقيه كلما عاد من رحلاته لتأديب العُربان التي تتمرّد على الباشا. عند أطراف المدينة ينصب خيامه. لا بدّ للجيش المنتصر وقائده أن يقابلوا الباشا في حُلل زاهية، هكذا كان يردِّد يحيى الذي لم يخرج في حربٍ إلا وحقّق فيها انتصارا، ولم يُكلّف بمهمة إلا وأدّاها، الكلّ في المحروسة كان يوقّرهُ ويحترمه، ورغم

محبة الناس له، إلا أن الوُشاة سعوا بينه وبين الباشا، ظلّوا يُوغرون صدره عليه منذ غادر بجيشه إلى قسنطينة يُعين الباي على حربه، وعاد منتصرًا، وحينما اختلى به الباشا أنكر أنه تلقى أية هدايا من باي قسنطينة، فقابله الباشا بالباي حين زار المحروسة، واستمرّ الآغا في إنكاره، وتجهّم حين نُشرت أمامه الرسائل التي تبادلها مع الباي، وقد دُوِّنت عليها تفاصيل كل شيء. كان الباشا غاضبًا حانقا على كذب آغاه وصديقه، فأمر بعزله ونفيه إلى البليدة. ثم عيّن صِهره إبراهيم آغا على الجيش، وشرعت أتوسَّط له، وأستحلف الباشا بكل ما هو عزيز عليه، ولكنه رمقني بنظرة لم أعهدها فيه، فانسحبت أنتظر ساعة صفائه لأعيد شفاعتي للآغا. ولم تحن السَّاعة إلا بعد أن انتشرت شائعاتٍ بموته.

قصدت الباشا أتأكَّد من صحة الخبر، فوجدته يأخذ قيلولته، وهكذا عدت إلى ضيعتي مهزومًا، وأنا أرى السُّفن المحاصرة تزداد كل يوم سفينة، بينما إبراهيم آغا لم يُضف حجرة أو سورًا إلى التي شيّدها يحيى آغا. صحيح أن يحيى كذِب على الباشا، ولكنه كان دائمًا قائدا محنّكا في عيون أهالي المحروسة.

يظلُّ أهل المحروسة يردِّدون في يأسٍ: لو كان الآغا يحيى هنا، لما حدث ما حدث. أتذكّر كلماتهم الآن، وأنا أُخلِّف المحروسة ورائي، وأعيد كلامهم همسًا، وكأنني كنت مشاركًا في نكبته، نعم هذا ما حدث. كانت الأخبار تأتينا: قد سيّروا مئات السُّفن تجاهنا... طولون تعجُّ بجنودهم... ولي العهد يطوف بصفوفهم، يخطب فيهم أنهم مقبلون على فتحٍ عظيم. والآغا إبراهيم يرتشف قهوته في بيته، ويحشو غليونه بالتّبغ كلما خبا. وظل يردِّد: إنهم يا ابن ميّار لن يجرؤوا على النزول إلى الأرض، وإن نزلوا سننتهي منهم في يومين أو ثلاثة. وقبلها زار المحروسة رسول الباب العالي، ومن ثم رسول

الباشا محمد علي، محاولين الإصلاح، ولكن الباشا ظل رافضًا عودة القُنصل الذي أهانه في مجلسه. كنت هناك يومها، اكتظَّ المجلس بالذين يهنّئون الباشا بالعيد، قناصلة عديدون توزّعوا في البهو، ينتظرون أدوارهم، ثم أقبل القُنصل الفرنسي دوفال، تقدّم بخطواتٍ وهنّأ الباشا، فردَّ التهنئة ثم سأله:

- لماذا تأخّر ملككم في إيفاء الدُّيون، ولماذا لا يجيب عن رسائلي العديدة؟

تفوّه القنصل بما أدهش الجميع:

- الملك في باريس لا يلتفت إلى شخصٍ مثلكم.

ولم ينتبه الباشا إلى نفسه إلا وهو يقف، ومن ثم يضرب القُنصل بالمروحة التي كانت بيده، فَهَمَّ القُنصل بسلِّ سيفه لكن الحراس قبضوا عليه. قرّر الباشا قتله، ولكنه اكتفى بطرده من مجلسه، خرج القُنصل غاضبا، ولبث في إقامته، ولم يمض إلا شهرٌ واحد حتى رأينا أربع سفنٍ فرنسية، رست في ميناء المحروسة، والتحق بها القُنصل في اليوم الموالي، ومن هناك وصلت الرسالة إلى الباشا:

«عليكم بتجديد عهد الأمان لقنصلنا، وأرسلوا أعيان المدينة ليعتذروا للقُنصل المرابط بالسفينة، وإذا لم يتحقّق هذا فليست لكم منا إلا العداوة».

وعندما قرأ الباشا الرسالة ضجّ بها، وأملى على كاتبه:

«لم يجبره أحد على مغادرة المدينة، وإن شاء فليعد إليها، أو يفعل ما بدا له».

ولم يمض إلا وقت قصير بعد تسلمهم الرسالة، حتى غادرت السُّفن الميناء آخذة القُنصل معها.

الكلُّ كان يعرف القُنصل، حتى من الفرنسيين، يُجمعون على وقاحته وسوء طبعه، ورآه الباشا شخصًا يُغيِّر لونه حسب ما تقتضيه مصالحه

الخاصة. ومنذ أضحى حسينٌ باشا على الجزائر انشغل بقضية ديون الفرنسيين. في البدء كانت بين اليهوديَّيْن والفرنسيين، ولأنّ جزءا من الديون كان لخزينة المدينة لجأ اليهوديان إليه ليستخلصها لهما، ثم فوجئ بأنه ليس وحده الذي يطالبهما، بل إن تجارا كثيرين من مرسيليا وباريس كانوا يطالبون هم كذلك بديونهم. ثم فجأة تأتيه أخبارُ اقتصاص الحكومة الفرنسية أموال تُجارها من أموال اليهوديَّيْن، ثم سلّمتهم باقي المال، وأُشيع أن القنصل هو من توسط لهم. كان الباشا يظنُّ أنه بدفاعه عنهما يدافع عن حقِّ المحروسة. أما حين استفاق فقد كان اليهوديان قد فرَّا إلى باريس، وأضحيا مواطنَيْن فرنسيَّيْن. ولم يبق للباشا حينها إلا أن يراسل الملك، الذي لم يجبه، وبقي على حاله ساخطًا على القُنصل حتى أقبل العيد، وحدث ما حدث.

في اليوم الذي تلا رحيل السفينة، أقبل على ديوان الباشا أهل المدينة من الفرنسيين، فخطب فيهم:

«إذا أردتم الرحيل فلن يمنعكم أحد، وإن بقيتم فلن يمسسكُم سوء، والمحروسة كلها لكم».

وكان سعيدا وهو يسمع ردهم:

- إننا لا نريد الذَّهاب، الخطأ خطأ قُنصلنا، وليس خطأكم.

ولكنهم لم يلبثوا في المحروسة إلا شهرًا واحدًا وبضعة أيام، إذ قدمت سفينة وعادت بهم إلى فرنسا.

ريحٌ خفيفة هبّت، بينما كان الظّلام يتمدّد عبر زرقة البحر، يداي لا تزالان تقبضان على حافة السفينة، التفتُّ عن يميني فلم أر أحدًا، الجميع

عادوا إلى غُرفهم، فخطوت تجاه غرفتي، آملا أن تغادرني الخواطر، لكنها ظلّت تتكاثف، حتى وأنا متمدِّد على فراشي، وأحلم بغدٍ مختلفٍ، لا أسمع فيه رطانتهم، سحبت محفظتي حينها، وطفقت أبعثر العرائض حولي، شكايات أهالي المحروسة تتحوّل أمامي إلى حقيقة، نساء يُردن استعادة رجالهنَّ من الأتراك الذين رحلوا. وأطفال يُريدون آباءهم. وتجارٌ أُخذت ضياعهم ومتاجرهم. وشيوخ المساجد يبكون حال أوقافٍ آلت إلى غير وجهتها. فملت برأسي على الوسادة، وتجاوزت الباب الذي يفصل الحقيقة عن الحلم، وهناك لم أكن وحيدا، رأيتهم وكأنني خلّفتهم قبل دقائق، أصوات دَمدَمة القارئين كانت تتعالى، يردِّدون سورة الفتح، وآخرون باتوا ليلتهم يقرؤون البخاري بأمرٍ من الباشا. كان قد مرَّ حينها على رحيل القُنصل أربعة أشهرٍ، في بداية الخريف، رأينا السُّفن تصطف عبر امتداد البحر، أشرنا إليه من شرفات قصر الباشا، والمساء يحل على المدينة، سهرنا ليلتها في الدِّيوان، نَتَتَبَّع شرح وكيل الحرج لخُطته في فكِّ الحصار، يهزّون رؤوسهم مقتنعين. وفي فجر اليوم التالي احتللنا الشرفة مرَّة أخرى، ضجيج الناس كان يصلنا من أسفل المدينة، الكل كان يترقَّب خروج الرياس ومن معهم لملاقاة المحاصرين. لحظات ثم كنا نرى اشتباكهم، وصاح الناس من أعلى منازلهم يطلبون الغوث من الله ليفكَّ حصارهم. ومن الشُّرفات طالعنا تبدُّد السُّفن الفرنسية، وعودة أسطول المحروسة، نادى الناس بصوت واحد، هلّلوا وكبّروا، ثم نزلوا إلى الميناء يهنئون البحارة على نصرهم. لكنّ الفرحة لم تدم إلا وقتًا قصيرا، ورأينا صفّ السفن مرة أخرى، عددناها من أعلى الشُّرفات، كانت اثنتا عشرة سفينة، وجّهت مدافعها إلى الميناء. لكن بعض سفننا انطلقت ليلًا، عبر مسالك خفية، خاض ريّاسها البحر

بحثا عن سفن التِّجارة الفرنسية، يضايقونها كلما التقوها، ويرسون ليلًا مثلما يغادرون، وحين تكرَّرت المضايقات، لجأت السفُن المحاصِرة إلى الصُّلح، وبعثوا برسولهم، ولكن الباشا رفض شروطه، كانوا يريدون إرسال مبعوثين من أعيان المدينة إلى الملك الفرنسي، وظلّ الباشا مُصرًا على توقيع الصُّلح دون شروط، وهكذا داوم الرسول على مرسى المحروسة ذهابا وإيابا عاما آخر، يحمل الشّروط نفسها، وظلّ الباشا متمسكا برأيه.

استيقظت وصعدت إلى سطح السفينة، كان البحر ساكنًا، وعيون المسافرين تحدِّق تجاه الرجل الغريب، الذي يعتمل لباس الـمور، ويتجوّل مثلهم على سطح السفينة كأنه لا يراهم. وصدقوا لو ظنّوا أني لا أراهم، كانت الصور تترادف فتعيد وجه أبي، عند باب ديوان السُّلطان المعظّم في إسطنبول، أصغيت إلى حواره بالعثمانية مع شاوش الباب، فهمت بعض كلماته. ثم تجاوز أبي الباب، ومن خصاصه رأيته هناك، رغبت لو تكتمل الرؤية، لكن الباب أُغلق ساعة من الزّمن، ثم فُتح مرة أخرى، ولم يتسن لي رؤية السلطان. وعُدنا عبر الرِّواق نفسه، يُرافقنا تاجران من المحروسة، ولكنهما اجتمعا إلى الوزير، ولم يُقدّر لهما مثلي لقاء جلالة السلطان. تغيب الصور ثم تتراءى، أبي إلى جانب الباشا في مجلسه، دفتره أمامه، يقرأ منه أسماء غريبة، والمجلس مكتظٌ بوجوهٍ ليست من المحروسة، يقتربون من الباشا، يقبِّلون يده تباعًا، ثم يرطنون بكلمات لا أفهمها، ويقدِّمون هداياهم إليه ثم يرحلون. واليوم أرى هذه الوجوه في المحروسة، تستعيد من أهلها كل ما قدّمته للباشا، فما ذنب هؤلاء الـمُور؟ تُردد زوجتي: إنهم لن يعيدوا شيئا، والمحروسة لم تعد تسعنا وإياهم، لِمَ لا نرحل إلى قسنطينة،

يُجِلُّك بَابُها ويُقدّرك؟ صحيح يا لالّة سعدية ما تقولين، ربما قسنطينة آمنة اليوم، ولكن إلى حين فقط، مشكلتي كلها في هذا المكان، وإن غادرته فلا يَهمُّ حينها إلى أين، أريد البقاء في المحروسة فقط. لم يكن السّلاوي ليختلف عني، لكنه أرادها مختلفة، أتعجب منه حينما يكرّر كلمات القناصلة: يا ابن ميّار عليهم التوقف عن اعتراض سفن المسيحيين. مرّت ثلاثة قرون، ولم ترجع الأندلس مثلما وعدونا. لماذا لا ينشغلون بنا نحن أهل المحروسة، ألا تلتفت حولك، الخوف هو ما يُرغِم الناس على الهتاف لهم، لا تنجح أمة حياتها في سلب حياة الآخرين. جلُّ سكان المحروسة يعيشون عالة على مال الأوقاف، والتُجار أرهقتهم الضَّرائب، فبارت تجارتهم. بنو عثمان حوّلوا هذه المدينة سجنًا كبيرا للمسيحين، وحتى لأهلها، واليوم لا أرى مصانع غير التي تصنع المدافع والبارود، ولا مستشفى غير الذي بناه الإسبان لأسرى المسيحيين. ولا يوجد في المحروسة طبيب. أستغرب كيف لا تنتبه وأنت الذي لم تَترك مدينة أوروبية إلا زرتها، وإسطنبول قد اعتدت التردد عليها كل حين، لِمَ لا تريد أن تفيق يا صديقي؟!

يُرعبني السّلاوي بجرأته، وطريقة تأويله للحوادث. لا ألومه، وقد كان لا يزال في بدايته، كل ما في قلبه يتحوَّل إلى حركات بيديه، وبذاءات على لسانه، تلسع أكثر من السياط، ولم يدرِ بعقله الصغير، أن للتَّاريخ سطوةً في إعادة الحوادث. لم يكن إلا عجلة تدور، وليس لنا إلا السير فيها، وتبجيل من يديرها مؤمنين بكل ما يفعله بنا. لطالما كان تاريخنا هكذا، والسّلاوي يخاطبني خارجه وكأنه يرى العجلة ولا يعنيه أنه داخلها. لو وَعَى حركتها لاستمع إليه الجميع، ولكانت أحلامه مفهومة لهم.

حين دنوت من حافة السفينة تعلّقت عيناي بالشَّرق، آمنت دومـا أن لتلك الجهة سحرًا، ولن يكون انبعاث المحروسة إلا من هناك، وخالفني ميمون إذ آمن أن للمحروسة وجهًا واحدا عليه التطلع إلى الشمال، ولم يؤمن السّلّاوي بغير الجنوب جهة تستحق أن يلتفت إليها.

من تلك الجهة، تراءت لي في الأفق سفينة بدت بحجم لابروفانس، بالتأكيد ليست هي، كان مشهدًا ولن يتكرّر، رست بميناء المحروسة تحمل علم المفاوضة، ونزل الرسول لآخر مرة بالمطالب نفسها. امتنع الباشا عن إجابته، فغادر الديوان. قطعت السفينة مسافة في البحر، ولم تسر في اتجاه مستقيم إذ انحرفت وأبحرت بالموازاة مع أسوار المدينة. لم أتخيَّل أن الدويّ من مدافع المحروسة، ارتعبت إذ قدَّرت أن عواقب ضرب السفينة ستكون وخيمة، حاولت من مكاني عند الشرفة استجلاء الرؤية، دويٌّ آخر تعالى، ثم رأيت بعضها يضرب جوانب السفينة. لحظات وتوقّف الإطلاق، ثم رأيتها وكأنها تتمايل، دعوت أن تواصل مسيرتها بسلام، وفعلا نجت من الغرق. نزلت مسرعًا إلى الدِّيوان، ووجدت الباشا يحوم حول نافورة الماء يستَشِيط غضبًا، وينادي على الشاوش ليَستعلِم له. نزل إلى البحرية ولبِث زمنا ثم عاد يرافقه رئيس المدفعية ووكيل الحرج. كان الباشا يصرخ بطريقة غريبة، لم أره بهذا الغضب من قبل. وأصدر قرارًا بعزلهما، ثم نادى على أحد أعضاء الدِّيوان ليرسله إلى الملك الفرنسي.

تكهّن الحاضرون ذلك اليوم بما سيحدث للمحروسة، مثلما أدركوا أنه على السُّلطان تحمّل أخطاء عبيده. حمل الباشا وزر وكيل الحرج، ورئيس المدفعية. وجزم الجميع أنه قد رماها ما إن حملته الفرقاطة جان دارك منفيا،

وأخطؤوا في حق الباشا، فقد ظلَّت المحروسة حلمًا يراوده حتى بعد نفيه إلى نابولي. التقيته بعدها بسنةٍ، وتتابعت رسائله يتمنى فيها العودة إلى المحروسة، مثلما ظلَّت خيبته من أُناسٍ كثيرين من حوله. بالتأكيد كان إبراهيم آغا من بينهم.

قبل شهرٍ من نزول الفرنسيين، كان الباشا قد أرسل إلى العمالات الثلاث يطلب جنودا، ولكن الوقت لم يسعهم، فلم تمض إلا أيام قليلة حتى اقتحم المجلس الضَّابط المشرف على قلعة طوري شيكا، وجثا أمام الدِّيوان، وقال: قد بدأوا الإنزال.

انتشر الخبر بين أهالي المحروسة. وبدا أنهم يرتقبونه، اجتمعوا قبل أيامٍ، وقَسَّموا أنفسهم إلى كتائب صغيرة. رأيتهم يجتمعون عند الباب الغربي للمدينة، وبدا لي السّلّاوي بينهم، أردت اللحاق به لأودعه، ولكنه اختفى بين الناس، وما إن خطوت مسافة حتى سمعت صراخه، أما حين التفتُّ فقد رأيته مُعتليا السُّور ويخطب في الناس المتجمهرين، ويحضُّهم على تنظيم أنفسهم، ويأمر المقرّبين منه بتعديل الصُّفوف، واختيار من يتقدمها، كان الشَّباب يستجيبون لأوامره، ثم قفز إلى الأسفل بينهم، وسارت الصُّفوف تنزل المنحدر، هممتُ بالرحيل، لكنني فوجئت بجمع النساء الـمُقبل نحوي، ثم عبر الموكب أمامي، كانت البغايا يسرن في عجلةٍ، يحملن معهنَّ صررًا وقِطع القماش، مررن قربي، ولا أثر للزينة والروائح التي اعتدنها. وقفت مشدوهًا أراقبهنَّ وهُنّ يعبرن الباب، ومن ثم وهنّ ينحدرن في أثر الرِّجال، وقلت في نفسي: البغايا اليوم يحرصن على شرف المحروسة؟ لك أن تفخر الآن يا صديقي السّلّاوي. قد حقَّق الفرنسيون جزءا من

أحلامك. ربما سيرحل الأتراك، ولكن عليك أن تتساءل، وأنت ترى قافلة البغايا في أثرك: إن رحل الأتراك فمن سيحلُّ محلهم؟

حملت نفسي وخطوت تجاه القصر، ومع كل خطوة أقطعها تصلني الأصوات، ثم التفتُّ ورأيت عربة يجرُّها حصان، تطلَّعت إلى التَّاجر، تعبّأ وجهه بملامح غامضة، مزيج من القسوة والفزع، وهو يسحب رسن الحصان بعصبية، وقفتْ زوجته وأطفاله في الجهة الأخرى من العربة، ثم مرّ الجميع أمامي كأنهم لا يرونني. حين سارت العربة مسافة، التفت التّاجر، وجالت عيناه بالمكان ثم مسحتا جدران بيته، غلبته الدموع وانحدرت، مسحها بكمِّه ثم واصل دربه. كان الأطفال يتشبّثون بعضهم ببعض كأنهم سيتوهون في شوارع المحروسة، أردت التشبّث أنا الأخر بالعربة أمنعهم من الرّحيل. ولكنّ أشياء أخرى كانت تسحبني بقوة، أسرعت تجاه القصر، ولساني يعيد كلماتٍ وددت قولها للباشا، كنت كأنني أهذي: سيدي إنهم قد يئسوا ورحل بعضهم، يجب على الآغا دفعهم عن المدينة. وعبرت باب القصر، ثم تجاوزت السّاحة، وكان أعضاء الدِّيوان مجتمعين، ولكن الآغا إبراهيم لم يكن بينهم. ولم أتمالك نفسي إذ هذيت بالكلمات التي كررتها في الطريق، سمعت ردودهم جميعا:

- الآغا قد سار إلى معسكره في سطاوالي، ولم يصحبه إلا قليل من الجنود، وثلاثمائة فارس.

أوشكت على السقوط، ثم استعدت نفسي وعلا صوتي:

- ولكن أين البقية، ألم يصل الجنود من العمالات الثلاث، ألم يُرسل باي وهران أو قسنطينة أو حتى أقربهم باي التيطري الجنود، ألم يقل إنه سيرسل عشرين ألف جندي؟

رد أحد أعضاء الدِّيوان:

- باي التيطري لم يرسل إلا ألف جندي، ولم يصل البقية بعد.

لم أدر أي شيء أصابني، كانت أفواههم تردِّد الكلمات وكأنهم مقتنعون بأن الفرنسيين لن يتقدموا. أو كأنهم لم يروا أهالي المحروسة وحتى بغاياها ينحدرون تجاه الغرب، كان الباشا مرتخيًا على كرسيه، صامتًا يراقب الوجوه في خيبةٍ. تفرّق الجمع من حولنا، وبقيت مُتسمرًا أمام الباشا، أتطلّع إليه. كانت عيناه تسوحان في غرفة الدِّيوان، تغوران في محجريهما ثم ترحلان في الفضاء من حوله، واستقرَّتا تجاهي، ثم تحركت شفتاه: أريدك يا بن ميّار أن تكون في المعسكر من يوم غد، ستكون الرسول بيني وبينهم.

تَغيب كلمات الباشا ثم تتصاعد حين أبصر تجاه الشَّرق، والسفينة تَهتزُّ تحت ضربات الموج، ألتفت فأرى الضَّابط مقبلا نحوي، ثم يقف إلى جانبي، فأستعجله بالسؤال:

- يوم وحيدٌ يفصلنا عن مرسيليا.

- وما الفرق؟ متى اهتمّ الـمُور بالوقت، تفتقد جدرانكم إلى السّاعات، تعيشون في فوضى، أستغرب كيف تحتملونها!

- في المحروسة المساجد تُعلن عن السَّاعات التي تعنينا، واليوم بعد أن أُخذت منا، ما الذي ستضيفه السّاعات لنا، إنها لن تحدّد لنا شيئا.

- لم أعلم أن للمُور فلاسفة أيضا، يبرِّرون ميولهم إلى اللَّذة وعيشة الرَّخاء.

فررت من وجه الضابط إلى الغرفة، وشرعت أقلب الأوراق، الصور نفسها تتجدد، بعد الأسبوع الأول وصل باي قسنطينة إلى المعسكر، لم يُغيِّر مكانه في سطاوالي، لكن الفرسان كانوا يتقدّمون إلى سيدي فرج،

بعد أن احتلَّ الفرنسيون قلعتها، وأقام قائدها بها مكتبه. ومع انتهائهم من تحصيناتهم، كان الفرسان يتقدّمون فيُناوِشونهم، ثم يفرّون، حتى اللَّيلة التي سَبقت الهزيمة. أذكر آخر عشاءٍ جمعني بالآغا إبراهيم وباي قسنطينة، يتّفق الجميع حول الباي أحمد الذي جرَّب الحروب طويلا، لذا يحدّقون تجاهه كلما تكلّمنا عن المعركة المقبلة. انتظروا استرساله في خطته، ولكن كلماته كانت موجزة ومُقتضبة، ومُقنِعةً للجميع، قال الباي:

- يسير جزء من الجيش غرب قلعة طُوري شِيكا، ويهاجم جيش الفرنسيين من هناك كيلا يسير شرقًا تجاه المدينة، أما ما يتبقى من الجيش في سطاوالي فيقسم إلى فِرَقٍ، ويُعيّن على كل فرقة قائدًا يتولى كل شؤونها.

راقتني كلمات الباي كثيرا، ولكنها لم ترق لإبراهيم آغا الذي أجابه من توّه، وكأن بينهما عداء قديما:

- ما الذي تفقهونه أنتم عن طريقة حروب الأوروبيين؟!

ثم هَمَس وكأنه يحاول ألا يسمعه الآخرون:

- أوعزت إلى بعض شيوخ القبائل أن يستدرجوا قادة الجيش الفرنسي كي ينزلوا أماكن معلومة لنا. وبهذه الطريقة نَهجُم عليهم دون أن يحتاطوا لنا.

ذُهل الحاضرون، لم يميّزوا جِدَّه من مزاحه. لا يرى الأمور بتلك الطريقة إلا أحمق أو مجنون. افترق الجميع على أثر كلمات الآغا، وغادرتهم إلى خيام المعسكر، كان الجنود في حالة يُرثى لها، بدا طعامهم سيئا، والبنادق التي حملوها كانت قديمة، اقتربتُ من أحدهم، كان يقف إلى جوار خيمة صغيرة وسألته:

- أوصلتكم هدية الباشا؟

- لا لم يصلنا أي شيء، حتى رواتبنا أُجّلت إلى ما بعد المعركة.

عَجِبت من كلماته، وخَطوت مسرعًا تجاه خيام أخرى، كانت لمتطوعين سلّمتُ مالهم بيدي إلى الآغا، ووقفت عند أول حلقةٍ، ووجدتني أكرِّر السؤال:

- أوصلتكم هدية الباشا؟

أعاد الجنود الجواب نفسه، حتى السّلّاوي رأيته هناك يقف بين شباب المحروسة، كان مستاء، سحبته من بينهم، وسألته:

- ما الذي يحدث هنا؟

- إنهم لا يريدون تسليم العُزْل بنادق، والذين معهم بنادق سلّموهم عشرة خراطيش فقط، عدا الطّعام الشّحيح.

- ولكن الباشا قد فتح المخازن للجميع.

- لا يهمني الباشا، وهؤلاء مثلي لم يغادروا المحروسة من أجل أحد من الأتراك.

لم أنتظر حتى أستشير الآغا، بل امتطيت فرسي وأسرعت تجاه المدينة، وكلما تقدّمت بي أكثر أرى بقايَا المناشير من حولي، فأتوقف وأطالعها مليًا، يعرضون على السكان تسليم المدينة، كي يحافظوا على أموالهم وأنفسهم، وما إن بلغت أسوارها حتى رأيت الدُّخان من هناك، وتناهى إليّ دويٌّ المدافع فأدركت أنهم قد بدأوا حربهم على المدينة من البحر، وسيشرعون في زحفهم من البرِّ، وفي مسيري بين شوارع المحروسة، رأيت عربات أخرى تجرُّها الخيول، تسيرُ تجاه الباب الشّرقي للمدينة. حتى وأنا أمام الباشا عجزت عن الكلام. وقفت أمامه، لكنه كان غائبًا عني، وعن الحاضرين من الذين كانوا في الدِّيوان، تشجعت وقلت:

- الآغا يحرم الجنود من المال والسّلاح، والطعام.

ثم تشجّعت وقلت:

- تَوليته كانت خطأ.

التفت إليّ الحضور وكأنهم يلومونني على كلماتي في حضرة الباشا، بيد أنه الوحيد الذي لم ينظر تجاهي، بل وقف، وجاست عيناه المجلس، ثم غادرنا إلى جناحه.

في المساء اجتمعنا، وفوجئنا بالجندي المضرج بدمائه يقتحم الدِّيوان، جثا وقال:

- لقد هزمنا في سطاوالي وأخذوا المعسكر، وتشتّت الجنود عبر الجبال، وآخرون تراجعوا إلى المدينة.

سألته:

- والقائد إبراهيم آغا؟

- فرَّ من هناك ونجهل مكانه الآن.

نظرت إلى الباشا، وفي عينيه قرأت طلبه أن أسير إلى الآغا إبراهيم ليعود فيجمع شتاتهم. غادرت الدِّيوان، وركَضَت فرسي حتى أشرفتُ على المعسكر، ورأيتهم هناك من أعلى التّل، وحدست أن الآغا قد سار شرقا، وعبرت تلالًا أخرى حتى عثرت على بيتٍ ريفي لتاجرٍ من المحروسة، وحين وصلت إليه رأيت بعض الجنود يقفون عند بابه، ولما دخلت البيت وجدت الآغا منزويا في إحدى غرفه، كان يائسًا وخائفا من مواجهة الباشا. ووجدتني أحضّ إبراهيم على العودة ليجمع الجيش مرَّة أخرى. وبعد ساعةٍ كان الآغا يسير إلى جانبي، ثم افترقنا قبل بلوغ باب المحروسة،

نزل رفقة جنوده يبحثون عمّا تبقّى من الجيش المتناثر عبر التِّلال.

كنت مثل الغَريق بين الأوراق والعرائض التي بُسطت أمامي، حين دُقَّ باب غرفتي، وتناهى إليّ صوت البحار يعلمني بوصولنا إلى ميناء مرسيليا. لملمتُ أوراقي ثم خبّأتها في المحفظة، ونزلت من السفينة، مستقبلًا بصدري نسيم البحر، إنها مرسيليا، ولكن دون ديبون. لو كان هنا، لكانت للعرائض التي سأسلمها للملك أو وزير الحربية حياة أخرى على يديه، ولكن البحر الآن يحجبه مثلما يحجب المحروسة عنّي، ناديت على أول عربةٍ رأيتها على الرَّصيف، وطلبت أن يقلني إلى الفندق.

حمّة الشّاوي

كان البحر ممتدا أمامي، وطوري شيكا خلفي، لا أدري أي شيء يمكنني الآن عمله، رجلاي مقيّدتان. وقلبي يهتزّ بقوةٍ، كلما ضرب الموج الصّخر ليرتدّ ثانية، ولكن الجنود لم يرتدّوا، بل تجاوزوها، ورست سفنهم، وظلّت أيامًا ترسو هناك، خمّنّا من البداية أنها ستكون عشرة أو عشرين، ثم ذهلنا، كانت مئات السُّفن تفغر أفواهها تجاهنا. بينما كان الباشا وآغاه يمنعان عنا الطعام والذخيرة، أمعقولٌ أن يواجه الجندي جيشا مثل ذلك ببطنٍ فارغ، وعشر طلقات في جيبه. في سيدي فرج، كانت البوارج تقترب من الشاطئ، وترسل مئات القوارب، كل قاربٍ يحمل جنودًا، عيونهم كلها تنظر تجاه طوري شيكا اليتيمة إلا من مدافع قليلة، تضرب بين الحين والآخر ولا تُصيب مرماها، ولكنها أصابت عندما رمت لابروفانس. لم يكن خطأً، ردّد ابن ميار: وكيل الحرج تآمر مع المدفعي لضرب السفينة. من يصدق هذا الكلام؟ ربما السّاذجون الذين ودعوا الباشا في الميناء، وقد أكون مخطئا، ولكنني على الأقل لم أُصدِّق ما حدث، الباشا من أوعز لهم بذلك، كان يستهزئ بكل الذين من حوله. هكذا هم دائما الأتراك، حتى في سطاوالي، كنا أكثر من جنود الإنكشارية، بل ضعف عددهم، وبينما كنا نتضوَّر جوعًا، كانوا يدخِّنون غلايينهم، لا يسير اليولداش إلى حربٍ إلا حينما يرافقهم البُن والتَّبغ. رأيت الجِمال بحمولتها تنحدر بتؤدة نحو

المعسكر، خيّموا قبلنا، وهاجَـمْنا قبلهم في سيدي فرج، كنا في ثلاثمئة فارسٍ فقط، كثير من أهالي المحروسة والعربان وقليل من اليولداش، سرنا حتى بلغنا السّهل الذي احتلّوه، تفصلنا مسافة لا يستهان بها، كل فارسٍ يشدُّ على لجام حصانه، ويمسك بندقيته ذات الماسورة الطويلة، يلقمُها البارود، ثم ينطلق الصَّف الأمامي يركض تجاههم، بدوا لنا كثيرين، كأنما الأرض نُقِشَت بألوان بِزّاتهم، الزُرقة والحُمرة امتدت عبر السّهل، كنت ألعن الأتراك حينما انطلقتُ أول الأمر، اللِّجام في يدي، والبندقية على كتفي، يَركض الحصان حتى يتفصَّد عرقا، أُعدِّل جلستي ساحبًا البندقية، حينما تكون الصُفوف في مرماي، ثم أنعطف يمينا، ويداي تصوِّبان البندقية تجاههم. وانطلق الدَويُّ دُفعةً واحدة من بقية الفرسان، وفي عودتنا سمعنا أصوات طلق بنادقهم، أشرت إلى الفرسان المقبلين تجاهنا ألا يخشوا شيئًا، وتراجعت إلى المجموعة، ثم طفقت أُعيد تعبئة بندقيتي أنتظر دَورِي مع البقية، ومرَّ جزء من النّهار، كانت أعدادهم تتزايد، ونلمح سفينة تُنزل مزيدًا من الجنود، والمؤونة والمدافع. تسلّلت في المساء بعد أوبتنا إلى معسكرهم، رأيتهم من أعلى التّل، يسحبون المدافع حتى بلغوا قلب السّهل. وبدأت فرقة أخرى الحفر، كانوا يُعدّون الخنادق، ولم يتوّقفوا طوال الليل، تراءت لي الأضواء في الأسفل كأنها نجومٌ زرعت بالأرض، انسحبت إلى معسكرنا، رأيت بعض النيران مازالت مشتعلة، وتجولت بين الخيام، لم يكن هناك حراس عليها، كان اليولداش نائمين، وتصاعد الشَّخير من بعض خيامنا، انتابتني رغبة في الصُّراخ، هل يعتقد النِّيام أنهم بالفعل قادرون على الدفاع عن المحروسة؟ تركتهم يبقرون الأرض بمعاولهم، وتعالى شخير جنودنا، رأيت إحدى الخيام، من علوها خمّنت

أنها لضَابطٍ، هممت بإيقاظه. خطوت تجاهها وما إن وقفت عندها حتى امتدت يد تشدُّني وتسحبني إلى الخلف، شعور غريب انتابني، لا أدري لِمَ، ربما لأنها اليد نفسها التي تعوّدت إنقاذي من مآزق كثيرة، ها هي اليوم تمتدُّ مرة أخرى، التفت، ورأيت بعض ملامحه، وقف ابن ميّار يقابلني، طلب مني الانسحاب قبل استفاقتهم، وانتقلنا إلى خيمتي، دخلناها بهدوء، كان الجنود نائمين، ولم أستطع كتمان مرارتي:

- أترى يا صديقي، نبوءة القَسّ التي شاعت في المحروسة منذ سنواتٍ ثلاث قد تحقَّقت.

- لا يمكن للنبوءات أن تحدِّد مصير مدينة ما، حُكامها فقط من يفعل ذلك.

- بل أهلها، أو من تبقى منهم.

- أنت تُبالغ كعادتك، ألا ترى خيام اليولداش من حولك؟ وسيأتي آخرون من وهران والتيطري.

- ربما تقصد الذين يدخنون غلايينهم ويحتسون القهوة كل مساء في خيامهم.

- ليسوا كلهم كذلك، إنهم لم يخرجوا من أوجاقهم إلا من أجل الدفاع عن المحروسة.

- بل لم يغادروا أزمير إلا من أجلنا.

- تظلُّ تسخر يا حمّة. الرِّجال كلما تقدَّم بهم العمر يزدادون حكمة، وأنت تزداد طيشًا.

كانت يداي لحظتها تختلجان، نظر إليّ ابن ميّار باستغرابٍ، ثم وقف فجأة وعدّل ثيابه، الخيبة التي كنت أحملها انتقلت إليه. تلا دعاءً أثيرًا لديه وهو يغادر الخيمة، تبعته إلى مربط فرسه، وامتطاها ثم غيّبته ظُلمة

سطاوالي. بقيت بين الخيام، كأني أتنبأُ قدومهم، وأسمع خُطواتهم وهم يحيطون بالمعسكر، وتشتعل النِّيران تضيء لي بزَّاتهم، أرى في لونها دمًا يُسفك، أنقل بصري بينه وبين الخيام، ولا يتناهى إليّ غير عواء الذِّئاب، كم تشبه تلك الكائنات اليولداش، استشعرَت أن الموت ليس بعيدا، تتشمّم تدفّق الدَّم الحار، وتلهث باحثة عنه عبر الجبال حتى تبلغ سطاوالي.

استفقتُ على عواء الذِّئاب المتكرِّر، وتحركت نحو نهاية الخيام، حيث رأيت نارا أخرى. كانت النسوة اللائي رافقننا ما يزلن متيقّظات، يتسامرن في خيامهنّ، امتدّت إليّ بعض ضحكاتهنّ. هل يفكّرن في مصيرهن؟ لم يكن انتظارًا عند أبواب البيوت، ولن تنفعهنّ زينتهنّ ولا تعطّرهن، الآتي من الشّمال لا يحمل معه إلا بندقيته، وجِرابه المعبّأ بالموت. كان عليهنّ العودة إلى بيوتهنّ، ولكنهنّ أصررنَ على الالتحاق بنا، في انحدارنا ذلك اليوم، رأيتهن في أعقابنا، فعدت وحيدًا أعترض سبيلهن، طلبت إليهنّ العودة، ولكنهنّ رفضن وأصررن، وتهاوى رفضي عندما تكلّمت إحداهن: لستم أحرص منا. لحظتها رأيت بعضهن يحدقن تجاه شباب المحروسة خلفي، واستغربت كيف لأولئك النِّساء اللواتي يبعن أجسادهنّ كل يوم، أن يحملن هذا المقدار من الوفاء. كل يوم تظهر متناقضات جديدة في المحروسة، تقبع الشريفات في بيوتهن، وتخرج البغايا للموت، ويفرُّ الموسرون عند أول طلقةٍ للمدافع، وينحدر الفقراء في إثري.

ما بين الظُّلمة والنُّور، تناهت إلينا الأصوات، تصايح الغُربان من حولي، وعوى اليولداش بلكناتهم على الجنود، كان الضُّباط يجرون ويضربون الخيام بعِصِي، وآخرون أطلقوا النَّار في الهواء، أسرعت تجاه فرسي وفعل مثلي البقية من شباب المحروسة، امتطوا خيولهم حاملين بنادقهم،

وما لبثنا أن كنا في صفوفٍ فوضوية، واجتمعت بقية الفِرق خلفنا، يتقدمها الضُّباط، بيد أننا سبقناهم بالمسير، وخلفناهم يعدّلون صفوفهم، ثم رأيتهم ينزلون الربوة التي عسكرنا بها. تساءلت هل تركوا من يحرس المعسكر؟ لم أتوقّع أن ينسوا أشياء بتلك الأهمية، كان إبراهيم أسوأ القادة الذين مروا على المحروسة، ولكن بعض الأخطاء أصغر من أن نرتكبها.

سِرنا مسافة غير قصيرةٍ، حتى كان النُّور يُتيح لنا رؤيتهم، شكّلوا مربعاتٍ تفصل بينها طرقٌ ضيِّقة، أمامهم المدفعية ثم تقدمهم خط طويل، يمتدُّ إلى الجهتين حتى لا نكاد نراه، توقفنا في مكاننا، وانتظرنا التحاق البقية بنا، ثم لاحت طلائعهم، ولكنهم ما إن أبصروا الجنود الفرنسين حتى ذهلوا، كانت أفواههم فاغرة يحدقون تجاه الخط اللامتناهي. وقف الآغا إبراهيم غير بعيدٍ مني، قدّرت من ملامحه أنه لم يكن أقل خوفًا من البقية. يداه ترتجفان وهو يمسك لجِام حصانه، ربما كان يريد أن يضربه كي يفرَّ به بعيدا عن السّهل، أو ربما ودّ لو يعود إلى المحروسة، يترجى الباشا منحهم ما يريدون، فليس غريبًا على تركي التخلّي عن كل المبادئ التي يؤمن بها، من أجل الحياة، وهو الـمُدرك أن كونه تركيًا يكفي لاستعادة ثرواته من سكان المحروسة، لطالما سمعت قادة اليولداش يرددون: قد استطالت أجنحة هؤلاء العرب، بعد فراغنا من الفرنسيين سنقصها.

كان بعض اليولداش قربي، تَصطك أسنانهم، ينتظرون بداية القتال، أبصارهم متوجهة صوبنا، أرادونا أن نكون نحن من نستقبل الرّصاص قبلهم. لن أدّعي أنني كنت أول من ضَرب حصانه، قفز قبلي بعض العربان، كبرّوا وضربت أرجل خيولهم الأرض حتى تصاعد الغبار، فقفزت في أعقابهم. أبلغ مسافة الرَّمي، وينبعث دَويُّ البنادق دفعة واحدة، أرى

الطلقات من صفّهم الممتد، ورغم مدى رمي بنادقهم القصير، لكنها كانت أسرع في الشَّحن. لحظة فقط ثم نسرع بالعودة إلى جنودنا، يقتربون ببطء تجاهنا، نتجاوز صفوفهم، ثم نعود فنخترقهم مرة أخرى، لنواجه الصفَّ الممتد، لم أعرف كم تقدمنا ثم تراجعنا، ولكنني كنت أراهم يتساقطون تباعا، يكبو الحصان بالواحد منهم ويرميه بعيدا. التفتُّ مرة أو مرتين، شاهدت أحدهم ينهض من مكانه، ثم يجري مبتعدًا، سَلم من الرصاص، لكن الآخرين لم يسعفهم حظهم، خطوات قليلة ثم تَستقرُّ الرَّصاصة في الجسد، يترنَّح وهو يحدِّق تجاه اليولداش الذين ما زالوا يتقدمون، وكأنهم لن يصلوا أبدا. ثم يغمض عينيه، وأنا ما زلت لم أغمض عيني بعد، كانت أرجل الفرس تضرب الأرض، اللِّجام يستقرُّ بين فكيّ، والبندقية في يدي أصوبها تجاههم، ثم رافق صراخي مغادرة الرَّصاصة الماسورة، وانعطفت عائدًا إلى مكاني، قفزت الفرس خطوات إلى الأمام، ثم ارتجَّت بقوةٍ تحتي، وبدأت في الانحدار، وقبل أن تهوي على الأرض، رمتني بعيدا. أبصرت خيالاتٍ تطوف حولي، ورفعت رأسي فرأيت اليولداش يقتربون مني، ثم كانت أرجلهم ترفس جزءا من جسدي، لم أستطع النُّهوض حينها، ولكنهم حين مرّوا حاولت القيام، يداي تحركتا. ثنيتهما في محاولة جديدة لإبعاد صدري عن الأرض، رفعته قليلًا واعتدلت قاعدًا، ثم التفتُّ وترامى لي مزيج الألوان والأجساد، كان الجيشان قد تلاحما. العربان يقاتلون بطريقة لا نظير لها، حينما تفرغ الجيوب من الرصاص، يسلّون سيوفهم، كانوا أبرع في استعمالها، أرى حركتها السَّريعة وهي تهوي على أجساد الجنود الفرنسيين، بينما بقي اليولداش على جانبهم، لم يكونوا بالشَّجاعة نفسها، لا يجرؤ الجندي منهم أن يتوغّل بين الفرنسيين، يتحلّقون في مجموعات

ليحموا ظهورهم. لم أستطع البقاء هناك، تحاملت على نفسي ووقفت، ثم سرت بتَعثّرٍ حتى بلغت مكانا يُشرف على المعركة، كانت البندقية على كتفي، متأبطا كيس الطلقات، اختبأت خلف تلٍ صغير، وصوّبت نحو البزات الحمراء، ولكن الرصاص لم يسعفني. تحركت من خلف الربوة، لألتحق بهم، كانوا كأنهم ينادونني، وخُيّل إليّ أن أحدهم رمى السَّيف تجاهي، ومددتُ يدي لأمسكه، ولكن رجرجة جسدي جعلتني أصرخ دون وعي مني، رفعت رأسي فترامى السَّيف معلقًا في الهواء، عائدا إلى يد صاحبه، وحين عدت بوجهي كانت الأرض تقترب مني، وفي غَبش الرؤية كانوا يتماوجون، تمتزج الألوان السَّوداء بالحمراء، ثم تُصبح رمادية، ويتصاعد غُبار كثيف بيننا، شعرت بنار تشتعل قربي، اشتممت رائحة الحطب المحروق، وكأنني أسمع خليطا بين عواء ذئاب وصريخ اليولداش، ثم انتشر البياض في الفضاء كله.

استَفقت على حرارةٍ تشتعل في كتفي، وسواد خيمة ظللتني، ووجوه كانت تحيطني، أدركتُ من ثيابهم أنهم من أعراب السُّهول، سمعت تمتمة الشَّيخ الذي كان أقربهم لي، كنت أشعر بجفافٍ في حلقي، وبدا لي أني حركت رأسي وتكلَّمت، وربما حتى صِحتُ، ولكنهم لم ينتبهوا لي عدا ذلك الشَّيخ، فلم يلبث أن وضع قطعة الصوف المبلَّلة على فمي، وطفق يضعها في إناء عند ركبتيه ثم يحرِّكها على شفتي جيئة وذهابا، ويعصر في حلقي، كأنما كان ينفخ في روحي فتنبعث الحياة في جسدي، وذهب الغبش عن عيني واتَّضحت الصُورة. كانوا من بين الذين شاركوا معنا في سطاوالي، هممت بشكرهم، وقبل أن يتحرّك لساني وجدت قطعة الصوف المبلَّلة على فمي، ولكنّ الألم ازداد اشتعالًا في كتفي، وقلبي ازداد اهتزازًا كلما تذكّرت

أننا هُزمنا. تساءلت أين هم الآن، أتراهم بلغوا أبوابها، أم أنهم صُدُّوا؟ ولكن من الذي يصدّهم، وجلُّ الجيش كان معنا؟

أسوأ المواقف التي يعيشها المرء، لحظة عجزه عن الكلام، ويمتلئ القلب بالأوجاع. كان أولى بهم لو تركوني للذِّئاب، أو ينثروا عظامي في السُّهول والجبال، وستَنبُت حينها آلاف من أشجار السّلّاوي. ولكن الشّيخ يريد إبقائي ساكنًا، حتى يطيب الجرح. تفرَّقوا من حولي حين حل الظَّلام، وانتقل الشَّيخ إلى باب الخيمة يشعل نارًا، رأيت اللَّهيب يستعرُ، وظهرت ملامح وجهه النَّحيف، عظامٌ التَصقت بالجلد، ولكنها وشت بأشياء غامضة! تعلّق السِّر بالنّظرة نفسها، رغم آلاف السِّنين التي مرت، كان الشّيخ يحدِّق تجاهي، أرى بريق عينيه، كثيرة هي الأشياء التي استوعبتها، ولكنها صعبة على التّفسير، نخبئها في دواخلنا، تستعيدها في لحظات الضّعف، أشياء تنبع من المعين نفسه الذي كانت دُوجة تسقيني منه، نهرٌ لا يمكن أن يدركه أحد، مستعصٍ، يُداري نفسه كلما أردت الوصول إليه.

دنا الشيخ مني حاملًا صحن الحساء، ومد يده خلف ظهري وأقعدني، بدأ يطعمني حتى شبعت، ثم أعادني إلى مكاني، كانت النّار أيضا تستعر في نفسي، أردت شكره ولكنه ظلّ يومئ لي ألا أتكلم. أشيـاء من العمق كانت تدفعني للسؤال، للقيام من مكاني واللحاق بهم، وهممت بذلك، لكن الشيخ جلس إلى جانبي، ثم قال:

- عليك أن تهدأ.. لا يمكنك مغادرة فراشك الآن، لم يبرأ جرحك بعد.

- ولكنهم يحتاجونني هناك.

- على هذه الحالة، أنت الذي تحتاج إلى الرعاية.

- مذ متى وأنا هنا؟

- يوم ملقى في البرية، ويومان قضيتهما نائمًا، وها هو اليوم الرابع يوشك على الانقضاء.

- والمحروسة؟ هل من أخبارٍ عنها؟

- للأسف. سلّمها الأتراك للفرنسيين.

هل ما قاله العجوز حقيقة أم تراه وهما؟ أتضيع المحروسة بهذا اليسر، لم أكن لأصدِّق كلماته، كانت عصيّة حتى على التفكير فيها، كنت أهذي والشَّيخ لا يزال قربي، عُدت إليه أسأله:

- بالله عليك قل لي الحقيقة، هل فعلا سلّمها الأتراك للفرنسيين؟

أشاح العجوز بوجهه عني، قائلا:

- بالأمس حدث هذا، دخلها الجيش مع منتصف النَّهار.

يا الله... صرخت حتى اعتقدت أنهم سمعوني هناك في المحروسة، وفزع الشَّيخ إلى جانبي، يا الله إنني لا أحتمل مقدار هذا الهدير الموجع، قلبي لا يمكنه التفكير في محروسة أخرى غير التي عرفتها. تعود إليّ مشاهد السّلّاوي الصغير، يركض بين دروبها الحجرية، وأنا أركض فارّا من اليولداش. والآن سيرحلون ولكنهم سيخلفون جنودا لا يختلفون عنهم، لماذا يا الله يحدث هذا تحت سمائك؟ ألم تكن المحروسة تحتفي بك في شوارعها وأعيادها وجوامعها التي تكتظُّ بها المدينة؟ كيف لم تستجب لأولئك الشُّيوخ الذين كانوا يرفعون أيديهم إليك لتحفظ المحروسة من كل معتدٍ؟ لماذا يا الله لم تجبر خواطر الأطفال الذين اصطحبهم آباؤهم إلى المساجد لتشفع لهم طهارة قلوبهم وتستجيب لهم؟ والدَّراويش

الذين دعوك عند الأضرحة بمعَزَّة أوليائك المحببين إليك وإلى قلوبهم، أن تملأها بالأمان والطمأنينة، لماذا يا الله كسرت خواطرهم جميعا؟ حتى البغايا شـمَّرن عن سواعدهنَّ، وتركن زينتهنَّ وعطورهنَّ وكنّ في إثرنا، هنّ كذلك كنَّ يدعونك أن تعيدهنَّ سالمات إلى بيوتهن، فيَتُبن ويخترن دروبًا طاهرة، وبعض منهن سمعتهن يحلفن بمعَزَّة سيدي عبد الرحمن أنهنَّ سيزرن بيتك في الحجاز، ويقبّلن الأرض التي مشى عليها النبي، ألم يكنّ جديرات بعطفك؟ يداي كانتا ترتجفان، والعرق يرشح من جسدي، ولكني انتفضت ودفعت العجوز بعيدًا عني، وقمت في انحناء، كنت أتوق إلى الفرار بعيدا إلى التّلال، لأقف عند أسوارها، أو أقتحم الجيش، فليمتلئ جسدي بالرّصاص وليحترق بالبارود. هممت بالمغادرة، الرّغبة نفسها دفعتني، ولم أتجاوز الخطوة الأولى حتى خررت أرضًا، اشتعل الألم حادًا من الجرح الذي تقيح. وبخفةٍ شرع العجوز يجفِّف الدَّم، والدُّموع التي انهمرت، كنت أنشج إلى جانبه، ولم يحتمل فانضمَّ إليّ وبكى هو الآخر. ثم اجتمع حولنا أبناؤه، ساحت دموعهم، وبلّلت خدودهم، ثم كان نهر الدُّموع يملأ الخيمة بالملوحة، أو هكذا خُيِّل لي في الحمَّى التي دهمتني بقوة. ازداد ارتجاف يدي، واحتدَّ وجيب قلبي، رأيت أمي في باحة البيت، تضع القدر على النَّار، وتنادي عليّ حمّة يا حمّة، لا تقترب من القِدر، لكنني اشتهيت وضع يدي في الماء المغلي. تختفي أمي ثم تُولول على يدي التي غطستها في القدر، وتتورّم أياما ثم أشفى منها، لم تكن أول مرة أفعلها وأؤذي نفسي، بل إن الحقائق كانت دائما بالنسبة لي مُحرقة، تملأ جسدي بالقُروح. ولم تكد أمي تعتاد تصرفاتي حتى غادرتْ مبكرا. الطَّاعون سحب ثُلثي المحروسة، ووقف الأتراك يطالعون الأيتام، ولا يفعلون لهم شيئًا.

بعض المدن أفضل من أهلها، ودائما كانت المحروسة أكبر من ساكنيها.
يبدو الأمر حلما مليئا بالمرارة، تتموّج في معدتي، أريد تقيؤ كل ما فيها دفعة واحدة، تكهّن العجوز برغبتي فأقعدني، وانهمر من بطني سائل ثقيل وأسود، فاح بروائح كريهة. كنت أحاول استرداد أنفاسي من الاهتزازات المتكررة لجسدي، وكان العجوز يهمس: إنك تتعافى. ومن قال إني أريد الشفاء منها، كل الآمال كانت مُعلّقة بها، وهي الآن غائبة. كانت الحرارة تتضاءل من جسدي، ويداي توقفتا عن الارتجاف، التفت إلى العجوز وقلت: كنت سأشكرك لأنك أنقذتني، والآن لا أدري أيستوجب ما فعلتَه الشُّكر أم لا؟ ليتك تركتني في الخلاء. ابتسم العجوز بخيبة وهو يطالعني، لم تزعجني شفقته عليّ. الآن يستطيعون التفوّه بالكلمات التي يريدونها، أصبحت كائنًا غير الذي غادرت به بيتي. الموت أسهل الدّروب نحو النسيان. لم تكن هناك رغبةٌ إلا في النوم، تقت إلى مساحة لا تنتهي من الأحلام، والضّياع في غاباتٍ كثيفة لا يمكن لأحدٍ أن يراني بها. وضعت لحظتها رأسي على الوسادة وغِبت عن الذين من حولي، وعن التّلال، وحتى عن العالم، ولكني لم أرَ أية أحلامٍ. اكتسح الظّلام الفضاء كله، ثم استيقظت على حرقة شديدة، أول الكلماتٍ التي قُلتها كانت المحروسة. ألفيت العجوز يحدِّق بي في صمت، نقلت عيني بين الوجوه المراقبة لحركاتي، ثم التفتُّ إلى العجوز بعينين ترجوانه: أريد مطالعة أسوارها، لو تحملونني إلى التّلة فأراها من هناك، وإن متُّ فادفنوني في أعلى التّلة، واجعلوها آخر الأُمنيات.

ذوجة

كان قد مرّ على موت أمي سنتان، ولا يزال أبي يعمل في بيت القُنصل السويدي، يغيب حتى أقول إنه لن يعود، ثم أرى خياله من بعيدٍ، يتقدم وئيدا يعبر الحقل حتى يبلغ باب البيت، قبل أن يسلِّم عليّ يسألني عن منصور، وفي كل مرة أجده أكثر تلهفًا عليه. يحمل معه صرّة الأدوية، يخبرني أن طبيبًا زار المحروسة قبل أيام، وأعطاه دواء سيشفي منصورا الصّغير. قبل انتهاء جملته يرتفع سُعاله من الدّاخل حادًا، نلج إليه مسرعين، ونجلس عند رأسه، يلتفت إلى أبي بنظرة زائغة كأنه لا يراه: هذا أنت يا أبي، اعتقدت أنك لن تعودا

حتى عندما كانت أمي تُحتضر لم أكن أرى أبي بتلك الصورة، يجلس صامتا، تتلمّس كفُّه جبهة منصور، ثم تتحسّس صدره إن كانت البُقع قد رحلت عنه، ولكنها في كل يوم تُعلن عن نفسها في مكانٍ جديد، تبدأ صغيرة، ثم تمتلئ بالقيح، وتنفجر فجأة، مخلِّفة بثورها عبر كامل جسده، حتى تخرّم جلده. لم يستطع أبي مواصلة رؤية جسده، كان يأمل أن يشفيه الدّواء الجديد، رغم أنه كان مشهدًا مكررا طوال العام، يغيب شهرًا، ثم يعود محمّلًا بكيس الدّواء، يدهن جسده به، ثم لا يحدث شيء، يُعيد النّصائح القديمة، يقول الطبيب: يجب أن يأكل جيدا، ويشرب ماء نقيا.

ثم يغيب إلى عمله، ويرجع ليجد منصورًا يواصل انحداره، يزداد جسده ضمورًا، ويحتدُّ سعاله أكثر، حتى هذه المرة، أعاد أبي المشاهد الماضية، عرّى جسده، ووزعّ المرهم عليه، وسقاه من محلولٍ آخر، وأعلمه أنه لم يبق الكثير. لم أفهم قصد أبي، الشِّفاء أم الموت. كانت يده تمتدُّ إليه بقطع الحلوى التي أحضرها معه، يعرف أن منصورًا يُحب الحلوى الطحينية، فيحملها له من المحروسة، يسحبها من كيسه الصَّغير يُكوّرها ويلقمها فمه، لكنه لا يستطيع بلعها، يأخذ منها لقمة صغيره، ويديرها في فمه ويبلع القليل منها، وتندلق الأخرى على جانبي فمه ممزوجة بلعابه، يردفها بنوبات سعال. وتظلُّ تتكرَّر محاولات أبي، يفشل في كل مرة، يلتفت إليّ بحزن: دُوجة، كيف كنت تفعلين هذا طوال الوقت؟ أتذكَّر تلك المحاولات اليائسة التي أعيدها كل يومٍ، من أجل صحنٍ صغير من العصيدة، ولم يكن الأمر ليختلف مع الحلوى الطحينية، اقتربت من منصور، وأذبت الحلوى في ماء بالصَّحن، ثم شرعت أسقيه، بدا الأمر أكثر يسرًا. حتى منصور كان سعيدًا وهو يستقبل الحلوى المذابة برغبةٍ أكثر وتعبٍ أقل.

يومان فقط كان مسموحًا بهما لأبي أن يمكث عندنا، ثم يحمل نفسه ويرحل، يتركنا مثلما وجدنا، متحرّقين لبقائه. ولكنّ أبي أضحى شخصًا مختلفا بعد رحيل أمي، وحيدًا ومنفردا، غادرته الرّغبة في زيارة أحد، انقطعت كل صِلاته بمن حوله، كان متعلقًا بأمي كثيرا. تفاجأت أن حزنه لم يكن مثل أحزان بقية الناس، لم يبكِ طويلا، بل ركن إلى الصّمت، لطالما انتبهت إليه في وحدته يتمتم ويغني، لم يكن غناءً بقدر ما كان أنينًا، وحين ينتبه أن أحدا يراقبه، يمسح دموعه، ويعود إلينا بملامح يحاول إخفاءها.

في حياة أمي لم يكن أبي ليُبدي شيئا من تعلّقه بها، لم يغازلها أمامنا، بعض الهدايا التي كان يحملها في يده، يهديها إياها مثلما يهديني المنديل، أو يهدي منصورًا الحلوى الطحينية، يمرُّ الأمر سريعًا حتى أضحى شيئا معتادا، في الأيام الأخيرة لها تبدّل حالها، وألزمها المرض الفراش، وصار غائبا عما حوله. أما حين ماتت، فحسبنا أننا لن نراه مجددًا، وأنه سيمكث هناك في بيت القُنصل ولن يرجع إلينا.

منذ وعيت وجدت أبي يعمل في بيت القُنصل، كانوا في القرية يقولون إنه أفضل رجالها معرفة بالأشجار، وهذا ما جعله محلَّ تقدير منه، وبالرَّغم من تتالي الوكلاء على ذلك البيت الغريب، ظلُّوا يحتفظون بأبي طويلًا بعدها. هذا ما كان يردِّده أبي قبل سنواتٍ حينما نجتمع حول الموقد، أمي وأنا، ومنصور في حجره، كان يحمل لنا بعض الفواكه المجففة في جيبه، نَسعد بها ونفرح حين نراه يقترب من البيت، وحين تخطو رجله أول خطوة إلى الحقل يركض نحوه منصور، يقفز ما إن يقترب منه، يحمله حتى يبلغ به الباب. ولكنّ أبي اليوم عاجز وهو يطالعه، لم يستطع إطعامه الحلوى التي يحبها، ولم يتجرّأ على حمله إلى مقدمة الباب. يتحوّل عجزه إلى تمتمة، ثم يتصاعد أنينا متصلًا، أبي الذي كان يخجلُ بالأمس منا أصبح اليوم يبكي أمامنا. ثم يرحل في اليوم التالي ويرجع أكثر تعبًا!

ما أزال حبيسة غُرفتي، أرنو إلى جدرانها وكأنما أرى بيتي في القرية، حيث كان منصور إلى جانبي، أهمس به: منصور منصور أتراك تسمعني؟ كان قد غطَّ في نومه بعد أن مصّ الحلوى المذابة، تَغيَّرت ملامح وجهه، حالت أكثر بشاشة، قلوب الصِّغار مُعلقة برغبات بطونهم. وما إن ينالوها

حتى تقفز فرحًا من أقفاصها. أذكر كيف كان منصور يقفز كلما رأى أبي قادمًا، يتتبَّع حركات يده وهي تدخل إلى كيسه الصَّغير لتعود محمَّلة برغباته البسيطة، وأنا لم أكن لأختلف عنه، لكن مقدار الفرح كان متباينا، وأمي تبدو سعيدة أيضا بما حمله أبي، وبعد سنواتٍ اكتشفت أن الهدية اللّيلية هي التي كانت تُسعدها، ليلتان في كل شهرٍ يلتقي جسداهما، وتتناهى إلينا وشوشتهما منتصف اللَّيل. أغفو وأستيقظ عليها، وفي صباح اليوم الموالي، أرى وجه أمي أكثر صفاء، ولم أفهم كيف يقلب حضور أبي مزاج أمي بتلك الطريقة، إلا حينما اكتشفت جسد الرِّجال، وأدركت أن هناك شيئا غامضًا فيه، لا يمكن القبض عليه إلا في الظُّلمة، حين تختفي المسافة بينهما، ويدثِّرهما غطاء واحد، يتسلَّل الدفء إليهما، ويتحرَّك ذلك الشيء الغامض، يخفق في البداية، ثم ينتهي إلى صفاء.

منصور لا يزال يغطُّ في نومه، يحلم بحقلٍ من حلوى الطّحين، وأبي يتوسطه يضغط على المحراث، ويحثُّ الحصان على السير، يركض إليه ولكنه يسقط ويمتلئ فمه بدقيق الحلوى الطحينية، لا يبكي، بل يضحك ويطوف لسانه بحدود فمه مستمتعًا بها، إلى أن يبلغ أبي، يصرُّ كعادته على ارتقاء خشبة المحراث، يضطرُّ أبي إلى مسايرته، يسحب رجله الضاغطة على أساسه، ويُصعده إليها، ويصرخ في الحصان، ويظلُّ على حاله تلك حتى ينال منه التّعب، يحمله أبي إلى الشّجرة أقصى الحقل، ويعود إلى الأرض يحرثها، ثم صارت لا تهب شيئا، بارت ثم نفق الحصان، وأضطرَّ أبي إلى ترك المحراث مغروسًا في الأرض حتى تيبّست من حوله. في زياراته الأولى، يلتفت إليه، يحدِّق به طويلًا، ثم يقترب ويُعاينه. كنت أفهم أبي،

أراده شاهدًا على يأسه من الغيث الذي لا يأتي. بعد أن كفّت الوجوه عن الإبصار تجاه السّماء، وأضحت مطأطئة تعد التشقّقات التي انتابت الأرض، ثم تكاثرت ولم تعد هنالك فائدة من عدِّها، حينها كانت أمي حيَّة، وكان منصور يضحك من عافيته، يُطارد الدَّجاج من مكان لآخر، وأكون في إثره، لا نأبه بنداء أمي.

اختلفت تلك الأيام عن الأيام الأولى لدخولي المحروسة، لم أرها مثلما رآها حمّة، ولا كما اعتقدها ابن ميار، كلما مضى منها يوم يولِّد في نفسي مزيدا من الكراهية لأهلها، حتى شيخ الحي الذي ظننت أنه أفضلهم لم يكن ليختلف عنهم، بدا من الوهلة الأولى التي رأيته فيها أبًا ثانيا، أو بالأحرى جَدًا، اقترب مني في ساحة السُّوق، عيناه تحملان كل الطيبة، أومأ لي بالسير معه، وتبعته لأني رأيت التُّجار يوقّرونه كلما مرَّ بهم، أو حينما يجتمعون لديه، كنت إلى جانبه حتى بلغنا بيتا في نهاية الحي، أدخلني إليه، وقدّمني إلى زوجته وأولاده، اعتقدت أنني وجدت بيتا آخر آوي إليه. وعلى هذا النحو كانت الأيام الأولى، لم تنهكني زوجته بأعمالٍ كثيرة، من تلقاء نفسي كنت أستيقظ كل فجرٍ، أبدأ أعمال البيت، ثم أوقظ الأطفال إلى كُتّابهم، يمرُّ بي الشَّيخ في فناء البيت يتحيَّن للصلاة، أراه وهو يتوضأ، يتأملني من مكانه ثم أسمع وقع خطواته مُغادرًا، ومرّ الشَّهر الأول على ما يرام، ولكنّ الشّهر الثاني كان مختلفا، إذ لا حظت أن الشيخ كان يُطيل النَّظر إلى جسدي، أنتبه إليه في انشغالي، يتابع حركتي، لاحظتْ زوجته اهتمامه الزائد بي منذ البداية، تحرش عينيه بي تحول إلى اقتراب ثم احتكاك، إلى اقترابٍ ثم احتكاك، يتحيَّن الفُرص حتى نكون وحيدين، يدنو مني يسألني إن كانت

إقامتي بينهم تروقني، وأحيانا كان يلج غرفتي فجأة، أكون في نصف ثيابي فلا يحتشم، تتفحّص عيناه جسدي، أرجوه المغادرة لكنه يظلُّ مسمرًا وسط الغرفة، وأطيل الرجاء، فيغادر على مضضٍ، تلمحه زوجته من طرف الباحة، وتتحوّل معاملتها، صارت فظَّة، تُحمّلني ما لا طاقة لي به من أعباء البيت، تصرخ في وجهي كلما يتقابل وجهانا، لم أكن لأدافع عن نفسي، كنت أفهمها. النزق الذي كان يتملّك أمي في غياب أبي علّمني الكثير، لا يكتمل مزاج المرأة إلا في حضن الرجل، بالتأكيد كانت ستصبح أكثر سوءًا وهي ترى ميولات زوجها تجاهي. وأركن إلى الصمت حين يعلو صوتها، وكلما أُنهكت من ذلك أنسحب، كانت تدري في داخلها أنه لا دخل لي، ولكنها مع ذلك وقفت له في الباحة في ذلك اليوم، سمعت صراخها: لا أريدها، تلك المجنونة تظلُّ تصرخ في البيت حتى يسمعها الجيران. ما كان ليصدقها، ولا يجرؤ على عصيان أمرها، كل شيء كان مفهومًا بينهما، وانتهيا إلى طردي من البيت، ومثلما دخلته متأبّطة صرّتي، رحلت عنه، وافترشت أرض السُّوق، ولكن هذه المرة، كانت أفواه التجار تعيد ما روّجه شيخ الحي، مثلما كانت عيونهم تراقب جسدي، كل تاجرٍ يطلب أن أفترش المكان قرب حانوته، بعد أشهرٍ فقط، استوعبتُ كيف ينظر رجال المحروسة إلى النّساء، مع أن جلّهم كانت لديه أكثر من امرأة في بيته.

طالت غيبة لالّة سعدية عن غرفتي، ومن خلال الكُوة انتبهت إلى حلول الظلام، قد سافر ابن ميّار، فاهتزَّ قلب زوجته، بعد سنوات العشرة أصبح أكثر من زوجٍ. النِّساء أشدُّ تعلقًا بالرجال. ربما هكذا شعرت وأنا أنتظر السّلّاوي، وقفت أتلمَّس طريقي أبحث عن السِّراج، وبصعوبة وجدته

ثم أشعلته، ورأيت ما تبقى من خيالاته النافرة على الجدار. ظهر السّلّاوي فارًا من الجنود الفرنسيين، انتبهت إلى أصوات الطّلقات تتتالى هي الأخرى في إثره، ثم رأيت خياله يقفز مبتعدًا عنهم بمسافة، حرّكت رأسي إلى التِماع الضَّوء على الآنية، كانت مثلها التي في بيت تاجر النحاس حيث أقمت بعد رحيلي عن بيت شيخ الحي، الذي لم يعجبه بقائي في السوق، فاقترح عليّ مكانا آخر، يومها اقترب مني وقال: يا ابنتي لا يمكنك البقاء هنا للعراء، رافقي هذا السيد، قد وعدني أن يكون طيبا معك. ثم مدّ التاجر بالصرة.

وهكذا عبرنا شوارع الحي، ولجنا سقيفة طويلة، وكلما خطونا بها زادت ضيقًا، حتى انتهت إلى باب وحيد، عبرناه إلى سقيفة أخرى تنتهي بباحة الدَّار، حيث وقفت زوجته تنتظرنا، وما إن رأيتها حتى دهمني شعور غريب، كأني أعرفُ هذه المرأة، أوشكت أن أقفز تجاهها فأحضنها، ولكنني تسمّرت وبقيت صامتة أُحدِّق في وجهها المألوف.

كانت تشبه أمي حتى في الحركات البسيطة والإيماءات، مثلما حملت بعض مزاجيتها، وإن لم تصاحبها بالحنان الذي كانت أمي تُغدقه عليّ بعد كل خصامٍ، تحضنني ولا تفارقني إلا بعد أن أرضى، لكن أمي رحلت ذلك اليوم وخلفتني وحيدة، حتى وأنا في المبغى كنت دائما أعيد حكايتها لنسائه، كنَّ يبكين. وهن يسمعن حكاية الوباء الذي حلَّ في يوم ما، ولم تحتمله أمي فألزمها المرض الفراش أياما، قدّرنا أن الدَّواء الذي جلبه أبي من المدينة كان شافيًا لها، حين نامت وهي تبتسم لي ولمنصور الصغير، وفي الصباح أفقت، وتفقدتها، كان جسدها باردًا، ولا حركة تندُّ عنه، امتدت يدي إليها تهزُّها ولكن لا مجيب. صرختُ، كان منصور إلى جانبي، ومن خلفه وقف أبي صامتًا.

دنت زوجة التاجر أكثر مني، وتشمّمت جسدي، ثم أمسكت أنفها، وامتدت يدها إلى الصُرّة التي تأبطها زوجها، فتحتها في حذرٍ، ثم كوّمتها في إناء نحاسي وأشعلت النار بها، تسمّرت في مكاني، ولم أحتجَّ على تصرفها، حتى وهي تسحبني من يدي إلى غرفةٍ أقصى الباحة، بدت لي مثل حمام صغير، ثم كنت داخله، طلبتْ أن أُنظِّف نفسي، وأتخلَّص من الرائحة الكريهة التي أحملها. دقائق قضيتها هناك، لتعود مرة أخرى، حاملة ثيابًا نظيفة، وشُرع باب الحمَّام عن دُوجة مختلفة عن تلك التي دخلته.

بيت شيخ الحي كان ضاجًا بالأطفال، ليس مثل بيت التاجر، رغم أنه كان طيبًا بما فيه الكفاية لتمتدّ إقامتي معهم شهورًا، أعيش حياة رتيبة، لا زوار يرتادون بيته، ونساء الحي لم تكن لهنّ علاقات ودّية مع زوجته، كانت مهووسة بالنَّظافة، تظلُّ تذرع البيت، تفتِّش عن أماكن لم يصلها الماء، تصيح باسمي فأسرع إليها، والدّلو في يدي، ويتكرَّر النداء أكثر من مرة في اليوم، وحتى حينما ينتصف اللَّيل، تظلُّ تُتمتم وتخطو في باحة البيت، يُفيقني نداؤها، أبحث عنها والقنديل في يدي، أجدُها في غرفة جانبية، تشير إلى مكان منه، وتصرخ: الجرذان الجرذان، وحين تضاء الزَّاوية لا أجد بها شيئا، في الأيام الأولى بدا الأمر مألوفا. ولكن مع تكرُّر المشاهد اللَّيلية صرت موقنة أنها لم تكن على ما يرام، بل إن ما تراه كان وهما. وبعد أن كانت تنادي عليّ من الباحة، أضحت تلج غرفتي، وتصيح عند رأسي، أنها ترى ثعابين بغرفتها، أسير بمجاورتها، ونُضيء الغرفة، ولا يبدو لنا أي شيء، يُقبل زوجها من غرفة أخرى، وإلى ذلك اليوم فقط اكتشفت أنه لم يكن يقاسمها الفِراش، وفي صباح اليوم التالي نعود إلى سيرتنا، نغلق جميع ثقوب جدران البيت وأرضياته، ويصل الماء والصابون أماكن قالت إنها لم تُنظّف بعد. وفي المساء

أعود إلى غرفتي، تحدثني نفسي أنها المرة الأخيرة لهذا الكابوس، وأخطئ دائما في ظني، إذ تعود إلى غرفتي ويتعالى صراخها، وهكذا دواليك مرت أشهرٌ، تتجدَّد مخاوفها من أشياء لا تراها إلا هي، وأضطر إلى مسايرتها، كان زوجها أحيانًا يعتذر عما يبدر من زوجته، وأكتشف أنه لا يقول كل شيء، يبرر تصرفاتها بمرض قديم، ولم تمض إلا أيام قليلة، حتى صار ما يُرى ليلا يُرى نهارًا، وامتد النداء إليّ في كل مرة، تُبصر أشياء في حضوري لا أبصرها، وتختبئ خلفي كأنها كانت تُفزعها. وفي صباح يوم آخر لم تغادر غرفتها، أردت إيقاظها، فاكتشفت أن الباب كان مغلقًا، وغادرت إلى باحة البيت حينما سمعت وقع أقدام قادمة من الرِّواق، طلب مني التاجر التزام غرفتي، ومن خصاص بابها رأيت شيخًا يرافقه، قدّرت أنه إمام المسجد، حين تهادى إليّ صوت يتلو القرآن من غرفتها، ساعة أمضياها هناك، ثم سمعت وقع الأقدام المغادرة للبيت، عدت على رؤوس أصابعي إلى الباحة، وانتبهت إلى التَّاجر يعود إلى هناك، حدَّق بي، ثم قال:

- سيدتك مُتعبة، لا يمكن الآن التنبؤ بما ستفعله، قال الإمام إن الجنّي الذي يسكنها يأمرها بفعل أشياء خطيرة، وربما ستقتل أحدهم إذا أمرها بذلك.

حدّقت به مليا، ثم تكلمت:

- لا أظنُّ يا سيدي أن زوجتك ستُقدم على قتلي، أنا على الأقل؟

- ولكني لا أضمن هذا يا دُوجة!

- إذن ما الذي ستفعله؟

- سأعيدها إلى بيت أهلها، هذا المساء.

- إذن عليّ المغادرة أنا أيضا؟
- هذا ما سيحدث يا دُوجة للأسف.

حتى في بقائها كنت سأقبل الحياة معها، كان أهون من الشَّوارع التي كنت أجوبها كل يوم. في ذلك المساء رأيتها آخر مرة، في أسوإ حالاتها، متعبة وعيناها زائغتان، التفتتْ إليّ وكأنها لم ترني، كانت تنقل خطواتها تتأبّط يد زوجها، سرت في إثرهما حتى بلغنا الباب الخارجي، قالت حين بقينا وحيدتين: لا تبقي هنا يا دُوجة، سيؤذيك هذا الرجل. وما إن أتـمّت جملتها حتى سحبها زوجها خارج البيت، ومن ثقب الباب رأيتها تعتلي ظهر البغل، ومن ثم غابا عبر منعطف الشّارع. وفي اليوم الموالي، حملت صرتي ورحلت عن البيت، ولم أر تاجر النُّحاس بعدها، وأُشيع في السُّوق أنه باع البيت لتركي، ورحل إلى فاس، وآخرون قالوا بل إلى تونس، وظلّ دُكانه مغلقًا. اجتمع أولئك الذين ترك مصالحهم مُعلقة إلى شيخ الحي بعد شهر، وطلبوا فتح الدُّكان بأمره، رأيتهم هناك متحلِّقين حول الباب، ثم وهم يكسرون قفله، ويأخذون أشياءهم.

انتبهتُ إلى طَرقٍ مُستَمرٍ على الباب، ثم رأيت خيـال لالّة سعدية، ونداءها عليّ:

- دُوجة ما الذي يُبقيك وحيدة هنا كل هذه المدَّة؟
- طالت غيبة السّلّاوي.
- نعم، قد طالت أكثر من المرَّات السَّابقة.

لم آلف الخوض معها في أحاديث انتظاري للسّلّاوي، بالتأكيدِ لم تكن مثل لالّة زهرة، كنّا نفترش باحة الدَّار، نجلس ونمدُّ أرجلنا، ونغني

الأغنيات القديمة التي تحفظها، تُصرُّ دومًا أن أجمل الأغاني التي تحيي أعراس المحروسة هي التي ألّفهَا اليهود، وكنت أعارضها على الدَّوام أن أجملها ما يأتي به الرِّيفيون، ونظلُّ نردِّدُ الأغاني إلى أن يأتي السّلّاوي، ويجلس قبالتنا، وتتعلَّق عيناي به ونحن نغمس الخبز في الزَّيت، أو السَّمن، أطالع حركات يده تحمل قطعة الخبز، تغمسها في الصَّحن ثم ترتفع إلى فمه، وتحملق لالّة زهرة بي، تُومئ أن أحتشم وأُنزل عيني، ولا أراعيها، بل أستمرُّ، ولكن السّلّاوي يقف فجأة ويمسح يديه، ثم يودِّعنا بعجل.

تقدمت تجاه لالة سعدية والقنديل في يدي، كنت أتوق أن أحدثها عن كل شيء، عن اشتياقي لمنصور، وحنيني لأبي. في الأيام الأخيرة له، كان شبه رجلٍ فقط بعد رحيل منصور، بالرّغم من يقينه بعدم نجاته، بعد تغيّر لون جلده، أضحى أشدّ صفرة، يُلاصق العظم، وفَقَد القدرة على الكلام، ثم لم يعد يرانا، نحركُّ أيدينا فوق وجهه فلا ترفُّ عيناه، ثلاثة أيام ثم استحالت إلى البياض، وأبي كان يرى كل تلك التحولات، عاجزا لا يحرِّك ساكنا، كل يوم نصحو ونتحسَّس جسده، يصدر صوتًا أقرب إلى الحشرجة، والسّائل الغريب ينزف من أنفه، ثم أضحى يتدفق من أذنيه، وفي الصباح الأخير، تحسّست جسده، كان باردا لم يرتعش من أثر اللّمسة الأولى. أدركت أن منصور قد رحل إلى العالم الآخر، وبكى أبي، انهمرت دموعه أمامي، لم يُخبر أحدا من أهل القرية ونحن نحفر له قبرا على يمين قبر أمي، حفرة صغيرة أسلمه أبي إلى داخلها، هممت بمنعه، خُيّل لي أن منصور لا يزال حيا، وسيختنق بها، لكن أبي كان لا يعي العالم من حوله. وَسّد منصورا التُّراب أسفل الحفرة، ثم أزاح الكفن عن وجهه النحيف، انتظرت أن يفتح عينيه، وينادي عليّ: دُوجة يا دُوجة، لا تتركيني وحيدا،

خُذيني من هنا، سأقاسمك الحلوى الطحينية. بكيت حين غاب وجهه بعد أن سقّف القبر، وبكينا طويلًا ونحن نُكوّم التراب فوق جسده الهزيل، وجلسنا هناك حتى غاب الضَّوء، ثم عدنا إلى البيت، لم ننم ليلتها، بل تقابلنا في الغرفة والظلام يملأ الفراغ من حولنا، وفي اليوم الثاني طلب مني حزم أغراضي، قد قرَّر اصطحابي إلى البيت حيث يعمل، لم أشأ مرافقته، كما أنني لم أرغب في مفارقته، كنت أريد البقاء في البيت، حيث قبر أمي ومنصور، بينما كان يفرُّ منهما، ولم أنتبه إلى ذلك، حتى ونحن في مزرعة القُنصل، بدا بيتنا جهة محرّمة على عينيه، يُنبِّهني ألّا أعيد سيرتهما، لكن حنيني إليهما يجعلني أنادي بصوتٍ عالٍ في البستان: منصور أتراك هناك في السّماء، أم أنّ دود الأرض قد أكل جسدك؟ مستحيل أن يأكل الدُّود لحم الأطفال، سيُشفق عليهم، وأين أنت يا أمي؟ لم يعد أبي مثلما في السّابق، لم يبتسم منذ رحلت. كنت أنادي عليهما ولا مُجيب. وأعود إلى مكان أبي، يعتني ببعض الأشجار، ويوصل الماء إلى أخرى، أما حين أرفع رأسي فأرى بيت القنصل نهاية البستان، بيضاء جدرانه، أما نوافذه فكانت زرقاء، كنت أحب الاقتراب أكثر لأراها من هناك، تُفتح فجأة ويتراءى لي وجه الرجل الغريب، لمحته مرات من أسفل البيت، ثم رأيته متجولًا بين الأشجار، لم ينتبه وأنا أدنو لأراقبه، ولكنه لمحني فجأة وهو ينعطف عند السُّور نهاية البستان، توقَّف وحدّق تجاهي طويلا، كانت تلك المرَّة الأولى التي يراني هناك، ثم تعالى نداؤه على أبي، ورأيت أبي يُهرول تجاهه، ثم كانا يحدّقان تجاهي، بينما يشير السَّيد نحوي، رأيت أيضا من هناك انحناء أبي، بدا وكأنه يعتذر له، ولم يطل وقوفهما إذ واصل السَّيد طريقه، بينما ركض أبي تجاهي وامتزجت كلماته بلهاثه:

- لا تقتربي من البيت يا دُوجة، فالسَّيد مستاء مني الآن.

- أهذا هو القُنصل يا أبي؟

- لا. إنه مجرّد ضيف، ولكنه يتصرّف أكثر من سيّد للبيت.

- وماذا عن سيّد البيت؟

- في غيابه، يخلف وكيله السيِّد كافيار، ولا يستريح العمال إلا بعودة القُنصل.

كان وجه أبي شاحبًا وهو يعيد كلمات السيّد كافيار. لم نطل المكوث هناك، إذ انتقلنا إلى وسط البستان، في ذلك اليوم رأيته كيف يشقى، وهو يقف مذلولًا أمام السّيد، ربما لم يكن ليختلف كثيرًا عن أهالي المحروسة وهم يقفون في حضرة الأتراك، عدا رجل واحد، كان مختلفًا عن الجميع، حتى عن ابن ميّار، لم ينحن لهم، ولم يسايرهم، بل كان يقذف الشَّتائم في وجوههم، السّلّاوي كان يجرؤ أن يفعل ذلك، ولكن أين هو السّلّاوي الآن؟

القسم الثالث

ديبون

يوميات مراسل لحملة 1830: نشرت في «لو سيمافور دو مرساي» بتصرف.

الأسبوع الأخير من ماي

المجد لك يا لوناجور، والمجد لهذا الجُؤجؤ الذي يشقُّ الموج بـتأنٍ مليء بالتحدي والشموخ. كان البحر مُتململا، وقفت على سطح السفينة، أتملّى الزُرقة الممتدة من حولي. ألتفتُ إلى طولون، لم تتراء لي إلا الغيوم. أعود بوجهي إلى الجنوب، فلا أرى إلا صُورا رسمها من حولي عن الجزائر. يردِّد القبطان: ما هي إلا ثلاثة أيام ونرسو بماهون. ثم ألتفت يمينا، من هناك تترامى قافلة السُّفن، تنأى عنا، لكنّ سيرها يبقى في موازاتنا، جُعلت كذلك لإسعافنا عند الحاجة. أتذكّر أن هناك قافلة إلى اليسار، تبدو أكثر نأيا، تتباين سُفنها ومراكبها بما تحمله من مُؤن، أَصَرّ تُجار مرسيليا وطولون على إرسال جزء من سفنهم لدعم الحملة، بينما انحنى الصيّادون أمام القس، طلبوا مباركة الرب قواربهم. كل العالم اتفق قبل أيام قليلة، والرّب كان في ركابهم، ثم تحرّكت السُّفن تجاه إفريقية، تحمل التعاليم الجديدة التي ستغيّر الناس. سنكون حتما مثل أولئك الحواريين الذين تفرّقوا في بقاع الأرض لنشر كلمة الرب. كنت مأخوذا بالزُرقة التي تُبدي لي صورا من

ماضٍ سحيق، تعود أورشليم مدينة محاطة بأسوار عالية، وأبواب تُفتح على الظُّلمة، يفرُّ منها رجال، ويقفز جنودٌ رومان في إثرهم. أُصغي إلى دبيب أقدامهم على أرصفة أورشليم، أو لعلّه سطح السفينة. تدنو الأصوات أكثر، ثم أنتبه إلى كافيار. أتساءل ما الذي يجعله يقترب هذه المسافة، وقد كان يُطيلها؟! وقف إلى جانبي ثم تكلّم:

- لم ترَ شيئا بعد يا سيد ديبون حتى تُجن؟

- ما الذي تقصده يا سيد كافيار؟

- منذ لحظات وأنت تكلم نفسك.

- وهل يزعجك هذا؟

- انظر إلى الذين من حولك.

كان الجنود يشيرون إليّ ساخرين، أدركت أن بعض الأحلام لا يمكن للإنسان الجهر بها، بالرَّغم من أنها في أذهان الجميع. لم أحتمل وجوههم السَّاخرة، فانسحبت إلى الغرفة واستلقيت هناك بقيّة اليوم. قررت أني سأكمل أحلامي وحيدا، سأخرج من الباب في إثر الحواريين ثم أجلس إلى جانبهم في حقل الزيتون، وسأقاسمهم الخبز والخمر، وربما يصحبونني إلى فيافي بعيدة، وهناك يمكنني قول ما أريد، لأنه بالتأكيد لن يختلف عن الوصايا التي يحملونها.

لم يطل مكوثي وحيدا، إذ دُق الباب، ثم فُتح ورأيت كافيار بوجه باشٍّ، جلس إلى جانبي، وقال:

- ما زلتَ صغيرا يا ديبون.

أزال الكلفة بسرعة، ثم سحب من جرابه غليونا، وحشاه بالتَّبغ، أشعله ونفخ في سطح الغرفة الواطئ، وأردف:

- بهذه الطريقة لا يمكنك احتمال يوم واحد في إفريقية؟!

- لن أكون وحيدًا هناك.

- ولكنك منذ الآن وحيد، تعيش مع خيالاتك وأوهامك.

- وما أدراك بي يا كافيار؟

قلت ذلك متعمّدا إسقاط الكلفة بيننا، لكنّ ملامحه ظلّت على حالها، حتى وهو يضيف:

- نحن في غنى عن نبش تاريخ بعض الناس، هم يقولون كل شيء دون أن يتفوّهوا بكلمة. كنت مثلك لكن احتجت إلى سنواتٍ عديدة كي أتخلّص من بعض أوهامي، أما أحلامي فلا يفصلنا عن تحقيقها إلا أيام قليلة.

في كل مرة يتكلَّم كافيار، أُفاجأ بامتلائه. بدا مثل أولئك الجواسيس الذين أرسلهم نابليون إلى باريس ومرسيليا، أو ربما مثل أولئك الذين أرسلهم إلى مصر، وقبل أن يرسو أسطوله بها كان عليها بكل خباياهم، القُوّاد منهم، وحتى العرب البسطاء وعلاقاتهم بالأتراك، كيف يفكِّرون، وكيف يحلمون. خمّنت أن كافيار كان بينهم، ولكن سنّه بدت لي صغيرة إذا ما قُورنت بالزَّمن الذي سار به نابليون تجاه الشَّرق.

ظللت أُخمِّن بينما كان كافيار يحشو غليونه بمزيد من التَّبغ، وينفث الدخان بهدوء، ولم أنتظر حتى يبادرني بالسؤال إذ قلت:

- وما الذي يرغم رجلًا مثلك، يمقت قائد الحملة، أن يسير في ركابها، أليس هذا تناقضا؟

- لا يوجد شيء اسمه التناقض حين يتعلّق الأمر بالمصالح، ما يشغلني الآن هدفنا المشترك.

- ألهذه الدّرجة تعني الحملة لك الكثير؟

- هذه هي المرة الوحيدة التي أسمعك تقول فيها شيئا مفيدا. مصائر بعض الناس تُحدَّد لهم، ليُصبحوا مجبرين على اتّخاذ مجرى واحد.

- ولكن ما كنت تُعبّر عنه، ينطبق على جميع الناس؟؟

- ربما كنت محقا، لكن ما يجعلني مُختلفا عن الجميع، أن النَّهر الآن قد اقترب من البحر، أيام قليلة ثم تُبصر انهياره في سيدي فرج.

قال كافيار كلماته الأخيرة، وهو ينفض غليونه، ثم أعاده إلى جرابه، حمل نفسه وغادر الغرفة. انتظرت حتى صَفق الباب، وخطا مسافة منه، خرجت في إثره، انعطف إلى الشّمال فتتبّعته، رأيته يصعد السُلّم تجاه غرفة القبطان، ودون أن ينتبه تعقّبته. سار خطوات في الرِّواق، وحين بلغ مكتب القبطان امتدّت يده إلى بابه، فتحه وغاب داخل الغرفة، أوقعني كافيار في الحيرة، لم يدقّ الباب! أو ينتظر حتى يُؤذن له مثلما يفعل البقية. لم أجرؤ على اللحاق به إلى هناك، وتراجعت إلى غرفتي.

يومان آخران في قلب البحر، الزُرقة من الجوانب كلها، تمرُّ بنا سفُن إنجليزية وأخرى إسبانية، نراها تدنو من بعيدٍ، ثم تنحرف عن طريقها، وتمرُّ بين القوافل. ولكن السفينة التي تراءت لي في صباح اليوم الثاني بدت مختلفة، وأنا أراها بمنظار القبطان. العلَم الأخضر والهلال الأصفر الذي

يحضن نجمة باللّون نفسه، تفاجأ القبطان، وأقبل كافيار نحونا مبتسما، كأنّه كان موقنا بقدومها، تكلّم وهو يقف إلى جانبي:

- لا بد أنه رسول من السُّلطان العُثماني، جاء لوقف الحملة.

- أفي مقدوره فعلا إيقافها؟

- أنى له أن يفعل ذلك. النهر قد غادر المنابع، ولن يتوقف حتى يبلغ البحر، كن مُتيقّنا من هذا.

تعجّل كافيار مغادرة السَّطح، ثم عاد في هيئة أخرى يقف إلى جانبي، يراقب السفينة التي تدنو، حتى كانت إلى جانب لابروفانس. ومن ثمّ انتقال بعض الرجال منها إلى سفينة الأميرال، غابوا زمنا هناك، ثم جذّف قارب به بحّاران نحونا، وحين بلغ لوناجور صعد أحدهما إلينا، وطلب من كافيار الالتحاق بلابروفانس. سار كافيار إلى جانب البحار حتى بلغا نهاية السطح، ثم توقف كأنه نسي شيئا ما، ونادى عليّ لألتحق به. لم أصدق أني سأنتقل إلى لابروفانس، قفزت تجاهه، وترافقنا حتى كنا بسفينة الأميرال، خطونا سويا على سطحها الـمُعبأ بالجنود. حين وقفنا عند باب غرفة في نهاية الرُّواق، لم يتجرّأ كافيار هذه المرة على الدخول دون استئذان، بل دقّ الباب، ثوانيَ ثم فُتح، دخلنا غرفة واسعة صفّت بها الكراسي، رأيت من مكاني عند الباب أربعة ضُبّاط يجلسون متقابلين عند نهاية الطاولة، في حين جلس ثلاثة رجال آخرون باللباس العُثماني على رؤوسهم عمائم، وضع أوسطهم أكبرها، كانت المرة الأولى التي أرى فيها قائدًا عُثمانيا، لذا لم أكن لأفوّت فرصة تفحّصه. الثياب بدت جميلة، قميص أسود طويل، خمّنت أنه من الحرير، وشريطٌ مزخرفٌ شَغَل مكان الأزرار، يلمع كأن

خيوطه من ذهب، أو ربما هي كذلك، يَتَمنْطق بحزام حمل اللّون نفسه مع الشّريط، وعلى جانب الحزام، لمعت أحجار فيروزية على مقبض الخنجر، كان شكل القائد، أو الباشا مثلما ردّد الجميع مختلفا. شككت أن هؤلاء الذين اتّهموا الأتراك بالغوا في ذلك، فلم يعكس وجهه إلا الوقار. بينما كان الأميرال ينظر بقلقٍ إلى الباشا، كنت حينها بجانب كافيار، ثم دنوت أكثر عندما طلب منا الأميرال الجلوس على يمين الباشا، ليقابلنا على يساره. صمت الباشا هنيهة، ثم تكلّم مُوجِّها كلماته إلى الأميرال. لكن هذا الأخير أشار إلى كافيار، وكأنّه المعني بالحوار، فعاد الباشا بوجهه إلينا، وتكلّم بلغته العُثمانية: قبل أيام غادرنا إسطنبول في طريقنا إلى الجزائر، في مهمة كلّفنا بها السُّلطان المعظم، إزاحة باشا الجزائر، والوصول إلى ترضية مع ملكِكُم لإيقاف الحملة، فنحن منذ البداية لم نكن موافقين على هذا الخِلاف.

صمت كافيار ثواني، ثم عاد يُترجم الكلمات للقائد دوبيري، عبّرت ملامحه عن عدم الرِّضا. ثم انتقلت ببصري إلى الباشا، في حديثه لم يُحرِّك يديه، بل ظلّ يضع كفه اليمنى على اليسرى، وتُغادر الكلمات شفتيه بكل هدوء، بالتأكيد تُقت إلى نجاح الحملة، لكنّ شعورًا ما خالجني، وددت لو أنهم يصلون إلى إنهاء هذا الخلاف، كرهت إراقة دماءٍ لم يشأ الرب أن تُسفك في سبيل إعلاء كلمته. حين يتوقّف الأتراك عن القرصنة واستعباد المسيحيين. وعن فرض ضرائب على الدول الأوروبية، فما الطائل إذن من هذه الحملة؟ ولماذا لا تكون مثل حملة اللُّورد إكسموث؟ يُحرق أسطولهم حتى آخر سفينة، ويُحرّر ما تبقى من العبيد هناك، ثم ينتهي كل شيء، وبدا لي أن كافيار كانت له وجهة نظر أخرى، يُقاسم الأميرال تبرُّمه من الباشا، لذا لم يكن مضطرا إلى تحوير الترجمة، مثلما لم يُطل الأميرال صمته بعد سماعه ترجمته، ردّ من حينه:

- هذا يعني أنك الآن ستقصد الجزائر بسفينتك؟

- نعم هذا ما سيحدث. ردّ كافيار مترجما عن الباشا.

- يُؤسفني يا باشا إخبارك أنه غير مسموحٍ لك الذهاب إلى الجزائر الآن. ستُرافقك إحدى سُفننا وتعود بك إلى طولون، ولن تبرحها إلا حين نأذن لك.

بعد أن أنهى الأميرال المقابلة أُذن لنا بالرحيل. عاد بنا القارب إلى لوناجور، وجدنا القبطان في مكانه يراقب رحيل السَّفينتين، وظللنا نراقبهما حتى غابتا عند خطِّ الأفق، والتفتنا إلى الجنوب، حين تعالى صياح أحد البحّارة يُعلن أن ماهون تتراءى من بعيد.

يسترخي الصّفاء في الوجوه المنقبضة من دوار البحر، الذي لم يألفه بعضهم بعد. الآن يبدون أكثر انشراحًا وهم يغادرون سفنهم إلى رصيف ميناء ماهون. كان ذلك اليوم مثل عيد للجنود، بالرَّغم من أن الرحلة لم تستغرق إلا أياما قليلة، ولكن اليابسة تعني الكثير لمن اعتاد الحروب طويلًا بها. فما إن لامست أقدامهم الأرض حتى ضجّوا دفعة واحدة، واصطفوا بالرَّصيف بعد أن سبقناهم، ومن أقصاه راقبناهم، وقفتُ وكافيار قُرب القبطان بينما كان الرّكب المرافق للأميرال غير بعيد منا. وتراءى لنا قباطنة آخرون قادمين تجاهنا. ثم سار الجمع كله نحو صفٍّ النبلاء الإسبان المنتظرين منذ الصَّباح. حَيّونا بحرارة مبالغ بها. العداء القديم الذي يحمله الإسبان للمُحمّديين، يتجدَّد كل حين، صافحونا الواحد تلو الآخر. وعن قرب رأيت كافيار يهمس لأحد النُبلاء بكلمات لم أتبينها، يظلّ هذا الرجل صندوقا مُغلقا، أسمعه يتكلّم مع الباشا العثماني كأنه وَليد إسطنبول،

ثم تتهادى إليّ بعض الكلمات الإسبانية يُحدِّث بها النَّبيل، بهذا فكرت في مسيرنا وعلى جانبينا تحلّق النبلاء أكثر بالقائد بورمون، ووقف الأميرال دوبيري مستاءً، لم يُخفِ وجهه ملامحه المتبرِّمة، حتى ونحن في أبهى قصور ماهون، لم يتغيّر مزاجه، نساء سمراوات كنّ يختلن بين طاولات القاعة الفسيحة، في فساتين بيضاء ووردية، بينما كان كافيار ينزوي مع النبيل نفسه. من طاولتي تسرّبت إليّ الألحان، والعازفون منشغلون بآلاتهم على يمين القاعة، وانشغلتُ بالجميلات، كل واحدة تختار من يَروقُها من القباطنة، تُجرِّب حظها في رقصة معه، ولم تخلُ قلوب القباطنة من رغبات. البحر يُعلِّم الصبر إلا على النِّساء، ولم أكن بحارًا، غير أني صبوت إلى إحداهنَّ، انزوت بعيدة عن الجموع في فستانها الأزرق، كان غامقًا بلون البحر في المساء، خمّنت أنها ابنة أحد النبلاء، أو ربما كلهنّ كنّ كذلك. اقتربت منها ومددت إليها يدي، ولم أنتظر طويلًا، إذ مدّت هي الأخرى يدها، وسرنا مسافة قليلة ثم سحبتها فكان جسدانا يتلاصقان، صمتتْ ونحن نطوف حتى نكاد نبلغ العازفين، ثم تكلمت حين انضمّ الجميع إلينا، لمحت من هناك كافيار، توقف عن الإصغاء للنبيل، وعاد يراقبني، تُرى كيف يُفكِّر حين يتعلَّق الأمر بالنِّساء؟ لا يُعقل أن يتجاهلهنَّ كذلك، لماذا لا يتقرّب من امرأة من بين الواقفات هناك؟ كنّ كثيرات، إذ اضطر بعض القباطنة للرقص مع اثنتين أو ثلاث، عداي أنا، أنهكت من الدّورات، وأُنهكتْ هي كذلك، ولكنني ظللت مُتشبّثا بها، حتى توقف العازفون للراحة، أفلتها عند كرسي فتراخت عليه، ورفضتْ بلطف كل الأيدي الممدودة. لم يُكلمني كافيار تلك اللّيلة، ولكنه في الأيام التي تلتها سألني عن صاحبة الفُستان الأزرق، وعن الأشياء التي تحدثنا بها، وكان أكثر اهتماما بما قالته،

ربما كانت المرأة نُقطة ضعفه الوحيدة، خمّنت ذلك منذ انتبهت فيها لحملقته بي. اكتفيت بالإجابة عن أسئلته بصدق، وبعد ذلك أَخذَت العلاقة بيننا منحى آخر، في باقي الأيام التي قضيناها معا.

الأسبوع الأول من جوان

ودّعنا ماهون، وامتدّت الزرقة من حولنا، كان الجنود يتطلّعون إلى الأفق فلا يرون إلا البحر السَّاكن والسَّماء الراضية عن مسيرتهم، يُغنُّون أغاني عسكرية إذا ما انتابهم فُتور، وأخرى حميمية إذا ما اشتاقوا لحبيباتهم. أبقى على جانب السَّطح أخمن في الأيام الـمُقبلة وما تحمله، استحضرت الباشا الذي أجبروه على الانعطاف إلى طولون، وتمنيت لو امتدت الجلسة أكثر، فأعرف دخيلته، لكن الأميرال دوبيري كانت له وجهة نظر أخرى. شعرت بحنقٍ على الأميرال، ولا أدري لماذا أنفر منه، ربما لعُبوسه وتبرُّمه الدائمين، أو ربما لأن البحرية لم تستهوني كثيرا، إذ اختاروا منذ البدء الجهة الأخرى، حانِقين على البوربون، يتّهمونهم أنهم أَرْخوا الحبال لرجال الدِّين. ربما كان كافيار يقاسمهم عداءهم للبوربون، تاريخه الـمُغلّف بسحابة الغُموض، ولا يَفتح الأبواب إلا حين يُريد، ليطلقَ أحكامًا لا تخلو من تجربة ومعرفة عميقة بالأمكنة وأمزجة الناس، تحتاج إلى تفسيرات يضنّ بها، فيتراءى للذين من حوله متكبرا. يظل كلامي مُجرد تأويلات لذِهنيّة هذا الرجل، الذي جمعتني به سفينة لوناجور قبل أيام، وربما سأتذكره بعد سنواتٍ وأقول إنني لم أفهمه كفاية، وما أخفاه عنيّ كان أكثر من الأشياء التي أظهرها. كنت متسمرًا في مكاني عند حافة السَّطح، أراقب السَّحابات المتراكمة، ولم أتكهن بتقلب

السماء بهذه السُّرعة، تكثّفت الغيوم نهاية الأفقِ، ثم كانت تُسرع تجاهنا. لحظات ورأيت البرق يلمع على جوانب لابروفانس، ثم تناهى إليّ صوت الرعد، واهتزّت الموجات من أثر الريح القوية، خمّنت أنها المايسترال، وجعلني مداها البعيد أميل إلى رأي الجميع أنها بقية عاصفة تعبر جُزر الباليار إلى الشواطئ الإفريقية. فررتُ من هناك إلى غرفتي. وجدته كعادته مُستلقيا على فراشه والكتاب في يده، دنوت أكثر لأقرأ عنوان الكتاب، ولم يُدوّن بالغلاف غير كلمة يوميات بخط كبير، واسمه مُدرج أسفلها، لو قُدّر لي قراءة جزء منها، لكنت أزلت بعض الأشياء الغامضة حوله. لم أطل التّفكير بل استرخيت على فراشي، ووجهي إلى السّطح. أغمضت عينيّ محاولًا إبعاده عن تفكيري، رأيت القائد بورمون يتجوّل على سطح لابروفانس، كم تقت إلى الاقتراب أكثر منه، كنت سأكتب أشياء لم يسبقني إليها أحد، وستنشر لوسيمافور أخبارًا نادرة عن قائد الحملة، وفاتح إفريقية. وليس مجديا مقاسمته المكان في حضور دوبيري هناك، سأنتظر حتى ننزل إلى سيدي فرج. هكذا كان يُسمى المكان الذي سنرسو به، في البداية لم يُخطّطوا أن نُعرّج على بالما، بعد رحيلنا عن ماهون، قيل لنا أسبوع فقط وستَرَون الشواطئ الإفريقية. وربما قد تتراءى لكم مدينة الجزائر من هناك. وقد مرّ يومان ولم نُبصر شيئا، وها هي العاصفة تُهاجمنا في اليوم الثالث، تأفّفت منها وفتحت عيني بعد استغراق دام دقائق، وسمعته يقول:

- سننعطف إلى بالما، ونمكث هناك أسبوعا.

- ولِـمَ هذا التأخير؟

- هناك سنتزوّد بالمؤونة، ولِتلتحق بنا بقيّة السُّفن. بالما هي البداية الحقيقية للحملة.

- وماذا عن العواصف؟

- في هذا الفصل تشتدّ أكثر في السواحل الإفريقية.

قال كافيار هذه الكلمات، ومنذ ليلة ماهون مال حديثه معي إلى الوضوح. يومان آخران إذن حتى نبلغ بالما، ثم نمكث هناك أسبوعًا، إنه أفضل خبرٍ سيسمعه الجنود، ولكن هل ستكون حفلاتٌ أخرى هناك؟ أم أننا سنبقى محجوزين في الميناء ننتظر القادمين، ونشرب في حاناته القديمة نبيذًا رخيصا؟ لم يشأ كافيار تركي لأحلامي، وهمس من على جانبي، كأنّه كان ينتظر هذه الفرصة:

- لا تنتظر الكثير ديبون، بالما ليست كماهون، ربما لن نُغادر الميناء، ينتظرنا عمل كثير هناك.

- أدري هذا ولكنه أسبوع.

- أسبوع قد لا يكفي الجنود حتى يحملوا مؤونة لهم ولجيادهم، وقد يكون بعضها نفق.

كانت بيننا وبين قافلة الجياد مسافة كبيرة. ولكنّه ظلّ يتكلّم بيقين من أحصى كل شيء، حتىّ عدد الجياد والعجول التي ستَنفُق قبل بلوغنا بالما. عدت إليه بوجهي، وقلت:

- لماذا تُصِرُّ على هذه الحملة، أُهناك ثأرٌ شخصي لك مع الأتراك؟؟

كان سؤالي مُباشرا، قررت ألا أطرح الأسئلة التي تفتح بابًا على التأويل، وكنت أنتظر إجابته حتى أرميه بسؤال آخر عن طبيعة عمله، كان يصغي بانتباه ووجهه غارق بين دفتي الكتاب، ثم رفع رأسه وقال:

- لو جربت العبودية في الجزائر، وحررك منها أعداؤك لما سألتني.

- ماذا تقصد بالضبط؟

- هزمنا الانجليز في واترلو، وداهمني الأتراك في عرض البحر ثم ساقوني عبدا. وتحررت من العبودية بسبب حملة ذلك اللورد الإنجليزي الغبي.

- لا يمكنك انتقاد الإنجليز حينما يتعلّق الأمر بتحرير العبيد، دائما كانوا أسبق في ذلك. وملكنا لويس الثالث عشر هو الذي شرع الباب قبل قرنين على هذا العار. وأمتنا العظيمة تظل ترفض الاعتراف بمجهودات الإنجليز. تُطيل في الـمُهل حتى لا تمضي اتّفاقا يُلزمها بشيء.

- وما الفائدة من تحرير العبيد الأفارقة إن كنت لا تستطيع منع استعباد المزيد من المسيحين؟!

- الرّب الذي أُؤمن به لا يُفرِّق بين السُود والبيض إلا عندنا نحن الفرنسيين، يوم كنا نُقايضهم من السّواحل الإفريقية بالخمر والأسلحة الرديئة. تلك الفرقة الصغيرة والـمُضطَهدة التي تُسمّى الكويكرز كانت أكثرنا شجاعة وحررّت العبيد الذين لديها.

- تظلُّ تتكلّم مثل هؤلاء البروتستانتيين الإنجليز، الذين لا يستشرفون المستقبل. حتى اللُّورد إكسموث كان غبيا، قَفَل عائدا بعد إحراقه أسطول الأتراك، مكتفيا بتحرير العبيد، وهل يكفي هذا عقابًا لمدينة مثل الجزائر.

- الأمجاد التي ابتدأها الإنجليز ليس عليهم احتكارها وحدهم، نحن مُطالَبون أن يكون لنا قسمٌ من إعلاء كلمة الرّب. صحيح أننا آخر من أمضى معاهدة إدانة القرصنة، وآخر من التزم بعهود إلغاء الرِّق، وأننا من سَمح لذلك المجنون أن يشعل الحرائق في أوروبا. ولكن أيضا نحن من سيحمل هذا النُّور إلى الضِفّة الأخرى.

- أنت واهمٌ يا صديقي، فالحروب التي شنّها النُواب الإنجليز في مجلس لورداتهم من أجل إلغاء الرِّق، والمال الذي دفعته هذه الأمة التي تَعتدُّ بها لدولٍ كي تسير حذوها، لم يكن مجانيا، هم أرادوا وقفَ مصادر التّجارة لـمُنافسيهم وقد كنا من بينهم، أكثر عُمالنا من العبيد. أما ادِّعاؤك أننا هنا من أجل النور فهذا وهمٌ آخر. المال هو إله كل هؤلاء الناس الذين تراهم من حولك، قباطنة وبحّارة وجنودا، وأيضا الصيّادون الذين جثوا أمام القَسِّ في طولون، كُلهم يَسْعون إلى حُظوظهم من أموال تلك المدينة. حتى الملك وخائن واترلو، ما يُغريهم ليس أمجاد الرّب، بل صناديق الذهب التي يُخبِّئها باشا الجزائر.

هل يمكن أن يكتمل الحوار مع كافيار، وهو الذي لم يمتلئ بالإنجليز مثلي، لطالما كنت شغوفا بتَتَبُّع المسالك التي خاضوها لمحو هذا العار. بدءا من طائفة الكواكر، وصراع النواب في مجلس اللُوردات من أجل تثبيت قوانين تحريم الرّق، ولم يتوقفوا حتى صادقوا عليه منذ اثنين وعشرين عاما. آمنت أن اتّفاقية ريو دي جانيرو كانت أفضل ما فَعلوه، إذ انضمّت إليهم البرتغال والسويد والدانمارك، ونحن يا كافيار، متى استيقظنا؟ كان ذلك بعد عشر سنواتٍ، وافقنا على مضض، ثم أضاء لنا النُّور الحقيقي مرة أخرى حينما عاد الإكريلوس. أنا متيقنٌ أنك لن تُوافقني، وستقول: إن الملك أباح لهم أشياء كثيرة، وإن النُبلاء أيضا كانوا يقبضون على السُّلطة، وشارل العاشر كان أسوأ الملوك، ولكن أسوأ الملوك لديك هو الذي يحقِّق لك الآن حلمك، عليك تبجيله ولو في قلبك، لا أن تحتقره، وتحمل في قلبك التعاطف لمجنون كاد يؤدي بنا إلى الهاوية.

غادرت الغرفة إلى سطح السفينة، كان كل شيء على ما يرام، هدأت العاصفة، وأضحت السّماء أكثر صفاء. تُحيِّرني عواصف الباليار، تُعلِنُ عن نفسها دون مُقدِّمات. ثم فجأة تنسحب بالسرعة نفسها، وأجزم أنها لم تكن مثل العواصف التي تشتعل برأس كافيار، لكنه لا يُظهر منها إلا دُخانا، وتَخبو عيناه كأنه لا يعنيه من كلامي شيئا.

كنت ما أزال أبصر تجاه الجنوب ولا أرى غير الزُرقة، حتى تراءت لي الجزيرة من هناك، وسبقها صياح البحّار بالأعلى يُعلن عن بلوغنا بالما بسلام، كانت الأصوات تَصِلُنا من أمكنة عديدة في السُفن التي تحلّقت حولنا، سبقَتنا لابروفانس ورَسَت هناك، وكُنا في أعقابها، ثم خيّمت الظُّلمة ولم نر من بالما غير أضواء ضئيلة.

الأسبوع الثاني من جوان

في بالما انقضى الأُسبوع أمامي يوما تلو الآخر، ولم تر عيني منها إلا منظرًا مُكرّرا احتفظت به من سطح السفينة، كأنّ الكُلّ تَواطأ على جعله أسبوعا مُحبِّبا لي، وسعيدًا للجنود، وقد قَضوه يُحمّلون الصناديق الثقيلة، وأكياس العَلف لخيولهم، التي صدقتْ فيها نُبوءة كافيار. حين كانوا يرمون عشرة منها من إحدى السُّفن التي رسَت بعدنا بيومين. استيقظتُ في آخر الأسبوع رأيته يَتَمطّى غير بعيد مني، يُطالع كتابا مختلفا، أقرأ عنوانه، وأصعد إلى السّطح، مُتَناسيا ما قرأته، وظهر العنوان فجأة يحاصرني: الدِّيوان الإسْبَرطيُّ. ما الذي يحويه ذلك الكتاب؟ هل هو سيرةٌ لمدينة إسبرطة؟ وربما ثقافة صديقي تتّسع حتى تشمل التّاريخ القديم؟! وما غرض رجل قَضَى جُزءًا من حياته في إفريقية أن يطّلع على تاريخ اليونان؟ هل يُقارنهم بالإنجليز؟ بدت لي

المقارنة بعيدة، ثم تراءى لي الأمر جليًا، نعم هو كذلك، الإسبرطيون كانوا أشبه بالعثمانيين في إفريقية. أُمّة لا تقوم إلا على قوّة السِّلاح، والأتراك فقط من يمتلك كل شيء. أما العرب فلم يكونوا إلا عُمالًا في مزارعهم. ربما كان الأتراك أنفُسهم أقرب إلى الدُّوريين، بينما كان العرب مثل الأيُّونيين، ولكن الحقيقة التي اتفق الجميع حولها، أن تلك المدينة البائدة لم تكن إلا ثكنةً كبيرة. كانت هذه الـمُقارنة تكاد تكون حقيقية في ذهني، وربما في ذِهن كافيار. هممت بالرجوع إليه لأسأله إن كنت على حق، وعدلت عن رأيي وأنا أبصر القبطان مُقبلا نحوي، ثم كان إلى جانبي وقال:

- أراك دائما بمفردك، ألا يَروقك شريكك في الغرفة؟

- إنه يميـل إلى العُزلة، وشيء من الريبة، والذي يرتـاب في الذين من حوله، سيبقى وحيدا.

- لا أختلف معك، ولكنه كان مدفوعًا إليها. لم يتبنّ شيئا من تِلقاءِ نفسه.

- أسوأ الأفكار التي يعتنقها الإنسان، تلك التي تكون كرَدّة فعل مباشرة على حوادث في حياته الخاصة.

- ليس لهذه الدّرجة، هذا الرجل عاش حياة مُتقلّبة، بين هزائم وعُبودية، علينا احترام تاريخه.

- ولكن أكثر الناس تجاربَ في الحياة هم أكثرهم حكمة وتواضعا، ووضوحًا، هذا ما آمنت به دائما.

- هذا يكون حينما يتعلّق الأمر بالناس العاديين، ولكن الذين حاربوا مع نابليون مُختلفون، إنهم نماذج صادقة منه، بالفعل استطاع ذلك الرجل العظيم غرس أحلامه في الذين قاتلوا معه.

- لم أره إلا مجنونًا حاول أن يَحُلّ مكان الرّب. وهاهم أتباعه أيضا يَسيرون على خُطاه.

- آمِنْ بما شِئت في قلبك، ولكنني أنصحك أن تُوثِّق علاقتك بكافيار، ذلك الرجل سيكون له شأنٌ كبير بعد احتلال الجزائر.

كل يوم يزيد يَقيني بأن بعض القباطنة لا يختلفون عن القراصنة الأتراك إلا في صِفات قليلة، بالنسبة إليهم العلاقات الإنسانية هي منابع مُتجدِّدة للمال والسُّلطة، صرت أؤمن أن بعضهم لم يشارك في الحملة إلا من أجل الذّهب، شوّشَت كلمات كافيار عقلي، وجعلتني أُعيد حساباتي ونَظرتي للأمور، حتى قبطان لوناجور، بدا في اليوم الأول مُختلفا. ولكن الأيام التالية أظهرت جُوعه، كان لا يزال ينفث دخانه، بينما أبصرت الرّصيف الخَاوي، الجنود عبّؤوا سطح السفينة وضجّوا ولم نَنتبِه لهم. ومن هناك رأيت لابروفانس ترفع مِرساتها، ثم تَبسط الأَشرِعَة، وتَواطأت معها هدهدة الرِّيح، فتَحرّكت متجاوزة الميناء ثم كنا نتعقبها، إلى أن أحاطتنا الزُرقة من كل جانب.

كانت الرُؤية أشدّ وضوحًا في طُولون، إلا أنها تَزداد تَشوُّشا كل يوم، ولم يبق إلا يوم آخر وتَتَراءى لنا مدينة القراصنة. عليك يا ديبون أن تَحسِم أمرَك، إيمانك العميق بما تحمله، أصلب من زعزعة كلمات مُرتاب مثل كافيار. ربما تخلّى عنه الربُّ جرّاء ما اقتَرَفَه مع نابليون، أو لأشياء أُخرى تغيب عني. لا يزال كافيار يَتمطّى في سريره، كأنه يَختزِل العالم كُلّه في رأسه، الكتاب نفسه بين يديه، أمدُّ نظري مُتأكدا من العُنوان، أُردّدُه تمتمةً: الدِّيوان الإسبَرطيُّ. ثم أرفع صوتي به، يُخرِج رأسه من بين دفّتي الكتاب، ويضعه

جانبا ويلتفت إليّ، يُحدِّق تجاهي وكأنّه لا يراني. هممت بسؤاله عن محتوى الكتاب، ثم تراجعت، وقبل أن يَدفن رأسه بين دفّتي الكتاب، قال:

- عليك أن ترتاح يا ديبون، سنرى ربوة القراصنة في مساء الغد، وسينزل الجنود بسيدي فرج.

أصحو على صباح نديّ، أرى الجنود مُتوَفِّزين، أعناقهم مُشرَئِبّةٌ نحو الجنوب، دوما كان الجنوب مُثيرًا للمشاكل مثلما كانوا يُردِّدون في باريس. كافيار لم ينم ليلته، قضاها ساهرًا يُقلّب كتابه، أو ربما يُقلِّب كتبا أخرى وخرائط في رأسه. ظننت أنه لا يزال هناك، ثم لمحته عند نهاية سطح السفينة، يدخِّن بعصبيّة، ونزلنا إلى أسفلها حينما انتصف النهار، وتركناهُ بالأعلى، آثر البقاء وحيدا، ينتظر أن تَترَاءى الرّبوة له، وظل يَحشو غليونه بالتّبغ، حتى عُدت إليه، حين مالت الشّمس عن خطِّها العمودي إلى السماء الإفريقية، كان جبين كافيار يتفصّد بحبّات العَرَق، يمسحُها بعصبية، وقفت إلى جانبه، وإن هي إلا لحظاتٌ حتى تراءت لنا، وصاح الجنود صيحةً واحدةً من السُّفن جميعا. هل كان ما رأيت جَبَلاً من رخام أم مدينة؟ لم أتبيّنها إلا ونحن ندنو أكثر منها، فأرى سُورها في شكلِها الغريب يُحيطها، ومَنارات تشهق في سمائِها، والأبنية مصفوفة بانتظام تَعلوها قبابٌ كثيرةٌ. من هناك أيضا تراءت لي صُفوفٌ من الشّوارع الـمُستوية، وخارج الأسوار توزّعت حدائق مصفوفة، تحيط قُصورا شهِقت مَناراتها هي الأخرى من هناك، فَرَكت عينيّ غير مُصدّقٍ ما أراه، أفعلا هذه هي المدينة التي حدّثونا عَنها ورسموا الصّورة الـمُخيفة لها؟! أهذا هو الجحيم الذي أخاف أوروبا قُرونا ثلاثة؟! تخيّلتها مثل فوهة بركانٍ، أو ثكنةٍ رمادية

الجدران. وإذا بي أُفاجأ بمَدينة جميلة. لم أصدِّق أنني كنت أراها بذلك الشّكل، والصُّوَر لم تُطابق ما قِيل عنها، هل هو وهمٌ آخر قد عِشته؟ قد أوهموا الجميع بتلك القِصص الخُرافية عن الجحيم في مدينة القراصِنة. ربما كان الأمر كذلك، وأنا الذي أتوّهم فقط، لحظتها وَصَلَتني كلمات كافيار، كأنه يدري ما في داخلي: لا تتعجّل في أحكامك يا صديقي، بالتأكيد هذه المدينة جميلة بما يكفي كي تَضطرب لرؤيتها أول مرة، ولكن ليست كل الأشياء الجميلة هي فعلا كذلك. ما عليك الاهتمام به الآن، هو كيف يُمكننا إغلاق صُندوق باندورا الذي انفتَح منذ ثلاثة قرون على الشُّرور كلها.

لم أجبه. سحبتني الأُسطورة اليُونانية إلى عوالم بعيدة. لا يمكن المجازفة أكثر مع كافيار، بالرّغم من أن الأُلفة قد زادت بَيننا، ولكنني قرّرت إشاحة وجهي عن المدينة البيضاء، وقوافل السُفن تنعطف إلى الغرب، ثم نَأَت بعيدًا عن الرُؤية، وخلّفَتْ شيئا غامضًا في نفسي. مسافة أخرى وبدا لنا خليج سيدي فرج، قَفَز كافيار في مكانه، وعلا رُوحَه ابتهاجٌ عظيم. ثم مدّ يده مُستقيمة تُشير إلى هناك، والتفت إليّ:

- نعم ها هو سيدي فرج يا ديبون، آن للنّهر أن ينهمر على إفريقية.

وقلت في دخيلتي:

- نعم يا صديقي آن للنهر أن يَنهمِر على الجزائر.

كافيار

مُختارات من الدِّيوان الإسبرطي

دُوِّنت ما بين 1816 و1830

اللوحة الأولى

من حي القناصل، تأمّلتها ذلك المساء، مدينة نصف مُهدّمة، من هول المدافع. الـمُور لا يهدؤون، يجوبون الشّوارع كأنّ شيئا لم يحدث. أرى اليُولداش مثل حمقى، أوداجُهم منفوخة، وبُطونهم تتقدّمهم، وأقترب منهم دون إثارة أي اهتمام، الآن يا كافيار، قد بدأت رحلتك التي قُدِّرت لك، منذ عودتك من واترلو مهزوما، ثم تحمّلت العبودية. ولكن أنسيتَ يا كافيار أُصبعك التي خلّفتها في مِحجر الرُخام؟ لم يبق منها شيء، هَرَستها الصّخرة حتى حالت إلى عُصارة دمٍ ممزوجة بالرّماد الأبيض. نعم لطالما تحسّست طعم مُلوحة الدّم في فمي، ورأيت في كوابيسي أني ألتَهِم جميع أصابعي بِشراهَة، بعدما خِفت أن تَهرسها صخورٌ أخرى. أتساءل: كم عدد الأكياس التي أَنزلتُها من على السفينة؟ كانت ستَمُدُّ بيني وبين سات طريقا. وكم طول الحبال التي فَكَكْتُها في الميناء؟ كانت تكفي للدّرب

الـمُوصل بيني وبين واترلو. ولكنني لن أعود إلى هناك، بعد الملك الجديد. صار مُقدّرا علينا انتظار نابليون آخر. فهل ستلد أوروبا رجلًا مثله؟! لم أؤمن في يوم بهذه الفَرضيّة السّخيفة، بعض الرجال لا يُعوّضون، مثل أنصاف الآلهة في الملاحم الإغريقيّة، لا يموتون، إلا بِقَدر ما يغرسون آلافا من الأشجار في الذين من حولهم.

كلّ مساء أرى المدينة من شُرفة بيت القُنصل، لا أدري كم مرة شاهدتها من هناك. مئة، ألف، أو ربما أكثر، ريحٌ عَفِنة تُطلقها أصوات أهلها الضّاجين، وكراهية تشتعل كل مرة في داخلي كلما رأيتهم يَبنون مَركبا جديدا، أستعيد صُورها بعد قصف اللُّورد إكسموث، ليت أولئك الـمُور يُدركون كم يَستَجلب هذا الخراب بهجةً إلى نفسي، حتى دُخان حرائق سُفنهم، كان كأنه نسمة صباحية تجوب الحديقة التي انبسطَتْ أمامي، بأشجارها العارية بسبب الجراد، بينما هؤلاء الأتراك يَبنون كل يوم سفينة جديدة، وأخرى تَصِلهم من إسطنبول. كم كان خطأُ الإنجليز فادحا، عندما تركوا المدينة ورحلوا دون تدميرها وقتل بقية اليولداش، وربما الـمُور كذلك. وجوههم البائسة تستحقُّ أن تُسحل مثلما قشّرت السِيّاط ظهورنا، ولكن من ذا الذي يُعيد حملة اللُّورد؟ ولا يقْدم من أوروبا إلا من يحمل الهدايا أو الضرائب للباشا علي خُوجة هكذا يُسمّى. غريبٌ أمر أولئك الأتراك، يأتون من أزمير أوّل الأمر مُجرّد جنود، وفي وقت وجيز يصيرون باشوات، يتقاتلون من أجل الـمُلك، الباشا علي يقتل الباشا عمر، وهذا الأخير تآمر على قتل سابقه، وعلى هذا يدرجون. حتى أضحى الـمُور يقدّسون من يموت مِيتَةً طبيعيةً. يبنون حولهم الأضرِحة، يزورونها يستجلِبون منها الحظ، أما حينما

يَحِلُّ الوَباء، أو الجراد، أو حتى الحروب التي يُهزمون فيها، فإنهم يُعلِّقونها خُفية في عُنق الباشا. تتسرّب الإشاعات من شُقوق أسوار الثَّكنات، فيَتَلَقّفُها اليولداش. يتحلّقون حول قصر الجُنينة، يُعلنون باشا جديدا بعد خنق الباشا القديم، وربما هذا ما فعلوه بعُمر باشا، إذ لم يلبث إلا أياما قليلة بعد قصف المدينة ثم خُنِقَ، وحلّ بعده الباشا علي. يعجب المور بميولاته الدينية، ويَتَفاخرون أنه طَرَد الـمُومسات إلى الرِّيف، وقد رأيتُهن أيضا من الشُرفة، يشقُقن الدُروب نحو الجنوب، ربما كانوا أكثر تَعلُّقا بالمدينة من هؤلاء الـمُور، وربما كان ذلك المشهد الوحيد الذي تَعاطفت معه. تظلُّ المرأة دوما ضعيفة، خاصة في أحياء الـمُور، لا يَسمحُون لها بمغادرة بيتها، إلا حينما تَلفُّ نفسها في كومة القماش. رأيت بعضهنّ برفقة الرجال، حينما عبرت درب البحر في اتّجاه حي المقاهي. يختار الرجال السّقائف الخاوية، كأنهم يَخشَون عليهنّ من العُيون. كم هؤلاء الـمُور أقوياء مع نسائهم، وجُبناء مع حُكّامهم من الأتراك!

اللوحة الثانية

مساءٌ مُختلف يحل على ربوة القراصنة، حركة الـمُور سريعة أكثر من الأيام الفارِطة، وكأنّ شيئا ما سيحدث. كان المساء في أوّله، ومَجرى سَيرهم تجاه جامع السيّدة، الجامع الرّسمي للأتراك، انتصب في مقابلة قصر الجُنينة. حَدست أن الباشا هو من طَلَب اجتماعهم، وفكرت بالنزول مع شارع البحر حتى أبلغ حي المقاهي. اعتدت كل يوم مراقبة الرِّياس واليولداش من هناك، ومنذ بداية مكوثي بِبَيت القُنصل قرّرت أن أستَغرِق الوقت كُلّه

في معرفة كيف يُفكِّرون، حين يَنفَصِلون عن أَوْجاقِهُم، أو عندما يُغادرون سُفنهم. كنت أُؤمن أن إدراك ذِهنيات أولئك الأتراك والـمُور، سيجعلُني أكتب بوعي عنهم، أتقرّب من بعضهم، وأَرْشي آخرين، يتكلّمون ولا أفهم إلا القليل، العربية والتركية كانتا مُعقّدتين. أحيانا أيأس رغم تحسّن فهمي بهما، ومرّات لا أستوعِب كلماتهم التي يُغَمغِمون بها. وتَتَنَوّع اللّهجات بتنوّع الوجوه، مزيج من التُركية والعربية، وحتى لُغات أوروبية أخرى، أجد بها ألفاظا فرنسية، والكثير من الإسبانية. أنضم إليهم في المقهى، أُدخِّن معهم غلايينهم، ما زالوا يُحبّونني مادامت أدفع عنهم ثمن ما يشربون. يهتفون حين يَرَوني مُقبلا: كافار كافار. أتفطّن كيف يُميل بعضهم لسانه باسمي قصدا، حتى يتوافق مع كلمة كافر. يَتركون لي مكانا حيث يَتّكئون، نستمتِع بِمصّ الغلايين، ومُشاهدة المغنّين وهم يتلوّون بالألحان. هؤلاء الشّرقيون يميلون إلى الاسترخاء والتلذّذ بالحياة، حتى غناؤهم كان رتيبا ومملّا، ويبدو لي أحيانا أن الـمُغنية كانت ستبكي وهي تُعيد مواويلها، ارتخى الذين من حولي مُنتشين بها حدّ الإغفاء، والغرفة الواطئة يَملأُها الدُّخان، أفرُّ خارج المقهى. تسحب رئتي هواءً نقيا، وأنغمس مرة أخرى في شوارع المدينة، الـمُور لا يزالون يَشقّون الطرقات، وجهتهم مسجد السّيدة. سرت في مَجراهم، ثم وقفت في مقابلته، لم يكن يُسمح لي بدخول المسجد، استغربت فراغه من الجنود، ولم يألف الـمُور الصلاة في هذا الجامع إلا لماما.

اعتاد القُنصل محادثتي عنهم. يردِّد: يمكنك يا كافيار اعتبار الـمُور كاثوليك المسلمين، أما الأتراك فبروتستانت، وقد لا تتبدّى هذه الفُروق بجلاء، مثلما نراها عند المسيحيين. وقضاتهم فقط من يفقه الفوارق بينها بدقّة، وخاصة إذا ما تعلّق الأمر بالقضايا المالية. لكن الناس العاديين، لا

يكادون يُفرِّقون بين المذاهب، إلا حينما يُشيرون إلى المساجد التي تخصُّ الأتراك أو التي تخصُّهم. وهذا الذي جعل الـمُور يحتملون ظلم الأتراك، قانعين بتجارة بسيطة. منعوهم من تصدير الحبوب، حين احتكروا سُوق الميّارين وما يدخُله. ولولا هذه الدِّيانة المُشتركة لما صَبَرُوا على تصرُّفاتهم. أحيانا أو دائما يُصبح الدّين عائقا في الحياة العادلة للناس، يأمرهم بالصبر على ظلم الحُكّام، حتى ولو ضَربوهم بالسيّاط فليس عليهم الثورة. كما أنه ليس لديهم الحق في المناصب المهمة، والسُلطة الدينية كانت في يد مذهب الحُكّام، رغم أنهم قليلون إذا ما قُورنوا بعدد هؤلاء الـمُور.

يرتفع صوت المؤذّن، يعلن عن الصلاة قبل الأخيرة. والناس ما زالوا يتوافدون على المسجد، ثم رأيت باب القصر يُفتح، وبعض اليولداش يسيرون بمُحاذاته، تسمّر الـمُور في أمكنتهم، رأيت ذهولهم وهم يُراقبون كوكبة اليولداش المحيطة بالتركي الذي خرج من الجُنينة. ثم سمعت كلام أحدهم: إنه الباشا، إنه الباشا. كان الناس ينحنون وبعضهم يَقترب مُحاولين تقبيل يده، ويدفعهم اليولداش بعيدًا عنه، إلى أن غابوا جميعا في المسجد. واخترت أقرب الطرق إلى حي القناصل وشققتُه حتى كنت به.

يقول القُنصل:

- الأشياء التي رأيتها تدل على مؤامرة جديدة. ربما تحسّس الباشا محاولة لقتله. لذا سيجمَع الـمُور من حوله، يحتمي بهم.

ثم أردف:

- لك أن تتخيّل يا صديقي أنه في العشر سنوات الأخيرة قُتل ستّة حُكام للمدينة.

أسرعت في اليوم التالي أراقب المدينة. عادت الشوارع إلى حياتها الأولى، جلست أستمع بمللٍ إلى حكايات الريّاس التي لا أفهم إلا اليَسير منها. مَزيجٌ من اللّهجات الأوروبية، والألفاظ الـمُحوّرة، حتى تغيب معالم الكلمات، ويتناهى إليّ صوت الـمُغنية تتأوّه كأنها في الفراش تحت وطأة جُندي غليظ، والدخّان يغمر المكـان، لا أستوعب كيف يمكن لهـؤلاء الناس الاستمرار في حياة مثل هذه، كسولٍ ومُمّلةٍ. الزّمن ليس له أيُّ معنى عند الـمُور والأتراك، أفرُّ منهم بعد سماع دعواتهم أن أعتنق الدِّين الـمُحمّدي. ولم تكن إلا لبقيّة ريالات البوجو التي بحوزتي.

حين أظلمت تسللت إلى الشارع المقابل لقصر الجنينة، وتفاجأت بسلسلة طويلة من الأضواء، تتحرك نحو الجنوب، اقتربت منها أكثر، سمعت وقع الحوافر على الأرض، وهَمهَمة الرجال وهم يُغادرون القصر، ثم رأيت بِغالا مُحمّلة بالصّناديق، وتتبّعتها بدءا من القصر حتى بلغت القصبة. شققتُ طريقي عائدا، خشيت أن يعترضني الصحراويون المكلّفون بحراسة الأبواب، بالرغم من أنهم كانوا أكثر طيبة من هؤلاء الـمُور.

حين التقيت القنصل في اليوم الموالي، ابتسم قائلا:

- يبدو أن هذا الباشا أكثر الأتراك حيلةً. قد انتقل إلى القصبة أعلى حصن يشرف على المدينة، بعد تآمر الـمُور معه، وجعلهم حاجزا بينه وبين جنود اليولداش. ومن فوق أسوار القصبة نصب مدافعه باتجاه ثكناتهم، وهم الآن يُحاولون إرضاءه بشتّى الطُّرق. وقد يُضحُّون ببعضهم حتى يَصفَح عن البقية.

وفي المساء كان كل شيء قد انتهى، وأضحى القناصلة يزورون الباشا في القصبة، يحملون الهدايا والضرائب، بينما ظلّ الـمُور يحنون رؤوسهم كلما صادفوا اليولداش في الطريق.

اللوحة الثالثة

من عرف هذه الرّبوة، يُمكنه استيعاب كيف تتشكّل ذهنيات أولئك الـمُور، وكيف جَعلتهم التربية الدِّينية، والخنوع للسُلطة القاسّية على تلك الصُورة. وأيضا المناخ وشمسه الحارّة، وكيف تُؤثِّر على أمزجتهم، تجعلهم أكثر غباءً من أولئك الأتراك. وعمّق الدّين من تلك الهُوّة. كان يدعوهم للرضوخ للحكام، وحمل السُيوف على المسيحيين. أسرّ لي القُنصل بذلك. وقال: يفضل المور الكلاب على المسيحيين. مثلما كانوا يُجمعون على أن اليهود دائما يُعكِّرون الحياة في مدينتهم. يجتهدون حتى تصبح لهم حظوة عند أيِّ باشا جديد. هم يتجنّبون القتال ويحبون رؤية غيرهم يتقاتلون. يُشبِّهونهم بالضِّباع التي تأتي نهاية المعركة لتلتقِط الجيف.

سنوات قضيتها ذارعا شوارع إسبرطة. عرفت أشياء كثيرة تغيب عن أهلها، المسافة التي يتركُها الـمُور بينهم وبين اليهود، لا تسمح لهم بفهم دواخلهم بشكلٍ كافٍ. في إسبرطة يخضع اليهود فيما بينهم إلى قوانينهم لا إلى قوانين المدينة. إذ يتولّى إدارتهم رجل من أبناء الطائفة، يُعيِّنه الباشا، ويُسمح لهم بممارسة التجارة، ولكن الضّرائب كانت مُضاعفة. أتساءل عن الحالة الغريبة التي عليها اليهود في هذه المدينة، من جِهة يُقرِّب الباشا بعضهم، يجعلهم يشرفون على صكِّ النقود، وتبديل العُملات. ولكنه لا يُحرِّك ساكنا ضد كثرة الموانع من حولهم، مُجبرون على تحمُّل صفعات الـمُور، ممنوعون من حمل السِّلاح، أو اقتناء الخُيول، ليس لهم الحق في لباس ملوّن، لا يخرجون من المدينة إلا من بابٍ واحدٍ. ألقاهم في الطرقات أحيانا، بألبستهم الزرقاء الدّاكنة، وكُلما تأملت سُلوكهم أدرك أن ما يحمله

هؤلاء اليهود من خُنوع، كان أكثر ممّا يحمله الـمُور، الذين يصرفون سُلطة الأتراك عليهم تجاه اليهود، وأيضا تجاه نسائهم.

ما دام أولئك اليهود بها أعتقد أنه ليس من الصعب احتلال هذه الربوة. مُيولاتهم إلى المال تجعلُهم يخدموننا مقابل فوائد دائمة. وربما بعض التُّجار الـمُور فيهم تلك الصفة، لكن الخطر الحقيقي، في العُربان الذين يَقدِمون من خارج المدينة. يَجنَحون إلى الثورة كلما أعلن الباشا ضرائب جديدة. أما حين يخرج اليولداش إلى جَمع الضّرائب فإنهم يعودون محمّلين بها وببعض الرجال الـمُكبّلين. يلتفّون في برانسهم السّوداء، أما أهالي الجبال، فبدا لي دوما أنهم مُنفصلون عن حُكم الباشا. كانوا يُسمُّونهم القبائل، يُحدثني عنهم القُنصل. فأنزل إلى الأسواق باحثا عنهم، أراهم هناك، يحملون قُلل الزّيت، وأكياس الزيتون، وجوهُهم أشدّ بياضا من وجوه الـمُور، قاماتهم مُعتدلة، ولكنّهم أقوياء. تبدو سواعدهم مفتُولة، والكثير منهم يتميّزون بشعرٍ أشقر، تراءوا لي أقرب إلى الفلاّحين في شمال أوروبا منهم إلى أولئك الـمُور. لا يستقرُّ القبائل في المدينة كثيرا، القليلون فقط يعملون بها زمنا، ثم يعودون إلى الجبال. المدينة بالنسبة لهم مجرّد مصدر للرِّزق، ولم يكونوا أقلّ خطرا من الأعراب، إذا شرعنا في غزو هذه الربوة في الزمن القريب.

اللوحة الرابعة

يُعاتبني القُنصل السُّويدي لأنني لم أزر زميله الفرنسي، ولم يكن مُجديا في الأيام الأولى أن أفعل. كنت ساخطا عليه، إذ تركنا داخل السّجن دون تكليف نفسه بزيارتنا. لم ألتق القُنصل دوفال من قبل، ولكنّ الجميع من

حولي يتّفقون أنه أسوأ من أُرسل إلى الجزائر، رجل يشترك مع اليهود في صفات كثيرة. يظلُّ يسترضي الباشا الجديد حُسينا، يشتغل مثل قوّادٍ عنده، يتملّقُه، وينحني فيُقبّل يده كلما زاره في أعياد المحمديّين الدينية. ويُشكّل صداقات مشبوهةٍ مع أولئك اليهود التجار النافذين في قصر الباشا. لم يكن يهمُّه شيء إلا ما يُضيف فرنكا إلى جيبه. لذا لم أرغب في زيارته، ولكن حين عاد إليّ رُشدي، وجدت أنه أكثر القناصلة فعاليّة في هذه المدينة. في باريس كانوا يُدركون أنه رغم كل مساوئه فإنه يظلُّ أصلح رجل لإسبرطة. وهكذا طلبت موعدا، ولم تمرّ إلا أيام قليلة حتى كنت عند باب بيته، وسرتُ بمرافقة الخادم إلى مكتبه حيث جلست أنتظره. دقائق ثم وَلَج الغُرفة وحيّاني بحرارة، كان في نهاية الخمسينيات من عمره، نحيف الجسد دقيق الملامح، جلس يهذر بأشياء كثيرة. تحدّث عن نابليون، وعن واترلو، وعن علاقة اليولداش بالباشا والمور. فأيقنت أنني أمام رجل يخبر كل صغيرة وكبيرة في هذه المدينة. ويفهم الأتراك أكثر من أنفسهم، ما يُحبُّون وما يكرهون، كنت أُصغي بصمتٍ إليه، حين رفع رأسه تجاهي، وتكلّم:

- أستغرب من شخص حارب مع نابليون في الشّمال، أن يفضِّل الحياة في هذه المدينة الإفريقية، وبين هؤلاء الـمُور والأتراك؟

- لم يكن الأمر هيّنا، خاصة حينما تخلّيتم عنا، وتركتمونا عبيدا تحت رحمتهم.

- لم نتخلّ عنكم يا سيد كافيار، بل كُنا على اتّصال مع الإنجليز، ورتّبنا معهم كل شيء.

تمنيت لو صرخت في وجهه، ولكنني تعقلت وأجبته:

- فعلا، أنت محقٌّ سيّدي القُنصل، قد قالها لي الأمريكيون، لكنني نسيت.

- إذا لم ترُقك الإقامة عند السُّويديين، فإنه مرحب بك هنا.

- قد ألفت الـمُكوث هناك، ولكنني أقصدك في شيء آخر.

- لك أن تطلب.

- أريد تصريحًا للتجول بِحُرّية خارج المدينة.

- وما الذي ستفعله هناك بين البدو وأهل الجبال؟

- آمل أن تُعفيني من هذا السؤال.

- يا سيد كافيار، إنّني في غِنى عن جوابك، فهؤلاء الذين يَختَبِئون داخل قصورهم في باريس، لم يرسلوني إلى هذا المكان الخَطِر عبثا، بل لأن هناك مهامّ لا يمكن أن ينجزها إلا هذا الرجل الذي يجلس أمامك الآن. أنا أدرك أن ما يشغلك الآن، قد شغَل قائدك قبل سنوات، لدرجة أنه أرسل أحد جواسيسه يستكشِف المدينة.

- أتقصد نابليون؟

- ألا تعلم أن نابليون قد أرسل جاسوسه بوتان قبل سنوات، استكشف المدينة، وكتَب عنها تقارير عديدة، ورسم خرائط، حينها كان نابليون يحلم باكتساح هذه المدينة.

- وبوتان؟

- في طريق عَودته قَبَض عليه الإنجليز، وسَلَبُوه كل ما لديه من أوراق وخرائط.

- الإنجليز مرة أخرى! إنهم دائما يَقِفون حجر عثرة في طريقنا.

- يا سيد كافيار، أرجو ألا تَجعل الأمر شخصيا بينك وبين الإنجليز، منذ القديم ونحن في سِباق معهم. ولم أستغرب حينها سمعت من بُوتان تلك الكلمات.

- التقيتهُ إذن؟!

سار دوفال خطوات إلى خِزانة أقصى الغُرفة، فتح أحد أبوابها، وقلب أشياء بداخلها، ثم عاد بوجه مبتسم، وبَسَط أمامي حُزمة الأوراق، مربوطة بخيوط رفيعة، ثم تكلّم بافتخار:

- لن تَجِد هذه الأوراق إلا في خِزانتين، هذه التي أمامك، والأُخرى في مكتب وزير الحربية.

- أهي تقارير بوتان وخرائطه؟!

- قد أصبت هذه المرة، هي بين يديك الآن، ولكن بشرط؟

- كل الشُروط مقبولة.

- سجّل بوتان ملاحظاته قبل سنواتٍ، وأنت ستُضيف لها هوامش بحيث يمكن للضُّباط الذين يأتون فيما بعد تتبّع المسارات كي يسهُل عليهم النُّزول بسيدي فرج، مثلما اقترح بوتان.

- لك مني ذلك سيّدي القنصل.

- وسيكون التّصريح بين يديك في صباح يوم الغد.

غادرت بيت القنصل بوجه غير الذي عبرت به بوّابة بيته، وندمت أنني لم أزره في أيامي الأولى. كنت أحضُن حُزمة الأوراق، كأنما أخشى عليها من الضياع. كانت بالفعل هذه الأوراق عزاءً لكل كوابيسي الطّويلة في إسبرطة. حدّثت نفسي حينها: الآن يا كافيار بدأت رحلتك في ردِّ الصفعات وضربات السيّاط. ستُعيد رسم الخرائط، بل إنك ستُشارك في تَغييرها، عليك الآن أن تُصغي لكل الأصوات والهمسات، والإيماءات، عليك الإيمان فقط، أن كلّ شيء من حولك الآن سيُعينك على غَزو هذه المدينة.

اللوحة الخامسة

ينحدر أمامي السّهل، تَملأُه مقابر المحمديين، أراه من على صهوة الحصان، أضرِبُه بكفّي فينطلق مسرعا، لم أكن أدري أن الخيُول العربية بكل هذه الرشّاقة. الآن أضحى على الفرنسيين أن يُفكِّروا بجدِّية في هذا النَّوع من الخيول، إنها أفضل حتى من الخيول الأوروبية، رأسُها صغيرة، وعيونها واسعة، وأجسامها منسجمة، ولا تتعب من المسافات الطَّويلة. اختبرتُها وأنا أطوف بالمدينة حتى ألفتُها، وتسابقتُ مع الكثير من الأعراب، ممن يقطنُون خارج المدينة، ودائما يسبقونني. هؤلاء الأعراب أشدُّ خطرا من جنود اليولداش، الذين لا يَختلفون كثيرا عن مُشاتنا، يُفضِّلون القتال في جماعات، أو في صُفوف طويلة، ولكنهم بالتأكيد لم يكونوا بالشّجاعة نفسها، من يراهم يُدرك أن تلك الطبيعة البدوية التي تميل إلى التِّرحال، تجعلهم أكثر توقًا إلى الـمُغامرة، ليس لديهم أشياء يَفقدونها، سوى قطعانهم، حتى بيوتهم كانت خِيامًا من الشّعر، دقائق وتطوى لتُحمل على ظهور الجمال، تلك الكائنات الغريبة، رأيتها ترعى ولم أجرؤ على الاقتراب منها إلا رُفقة حارسها، بدَت لي أكثر قبحا وأنا أراها عن كَثَب. أتذكّر أني لم ألبث إلا قليلا هناك، وعدت إلى صهوة الحصان، ولم أقترب منها مرة أخرى. كل يوم ألمحها في مكانها، وإلى جانبها العجوز الذي بدا وكأنه يُماثلها في خصالٍ عديدة.

لا أدري كم من المرات التي أعدت فيها قِراءة تَقارير بوتان. لم تبد لي أنها تحتاج إلى هوامش كثيرة، فعلا كان ذلك الرجل استثناءً. وربما كل النابليونيين كانوا كذلك، وأنا منهم، لكنني لم أُحدث الاستثناء بعد. يجب أن أُحدث فتحا آخر في هذه التّقارير التي تَبعثرت أمامي، والخرائط

التي نسختها مئات المرّات خلال السّنوات التي قضيتها أجوب السُهول والمرتفعات بين المدينة وسيدي فرج، وسطاوالي. ولكنّ بوتان كان واضحًا على الدّوام، جاس الربوة ثم رسمها بدقة، ولم يترك للصدفة أثرا في رسوماته، عدا تلك التي تتعلّق بالقلعة الصغيرة المقابلة للبحر. طوري شيكا، لم يكن مُقدّرا له التكهن كم عدد المدافع التي ستُطلّ من أعلاها. في كل مرة أعدت حساب المسافات، بين البحر وبين القلعة، وبقية الأمكنة التي اختارها بُوتان طريقا للجنود، أُفاجأ أنها دقيقة، وكُلّما أظلَم الفضاء من حولي كُنت أعود إلى المدينة، وأستيقظ في فجر يوم ثانٍ وأرجع إلى المكان نفسه. أُعيد قياس المسافات، والبحث عن دروبٍ أخرى، وبالفعل وجدت بعضًا منها ولو أنها كانت جانبية، ولكن الأعراب كانوا يحلُّون بها في أوقات غير معلومة، كان لا بدّ لي من تسجيل تلك المواقيت، تتبّعتُها قبيلة قبيلة، ودوّنت تفاصيل مثيرة عن حلِّها وتِرحالها، وأحصيت عدد الذين يُحسنون القتال، وعدد الخُيول التي يملكونها، والبنادق التي يحملونها، وتوغّلت في علاقاتهم بالباشا، وجُنود اليولداش. لم أنتبه إلى الأوراق التي تزداد من حولي، إذ تتبّعت تفاصيل كثيرة، أسأل الرُعاة عن الأشجار وأنواعها، وأسأل آخرين إن كانت تنفع في شيء، وعن تأثير الحُمى والمياه الموبوءة، وعن الأعشاب التي يستعملونها كأدوية. ومن الأشياء الغريبة التي صادفتها في هذه المدينة، ما إن يراك الـمُور حاملًا حُزمة الأعشاب حتى يعتقدوا أنّك طبيب. يُبجّلونك كأنك الباشا، ويطلبون أن تصف لهم دواءً لعِللهم. وبالرَّغم من أنها كانت كثيرة، ولكنهم يُصرُّون على دواء واحد يمكنه معالجتها كلها.

يتأمّلُني القُنصل طويلا، ثم يهمس لي: اهتم بصحتك يا كافيار. لم أهتم بكلامه، كانت كتاباتي وخرائطي هي حياتي الجديدة في إسبرطة. ثم حال ذلك إلى هوسٍ، آلاف من الاحتمالات جرّبتها من أجل احتلالها، تقاطَعَت مع خُطط بوتان، وأخرى كانت بعيدة عنها، ظلّ يلحُّ على النزول من سيدي فرج حيث المكان خالٍ من أيِّ تحصين، وليس بعيدا عن المدينة، وقدّرت أيضا أنه لا بدّ من مفاجأة أسطولهم في الميناء. لو أعادوا حملة اللورد إكسموث، فإنهم سيَحتلُّون المدينة بكل سهولة. ومادامت سُفنهم هناك في الميناء، فإنهم دائما مُستعدون لصدّ هجماتنا. وظلّ القُنصل يُردِّد: اِنتبهْ إلى نفسك يا كافيار، ليس من المعقول أن تستمرّ في لقاء الأعراب وسُكّان الجبال، هناك أمراضٌ تنتشر بينهم، انتقلتْ إليهم من حيواناتهم. ستنتقل العدوى إليك. لقد أصبحت أكثر نحافةً وضمورًا. انظر إلى وجهك في المرآة.

أقفُ في مواجهة المرآة فأنكر نفسي، ثم أتذكره، إنه كافيار الذي خرج للتّو من عُبوديته. تذكّرت أوّل يوم في ضيافة القُنصل، وقفت أمام المرآة، كان الوجه نفسه، ثم شرعت من دهشتي أنزع عن جسمي الثياب، كانت الأضلاع بارزةً، وبطني انحنى إلى الدّاخل.

في السنة الأخيرة صرت مثل مجنون لا يتوقّف عن الجري بالخلاء، لا آكل إلاّ القليل، أُدخِّن بشراهة، وأسهر ساعات متأخِّرة من اللّيل. بات محكوما عليّ تحصيل معارف جديدة. ومر شهر آخر وصدَقَت نُبوءة القُنصل. أفقت في فجر يومٍ على حُمى شديدةٍ. العالم كُلُّه تحوّل إلى خيالات ترقص أمامي، أسوار الزِّنزانة الدّاكنة، أُقاسمها مع نابليون، ومرّات أراه في لباس الأتراك يحمل السّوط في يده، يأمرنا أن نهبّ إلى أشغالنا. ثم رأيت

المسافر الذي قاسمني غرفة المركب عندما أَسَرَنا القراصنة، وقف يُلوِّح لي في نهاية الشّارع، وحين خطوت إليه انفجرت إلى جانبه قذيفة من سفينة اللُّورد، ورَدَمه الجدار الـمُتهدِّم مع آخرين. أفتح عينيّ فأرى القُنصل إلى جانبي، يُغيِّر قِطعة القماش المبلولة من على جبهتي، ابتسم عندما فتحت عينيّ، ثم تحركتْ شَفَتاه ولم أعِ ما قاله، إذ عدت مرة أخرى إلى غيبوبتي، في الحلم كنت أتوسّط سهل واترلو، والمطر ينهمر مثل شلاّل، وقفت وحيدا بين الجُثث، وكأنّي بنابليون يُلوِّح من بعيد لي لألتحِق به.

لم أعرف كم من الأيام قضيتُها طريح الفراش، يظل القُنصل إلى جانبي، لا يغادر إلا ليرجع ثانيةً. خُيِّل لي أن دوفال وقف إلى جانب السّرير وتحسّس جبيني، رأيت نظرة الأسف في عينيه، ولم أُقدِّر مدى صدقها. لم يطل مُكوثه ورحل سريعًا، تشدّه إلى المدينة مصالح كثيرة. بينما شعرت أن هناك معالم جديدة بات عليّ تدوينها. أهذي بطُوري شِيكا، والأعراب الذين يَحملون بنادق طويلة، وباسم حصاني الذي اعتدت امتطاءه. ثم ترحل الحمّى. كان القُنصل يأمل في شفائي لكنّ آماله تبدّدتْ، يُرسل خادمه للطبيب، ويحضر حاملا القوارير معه. ويستعر جسدي حتى أوشك على الهلاك بين يديه، ولكنني في ذلك الصباح استفقت. فتحت عينيّ، وأبصرت سطح الغرفة، سعِدت بالضّوء المنبعث من النافذة. ومددت يدي كي أُلامِسه، كان أكثر دفئا، شعرت أنني أستطيع الوقوف، فأرخيت رجليّ إلى الأرض، وتفاجأت أنهما تحملانني، ثم تشجّعت مرة أخرى وخطوت إلى النّافذة، ولم تُخيِّبني رِجلاي. سارَتا بي ببطء حتى كُنت عندها، وأطللت على شجراتِ اللّوز التي أزهرتْ، وكان ربيعا مُختلفا في إسبرطة.

ابن ميار

تتكاثَف الصُوّر من حولي، أرى السّلّاوي يركض في شوارع المحروسة. إبراهيم آغا ينحدر مُنكسرًا عبر الدّرب الذي يشقُّ المقابر. يحيى آغا ونظرته الـمُترجّية بينما كان اليولداش يُحيطون به. دُوجة في انتظارها. ثم حُسين باشا ويده الـمُلوِّحة في محطّة باريس. تُرى من أخطأ بين هؤلاء كلّهم، ومن كانت خسائره أكثر؟ لم أستطع التكهّن لحظتها، لكنني انتبهت أنني لم أعدُد نفسي بينهم، وما كنت أقلّهم خسارة. حدّقت قليلا في سطح الغرفة. لم تعتد الفنادق أن تكون بهذا الشكل إلا في المحروسة، لكن فُندق مرسيليا ذلك المساء كان يشدُّ الخِناق على صدري. وقد مرّ يومان على وصولي. لم تَتَجاوز رجلاي فيهما عتبة الباب، قررت أن أستنشق هواءَ مُغايرا، حملت نفسي وغادرت الغرفة، حملق بي عامل الفندق، بدوت له شيخًا غريب الأطوار، يُفضِّل الوحدة على شوارع ضاجّة بالناس. ولم أحدِّق به إلا للتحيّة، وغادرت مُبتعدًا، شققت الشّوارع غائبا عنها، كُلّما تنامى الضّجيج من حولي تنبعث الصور، وُجوه قد غابتْ ورحلتْ بعيدًا، والرحيل لم يكن إلا موتًا مُؤجّلا. نعم لطالما اعتقدت أن صديقي الـمُفتي قد مات مذ سماعه قرار نفيه إلى الإسكندرية، وجدتُه يبكي ذلك المساء، كان باب غرفته مُغلقًا. دققته لوهلة دون مجيب، ثم فُتح ووقف أمامي مُنكسرًا، لم يتحمل رؤيتهم وهم يهدون المساجد، حتى الكتب

رأيتهم يأخذون الصناديق المليئة بها، قالوا لي إنهم ينقلونها إلى مسجدٍ آخر. ولكنني لم أرها فيما بعد، كُتب القرآن، وكتب الفقه الحنفي وبعض كتب الفقه المالكي. شاهدت بقايا الكتب تتناثر في باحة أوّل مسجد أُقتحم. جمعتُها كلها، لا تكاد تشبه الورقة أُختها، وضعتها بين دفّتين جلديّتين، بالرّغم من أنها لم تكن لتُشكِّل كتابًا لتباينها، وجلست أتأمّلها، تنبّأت ذلك اليوم أن المحروسة ستتحوّل إلى كتابٍ لا ينتمي بعضُه إلى بعضٍ.

كنت مُقرّبا من القائد العام بورمون. رجوتُه أن يسحَبَهم من المساجد التي تحوّلت إلى ثكنات، ولكنه لم يستطع ردعهم، كان الجنود لا يفرِّقون بين الأماكن المقدّسة وبيوت الناس، يدوسون كل من يقف في طريقهم، ربما كان بورمون أقلّهم سوءًا! بيد أن كلوزيل كان يعي جيّدا ما يفعل. أطلق يد كافيار بها، فامتدّت إلى العديد منها، أزالت بعضها. حوّلها إلى ساحاتٍ، وفتح طُرقا جديدة، عجزنا عن فعل أي شيء. كان المفتي يطلب من الناس حمل السِّلاح والوقوف في وجوههم، والدفاع عن بيوت الله. حملت العُيون الأخبار إلى القائد كلوزيل، ظنّ الجميع أنه سيُحذِّره فقط ولكنه نفاه، أخبرني ابنه بأنهم زاروه في بيته، وعلمت أنها مؤامرة من كُلوزيل. أوهموه أنهم راحلون، وليس لديهم من يتركونه لحراسة المدينة، ادّعى أنه في مقدوره استقدام آلاف الجنود إلى المحروسة لحراستها. لم يكن في نظرهم إلا قائدا بُروتستانتيا جلاّبا للمشاكل. كنت أُواسيه ونحن نتقاسم غُرفته، ولم تمض إلا أيام قليلة حتى وقفت أُلوّح له من رصيف الميناء، وحَمَلته السفينة إلى الإسكندرية.

يظلُّ الشّارع يستطيل، وأتساءل ما الذي يُبقيني في مرسيليا، وأعجز عن إيجاد ما يُبَرِّر مكوثي هنا. لم تبق إلا أسطرٌ قليلة من العريضة التي بدأت

اختصارها، حاولت جعلها أكثر دقة. هؤلاء الفرنسيون يُحبّون تدوين كل شيء. بينما نكتفي نحن بالرؤية فقط. قبل رحيلي عن المحروسة، كل يوم أرى فيه وُجوها جديدةً، تستطلِع الأراضي وتحسب المسافات بينها، وآخرون يسألون الناس عن الأعشاب، والحيوانات، يكتبون كل شيء في دفاترهم، يلِجُون الـمُستنقعات بسراويلهم القصيرة، يستخرجون الأوحال، ويتركُونها تتيبّس، يبحثون عن أشياء لا أدري طبيعتها، يرحلون في قوافل محروسةٍ ويغيبون أشهرا، ثم ألمحُهم في حي المقاهي، يجتمعون حول دفاترهم المليئة بالرُسومات الجميلة، بَشرٌ وأشجارٌ وحيواناتٌ وأبنيةٌ تركها الرّومان وأممٌ أخرى لم نعلم لها تاريخًا. أيامًا قليلةً بعدها يجتمعون بالرصيف، وقد حملوا ما استطاعوا من حيوانات برّية وحشراتٍ، وحتّى نباتات، ثم يرحلون. لم نكن نحن قبلهم لنُفكّر بهذه الطريقة، كانوا أكثر ميلًا منا إلى الاكتشاف، حتى اللغة التي يتخاطب بها الناس في الأسواق، كتبوا كل مُفرداتها في دفاترهم، وحفظوا جُملا كثيرة، وصار منهم من يتكلّم بها، ثم طبعوا منها كُتبا، ووزّعوها على ضُباطهم، اقتنيت واحدًا منها، وراقني وأنا أتصفّحه، لكنني كنت حزينًا أن بني عثمان لم يتصرّفوا مثل هؤلاء الأوروبيين.

انعطفت عائدا، مُستغربا كيف عبرت المسافة كلها دون أن أعي تفاصيل كثيرة بها، مقاهي وشوارع جانبية، وحدائق صغيرة أمام البُيوت، تجاوزتُها كُلها إلى أن وقفت عند عتبة الفندق، ولم أحيِّ العامل هذه المرة، اكتفيت بالمرور إلى غرفتي، دخلتها، ووجدت عرائضي هناك ماتزال تنتظرني.

كان ليل مرسيليا أسوأ ما رأيت، سماءٌ مُعتمة لا نُجوم بها، ولا قمر، تميل إلى حُمرة دامية في نهاية الأفُق، خفضتُ بصري فرارا، وأقفلت النافذة

ثم عدت إلى العريضة، وطَفِقت أتتبّع الحروف الغريبة عني، السّطر تلو السطر، والحادثة تلو الأخرى، ولم أسْلم من عودتها، تقفز من بين السُطور تجاهي، ترتجف يدي نهاية السّطر الأخير، أتحمّل ارتعاشها وأضيف أسطرا أُخرى بقيت عالقة، كان لا بدّ من تلخيصها في أوراقٍ قليلة.

يقولون إن وقتنا ضيّق، القليل من الكلام يفي بمطالبكم. ردّد كلوزيل وروفيغو هذه الكلمات، والآن أشعر أنني سأسمعها من هؤلاء الـمُستشارين. وقد بدأت الأسطر تتضاءل حتى بلغت آخرها. تركتُها تجفُّ برهة ثم تأمّلتُ الحروف في انحناءاتها الـمُنسجمة، والكبيرة عند بدايات السُّطور، يرددون أن الفرنسيين نرجسيّون حين يتعلّق الأمر بِلغتهم، لذا وجب عليّ الاعتناء بالألفاظ والصِّيغ، ثم تفحّصتها ودوّنت التّاريخ، وأمضيتها.

بتلك الحروف اللاّتينية بدا اسمي غريبا، أيعقل أن تُصبح كل أسماء أهل المحروسة بهذه الغَرابة بعد سنواتٍ؟ كيف سيستقبل السّلاوي اسمه، أو دُوجة، أو حتى ميمون؟ ميمون قد اعتَادَها منذ سنواتٍ في إقامته بمرسيليا. ربما لم تكن كتابة الاسم لتعني أحدا سواي، لذا قفزت فوق هواجسي وأنا أرتب أشيائي، في انتظار غدٍ مختلفٍ في باريس.

في رحيلي عن الفندق أوعزت للحوذي أن يسرع، وأغمضت عينيّ بينما سارت العربة، ولم أفتحهما إلا ونحن خارج المدينة. لم ألتفت لأرى بقايا الأبنية تختفي خلف أوّل ربوة عبرناها، كانت المحروسة تستيقظ فيّ كل حين، فأرى الآغا إبراهيم مُنحدرًا بين بقايا جُنوده، يسير باحثا عن جيشه الفارّ. يومها عبرت الباب الغربي للمدينة، وحدقت بقوسه طويلًا،

كنت أحدس أنه عمّا قريب ستتغيّر انحناءاته، وتتحوّل إلى أشكالٍ أخرى، أو ربما تُوضع تماثيل على طرفي الباب. أولئك الأوربيّون مولعون بالصور والتّماثيل البشرية، والمشهورون بينهم ينحتُون لهم تماثيل يضعونها في أماكن مُختارة، في تقاطع الطُرقات، وعلى أطراف القُبور، شاهدتهم في ساحات مرسيليا، وأكثر في ساحات باريس. وتجاوزُت البوابة، ثم غابت وأنا أرى حركة الناس يسحبون الجرحى، يحملونهم على عربات خشبيّة، وآخرون على الأكتاف، وبغايا يستلقين على الأرض، بعضُهنّ موتى، وأُخريات يَسِرن محنيات، يتشبّثن بعضهنّ ببعض. الضجّيج يتعالى من أفواه الناس، وأصوات بُكاء الأطفال. تَرجّلت عن فرسي وتتبّعتُهم إلى الثّكنات الخالية من اليولداش، وجدت عددًا منهم يفترشون الأرض، وآخرين يعكفون على غسل جراحهم ولفِّها بقماش، حتى النِّساء كُنّ يشتغلن بنشاط معهم. دنوت من شابٍ يُداوي جريحا، وسألته عن السّلاّوي، فأشار إلى الإسطبل، وما إن فتحت بابه الخشبي حتى راعني المشهد. الجثث الـمُلقاة هناك دون عناية، لم يكن في مقدوري عَدُّها، وأنا أقلِّب الوجوه، أبحث عنه بينهم. ولم يكن هناك أيضا. عُدت إلى الشّاب أسأله، إن كان الموتى كثيرين من أهل المدينة. قطّب حاجبيه، ثم تكلّم: قد مات الكثير يا سيدي، وحتى النِّساء اللّواتي كنّ معنا، جُلّهن قد قُتل. لا أدري ما الذي انتابني، حاولت إخفاء دُموعي، لكنها طَفَرَتْ. جَررت رجليّ أرحل عن الثّكنة، ومررت على أخرى، لمحت فتيانًا يحملون الجرحى، تجاوزتهم ولكن حَركَة الناس الفارّين كانت تمنعني. تهدر عرباتهم على أحجار الطُرقات، ويصرخ أطفالهم، والرجال كانت عُيونهم مُنطفئةً. يُحرِّكُون رؤوسهم في الاتجاهات كلها، يُريدون الأقرب منها إلى الباب الشّرقي للمدينة، يصيحون في النِّساء والأطفال، وتمتدُّ أيديهم

إلى دوابهم فتَضربها بعصبية. ويسيرون في قافلة تَتَمدّد إلى نهاية الشّارع لتبلغ الأبواب. راقبتُها زمنا ثم انعطفت إلى القصبة، وخطوت في عجلٍ لعلّي ألحق الباشا، ولم ألبث إلا قليلا حتى كنت عند غُرفة الديوان، وطلبت الإذن فأُذِن لي، وعندما دخلت تفاجأت بالباشا على كُرسيّه كأنه جزء منه، ينظر إلى سماء الغرفة. وكأنه لا يعي ما يحدث حوله، كان يُكلّمني عن الآغا إبرهيم، وكأنّه في استطاعته ردعهم. أما حين صمت، فقد قلت: القائد إبراهيم يَجِـدّ في البحث عن جيشه الفارّ إلى الجبال. وفي داخلي جزمت أنه لن يعود معه أحد، لن يثقوا به مرة ثانية. تراجعت قليلًا، وتركت بيني وبين الأعضاء مسافة أقلّ. وقف إلى جانبي المفتي الحَنَفي، عوّل عليه الباشا بعد الهزيمة كي يجمع الجنود. لكنني خمّنت أنه لو كان القائد يحيى حيا لَمَا استطاع عمل شيء في يوم مثل هذا. كان الأوان قد فات على إعادة تنظيم الجيش. أَطرَق الباشا بصره إلى الأرض، ثم سمعت بعض كلماته: تأكّدوا أننا لن نسلّم المدينة لهم حتى آخر قطرة من دمنا. قد جَهّزنا حِصن الإمبراطور بِذخيرةٍ تكفي المدافع كي تردَعَهم. وحين أنهى الباشا جملته، رأيت استياء من كان حوله. كانوا أكثر ميلا إلى تسليم المدينة، لكن الخوف أسكتهم. حَملق الباشا مليّا في الخزناجي، ثم خاطبه: لم يبق الآن إلا حصن الإمبراطور. إن هم أخذوه، فليس في قدرتنا إيقاف زحفهم.

كان الباشا يُصرُّ على الظهور قويا أمامنا. بينما رآه الآخرون يهوي بالمحروسة. تمنّيت لو انفردت به، وقلت له كل شيء. لم تعد المقاومة تجدي نفعًا، من أعلى الرّبوة هَالني جيشُهم، وحتى مدافعهم، كانت أكثر من أن تُحصى. لا يمكننا الصمود إلا أياما قليلة، يموت فيها آخرون. أمرنا الباشا

بمغادرة الدِّيوان. خطر لي أنه أراد الانفراد بي، وبقيت هناك في مقابلته، ولكنه أشار إليّ أن ألتحق بهم. وخلّفناه على كرسيّه تَسُوح عيناه بالغرفة. حتى في اليوم الثاني بدا لي غائبا عنا، كان يتصنّع النّشاط، والحرص على المقاومة. ذلك اليوم أيضا كان مُختلفًا، ازدادت القذائف كثافةً من البحر. وعلا صياح الناس، ثم انتبهنا إلى أنّ القذائف تأتي من الجنوب. وحينها تيقّنا أنهم وصلوا إلى الحصن الذي يفصل المدينة بأمتار عن السُهول. صَعِدنا مُسرعين إلى شُرفات القصر، فذُهل الجميع من الجنود المحاصرين للحِصن، وهم يرمونه بالقذائف من الرّبوة التي تليه. يردُّ عليها من كان في الحصن بقذائف قليلة، وظلوا هكذا طوال الليل. وفي شُروق اليوم التّالي رأينا جُزءا من الحصن مُتهدّما. انتبهت إلى الباشا يُوعِز للخزناجي بأن يَجِد من ينسف الحصن. ظنّ أن تفجير الحصن قد يأتي بفائدة، لكنّه سرّع من احتلال المدينة. اجتمع الأعيان بساحة القصر، ثم أُذن لهم بالدّخول، وشرعوا يرجون الباشا إيقاف الخراب الذي سيحلّ بالمدينة إن استمرّ القصف. ولكنه لم يلتفت إليهم في لحظة غَضَب. في اليوم التالي كان أكثر لِينًا، وهو يسمعُ دويّ انفجار الحصن، حين تَنَاثرت فوق سماء المدينة أحجاره، ولم تُصب أحدًا من الفرنسيين بأذى. انزاح الغُبار عن مدافعهم التي احتلّت مكانًا فيما تبقّى من الحصن. اجتمع الناس في المسجد، وقف الباشا بينهم، رفع رأسه وبدا أكثر ثباتًا ونادى باسمي وباسم الخزناجي، ولم أسمع الاسم التّالي، لكنني أبصرتُه حين انشقّ جَمع الأعيان عنه، واقترب ميمون منّي ومن الخزناجي، ثم كنا جميعا أمام الباشا. هممت أن أقول:

- لماذا تختار هذا الرجل ليكون معنا، وهو المتسبب فيما يحدث الآن؟

ثم يتعالى صوتي فيَسمعُني الجميع:

- هذا الرجل وأشباهه، هو من أعان اليهود وأعطى الفرنسيين سببا لاحتلال المدينة.

لكنّ الصّوت خانَني، وبَدَل أن يغادر شفتيّ توغّل في عُمقي، وقفت أمام الباشا، على يميني الخزناجي وعلى يساري ميمون، وسمعنا كلماته وهو يُفضي بشروط استسلامنا. ربما لو كان السّلّاوي حاضرًا لقال: شروط الاستسلام يحفظها العثمانيون منذ اغتصبوا المدينة قبل ثلاثةِ قرون. بالتأكيد لم أكن لأوافِقَه، يظلُّ الباشا حسين رجلا مُختلفا، رغم أخطائه التي ارتكبها، ولكنه كان يُقاسمنا حُبّ هذه المدينة.

كان حفظ أنفسنا وأموالنا ومساجدنا، أحد شروط الـمُعاهدة، بينما تُسلّم القصبة، ويختار الباشا مكانا يرحل إليه بأهله وأموالِه، ويظلُّ بقايا الجنود اليولداش في المدينة مثلما كانوا دائمًا. سِرنا في ركبٍ إلى معسكر القائد بُورمون، يتقدّمنا حامل الراية البيضاء، وشققنا الدروب حتى تراءت لنا خيمتُه. قَطَع ميمون مسافة لا يستهان بها إلى جانبي، يُسِرُّ بكلمات عن حُكم الـمـغاربة لبلادهم، ويستطرِد في ذم الأتراك. وحين رأى انشغالي عنه، تقدّمني ورافق الخزناجي بقيّة الطّريق. وطوال انحدارنا كنت أراهما يَتناجيَان. ونحن نعبُر باب الخيمة لم يتوقّفا عن الهمس، ثم صمتا وهُما في حضرة الجنرال بورمون وضُباطه. وشابٌ آخر كان يُحدّق نحونا من نهاية الخيمة. لم تشِ ملامح القائد بقسوة ظاهرة، كان أميل إلى الهُدوء، حركاته رتيبة، ووقف الضابط إلى جانبه أكثر عصبيّة. قرأ الخزناجي على مسامعهم شروط الاستسلام، وترجمها ميمون إلى الفرنسية، ولم أدر أكان الخطأ الذي ارتكبه مقصودًا أم لا، إذ حرّف بند بقاء الأتراك في المحروسة، مضيفا إليه النفي، ولم يكن جاهلًا باللغة الفرنسية.

انتظرت حتى انتهى من آخرها، وصحّحت البند الذي حرّفه، لكنني لم أستطع أن أُصحِّح الكَدَر الذي علا وجهه. ولا الاستغراب الذي استبدّ بالقائد العام. طوى الوثيقة بين يديه، وسلّمها إلى الكاتب الذّي بسطها أمامه. بدا أن القائد كان راضيا عما جاء فيها، ثم أَومَأ إلى الضابط الذي حدّق بنا بِريبَة منذ دخولنا. سِرنا معه إلى خيمة أخرى ننتظر قراره. كنت مُتيّقنا أنه سيوافق على ما جاء فيها، وفعلا لم تمضِ إلا دقائق حتى نُودي علينا، وطلب القائد بأن يجتمِع بالباشا في اليوم الثاني ليُوقِّعا الـمُعاهدة رسميًا. حملنا أنفسنا ورحلنا، ولكنني حينما انتبهت إلى الرّكب الذي كنت فيه لم أجد الخزناجي إلى جانبي، وأيضا ميمون لم يكن هناك، وتوّقفنا ننتظرهما، ساعة غاباها ثم ظهرا وقد علا العُبوس وجهيهما، وظلّا طوال الطريق صامتين، حتى كنا في القصبة. في اليوم التالي لم أرافق الباشا، بل انتظرت عودته عند باب قصره مع بقيّة أعضاء الديوان، ورأيته يقترب حزينًا منكسرا لم تفارق نظرة التسليم وجهه، أدرك أن كلّ شيء قد انتهى بعد استسلام المحروسة، ومضى إلى بيته، ولم أره بعدها، إلا حينما كنت أودّعُه عند الميناء منفيا إلى نابولي.

كانت حركة العربة رتيبةً، انزويت داخلها أعيد الأحداث كأنّي أراها أمامي، إلى أن أبصرت الأبنية من النافذة، كانت العربة قد توقّفت، ثم فتح الحوذي الباب، وقال بصوتٍ مَبحوحٍ: قد وصلنا إلى فالانس. حين نزلت قابلني فُندق صغير، حملت حقيبتي وتعبّت الباب، ثم شغلت إحدى غرفه، وسار الحُوذي بعربته بعد اتفاقنا على اللقاء في صباح اليوم التالي.

في تلك الليلة عجزت عن النوم، وفي الصباح جلست في بهو الفُندق حتى تناهت إليّ ضربات سنابك الحِصانين، ثم رأيت الحُوذي يقف نشِطا أمامي، وكنا نشقُّ الطريق إلى ليون، وعادتني الخَواطر من جديد، بدت لي المحروسة

مرة أخرى، ذرعت شوارعها في منتصف النهار، وقف ما تبقّى من رجال عند أبواب البيوت، أما النّسوة فقد أطللن من الشُرفات والنوافذ. تعالتْ أصوات الأبواق، كنت حينها في شارع البحر، حين رأيتهم يقتربون. التفتُّ إلى اليمين فرأيت صفوفا لا نهاية لها، يتقدّمها حاملو الدُّفوف، يضربونها فترتجُّ الأرض تحت أقدامنا، ويمتدُّ غناؤهم، فكّرت بالبقاء هناك، وحثّني خاطر على الإسراع نحو القصبة، كنت أريد لقاء الباشا، ولكن الشّوارع كانت مُعبّأة بالجنود. تركوا نظامهم الذي عبَروا به الأبواب، واقتحموا البُيوت الجميلة أوّلَ الأمر، ثم صارت البيوت كُلها مشاعًا لهم. وقفت عند باب القصبة، كان الجنود في كل مكان، كل جُندي سعيدٌ بما لديه، السيوف الجميلة والبنادق الـمُوَشّاة بالجواهر، ولباس نساء الأتراك، وحتى أعمدة الأسرّة النُحاسية كانوا يحملونها، والسّاعات التي كان الباشا يُحبها ويحتفظ بها في ركنٍ قصيٍ من بيته، والأفرشة الشّرقية، وامتدّت أيديهم إلى الأواني الخزَفية، لم يتركوا شيئا. عبرتُ السّقائف وكانت رجلاي تخطوان فوق سجلاّت المدينة، أسماء كثيرة رأيتها مُدوّنة بها، حتى سجلاّت الأوقاف والمساجد، كانت هي الأخرى نَهبا لأرجلهم، وفي نهاية السّقيفة الأخيرة أبصرت جنودا يستريحون، يُشعلون غلايينهم بأوراق السّجلات، وكان آخرون يَتدافعون قُربي، وتتناثر من أيديهم الأشياء التي يحملونها، ويصرخ بعضهُم ببعضٍ يَختصِمون على ما أخذوه، ويدفعُونَني بأكتافهم فأسقط أرضا، ثم أحمل نفسي وأخطو تجاه القصر، اجتمع عند بابه الجنود الفرنسيون، يحرسون الخزينة بعد أن نُهب جناح الباشا، بعد أن رحل عنه بأهله في يوم توقيع المعاهدة. وانحدرت مرة أخرى إلى أسفلها، كانت الشّوارع مكتظة بهم، مثل مجانين يتسابقون ويصرخون، تمتدُّ أيديهم إلى كل الأشياء التي يرونها ثمينة، ولم تَسلم مخازن

الصّوف، هدّوا أبوابها، وحملوا الأكياس إلى أماكن مختلفة. كنت أسمع صُراخ الأطفال في أمكنةٍ عديدة، وانعطفت إلى الميناء، فإذا بالسُّفن الفرنسية ترسو على رصيفه، ويُغادرها البحّارة والجنود، يحتلُّون الرّصيف الخالي من الرِيّاس، ثم سار الجنود إلى مبنى البحرية واحتلوه، أشحت بوجهي عن الرّصيف، إلى القصبة، نزعوا من أعلاها الرّاية الحمراء، والسيف «ذو الفقار الذهبي»، ورَفرَف مكانه العلم الأبيض.

أتململ في مكاني داخل العربة. وأنادي الحُوذي أن يتوقّف، وأترجّل عنها، من هناك امتدّ حقل الليمون الأخضر تذكرت شجرة الليمون في قصر الباشا، وقد أصبح القصر مِلكا لبورمون. وللّجنة التي قدمت لإحصاء ذهب الخزينة، استدعوا الخزناجي وأخذوا منه المفاتيح، ثم طلبوا منه الرحيل. لقيتُه عند باب القصر، بينما منعني الجنود من الدُّخول. أردت لقاء القائد بورمون لأطلب منه إيقاف جُنوده، قد تجاوزوا كلّ الشُّروط التي كانت بيننا. ولكنّهم أحكموا قبضتهم عليّ، صحت حتى بَلَغهم صوتي، ووقف الضّابط في وجهي، لكن يدًا امتدّت إليه أعادت إليه هدوءه. ثم رأيت الشّاب مرة أخرى، يتجاوز الحراس، ومن ثم يقف إلى جانبي، وابتعدنا خطواتٍ عن الجميع. ثم سألني عن حاجتي. كان شابًا صغيرا، كلّمني عن الحملة وأهدافها، وقدّم لها تبريراتٍ لم تُقنعني. اعتقد أنه بهذه الطريقة فقط، يمكن للمدينة أن تستوعِب الحضارة الأوروبيّة. سحبتُه ذلك اليوم من يده، وعبرت به سقائف القصبة، كان الجنود يغادرون البيوت الأخيرة التي نهبوها، وبدا لنا بعض جُنود البحرية أكثر حَنَقا، إذ وصلوا متأخرين ولم يَجِدوا ما يُؤخذ هناك. رأى أوّل تصادم بين البحرية والمشاة. كانت عيناه تتبعان تحرُّكات الجنود وما يحملونه في أيديهم، رأيت

الخيبة تعلو وَجهه، وغادر بعدها عائدًا إلى القصر، حيث كانت اللّجنة تَعدُّ ريالات البوجو، كي تُحمل عبر السُّفن إلى مرسيليا.

كان ذلك أوّل تعارفٍ لي مع ديبون لم أره بعدها إلا ونحن نُودِّع الباشا. وقف إلى جانبي السّلّاوي، مُتعبا من جِراحه، ولكن سُخريته لم تُفارقه، أذكر كيف أشار إلى الـمُتحلّقين حول الباشا، يُقبّلون يده، حتى دُوجة كانت هناك، مع لالّة زهرة اليهودية، ولم أفهم ما حملته العجوز للباشا. هؤلاء اليهود غريبون، ترى بعضهم يتشبّثون بالمدينة حتى تعتقد أنهم يحبُّونها أكثر منا نحن أهلها. وآخرون رأيتهم يسيرون أمام صفوف الجُنود ويهتفون بحياة الفرنسيين. وأشحت البصر عن الرّصيف ما إن رأيت السّلّاوي يقترب، لم تُصدِّق عيناي أنه مازال حيًا، اقتربت منه واحتضنته فصرخ مُتألما: عليك أن توفِّر عناقك للباشا. لم أُعلق على كلماته، وأنا أراقب الجمع الذي التفّ حوله، رأيت بعض الفُضوليين الفرنسيين، ثم التقطت عيناي ديبون، انتحى مكانا عند نهاية الرّصيف، يُراقب الناس الـمُحيطين بالباشا. كنت أتفهّم أسئلته، كيف يحب الناس ملك القراصنة بتلك الصورة ويشيعونه أثناء رحيله؟! ولم ألبث أن التقيته بعدها، وترافقنا إلى بورمون، ومن ثم إلى كُلوزيل، وروفيغو، وحملنا الخيبة نفسها، ونحن في باريس عندما وقفنا نُودِّعُ الباشا، في آخر زيارة له لتلك المدينة. كان ذاهبًا إلى نيس، حيث اختارَها مأوى شتويًا له.

احتلّ الباشا شقّة في حي متواضع في باريس، كان يُخفيها عن المجتمع الفرنسي. لكنّ الصّحافة لم تترك للنّاس شيئا إلا وأخبرتهم به: الباشا المخلوع عاد إلى باريس يستجدي ملكه، عاد يبحث عن مجد القرصنة. قد لبّى عزيمة الوزير وطلب اللّحم بالأرز. أتفه الأشياء نشرتها الجرائد

أيامًا، ونساء باريس الـمُستهترات، عَزمنه إلى حفلاتهنّ، كلُّ واحدة منهنّ تطمح أن تبدو في عينيه سُلطانة شرقية، كانت الدّعوات تصلُه ويمزِّقها، أما التُجار فكانوا يطلبون المواعيد معه، الكلُّ يُساوِم على اسم الباشا في إعلاناته. يبحثون عن الثروة في خيبة رجلٍ ستّيني، بهذا أسرّ لي يوم كنا في المسرح، وكان ديبون على يميني، يملي عليّ الأسئلة، وأترجمُها له، ويُدوِّن الأجوبة التي أُسرُّ له بها. تاق صديقي الشّاب لكتابة كل شيء، ولم يكن وقت الباشا ليسمح لنا، كان يتردّد على أمكنةٍ عديدة: المسارح ودار الأوبرا... أراد معرفة باريس، بعد أن سمِع عنها كثيرا. لذا اغتنم أيامه الأولى في استكشافها، أما بقيّة الأيام فقد كان القادة يزورُونه من حين إلى آخر. رأيت قُبطان لابروفانس يعبر الرواق ويلتقيه. ومن الأشياء التي لم أفهمها يومها، كيف يتردّد على بيت الباشا أحد اليهوديَّيْن الـمُتسبّبين في احتلال المحروسة. اختليت بخادمه وسألته، وزاد استغرابي حين أُخبرت أن الباشا وأهله يقطنون بيتا يملكه أحد اليهوديَّيْن في ليفورنة بعد رحيلهم عن نابولي. كنت أحترق من الدّاخل، ولكنني لم أفاتح الباشا، لن تُعيد الملامة المحروسة إلينا، ولم أشأ إفساد بهجته باكتشافاته اليومية. وسعيت فقط لزيادة لقاءات ديبون به، فربما وراء إلحاحه أشياء أهمّ من حوارٍ عابر يُجريه مع باشا مهزوم.

ودّعنا الباشا في صباح يوم آخر، ولوّحت له من بعيد، شاعرًا أنها آخر مرة أراه فيها، أردت معانقته طويلا، ولكن العربة كانت قد غابت حينها، وتكاثف الناس في شوارع باريس، مثلما أراهم الآن في شوارع لِيون، يعبرونها بالحركة نفسها.

حمة الشناوي

يمتدُّ البحر أزرق يميل إلى السّواد، تُقبّل موجاته الـمُعتمة شفاه الصُخور، ثم تعود ببطء، ترتفع خلفي الربوة تمتطيها القلعة القديمة طُوري شِيكًا، وتنتشر الظُلمة مُعلنة عن انتهاء النّهار. تحرّكت دون وجهة، ضيّعت بداية الطّريق، ومثل أعمى قطعت مسافة لا بأس بها، آملا ألاّ أكون في اتّجاه غير الذي أريده. تعثّرت في أمكنة مختلفة، مسافة غير قصيرة سِرتُها ثم توقّفت وافترشت الأرض. كان العرق يتفصّد من جسدي، وتَتَلاحق أنفاسي. مِن مكاني الـمُبهم في الخَلاء، جَالت عَيناي الجِهات كُلها، السّواد يلفُّ الفضاء، والحواس كلها مُتوفّزة، تَناهت إلى مسمعي أصوات جنود يصرخون، واشتممت رائحة البارود ممزوجة بِعرَق الرّجال، ثم ترامت لي خيالاتُهم أقصى الطّريق، يركُضون بجيادهم إلى أن يبلغوا المكان الذي احتَللتُه، ثم يَقفزُون فَوقي، وآخرون يُداهمُونني، ولكن لا أثَر لهم، دام ذلك لحظاتٍ، ثم غاب كل شيء. هممت بالقيام لأواصل الطريق، ولم أستطع، فحدت عنه، وبدا لي أنني انتحيت مكانًا تحت شجرة، استندت إلى جذعها، وأطلقت العنان لأحلامي.

كان البغل يسير بي ببطء، على يميني الشيخ يُحاذر أن أسقُط من على ظهره، ويسحب الرسن بي أصغر أبنائه، أسوار المحروسة تبدّت لنا مُتعبة،

كلما اقتربنا منها يزداد خفقان قلبي، وتَسحُّ عيناي دموعًا، أمسحُها بكُمّي الخشن، ويمتزج بها الـمُخاط، تَسنُد يَد الشيخ ظهري، ثم يطلب مني الاعتدال في جلستي، فذلك أضمَن لِراحتي. وهل بقيت راحة لنا يا سيّدي؟ كل يوم أكتشف أننا نحن أهل المحروسة أكثر الناس خوفا وخِشيةً من الحُكّام. إنّنا نُحب المحافظة على ما كسبناه على الدّوام، نُضطر إلى المداهنة، وإلى خداع أنفسنا بأنها السيّاسة. ولم تكن إلا ذُلا، يظلُّ اليولداش أشجع منا، فلم يكن الباشا بالنسبة لهم إلا رجلًا جالسا على صندوق الأموال، يُزيحونَه ليسحبوها من تحته، ولا يجرؤ أن يرفض. أهل المحروسة مهزومون على الدّوام ومُتخاذلون، يجعلون الدّين حُجّة يتصبّرون بها، ويُطأطئون رؤوسهم إيمانًا، ثم يهمسون: إنه مكتوبٌ من الله، سندعو يوم الجُمعة ليرفع الله عنّا الغَبن، ويهزِم أعداءنا. أردت الصراخ عند أبواب المساجد: أيها الـمُصلّون، أين كُنتم يوم كُنا في سيدي فرج وسطاوالي. الناس يحتَمُون من ضُعفهم، ومن خِذلانهم، ومن بوار تِجارتهم، ومن ظُلم الأتراك، ومن خِيانة زَوجاتهم، ومن عُقوق أولادِهم، ومن كل الأشياء التي تُنهكهم يحتمون بالله، ولا يريدون تغييرها بأنفسهم، يعتقدُون أن الله منعهم المطر، وأصابهم بالوباء والقحط. لأنهم لا يصلُّون كفايةً، ولا يزكّون من أموالهم، ويشرب بعضهم الخمر خِفيةً. وربما يُسرف التُجّار منهم، ولكنهم لم يُفكِّروا يوما في الثورة على جور الأتراك، ولم يُحبّوا بعضهم كفايةً فيجتمعوا. الأعراب والقبائل أفضل منهم. كانوا أميل إلى الثورة، نعم لطالما آمنت أن المدينة تجعل الإنسان أكثر ذُلا وأميل إلى العُبودية!

كُنّا حينها نشقُّ الطريق الوَاصِل بين المقابر، ويد الشّيخ تزداد ضغطا على ظهري. أومأت له أنه لا داعي لها، كنت متمسّكا بِشدّة بالبغل، حتى بلغنا

بوابة المدينة. كان الجُنود الفرنسيون يجتمعون عند بابها، يتضاحكون وهم يُبصروننا مُقبلين نحوهم، وأوقفُونا حين هممنا بعبور البوابة. فتّشوا الشيخ والشّاب، ثم طلبوا منّي النُّزول، فتّشوني أنا الآخر، تجاوزت والشاب البوابة، بينما اعتذر الشيخ عن الدُّخول، وغابت عني أسباب تراجعه، ولكن الشّاب قال إنّ والده لم يدخلها منذ سنواتٍ بعيدة، بعدما قتل الأتراك بِكره، اتّهموه أنه قَطَع الطَّريق وقَتَل خمسةً من جُنودهم، لم يُحاكموه، ولم يقِف أمام القاضي الحنفي ولا المالكي، بل أحاطوا بالخَيمة وسَحبوه من بين إخوته، وقَطعُوا رأسه أمام الناس، وعَلّقوه على باب المدينة الشَّرقي أيامًا في مُقابلة السُّوق، كي يراه الأعراب الذين يرتادونه كل أسبوع. شدّت يد الشاب الرسن بقوة، وحَملَق بي كأنّه يسألني عن الوُجهة، وكنتُ أتأمّل أبواب المدينة وشوارعها. القليل من الناس فقط كانوا يَعبرون الطُّرقات الحجرية. سار بي البغل في الشوارع الكبيرة. أومأت للشّاب لينعطف عبر شارع البَحر. الجُنود يتوزّعون في كل مكان، يقف بعض الرجال عند أبواب البيوت، ينظرون خِلسة إلى الجنود، وهم يُردّدون النكات البذيئة. همزتُ البغل كي يُسرع أكثر، أردت مطالعة الثكنات التي يحتلها اليولداش، وأرى وجوههم، ولكنّني لم أعثر عليهم، وراقبت الثكنة حتى رأيت الباب يُفتح، ويطلُّ منه أحدهم، حدست أن الطَّعام ربما نَفِد، أو أنهم ليس لديهم ما يَحشون به غلايينهم. رفعت رأسي أُبصر البيوت، بعضُها سقطَت جُدرانه، وآخر كانت أبوابه مخلُوعة، طلبت منه أن ينعطف إلى شارع القصبة الكبير، ثم كنا هناك، طالعت مدخلها، واقتربت من العارضين الكِلسيّين، بحثت عن سلسلة الأَمان، ثم تساءلت هل سنُمنح الأمان هذه المرّة لو تشبثنا بها، أم أن سُلطان الفرنسيين لا يُعطي الأمان بالسّلاسل؟ تجاوزت القوس مُدركًا

أن هؤلاء الفرنسيون لا عُهود لهم، هم أكثر جَشَعا من الأتراك. حين توغّلنا أكثر بدا الجنود أكثر عددا، على أرض الشوارع أجسام محطّمة، أوانٍ خزفية، وقطع من النُّحاس والقماش والخشب. أشحت بوجهي عنها، وخفق قلبي بشدة حينما رأيت العلَم الأبيض أعلى القصر. جُزنا سقائف أخرى، كانت الأبواب مخلوعة، كُلّما انعطفنا يزيد حزني، حتىّ لم أستطع احتماله. طلبت من الشاب التوقف وإعانتي على النزول، جلستُ عند عتبة بابٍ مخلوع، رغبت لو أعيده، كان قلبي أيضا قد خُلِع، وأنا أواجه بقاياه المحفورة في الجدار. ولم أستطع منع نفسي، بكيت أمامه، وفاضت دموعي. إلى جانبي جَلس الشّاب، شرع هو الآخر يبكي، اختلطت الصُوّر والأسماء والشوارع والحكايات. عجز عن الكلام، وهو يسندني لأمتطي البغل. لم أتكلّم ولم أهمس، كنت أومئ فقط، وأشير له حتى بلغنا بيت لالة زهرة، توقّفنا هناك حتى فُتح الباب عن العجوز الـمُرهَقة، صَرخت حين رأتني. نزلت وعانقته، رأيت أيضا دُوجة هناك. سرت إلى جانبهما، وودّعت الشّاب، ثم لوّح لي وهو يختفي عند أوّل منعطف. وعدت مثلما لم أعد إلى المحروسة. انفصلت عنهما في الرواق، واخترُت الغرفة القريبة مني، دخلتها وأغلقت الباب على نفسي، واستلقيت على الفراش. وأغمضت عينيّ، ولم يكن هناك إلا مزيدٌ من الظّلام.

فتحت عينيّ مرة أخرى، وهالني منظر القُبور من حولي، لم تكن هناك شجرةٌ، ولا طريق. وقفت وعدّلت ثيابي بعد أن نفضتُها، وأبصرت باحثا عن الطريق، وما إن لمحت علاماتها حتى خَطوت إليها، وسلكتها تجاه المحروسة. يخفِق قلبي كلما تذكّرت الذين خلّفتهم بها، يحتد عتابي لنفسي، لماذا

تُصرّ على الابتعاد عن الذين يحُبّونك. ابن ميّار، ودُوجة، وفقراء المحروسة؟ قد حوّلتك السنوات الثلاث إلى شخصٍ مُختلفٍ. ينطلق الصوت سريعًا، ثم يختفي في الغور، وأظلُّ أردد بعض كلماته، إما أن تظلّ مُتفهّما أو ترحل. ولكن لماذا هذا الفصل بينهما، ولماذا لا أكون مُتفهّما حتى في رحيلي؟ وكيف يحدث ذلك يا صديقي ابن ميّار؟! ما أزالني مُخلفا بوعدي، وقد أقسمت أنني لن أرحل عن هذه المدينة حتى أنتهي منه، إنّ رجُلا مثل المِزوَار لا يستحقُّ الحياة في المحروسة بعد رحيلي، قد أمهلته أكثر مما يجب، سأصبح متفهّما حينما أنتهي من المزوار. وأتأكد من صحة الأخبار التي تصلنا، تقول إن الكلمة قد اجتمعت على الأمير الشّاب، وبايعه الناس على قيادتهم، والآن يحارب الفرنسيين حتى أضحت مُدن كثيرة تحت لِوائه. ويقولون أيضا إنه أكثر الناس كراهيةً لبني عُثمان. تولدت الرغبة في الالتحاق به، وقلتُ في نفسي: هذا هو الرجل الذي ظَلَلت تصبو أن يظهر في المحروسة، ولكن لماذا لم يظهر حين كان بنو عُثمان يحكمون المدينة؟! يزحف بجيشه عليها، ويُعيدها إلى أهلها بعد غياب قرون؟

لم يكن ابن ميار على وفاقٍ مع الأعراب الذين يثورون، ولم يحترمهم يوما، يعتقد أن هذا الأمير اغتصب المـُلك من الناس. أو ربما ما هو إلا قاطع طريق آخر تحوّل بالصدفة إلى أمير.

ما أزال أسلك الدرب المؤدّي إلى المدينة، مُحتدّا من الأتراك، وأكثر تشوّقا إلى الالتحاق بالأمير، سأقف أمامه، وأهتف بحياته، وأعاتِبه طويلا. لن يغضب لحظتها، بل سيبتسم، وربما يدنو مني ويقول: أنت الذي أبطأت الوصول يا حمّة، كنا ننتظرك منذ أيام، بل منذ احتلال المحروسة.

لم تجرؤ دُوجة أن تقترب مني يوم عودتي مُنهكا إلى بيت لالة زهرة، العجوز وحدها تسلّلت وفتحت الباب في غفوتي. أما حين استفقت فقد وجدتها عند رأسي، كانت نظراتها مُعاتبة، لم أستطع أن أعتدل وأُكلِّمها. الرّغبة الوحيدة التي أحسستها، هي البكاء. ظللت ساعة أو أكثر على تلك الحال. ثم غادرَت لتعود بالزّاد، لم آكل إلا في صباح اليوم الثاني. كانت يدٌ تتحسّس وجهي، وصوتٌ يوشوش لي: حمّة، يا حمّة. أفقت فرأيت دُوجة، امتدّت يدي إلى خدِّها فتَحسّستـه، ومن ثمّ مرّت أصابعـي على شَعرها، وظلّت تحدّق بي، وأنا أعود إلى إغفاءتي الطويلة، ولم أستفق منها إلا في مساء ذلك اليوم. أطللت على باحة البيت، ورأيتها هناك، جَلَسَت تسرّح شعرها، فاجأني أنه أضحى بذلك الطُّول، ثم انتبهت إلى نظرات العِتاب التي حملتها عينا لالّة زُهرة، كأنما تَلومني على استراق النّظر لدُوجة. غضضتُ بصري عنها، وجلست إلى جانبها، لكنها كانت تنقل بصرها بيني وبين دوجة ثم خاطبتني:

- إنها تنتظرُك على الدّوام يا حمّة، ألم يحن الوقت بعد؟

- أَعجب أنك تتكلّمين عن هذه الأشياء، ولم نعد الآن نملك أنفسنا!

- تلك الأشياء أكبر منكم. عليكم أن تعيشوا حياتكم مثلما تَشاءون، تُحبّون وتتزوّجون، وتَملأون المحروسة بالأطفال.

- لا أُريد إعادة سيرة المغاربة مع الأتراك.

- عن أي سيرة تتكلم؟!

- بالأمس كان المغاربة مثل عبيدٍ عند الأتراك، ولم ينجبوا إلا عبيدًا آخرين، والآن سيُولد أطفال عبيدٌ للأوروبيّين.

- فعلًا مثلما يقول ابن ميّار، أنت تُحب رؤية الأشياء مثلما تُريد، لا مِثلما يراها الناس.

ربما كانت لالّة زهرة على حق، ولم أَرغب في مجادلتها، ولكني سألتها:

- ما الذي حدث للمِزوار؟

- لم نره منذ ظهور السّفن التي قَصَفَت المدينة، أتمنّى ألا نراه مُجدّدا؟

قلت في نفسي: لا، لا يُمكن هذا يا عمّة، مثل أولئك الرِّجال لا يَنبغي أن يَرحلوا بسهولة. ثم دعوت في قلبي كي يعود إلى المحروسة حتى أَغرز خِنجري في صدره، وكانت العجوز إلى جانبي تَرى تَمتمتي، ولا تفقه شيئا منها، ثم تكلّمت:

- هل تدري أن الباشا سيرحل غدا هو وأهله؟

- فليذهب إلى الجحيم.

- ولِـمَ، كان رجلا طيبا؟

- وكيف يا عمّة، ألم تريه كيف يُعامِل اليهود؟

- بعضُهم كان يستحقُ أكثر من ذلك.

- والباشا أيضا يستحقُ أكثر من ذلك.

- لو عشت زمن الباشوات الذين سَبقوه لكان لك رأيٌ مختلفٌ في حُسين باشا.

- كأنك تُعيدين كلام ابن ميّار. لِعَجائز المحروسة ذوقٌ واحد في تقديس الحُكّام، سأقِف عند الميناء ولن أُشيِّعه.

- أما أنا فسأوّدعه، وأُصلّي ليرجع إلى المحروسة حاكمًا عليها.

في الميناء رأيتُ الفُقراء يجتمعون حوله، يُقبِّلون يده الواحد تلو الآخر. وظلّت حاشيتُه تُراقب المشهد من مسافة غير بعيدة. وقفت في مكانٍ أرى منه بعض تعابير وجهه. تَرتفع يده إلى مكان الحِزام تتحسّسُه، ثم تعلو إلى العِمامة الكبيرة تعدل مكانها، كأنه يخشى على مظهره بينهم. لا يتغيّر الحكام أبدا، يُريدون أن يَراهم الناس دائما مُتعالين. أما حاشيته فكانت تلك المرّة الوحيدة التي رأيتُهم فيها. النّساء يَتلَفّعن بثيابهنّ الحريرية، الرجال في جهة والنِّساء في الجهة الأخرى، من هناك انتبهت إلى إبراهيم آغا يقف على مسافة بينهم، يَتلمّس في كل لحظة خِنجره، مثل موعودٍ بالقتل غِيلةً. لم يبد على وجهه أنه نادم على فراره من المعركة، نقّلتُ بصري بين الجميع حتى وَقَعت على لالّة زهرة، اقترَبت من حريم الباشا تُقبِّل أيديهنّ، ثم التحَقَت بها دُوجة في تردّد، ولا أدري ما الذي قدم بها برُفقة العجوز. ثم كانتا تعودان إلى مكانيهمـا بين النُسوة المجتمعـات على الرصيف. جـال بصري بالمكان الـمُحيط بي، وإذا بي أراه، وقف الشيخ غير مُنتبه لي، ثم وقع بصره عليّ وهتف مُقتربا. امتدّت يداه تحضُنانني بقـوة حتى صرخت من ألمي. تفحّصني، وكان غير مُصدق أنني ما زلت حيـا. ثم التفت ينظر إلى الباشا والجمع من حوله، وَدّ لو أنزل معه، فأُقَبِّل أنا أيضا يده وأودِّعه. لكنني سخرت منه حتى شعرت بتضايقه. ونزل إلى الرصيف، رأيته ينحني ويُقبِّل يد الباشا، ومن ثم ويُعانقه عناقًا طويلًا، ربما كان ابن ميّار آخر مُودِّع للباشا. إذ لم يمض إلا وقتٌ قصير حتى حملته الفرقاطة، ولوّحتْ له بعض العجائز. وَقفَت لالّة زهرة بينهن، وابن ميّار يتقدمهنّ، ولم تتراء لي دُوجة من هناك، ثم لمحتُها تتسلل من بينهن، تُمسك يد العجوز وتسحبُها إلى الدرج بعد تفرُّق الناس عائدين إلى بُيوتهم، اختلطوا مع الجنود الذين حاصروا المكان،

أبصرت ابن ميّار يحدِّث شابًا أوروبيا، هممت بالاقتراب منهما، وعدلت عن الأمر منعطفا إلى دوجة ولالّة زهرة اللّتين وقفتا تنتظرانني. عبرنا الشّوارع حتى بلغنا حي المبغى، عَسكَر به الجنود، لم أر الـمِزوَار بينهم، غاب حتى شَكَكت أنه لن يعود، ثمّ ظهر بعد أيام قليلة، ولكن عودته حَملتْ معها الكثير من الأحقاد. فدائما للقوّادين أقنعةٌ يُجدِّدونها بما يُوافق الأزمنة التي يعيشونها. زمن الأتراك كان له قناع الدِّين والفضيلة، أما زمن الفرنسيين فله قناعٌ المصلحة والنظام.

بعد رحيل بورمون ظهر المزوار، وكأنّه ضرب موعدًا مع كُلوزيل. فما إن استقرّ الحاكم في مكتبه، حتى أطلّ علينا الـمِزوَار بثياب تُماثل ما ارتداه الجنود الفرنسيون. فُوجِئت مثلما تفاجأ ابن ميّار وهو الذي كان آسِفًا على رحيل بُورمون. إذ توطّدت بينهما العلاقة، وكادت تنقطع بينه وبين أعيان المحروسة. كانوا يُقدِّرونه ما استطاع قضاء مصالحهم، وإن هو عَجِز سيتَحوّل في عُيونهم إلى خائنٍ. كنت أُردِّد على مسامعه: لن ينفعكم القائد في شيء، فهؤلاء الفرنسيون لم يأتوا إلا من أجل أموالنا وضِياعِنا. يهزُّ ابن ميّار رأسه يُوافِقُني، ثم يُودِّعُني في عجلة ويسير في رِكابِه. وحين أواجهه مرة أخرى كان يرد:

- أنت لا تعي أننا أضحينا الآن تحت رحمتهم، والمغلوب عليه مسايرة الغالب حتى يُحصِّل منه على ما يستطيع.

- صدِّقني إنكم لن تحصلوا على شيء!!

- قد أَسّس بُورمون مجلِسًا ليحكُم المدينة، أتعتقد أنه أَولى لنا أن نتركهم يُسيِّرونهُ بأنفسهم، أم نحن من نقوم بذلك، أَلسنا أعلَم بِشؤون أهلِنا.

- ولكنّكُم لا تفعلون شيئا في المجلس إلا بعد موافقة ميمون، وهو لا يختلف عن أيّ فرنسي آخر.

يتوهّم ابن ميار أنه باختياره تلك الجِهة سيُعيد المساجد للمحروسة. ولكنه لم يُحصِّل شيئا، ولم تلبث أن التَحَقَت بها أملاك الأوقاف بعد حلول كُلوزيل، سلّمَها إلى ميمون، يومها ضجّ ابن ميّار، وعِوَض أن ينجح في فعل شيء، طُرِد من المجلس، وظلّ حَبيس داره. زُرته بعدها بأيام، وأومأت لي لالّة سعدية لأَدَعه وحيدًا، وقفت في هدوء وغادرتُ بيتـه، جبت شوارع المدينة غير واعٍ بها، حتى وقفت عند بداية الدّرب المـُوصل إلى حي المبغى، اعتقدت في الأيام الماضية أن بعض نسائـه قد قُتلن في المعركة، لكنني تفاجأت بوجوه جديدة تذرع باحة الحي، ثم رأيتهنّ يَتجمّعن مثل الجنود، في صُفوفٍ مُنتظمة وبَرَز الـمِـزوَار من إحدى السّقائف، في لباسه الفرنسي، اعتلى مكانًا، ثم بدأ يخطب فيهنّ، تَناهتْ إليّ بعض قوانينه الجَديدة، إذن أصبح هو الآخر جُنديا بينهم. ازدادَتْ رَغبتي في قَتلِه. بالرَّغم من أنه صار أكثر تحصينًا، وبعد أن كان يَتبعه جُنود قَليلون تَضاعَف عَددهم. حتى الأسلحة التي كانوا يَحملونها أفضل من التي حَملتها أكتاف اليُولداش.

أياما لم أرَ فيها ابن ميّار، ولم أجرؤ على زيارة بيته، كانت شوارع المحروسة تُعيد السِّيرة نفسها، الرُؤوس مُنكّسة إلى الأرض، أُراقبها كل صباح في حَنَقٍ، أنطلق من بيت لالّة زهرة، وأتجوّل بالشّوارع دون وجهة، كانت دُوجة قد خَاطَتْ لي عرائس جديدة، أحمِلُها وألتَجِئُ إلى حي المقاهي، وأنزوي في مكان قصي. يتجمّع بعض الناس على عادتهم، ولكنهم لا يَجرؤون على الاستمرار في الـمُشاهدة. يَخشَون الجُنود الذين يزدادون

كل يوم كَثافةً. حتى الأُوروبيّون، كنا نرى كل يوم خيمةً تُنصب في الميناء للقادمين منهم، أَوهَموهُم أنهم سيثْرون في إفريقية، بعضهم يبقى، وآخرون يَفِرُّون من قسوة المناخ. ألتقيهم كل يوم في المقهى، في البدء يتصرّفون بطيبةٍ حتى يَتمكّنوا من حفظ تفاصيل عن المدينة. ثم يتحوّلُون فجأةً إلى رجالٍ جشعين، لا يهمُّهم سوى أراضٍ يملكونها، وعُمال ينفذون أوامرهم. أما الجُنود فقد تمكّن الملل منهم في الأيام الأولى، ولم تمض إلا أسابيع حتى تجمّع الكثير منهم حول مكاتب الضباط، وآخرون عند مبنى البحرية، أرادوا الرجوع إلى أوروبا بعد أن أَخلَف القائد وعده بمضاعفة الأُجور. ثم كانوا يَرَون صناديق الذّهب تُحمَل على السُّفن إلى الملك ولم يُحصِّلُوا منها على شيء. في نهاية الأسبوع انتبهت إلى حركة غريبة وأنا أقطع طريق البحر رُفقة ابن ميّار، التفت إليّ قائلا:

- باتت أيام بُورمون معدودةً.

- وما الجديد إن كانوا سيبقون؟

- ومن قال هذا؟ الملك لم يَبتّ في مسألة البقاء أو الرحيل.

يعتقد أعيان المحروسة أنهم يفقهون السّياسة. ولم يكونوا إلا حَفنةً من المساكين، يُوهمُهم الضبّاط بأشياء كثيرة، ويأخذون منهم أموالهم في مُقابلها. ويَستَمرُّون في أوهامهم، ويَستمرُّ الضبّاط في خِداعهم، مثلما يُصرّون على منح ثقتهم للمترجمين القادمين من المشرق، مصريين وشاميين، جاؤوا في رِكاب الحملة بحثا عن الثّروة والذّهب، وكانوا أكثر تأثيرًا أولئك الجُنود. هكذا خطر لي حين قابَلَنا البحر، ورأيت بعض السُّفن القادمة تقترب من المرسى، لم أميّز هُويّتها، لكن ابن ميّار سَحَبَني حتى كنا إلى جانب الرّصيف،

وتطلّعنا إلى أعلامها، همست أسأله عنها ولم يُجبني، كان يُحدِّق إلى أسفل الرّصيف يتابع رُسوَّها، ثم التفَت إليّ وقال:

- قد حدث ما خمّنته، نَجحت الثورة في باريس وأُزيح الملك، ولن يبقى بورمون إلا سُويعات بعدها.

لم يهمّني كثيرا، سواء أكان العَلَم الفرنسي بألوان ثلاثة، أم كان أبيض، وكذلك لا يختلف في نظري بورمون عن غيره، كُلّهم جاؤوا إلى المحروسة للغرض نفسه. عدتُ إلى حي المقاهي وخلّفت ابن ميّار يُتابع السُّفن الواصلة. ثم وقفت عند باب المقهى، بعض الوجوه الأُوروبية الشّقراء في ثياب بني عُثمان، وعماماتهم، وآخرون أطلقوا لِحاهم، يريدون تقليدهم أيضا في ذلك، يحتلُّون مكانا في المقهى، يَتكِئون على شاكِلتهم، يحتسون القهوةِ ويَمصُّون غَلايينهم بالطّريقة نفسها، يبحثون في كل ذلك عن اللذّة التي يجدها الأتراك أو الـمُور حين يقلِّدون تصرفاتهم بتفاصيلها الدّقيقة. لم أرهم إلا حمقى، فلم تكن تلك التصرُّفات لتُعبِّر عن شيء، كان عليهم استيعاب كيف يُفكِّر التركي أو المغربي وهو يستقبل اللذّة، فاللذّة تختلف بيننا لأنها تتعلَّق بالموانع الكثيرة في حياتنا نحن المسلمين، قد نتلذّذ بأشياء يمارسونها كعادةٍ يومية، كأن يشرب المسلم الخمر خِفيةً عن الناس، أو أن ينام مع امرأة غير زوجته، اللّحظات المـُحرّمة والمسروقة تُعتبَر لذّة عند أهل المحروسة. ولا يمكن أن تعني تلك التصرُّفات شيئا لأوروبي.

في صباح يوم آخر، أفقت على صوتها، كانت لالّة زهرة تحاول إيقاظي، لم أشأ مغادرة فِراشي، ثم تَناهى إليّ صوتُه من باحة الدار، لم يعتد ابن ميّار زيارة هذه الأمكنة، إذ كانت رِجلاه قد أَلِفتا شوارع ودروبًا أخرى. انتفضت مسرعًا، وخرجت للباحة، خشيت حدوث شيء ما، غير أنه لم

يتكلّم كثيرًا، طلب مني مرافقته، سِرنا سَويا مسافة الرِّواق، ثم عبرنا الباب حتى كنا عند طرف الحي، التفتَ إلى أعلى القَصبة، وأشار بيده وقال: أُنظر هناك. التفتُّ وقابلني العلم الثُلاثي الألوان أعلاها. لم أُبد أيّ استغراب منه وقلت:

- وما الفرق يا صديقي؟! كان عَلَمًا أبيض وأُضيف له لَونان.

- الأمر ليس بهذه السهولة التي تراها، مادام الـمَلك الجديد يختلف عن سابقه فربما ستكون الحملة من الأشياء التي يَختلفون عليها.

- لا أعتقد هذا، إنهم لن يختلفوا من أجلنا.

- ولكنني أكثر تَفاؤلا.

انحدرنا ولم أعرف الوُجهة التي كان ابن ميّار يأخذُني إليها، لكنني عرفتها بعد مسافة، وقد أضحى الميناء على مقربة منا. بعض الجنود من المـُشاة، على غير العادة اجتمعوا هناك، لحظاتٍ حتى عبرنا بوابة البحر، تفحصنا الجُنديان، ثم سمحا لنا بالعُبور، اقتربنا أكثر، توقّفت واستمرَّ ابن ميّار في طريقه حتى بلغ مكان الجنود المجتمعين، حَيّاهم ثم صافح بُورمون، وبدا لي من هناك، أشبه بالباشا يوم رحيله عن المحروسة، يُطأطئ رأسه، ويحاول رسم البَسمة على فمه، ويعجز عن ذلك. أما حين همّ بصعود السفينة فقد انتبهت إلى الصندوق الصغير الذي تأبّطه، ثم رأيته يعود أدراجه ويهمس لابن ميّار، لم أسمع بما وَشوَش له، حتى ابن ميّار لم يبُح بشيء.

ثلاث سنواتٍ تمرُّ على احتلال المحروسة، ومازال صديقي ابن ميّار يعتقد أنهم سيرجعون مرة ثانية. يأمل في أن عَرائِضَه ستُعيد المساجد والأوقاف، وضِياعه التي أُخذت منه. أتسلّق الشّارع المفضي إلى بيته،

أتجاوز حارة السّلّاويين، كل يوم يَختفي منها دربٌ جديدٌ، يَتراءى لي قوس القصبة خَاليا من أيّ شيء، أتجاوزه فألمح بيته قديمًا، أدقُّ على بابه فتُطالعني دُوجة من الكُوّة، كأنها كانت تَنتظرني، أرى عينيها تَتوثّبان، تُريدان القفز من الكُوّة حتى تلتصقا بي، تختفي وأسمع صوت ركضها في رواق البيت، ثم يُشرع الباب عليها، وأعجز أن أتقدّم، بينما تقفز تجاهي، ويُصبح صدري إلى صدرها، ووجهانا إلى بعضهما، ويداها خلفي تَشُدّان عليّ وتَضغَطان بقوّة، لم أنتبه إلى يديّ وهما تَسحبانها، ووَلجنا الرِّواق جِسما واحدا، لم نَنفصل إلا حين تناهى إلينا صوت يُنادي عليها من الباحة، سحبت شَفتيّ عن شَفتيها، وتطلّعت إلى وجه لالّة سعدية المتسائلة، ثم اقتربت وتنهّدت، خشيتُ أن أكون جُنديا. عبرنا جميعا إلى باحة البيت، ولم أمكث هناك طويلًا، حين حدّثتني لالّة سعدية عن رحيل زوجها. يومها اتّفق الجميع ممّن احتلّ الباحة ألا جدوى من مُحاولات ابن ميّار، وكلٌ عَبّر بالقدر الذي لا يَجرحه فيه. هكذا خمّنت، وأنا أُودِّع عيني دُوجة الـمُلتصقتين بي، ووجه لالّة سعدية الحزين، وقبل خروجي من البيت سمعتُها تُردّد دعاءً، أن يعود زوجها، ويعود الغائبون كلهم إلى أعزّائهم.

ذوجة

للمحروسة الآن لونٌ مختلفٌ، وطعمٌ مُغايرٌ...

عاد السّلّاوي إليّ وضمّني إلى صدره. تمنيتُ لو امتدت تلك اللّحظة، كان خفقان قلبي يَتَعالى حين امتزج جسدانا، عبرنا قوس الباب مُتلاصقين، ولولا جدار الرِّواق لهَوينا على الأرض. كان السّلّاوي مُختلفا ذلك اليوم، أحسست بقدومه. حينما تَراءى لي من هناك، قطعتُ الباحة ركضًا، خُيِّل لي أنه يفتح لي ذراعيه خلف الباب، وحين شرعته داهمتني رغبةٌ في القفز نحوه، وقفزت إليه دون وعي، تَفاجأ حين احتضنتُه، ولكنه استيقظ سريعًا وطوّقني بساعديه، ثم امتدت شفَتاه إلى شفتي، كأنني أول مرة أُقبِّل رجلا، ولكن اللحظة لم تستمر، إذ سمعنا نداءً، وانفصلنا، ثم كانت لالّة سعدية إلى جانبنا.

لو استطعت إرغامه على البقاء لفعلت، خشيت البقاء وحيدة مثل الأيام السّابقة، تُحاصرني الحكايات القديمة. في البدء كانت القرية، ثم بيت القُنصل أياما قليلة، ثم المحروسة، ليت السّلّاوي أبصر وجه منصور، كان سيُحبّه، وربما يبكي رحيله مثلما بكيت، ليته صحب أبي وهو يُوزّع محبّته على أشجار القُنصل. كان سيعطف عليه، وربما يردُّ اللّطمةَ التي وجّهها له كافيار ذلك اليوم. حينها لم أستطع احتمال وقفة أبي مذلولا أمامه. استيقظ

عند بداية النّهار محمومًا، ولم يَنم طوال اللّيل، ظللت أُغيّر قطعة القماش المبلولة من على جَبهته، ويَهذي حين تَشتدُّ الحمَّى على جسده، لكنه قام من مكانه، استَنَد عليّ وعلى الحائط، ثم سار في انحناءٍ حتى بلغ الباب، توضّأ ثم عاد إلى الدَّاخل، وشرع في الصّلاة. كان أبي يُحبُّ الله والصّلاة والقرآن، رغم أنه لم يحفظ منه الكثير، عدا السُّوَر التي يُصلّي بها. لكنه لم يُرغمني عليها، بل كان دومًا يُحبِّبني في الله وفعل الخير، ولكن كافيار لم يشفق عليه ذلك اليوم، بينما كان يحاول بمِعوَله إعادة مجرى الماء إلى الأشجار بالدّور، وكنت ألهو بينها، أُراقب فَراشاتٍ مُلوّنة تحـوم في البُستان، أُخفض رأسي وأتوغّل داخله، ثم أنحني وأرى أبي عند أطرافـه، يجلس مُنهكا والمعول إلى جانبه، أركض تجاهه وأرفع المعول عنه. أرى عينيه تُومئان لي أن أضعه جانبًا، ثم يَتراءى لنا كافيار، يسير في اتجاهنا، وكلما اقترب تتّضح لي ملامحه. لم أدر ما الذي أغضَبه، حتى حينما وقف إلى جوار أبي، بدا وكأنه مُنفعلٌ، صاح بكلمات لم أعِها، ووقف أبي منحنيا كأنما قد اقترف ذنبًا. ثم سمعته يتمتمُ بكلمات لم أتبيّنها، بدا مثل من يعتذر، لم أكن أنتظر أن يزداد حنق كافيار، بينما بقي أبي مُطأطئا رأسه. ثم امتدت يد كافيار إلى وجهه، لطَمه حتى سَقَط، صرخت وأنا أراه على حالته تلك. كانت تلك المرة الأولى التي يُضرب فيها، أسنَدتُه حين همّ بالوقوف، وسرت إلى جانبه حتى بلغنا الكوخ، كان يرتجف مثل المـقرُور. تَخطّفت الحمّى جسده، كان ينادي على أمي حين انتصف اللّيل، وتمتزج الدُّموع بالعرق، ثم يُنادي على منصور، ويحرِّك يديه كأنه سيخرج من جيبه حلوى الطّحين، يحدق بي ثم ينقلب إلى الجهة الأخرى، وأراقبه حتى يأخذني النوم. أستيقظ مرة أخرى على صوته يُناديهم، يشير إلى أخشاب السّطح ويصيح، ثم يُحرِّك يديه وكأنه

يَتَفادى الضربات. أُسرع تجاهه، وأتشبّث به حتى يغادره هَلَعه، ويعود إلى النوم. ظلّ أبي طوال أسبوعٍ حبيس الكوخ، تزداد حالته سوءا، زارنا بعض الفلاحين فقط، والآخرونَ خشَوا أن يُعاقبهم كافيار.

في نهاية الأسبوع تَعلّقت عينا أبي بالسّقف، مفتوحتين ولا تريان شيئا، امتدّت يداي إليه وحرّكت جسده، كان مُتخشّبا، وتحسّسته مرة أخرى كان باردًا، وظللت أُحرِّكه وأُناديه لكنه لا يرُدُّ، صرخت حتى انتشر صُراخي بين أشجار اللّوز المزهرة، وسَرَت الهَمهمة عند باب البيت. دخل بعض الفلاحين وتحسّسوا جسده غير مصدّقين أن أبي قد مات. لكنّهم لم يحرّكوا ساكنا عدا اثنين منهم، طلبا من البقيّة الرحيل، وغسلا أبي حينما طلع النهار ثم كفّناه، وحملناه إلى الغابة، راقبتهما وهُما يحفران القبر. ثم صلّيا عليه. اعتادت أمي مناجاة الله في غيابه على مسمعٍ منا، تقف في مُقابلة الحقل، وتَبسط كفّيها أمامنا، وتظلّ تذكر اسمه وتطلب من الله أن يعيده سالما، وكنت ومنصور إلى جانبها، نرفع أيدينا، ونُقبّلُها عند انتهاء الدُّعاء. وفَعَل الرجلان ذلك وكنت في إثرهما، دعوت الله كي يُقرِّب أبي منه، ويدخله الجنة، أنزلت يديّ، واقتربت أكثر من الرجلين، وهما يرفعان جسده الملفوف في القماش الأبيض، اهتزّ قلبي حين وضعاه داخل الحُفرة، كان مُقدّرا عليّ مشاهدة كل الذين أُحبهم يُدفنون. انتهى الرجلان من الدفن، ورَشّا القبر ببعض الماء، ثم رحلا، وبقيت ذلك اليوم وحيدة مع أبي حتى أظلمت، عدت بخطى بطيئة، ألتفت عند كل مسافة أقطعها، فأرى أبي يُشيّعني من هناك ويبتسم.

لا أذكر أنني زرت القبر مرة أخرى، بتُّ ليلتي في الكوخ، زارَتني نسوة الفلاحين ليُعزينّني، وطلبت مني كل واحدة منهنّ المكوث عندها،

وأرجأت الموافقة إلى نهار الغد. لو بقيت هناك كنت سأقتل كافيار. امتلأ قلبي بكراهيته، كان لا بدّ لي من ترك المزرعة. في قلب الظُّلمة، جمعت صُرّة الثياب، وشققت الطّريق تجاه المحروسة، ولم يطلع النهار حتى اختفت المزرعة، إذ غيّبتها أول ربوة تجاوزتها.

كانت المحروسة حكاية تُروى لي، وبيوتا كثيرةً بيضاء، وحوانيت تبيع القماش الجميل والمناديل التي تُفضِّلها أمي، وحلوى الطّحين التي يُحبّها منصور، منذ طفولتي رقصت المدينة في مخيلتي بعد أن حدّثني أبي طويلا عنها، قال إن الباشا رجلٌ طيّب يُحبُّ رعاياه، وإن الناس هناك يحبُّون الخير، ويرتادون المساجد على الدّوام، يحثُّ منصور أن يكبر كي يرسله إلى الجامع الكبير ليحصِّل علم سادتِه المالكية، فأهل العلم دومًا مُقدَّمون بين الناس وعند الباشا.

أعدت الحكاية وأنا أقطع المسافة الطويلة بينها وبين المحروسة. حينما تظلم أتكئ على شجرةٍ، وأسحب من صرتي بعض التِّين المجفّف، ألتهمه وأنام فلا أرى إلا البيوت البيضاء، والوجوه المبتسمة.

آخر يوم قبل دخولي المحروسة كان مُختلفا، استيقظت فَزِعةً من حلم مخيف، تراءت ذئاب تُحيطني من كل جهة، حاولت الركض ولكنها أحاطت بي، ثم شرع كل واحد ينهش من جسدي. كان بعض لحمي في أفواهها، ثم تَناهى إليّ دَويّ، ورأيتها تسقط من حولي الواحد تلو الآخر، وظهر من خلف الربوة رجالٌ غرباء. استيقظت مرعوبة يرشح العرق من جسدي، وانتبهت إلى الألم الـمُمتدِّ من قدميّ، كانتا قد تورّمتا من مسافة المشي. استرحت لحظات ثم واصلت السير، حتى رأيت أسوارها البيضاء.

لم أصدّق أنني قد وصلت. كان الفلاحون وبعض الراحلين يضحكون من منظري. حدّثني أبي عن اختلاف لباس أهل المحروسة. بينما انشغلت عنه بأحلام أخرى، ابتدأت تنحدر ما إن عبرت بوابة المدينة. مشيتُ في شوارعها حافيةً، وظللت أجوب السّقائف والدروب الحجرية، غير مُصدّقة نفسي، كأنني في حلم. إذن هذه المحروسة التي تمتلئ حوانيتها بالطيب، والقماش الحريري، وحلوى الطّحين! وعبرت شوارع أخرى حتى كنت في باحة واسعة، بها أناسٌ كثيرون وعلى أطرافها حوانيت، هذا هو سوق المحروسة الذي حدّثني عنه أبي.

كان على السّلّاوي أن يعرف كل تلك التفاصيل، ولكنه يفر سريعًا، كأنما قُدِّر له الركض طوال عمره من الذين يتربّصون به، وحتى من الذين يُحبُّونه. لم يَطُل مقامُه معنا، صَفَق الباب خلفه وغاب، وحين ركضت أُشيّعه من الكُوّة لم يكن موجودًا، لا هو ولا اللَقلَق الذي دَرَج على زِيارة عين الماء. ليت السّلّاوي بقي ساعة أخرى، أروي له حكايتي كلها، سيسمعُها ويبكي مثلما بكى في حُضن لالّة زهرة، ويقرر حينها أيرحل أم يبقى معي.

منذ مغادرتي بيت تاجر النُحاس. عدت أفترش أرض السُّوق، وكان شيخ الحي يرقبُني كل صباح. أحسست أن شيئا ما انتابه، ربما ندم أو أشياء أخرى! وقف عند باب حانوته، ونادى على أحد التُجّار القريبين منه، وما إن اقترب منه همس له وسلّمه مفتاحًا، ثم كان التّاجر يقف إلى جانبي، ويطلب مني السير معه. وانتقلنا إلى حانوت تاجر النُّحاس المغلق، فتح التاجر بابه، وقال: من الآن يمكنك أن تتّخذيه بيتًا. ولم أصدِّق أنه قد أصبح لي الآن بيتٌ آوي إليه. وطفقت أُنظّف الغرفة حتى أضحتْ صالحة

للنوم، وبتُّ اللّيلة الأولى، ولم أستيقظ إلا في منتصف اليوم الثاني. مسحَتْ عيناي جُدران الغُرفة الجيريّة، وما تبقى من أوانٍ نُحاسية لم يسأل أصحابها عنها، غادرت الغرفة، وعبرت الدّرب إلى السُّوق أبحث عما أسكت به جوعي. كان التُجّار أحيانا يُسعفونني بعملٍ، أُنظِّف حوانيتهم، وأرتب السّلع، وأحيانًا يأخذني أحدهم إلى بيته ساعات فقط، إذ لم ترض زوجاتهم بمكوثي هناك، بعدما أُشيع عني الجُنون. أما الشّباب فقد كنت أكتشف كيف تتربّص عيونهم بي خلسةً، أن تكون المرأة جميلة في المحروسة يعني أن جميع الرجال يشتهون مضاجعتها. والقليل فقط من التُّجار سلموا من تلك الرغبات، حتى وإن لم يرتكبوا الحماقات التي تتعلّق بالنِّساء. لكنهم يغضّون أبصارهم حين يرتكبُها أولادهم. وهكذا كنت أتجاوز الدّرب، وأنظِّف مساحةً أمام حانوت شيخ، لم يهتم بالنظافة بقدر ما كان يحبُّ فيه سماع غنائي، يُنادي عليّ بهبُني تُفّاحة، ويطلب مني الغناء، كان الشيخ مُولعًا بأغاني الرِّيف، تلك التي نَهزج بها في الأعراس، ونرقص لها، يَتعالى صوتي في الباحة، فيُغادر التُّجار حوانيتهم، يُراقبونني، ويستمعون في شغفٍ، أتذكّر كلمات أمي: صوتك جميل يا دُوجة، قد ورثته عن جدّتك مُغنّية القرية. في ذلك اليوم كان شيخ الحي أيضا يستمتع بالغُنة السعيدة، ويحزن بالغُنة الحزينة، تتقلّب ملامح وجهه كلما تقلّب اللّحن في حُنجرتي. صمتُّ وأنا أبصر المرأة الواقفة إلى جانب شيخ الحي، بدت كأنها سيّدة تركيةٌ ولم آلفهن يجُبن الأسواق، كانت وصيفاتهنّ من يحملن إليهنّ طلباتهن. أشارت المرأة نحوي، ولمحتُ الشّيخ ينظر يشير تجاهي. سرتُ حتى وقفت إلى جانبه، أتطلّع إلى المرأة الأربعينية قربه، أمرني شيخ الحي بتقبيل يدها، وانحنيت كي أفعل لكنها سَحَبتها، وحدقت في ملامح وجهي، وتتقاطع عيناها مع

عَيني شيخ الحي، ولكن الشّيخ لم ينتظر طويلا، إذ طلب مني الغناء لها، واحترت أيّ الأغاني أُغنّيها، اخترت واحدة سعيدة، الناس يُحبُّون دومًا اغتنام لحظات الفَرح من الحياة، وربما كانت هذه السيّدة تبحث في صوتي عن أشياء افتقدتها في حياتها، كانت تراقبني وتتراقص تفاصيل وجهها، وتتحرك شفتاها تحفظ الأغنية، وحين أنهيتها قالت:

- أترافقينني إلى بيتي؟

وافقت دون تفكير، سلّمت المفتاح إلى شيخ الحي وسرت في أعقاب السيدة دون أغراضي، خَطونا في شوارع المحروسة التي لم أخطُها من قبل، ورأيت كيف كان الناس يُطالعون السيّدة، وبعض الوصيفات حين يَمرُرن بها، يُحيينها باسمها، وكلما عبرنا طريقا سمعنا إحداهنّ تهتف: لالّة مريم لالّة مريم. يسألنها هل من أعراسٍ جديدة. وتواصل طريقها، ونظلُّ نعبر السّقيفة تلو الأخرى حتى يُقابلنا بيتٌ جميل، وأحدّث نفسي أنّ المرأة التي سمعت عنها طويلا، وكان التُجّار يهتفونَ باسمها ويُقارنون صَوتي بصوتها، هي الآن تسير أمامي. وربما سأصير في فرقتها عمّا قريب، أُردِّد خَلفها المَواويل في الأعراس. في اللّحظة التي تجاوزتُ عَتَبة الباب، اشتممت عطورا مُختلفة، ثم حين عبرت باب غرفةٍ فَسيحةٍ رأيت بنات عديدات هناك، خمّنت أنهنّ في فِرقتها. قامت واحدة منهنّ وجعلت تَتَفحّصُني، أومأتْ لها لالّة مريم، فغادرتْ بي إلى غُرفة أخرى، وهكذا أصبحت بعد أيام قليلة مغنية في فرقة لالة مريم.

أوّل الأعراس كآخرها، تبدأ بالصّخب ثم تنتهي إلى تَعبٍ. ننشغل في الصباح بزينَتنا، وما إن ننتهي منها حتى تَتَوسّطُنا لالّة مريم، وتُردّد أن نحفظ الأغاني والمواويل التي نُعيدها خلفها، ثم تختبرنا، وحين تهمُّ بالعودة

إلى غرفتها تُقطِّب حاجبيها وتُصرُّ على إعادة نصائحها. تتأفّف البنات منها، ومن تكرارها عليهنّ، وكلُّ ما تريده لالّة مريم ألا يتدخّلن في الأشياء التي لا تعنيهنّ، ولا يُكثرن التّحديق في وجوه الذين من حولهنّ، كانت المرأة الأربعينية تَعني جيدًا ما تقول، ولم أهتد إلى الحقيقة آنذاك، غير أنني أدركتها وأنا أُقاسم الحكايات مع نساء المبغى، يزورهنّ الرجال مُنهكين، وفي العُري يقول الرجل كل شيء.

في طُفولتي كنت أحسب أن شوق أمي لأبي، مثل شَوقي إليه، ثم اكتشفت أن انتظار المرأة للرجل لا يُمكن أن يَخلو من الجَسد، أما حين جرّبت نُضوح عرق الرجال على جسدي، صرت أحنُّ إلى الشّوق الخالي من الجسد، واجتمع الشوقان بعدما عرفت السّلّاوي.

كثيرة هي الأعراس التي أحييناها، نسير رفقة لالّة مريم إلى البيت المقصود، يُرافقنا صاحب العرس. يظلُّ اليولداش في سُكرهم يعترضون النساء إن كنّ وحيدات، يظنّون أنهنّ من المبغى، وننفصل عن الحارس عند عَتبة البيت، وتطلُّ زوجته مُرحبةً بنا، وتنضم إليها بقية النسوة في الرِّواق، وتصدح الزغاريد في البيت. نحتل القاعة الفسيحة التي تُطلُّ نافذتها على سقيفةٍ خلفيةٍ، تتقدّمُنا لالّة مريم بكامل زينتها، وتبدأ في مَواويلها، وتُرافقها البنتان بالدفِّ والعود، ونُردِّد بعدها المقاطع المختارة، تستمر لالّة مريم في أغانيها، التي تُحرِّض نسوة البيت وبناتنا على الرقص، فيَقمن يحملن مناديلهنّ، كل يدٍ تمسك واحدا، تُلوّح به في اهتزازها، وخُيِّل لي وأنا أُردِّد خلف لالّة مريم، أنني رأيت شبحًا، يُراقب العرس من خَصاص النّافذة، ولكنني لم أتبيّن وجهه، انتبهت إليّ بعض النسوة، وخشين أن يكون أحد ما

يتلصّص على الراقصات فقامتْ واحدة منهنّ، وأحكمتْ غلقها، ورقصتْ كل نساء البيت، ولا أدري لِمَ بدت لي العروس أصغر من أن تكون زوجةً؟ صحيح أن اللباس الأبيض، والخمار المشنشل والزينة تُبديها أكبر من سنّها، لكن عينيها حملتا خوفًا من ليلتها الأولى، ظلّت ترقص حتى أُنهِكت، ثم أُخِذت إلى غرفة أخرى، ورحلنا نحن عن البيت رُفقة الحارس، وما إن بلغنا بيت لالّة مريم، حتى كانت أصوات المؤذّنين تُعلن عن صلاة الفجر.

في بيت لالّة مريم أيضا اعتدنا زيارة الوصيفات، كانت المرأة تعرف أيضا ما يدور في بيوت الأتراك، تزورهنّ وتمكث عندهن ساعاتٍ طويلة، ولم يكن الأمر بالتأكيد يتعلّق بالغناء في أعراسهنّ، أو في سمر ليلهنّ، بل كانت المرأة الأربعينية تعرف كل التفاصيل عن مغامراتهنّ، سمعتُها يوما تحدّث إحدى الوصيفات على حِدة، ولم أتبيّن الكلمات إذ كانت بعضها بلغة بني عُثمان، لم تمكث الوصيفة إلا دقائق قليلة ثم رحلت لالّة مريم تُرافقها، ولم تعُد إلا في نهاية النَّهار على غير طبيعتها، علت وجهها علامات الفَزع، مثلما حملت الأيام التي تَلتها شائعة تقول: إن ابنة أحد القادة الأتراك قد حملتْ من شابٍ من المغاربة، وأن لالّة مريم أعانتها على اللِّقاء به خِفية، وبعد اكتشاف القائد الأمر، قتل ابنته وتربّص بالشّاب وقتله، وجدوا جُثّته ملقاة في باحة السُّوق، بينما لم يَجد الحُجّة التي يفتك بها بالمغنّية. تَنهرنا لالّة مريم حين تضبطنا نعيد الشّائعة. كلما مرّ يوم كانت تزداد نَزقًا، ولا تغادر غُرفتها إلا لماما. حتى الأعراس صارت تُقلّل منها، ثم قررت التوقف فجأة، اقتحمتْ علينا الغرفة، ودون تحية طلبت منا الرحيل في الغد، حدث ذلك صباحًا، ثم عدلت عن قرارها في المساء، وأسرّت لنا

أنها ستعود إلى الغناء في الأعراس، ولم يكن قرارُها غريبا عنا. كنا قد أَلِفنا تقلُّباتها في الشّهرين الماضيين، ولم تمرّ إلا أيام قليلة حتى أَحيينا عرسًا في بيت من بيوت المحروسة. ثم تَوالت الأعراس، وخفّ نزق لالّة مريم، ولكنّ خوفا بقي داخلها، اكتشفته يوم وُجّهت لها دعوة ذلك التُركي، ارتبكتْ عندما رأت الوصيفة تجتاز قوس الباب، بينما كانت صامتةً وهي تُحدّثها، أومأت لها بحركة رأسها تُوافقها، وتنفّست الصُعداء وهي تراها ترحل.

في الأيام الأولى من دخولي هذا البيت، انتبهت إلى أن الفتيات الموجودات به، كنّ جميعهنّ صبايا، ولم يكن مُقامهنّ يتجاوز السّنة، يذكر الجميع أن لالّة مريم اشتغلت بالغناء منذ أكثر من عشر سنوات، البنات لا يحكين كل شيء، يخفن من غضب لالّة مريم، وربما من طردهنّ من البيت، لم أدرك الحقيقة إلا فيما بعد، حين التقيت في المبغى بكثيرات عملن في فرقتها، ثم تحوّل مصيرهنّ فجأة إليه.

مرّ الأسبوع وحلّ صباح الحفلة، اجتمعنا نتزيّن استعدادًا لها، لم يكن عُرسا بل ليلة سمرٍ، ولم نكد نَنتهي من زينتنا حتى وجدتُها تُنادي عليّ أن ألتحق بها في غرفتها، ودّت لالة مريم أن أَنوب عنها، خشيت أن أشغل مكانها، لكنها أصرّت، وتحوّل طلبُها إلى رجاء، أومأتُ بالموافقة ثم غادرت الغرفة، تركتها وحيدة تقفل الباب على نفسها.

في ذلك اليوم أصرّ المزوار أن يكون معنا، مثلما حرص السيّد التركي على مرافقة المغنيات إلى بيته، استطالت المسافة وظلّت عينا المزوار تَتَفحصاننا طوال الطريق، يتأمّل أجسادنا وجسد الوصيفة التي رافقتنا، ولكنها كانت أجرأ منا، وسخرت منه، كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها سُخرية

وصيفةٍ من سيّد في المحروسة، وبالرّغم من ذلك لم يصرف بصره، بل التصقت أكثر بثيابنا، وفي منعطف آخر سخرت منه الوصيفة ثانية، ولكنه هذه المرة لم يسكت، بل اقترب منها وهدّدها بسوطه، فابتلعت لسانها بقية الطريق، ولم تتكلّم ونحن نبلغ البيت ونعبر بابه، ثم شرعت تسبّه حين أُغلِق الباب خلفنا.

اتّسع المجلس واحتلته نسوة قليلات، تخدمهنّ وصيفات، وصدح صوتي بينهنّ، لمحتُ استحسان السيّدات التركيات، ومن ثمة طلبن أغاني جديدة كلما أنهيتُ واحدة، حتى انتصف اللّيل ونال مِنهنّ التّعب، فقامت السيّدة، وانفضّ المجلس، حملنا أنفسنا وآلاتنا، وبعض ريالات البُوجو، وعبرنا الرِّواق مرة أخرى مثلما قدمنا، ووجدنا الـمِزوَار وبعض جنوده في انتظارنا، ولم تكن لا الوصيفة هناك، ولا صاحب البيت، كانوا يحُيطون بنا من كل جانب، وعبرنا شوارع شبه مُضاءة لم آلفها، وقالت إحدى البنات إن الدّرب الذي نسير به ليس الذي سلكناه في مجيئنا، وحين همّت بالسُّؤال صَاح الـمِزوَار فيها أن تصمت، شعرت أن شيئا ما سيحدث لي وللبنات اللّواتي كنّ معي، ومضينا عبر سقيفة أُخرى ثم اتّسعت باحة خالية، حينها أدركت أن الـمِزوَار لن يُعيدنا إلى بيتنا، وشدّ كل جندي مُغنّية وساقها إلى غرفة، انتفضن وحاولن الهرب والصُّراخ، ولكن الجنود كانوا أقوى منهنّ، وسحبوهن إلى الغُرف، صرخت حين قبضت يد الـمِزوَار على يدي، ولكنه لَطمني بقوّة وسحبني، وعبر بي باب الغرفة، لم تنفع مُقاومتي له، خدشت بعض جسده، ولكنه كان يُقطّع عني الثِّياب، ويرميها جانبا، ويكتم صوتي المخنوق، وحين أُنهكت فقد تَوغّل بين ساقيّ، فانتفضت، وظلّ يصعد

وينزل فوق جسدي، ويُصدر زعيقًا حادًا، لم يسمع ساعتها توسلاتي، بل واصل حتى خرّ تعِبًا، لم أعد أُبصر من حولي سوى الظلام، ولم أنتبه إلا في صباح يوم ثان.

كنت عارية ومُستلقية على فراشٍ قديم، تحسّستُ جسدي المتورِّم، وآثار أصابعه عليه، وبقايا دمٍ جافٍ على ساقيّ، أبصرت المشهد مفزوعة، واختنقت بالبكاء، لم أستطع الوقوف والسير، التفتُّ من حولي فتراءت لي مِزق ثيابي، لم أغادر مكاني حتى نهاية اليوم، تحاملت على نفسي، خطوت تجاه الباب، ولكنه كان مُقفلًا، صرخت بأسماء البنات، لكنّ أحدا لم يُجبني، فعدت إلى مكاني، وواصلت بكائي حتى أظلمت، سمعت اهتزاز الباب، ثم انتَصَب بجسده الضّخم، ينظر تجاهي ويضحك، كان يحمل صُرّة الطّعام واقترب ليقاسمني الأكل فرفضت، انتحى مكانا وأكل، ثم قَفَز تجاهي، وأعاد امتطائي بالطريقة نفسها، ومرّ أسبوع والـمِزوَار يأخذُني كلّ ليلة، ويترك الطعام ساخرًا مني: ستأكلين حين تجوعين، لا تتحمّل القطط جوعها. وفعلا كان على حق، لم أستطع احتمال الجوع، فانقضَضْت على بقية طعامه.

لو كنت معي يا سلّاوي، وتتبّعت تفاصيل ما حدث فإنك ستَقتُله أكثر من مرة، يحتاج الـمِزوَار إلى آلافٍ من الحيوات كي تقتله فيها، ولن يتغيّر شيء، ما إن يموت حتى يظهر مِزوارٌ آخر. كنت أجتهد أن تدرك فقط أنني أريد حياتك، بينما تظلّ تركض وتستمتع بركضك، والذين في إثرك يُريدون موتك.

القسم الرابع

ديبون

يوميات مراسل لحملة 1830: نشرت في «لو سيمافور دو مرساي» بتصرف.

الأسبوع الثاني من جوان

كانت كل أمنياتي ألا تُسفك الدّماء عند نزولنا، حين تبدّت لي القلعة من سطح لُوناجور، صغيرة ينحدر السّهل أسفلها خاليًا من البشر. ثم يتراءون لي، خيّالة يركضون بسرعةٍ جنونية وهم يَترقّبوننا، مثلما أرى السفينة التي تَتَقدّمنا، حركة مُفاجئة على سطحها، وبحّار يُلوِّح لنا أن نَتقدَّمهم. لم تمض إلا لحظات قليلة حتى بَرَزت لُوناجور وسَبقت لابروفانس. والآن أبصر المدى من مُقدِّمة القافلة، ينتقل أمامي القُبطان بحركةٍ سريعة بين بحّارته، يَحُضّهم على تجهيز مدافعهم بعد شَحنها. ثم تقدّمنا أكثر نحو الخليج، وارتَفَعت القذائف في شكلٍ مُنحن. رأيت الغُبار يَتطاير من اليابسة، يتفرّق على إثره الخيّالة، عائدين إلى الرّبوة التي برزوا منها، وكُلّما تطاير الغُبار يُقَهقِه إلى جانبي كافيار، ويشير إلى القلعة الصغيرة ثم يقول: إنّهم لم يتوقعوا أن نباغتهم من هذه الجِهة، حتى طُورِي شِيكا لم يُزوِّدوها بمدافع كِفاية لتصدّنا.

فعلا كان كافيار مُحقًا، إذ تناهى إليّ دويٌ ضئيل لمدافع لم تبلغ قذائفها السّفينة. بينما كانت لُوناجور تتقدّم وتخمد معها ضربات طُوري شِيكا، ثم لم تعد القلعة تُرسل شيئا. ازدادت الحركة على سطح السُفن، كانوا يُشكّلون الصُفوف، يُعدُّون بنادِقهم وأكياسَهم، يَستعدُّون لنُزول القوارب، وقد بقي بيننا وبين الخليج مسافةٌ ضئيلةٌ، كانت القوارب تتناثر من على السفن، تنزل إلى المياه، وتقترب حتى تُلامس اليابسة. قفزتُ إلى أحدها يُرافقُني كافيار، جَذّف بنا البحّاران، وما إن وَصلنا حتى تنهّد إلى جانبي، ثم بسط يديه وصاح: أخيرا جاء اليوم الذي رجوتُه طويلا.

التفتُّ حولي إلى منظر القوارب الكثيرة. هذا هو النهر الذي تكلّم عنه كافيار طويلا. الآن فقط سينهمر على الخليج، ولن تمضي إلا أيام قليلة حتى ينهمر على مدينة الجزائر فيُطَوِّقها. اقتربت قوارب مختلفة من الخليج، ونزل الجنرال بورمون من أحدها، وإلى جانبه مُساعدوه، وقفوا يقابلون المكان من هناك. ساعة أخرى ظلّت القوارب تحمل المدافع، وتقترب بها، يجتمع حولها الجنود لإنزالها، لكنّ سُفن المؤونة والخيول لم تصل في ذلك اليوم، كانت تتأخّر دائما عن البقيّة، ونُضطَر لانتظارها. سِرنا مسافة قصيرة داخل السّهل، وكنت غير مُستوعبٍ أنهم لم يكونوا على عِلمٍ بوصولنا. وقف كافيار يتأمّل السّهل وكأنه غير مُصدِّقٍ أنه عاد. حدّق في القلعة الصّامتة، ثم نظر تجاهي نظرة الـمُنتصر، وقال:

- لم يبق الكثير يا ديبون كي ترى المجد الذي ضيّعه أصدقاؤك الإنجليز. ولم يُسعف نابليون الوقت كي يُحقِّقه.

- أفضل انتصار حقّقه الإنجليز بعد تحريرهم العبيد هو قضاؤهم على ذلك المجنون.

- أخشى أن تتحوّل بعد أيام إلى مُدافع أيضا عن هؤلاء البَرابِرة.

- إذا كان الجميع ينظر إلى الحملة مثلما تنظر إليها، فعليك أن تَتَوقّع أكثر من ذلك منيّ. يظلّ العالم مُحتاجا إلى أناس يُقدِّرون نِعَم الرّب عليهم. ويَتمنّون نشر كَلِمته في العالم.

- لا وجود للأوهام التي تحملُها في رأسك بهذا المكان، كان أجدى لك السير شرقًا إلى الفاتيكان.

ربما كان كافيار على حقٍ، كنت أحمل العديد من الأوهام في رأسي، ولكنها لم تَتَناقض مع الحقيقة في شيء. أحيانا تُصبح الحقيقة وهمًا، والوهم حقيقةً. صرخ المسيح يوما في أورشليم بِكلمته، فحاصره اليهود واتّهموه بأنه يتوّهم، وبعد أن كان مُرسلا لخراف بني إسرائيل، أضحتْ كل الأمم تعتنق أفكاره. لا تبدأ الحقائق الكبيرة إلا باتهامات على أنها أوهام.

ساعاتٌ أُخرى كان الجنود يحلّون بخليج سيدي فرج، يُشَكّلُون مُربّعات وصفوفا متعدّدة، ويحشون بنادقهم، ثم قدّموا التحيّة للقائد بُورمون. وبدأوا في التقدّم إلى القلعة، وتعسكروا على مسافة منها، سحبوا المدافع ووضعُوها أمامهم، ونادى عليهم ضُبّاطُهم بالشروع في حفر الخنادق، بعد نصبهم الخيام غرب الخليج.

في اليوم الثاني لنُزولنا، تعالت الضجّة من بداية الصُفوف، كان الجنود يَهتفون ويُعدِّلُون أمكنتهم يعودون إلى مُربّعاتهم، وإلى صُفوفهم الممتدّة، وينتظرون اقتراب الخيّالة القادمين من خلف الرّبوة الشّرقية، لم يكونوا كثيرين، يَقتربون مسافة رمي بنادقهم بسرعة جنونية، كَوكَبةٌ منهم تَسبقُ البقيّة وتُسرع تجاهنا، ثم تُمسِك الأيدي البنادق، ويصوّبون تجاهنا، صحيحٌ

أن مجال الرَمي كان لديهم أبعد، ولكنّ الرّصاص حين يبلغ جنودنا لا يُحدِث أثرا بهم. بينما كانت مدافعنا تَفي بالغرض، قذيفة واحدة تجعل الفارس يتطاير بِحصانه قِطعا، أُشيح بِبَصرى، ويضحك كافيار الواقف قُربي مُردِّدًا: ما الذي أَتى بك إلى هُنا يا ديبون، وقلبك لا يحتمل رؤية الموت؟! فأعود بِبَصري إلى الخيّالة الذين يَستمرُّون في تكرار المشاهد، ولكنني عجبت أكثر لهؤلاء الرسّامين الذين قَدِموا مع الحَملة، يقتربون من مكان الرَّمي، ترى وُجوههم تَنتقل بين الجنود الفرنسيين، وأكثر اهتماما بهؤلاء الخيّالة، أشكالٌ أوّليةٌ تَتَحوّل في المساء إلى لوحاتٍ. اجتَهدوا في نقل التفاصيل الـمُتباينة على وجوههم، واستغربت أن هناك من يُغامر من أجل لوحةٍ يُخلِّد بها مشاهد للقتل.

لم يمض إلا وقتٌ قصير حتى فرّ بقيّة الخيّالة، بعد موت الكثير منهم، وتقدّم الجيش مسافة إلى الأمام، ولم ننتبه إلى من بقي في القلعة أعلى الرّبوة، إذ تراءتْ منها قذائف أخرى، انفجرتْ بالأرض وقتلتْ بعض جُنودنا، وواحدة سقطتْ قُرب المكان الذي اجتمع به القائد بُورمون بضبّاطه، فأسرعتُ تجاهها وبقي كافيار غير مبالٍ بشيء، وحين انجَلت سحابة الغُبار برز القائد هناك، ولم يُصب بمَكروه، ربما كان ذلك اليوم مُختلفا بالنسبة لي، إذ استطعت أن أكون إلى جانبه في جزء من مسيرته، كانت المدافع آنذاك قد وُجِّهَتْ إلى القلعة، وضربتْ نحوها طلقات ولكنها لم تردّ، فزحفتْ كتيبة إليها، ثم رأينا الجنود يُثبِّتُون العَلَم الأبيض أعلاها، ولم يجدوا أيّ جندي تركي بها. سار الضُباط في إثرهم، وتَسلّقوا الرَّبوة، التزمت جانب القائد حين قرَّر جعلَ طُورِي شِيكا مركزا لقيادة الحملة. وصعدت أدراجها لأرى

المدينة من هناك، ولكن السّطح لم يبد لي إلا السُفن التي توجّهت شرقًا كي تحاصر المدينة من البحر.

الأسبوع الثالث من جوان

لأربعة أيام لم يتغيّر شيء، الجُنود يحفرون الخنادق، ويُنظّفون بنادقهم، وآخرون يُعدِّلون صُفوفهم، حينها كنا قد توغّلنا مسافة داخل السّهل، وبلغنا المكان الذي هاجمَنا منه الخيّالة العرب. اختار الجنود أمكنة مناسبة للمدافع، وواصَل آخرون تَعديل الدرب الـمُوصل بين ذلك المكان وبين طُوري شِيكا، تكفَّل كافيار بتوجيههم، يحترمه الضُباط ويتّبعون تعليماته التي تتعلق بالطُرقات حرفيا، كان يتقدّم مسافة حتى يكاد يغيب عن أعيننا، وأحيانا يَختفي عنا ساعة أو أكثر خلف الروابي، ثم يعود، كأنه يُؤكِّد للجميع مدى درايته بالأرض والطُرقات وتفاصيلها، يركن إلى خيمته، يَبسط الخرائط أمامه، ولا يَرضى أن يُقاسمنا أحد الخيمة، ويزيد عَجبي من كثرة الخرائط التي كانت تَحويها الخَيمة، كل مكان خصّص له كُرّاسة صغيرة دَوَّن بها تضاريسه، وخَصّص الهوامش للأعشاب والحيوانات التي تكثُر به، والقبائل التي تعيش على أطراف الطُرقات، أسماؤهم مُدوَّنة في دفاتره، وحتى عدد أولادهم وخُيولهم وبنادقهم. أتساءل: من كان كافيار؟ أكان صياد رنكة أُستُعبد في الجزائر؟! أم عالم أرضٍ يُفتِّش خَباياها؟! أم جُغرافيا يمسح سَطحها، أم باحثا في الإثنيات يُقلِّم شجرة أجداد العرب؟! أم رَجُل حرب يُعِدُّ خُطط الغزو؟! ربما كان كافيار أكثر مما وصفت. الرجال الذين رعاهم نابليون أخطر ممّا تصوّرت، قالها لي القبطان غير أنني لم ألتفت إلى

كلامه. يضع كافيار أصبعه على الخريطة، ثم يتكلّم: لا بدّ أنهم سيُعسكِرُون هنا في سطاوالي، وينبغي مواجهتهم في هذا المكان قبلها. وسَحَب أصبعه إلى مكان ليس بعيدا عن مُعسكرهم، ثم غادرنا الخيمة، وافترقنا عند بابها. سار هو في اتجاه الجنود واخترت طريق طُوري شِيكا.

تسلّقت الرّبوة ثم كنت عند باب القلعة، تجاوزت الباب، وطلبت إذن الدخول فأُذن لي، كان بورمون مُنهمِكًا مع الخريطة الـمَبسوطة أمامه، لفّها ووضَعَها جانبا وكلّمني:

- أهلا بصديقنا ديبون، هل تسير أمور التدوين بشكل حسن؟

- هي على ما يُرام، هناك أشياء أخرى تشغلني؟

- أتتعلّق بالحملة؟

- لا، بل بحربٍ أُخرى في أوروبا؟

صمت القائد مليا ثم قال:

- هذه الحِكايات لا يُردِّدُها إلا بعض ضبّاط البَحرية، يَتكلّمون عن واترلو ولا علاقة لهم بها، كان عليهم أن يَنشغِلُوا بخيباتهم في البحر.

- نعم، هذا ما سمعته ونحن نعبر المتوسط.

- نابليون كان قائدا عظيما، ولكن أحلامه تجاوزته حتى صار عبدًا لها، وأصبح يتصرّف بتطرُّفٍ في كل شيء.

- فعلا يا سيدي هذا ما آمنت به دوما، وأنا أُجادل البحّارة، في الغاية من مسيرنا إلى إفريقية.

- ستظلُّ تُتعب نفسك بمجادلتهم. هم يَرفضُون تنصيبي على رأس الحملة، ولم يَطمَئِنّوا لي حتى وأنا أجرُّ أولادي إلى الحرب. يَرَون الحملة

مَصدرا للمال، وأراها نُقطة تحوُّلٍ بين عصرين. نحن نحمل الحُرّية والنُّور لهؤلاء العرب ضدّ مُضطهديهم العُثمانيين.

كانت الجملة الأخيرة التي همس بها القائد خاتمة لكل الأفكار التي طَافَتْ برأسي، وبدّدَت التَشويش الذي أحدثه كافيار فيه، ودّعتُه ذلك اليوم والتحقت بكافيار قلبي مُعبّأ بالثِّقة، ولكن كافيار، كان مثل شيطانٍ، يعرف كيف يحدث التشويش في رأسي.

كأنه كان اتفاقًا مُبيَّتًا بين مُتناقضين، بُورمون وكافيار، نادى الأوّل الجنود كي يبدؤوا الزّحف. وسَار الثاني بينهم يُوزِّع أوامره وتفاصيل عن مَسيرهم. ولم أرهما يلتقيان إلا في المساء، حين كُنا نُشرف على مُعسكر سطاوالي. أغلب الجيش كان قد انتقل إلى المكان الذي اختاره كافيار، ثم جاءت أوامر بُورمون مُؤكِّدَة على ضَرورَة المسير إلى هُناك، حيث تَركنا بين مُعسكرنا ومُعسكر الأتراك مسافة، لم تَتوقَّفْ حركة الجُنود، وهم يسحبون المدافع حتى تتقدّمهم، ومن ثمّ يَعودون إلى تَشكيلاتهم السّابقة، الخط الممتد الذي يصلُ الرّبوتين، والـمُربّعات التي شُكِّلت خلفهم. كان بعض الأعراب يحلون بالمعسكر، يَسحبُهم كافيار إلى خيمته زمنًا ثم يُغادرون. عندما أظلمتْ قاسمتُه الخيمة، وسألته:

- هل استطعت أن تُجنِّد من بينهم جواسيس أيضا؟

- هؤلاء الذين رأيتهم لا يَعتبرُون أنفسهم جواسيس، إنّهم يَشتَرون حياتهم، وأموالهم وحيواناتهم، هم أكثر ذكاء من الأتراك والـمُور.

- ولكننا لم نُجرِّب حتى مفاوضة العُثمانيين؟

- منذ سنوات ثلاث ونحن نُحاول معهم، ولكن باشاهم يرفض الاعتذار.

- ألا تظنُّ أن الشُّروط كانت مُخزية في حقِّه؟

- استحق أكثر من ذلك، ولكننا صبرنا كثيرا، هذه المدينة كان لا بدّ لنا من احتلالها منذ زمن.

لم يُخطِئ بُورمون، تبدو الحَملة فِكرة مُشوّشة في أذهان العديد، لا تَستَقِرُّ عند مَفهومٍ واحد، كل شخصٍ يفكر بها بطريقته، حتى أولئك الجُنود الذي انتَشروا في السّهل، أكثر من خمسة وثلاثين ألفا، صارت تعني لي أيضا أكثر من خمسة وثلاثين ألف فكرةٍ عن الحملة. غادرت خيمة كافيار عائدا إلى خيمتي، راقبت من خصاصها حركةَ الجنود والضبّاط، ثم نقلت بصري إلى خيمة كافيار، كانت مُضاءة، يتبدّى خياله يتحرّك داخلها، هممت بالسير إليه، ثم عدلت عن رأيي، جالت بخاطري أفكارٌ عديدة، تشكِّك في معنى قُدومي إلى هذه الحملة، بالرُغم من أنّ القائد كان واضحًا دوما معي، مثلما وَعَدَني أن يَمُدّني بُقصاصاتٍ دوّن بها تفاصيل عن رحلته، كان مُغتبِطًا بُرؤيتنا الـمُشتَركَة للحملة، وتفاؤلي بنَتائجها، يَعتبرُني مثل ابنه الأوسط أميدي، كان مُتحمِّسا أكثر من إخوته الآخرين، يطلب أن يكون في مُقدِّمةِ الجيش، ولكنهم أحيانا يُؤخِّرونه، لتعلُّق القائد به، ولم يكن بورمون ليتدخّل في شيء، أحبّ دوما أن يَصنع كل واحد من أبنائه مَجده، دون اللجوء إليه، وربما كان يراني مثل أحد أبنائه، وظلّ يُعاملُني بحميميةٍ مثلهم، ولكنني أضطرب كُلما تذكّرت مِقدار الدّم الذي ساح في الأيام الماضية. كان لا بدّ لي من بناء جدارٍ من الصّلابة داخلي، وكنت أرفض بناء الجُدران وأنا غير مُقتنعٍ بقطرةِ دم واحدةٍ تسيل ليَعِمّ نُور الربِّ إفريقية. يَتناقض النُّور مع لون الدّم، والسِّلاح مع الكلمة، والمحبّة مع الكراهية.

في صباح اليوم التالي، حلّ ضبابٌ كثيفٌ فلم تَستطع الـمَدفعية أن تُصوِّب بِوُضوح، بعد أن انزاح تَراءى الجَيشان، واستمرّ الرّمي جزءا من الصباح، ثم اشتَبَك الجيشان، اقتربت من مَجال الرُؤية، وهالتني الشّراسة التي قاتل بها أُولئك الأعراب. شَكَكت بانتصارنا وأنا أرى انسحاب بعض جنودنا، وعودتهم إلى تَشكيلاتهم السّابقة، ونَزَل القائد لحظتها من مكان المراقبة، وعدّل خطة الهجوم، طلب التركيز أكثر على ميسرة جيش العرب، ولم يمض إلا جزءٌ من النّهار حتى تَبعثَر جيشهم، وكانوا يَفرُّون حتى لم نعد نرى أحدًا منهم، تقدمت في إثر الجيش، وسرت في الحقل الخالي من الأحياء، لوّنت الدِّماء الأرض، وامتزجت بالتراب، ثم أوحلت، لأوّل مرة أرى وَحلًا من الدِّماء، خَطوت بقدميّ فوقه ولم أدرِ إن كانت دماءً مسيحيةً أو محمديّةً، أمام الموت يستوي الجميع، امتزجت أشلاؤهم بأشلائنا، وتكوّمت أَرجلٌ وأيدٍ منهم ومنّا، وتَخثّرت الدِّماء حتى صارت دمًا واحدًا، تفوح منها الرائحة العَفِنة. أشحت بوجهي إلى جهة ثانية فرأيتُ المشهدَ مُتكررا، وكلما التفت إلى جِهة أفزعُ من منظر الأجسادِ المنثورةِ من حولي. وروح الله لم تَرُفَّ على السّهلِ الأحمر، بل غادرتهُ، هل هذا هو النُّور الذي أتينا به لهذه الأمة؟ كيفَ يمكننا الآن أن نُعرِّف الحُرية، أو البَربرية يا كافيار؟ أراه مُقبلا تجاهي، يحملُ الخرائط في يده سعيدًا بالحقلِ، يُدير عَينيهِ وينقُلهما بين الأجساد، كأنه يَعُدُّ كم خسرنا وكم ربحنا، وحقِّ المسيح قد كانوا سواء في موتهم، والعدل الحقيقي أن يكونوا كذلك أيضا بين يديه. يبحثُ كافيار عن مَوطئ لقدميه بين الجثث فلا يكاد يَجده بسهولة، ثم يقفُ إلى جانبي، يَمدُّ بصرهُ ويُطلق ضِحكتهُ:

- يُمكننا الآن إضافة معركة سطاوالي إلى هِيليوبوليس والأهرام، وسيكون نابليون فخورًا بنا، ونحن نُعيد مجده في أرضٍ إفريقيةٍ بعد خسارته في مصر.

- لكم أن تفخروا بِنهر الدّم. قد غادر الله إفريقية وخلّفها لنابليون.

كنت أكثر خيبةً وأنا أسمع كلماته، مثل شيطانٍ يزعق إلى جانبي، فررت منه ومن السّهل الأحمر، تسلّقت الرّبوة خَلفه، وإذا بي أرى خيامهم ما تزال هناك، بدأ بعض الجنود يركضون نحوها، انحدرت في إثرهم، ثم كنت بين الخيام، كم كانت وثيرة ومُتسعة! اقتربت من أكبرها، صاح أحد الجنود أنها تخصُّ قائدهم. عجبت كيف حمل أولئك القُوّاد كل تلك الأشياء مَعهم، ثم لماذا يُخلِّفونها في فرارهم، أسلحتهم ومدافعهم وحيواناتهم وكل شيء ترَكوه وراءهم، فهل يا ترى سيُخلِّفُون المدينة أيضا؟

الأسبوع الأخير من جوان

ترتفع أصوات الجنود فألتفتُ تجاهها، أرى أميدي بينهم، يريد أن يكون في طلائع الصُّفوف، ولكنه رَضَخ واحتَرَم تَشكيلة الكتائب، ولم يحتجّ إذ عُومل مثل الجميع، كنّا قد تجاوزنا سطاوالي تجاه الشرق، اخترنا مكانا أقرب عَسكَرنا به، مثلما يَتوقّع دوما كافيار. منذ مَسيري لم أتخيّل أن الأمر سينتهي بنا إلى هذا المآل، صلّيت في نفسي كي لا يسيل مزيد من الدّم، وتَستَسلِم المدينة دون مُقاومة، خشيت أن يتكرر ما حدث في سطاوالي، حينها لن أسامح نفسي أنني سرت في ركاب الحَملة، وسيُلازمُني تأنيب الضّمير ما حَييت. أراقب أميدي وهو يُمازح الجنود، ما الذي يُجبر هذا الفتى صاحب الخمسة وعشرين عاما على المسير مع الحملة؟ أتَراه مثل والده بُورمون،

يحلم بعالم مُختلفٍ أم أنه يبحث عن مجده، أو ربما هو نموذجٌ عن كافيار؟ كم صار العالم من حولي مُشوّشًا، وأضحى التنفّس شاقا في إفريقية، ما أسوأ أن يكون اكتشافك الأوّل للأمكنة وأنت تحمل الدّمار لها.

أفقتُ مُتأخرا على غير عادتي، وخرجت أتفقّد الجنود فلم أَجدهُم، ولم أرَ في المعسكر سوى حُراسه، وقفت بين الخيام أبحث عن كافيار، لم يكن هناك، حتى بُورمون وبقية ضّباطه، الجميع تّحرك إلى السّهل، قدّرت أن المعركة ستكون بعد أيام ثلاثةٍ، بيد أنني فُوجئتُ برحيلهم، وها هي المعركة تبدأ في الجهة الأخرى من الرّبوة، غادرت الـمُعسكر سريعا، وراقبت المعركة من الأعلى، كانت في نهايتها، فعلا حدث ما اضطربت من أجله، لقد انهزَمنا يا كافيار، لم تَصدُق نُبوءاتك، سوف يلتحقون بنا ويعيدون ما حدث في سطاوالي، لم أخش الهزيمة بِقدر ما خشيت أن تسيل الدماء حتى نعجز عن وقفها. انحدرت إلى خيمتي، ولم أُغادرها إلا على دَبيب الأقدام وفوضى عودة الجُنود. كانت الهزيمةُ تتراءى على وُجوهِهم، لا يمكن أن تستهين بعدوِّك في أرضه، وقد استَهانوا بهم، تأمّلتُهم في عَودتهم إلى خِيامهم مُنكّسين رؤوسهم، وتحلّق آخرون، اقتربت منهم، فرأيت جسد أميدي، رغم أن الرصاصة حادت بقليل عن قلبه إلا أنها أنهت حياته. مات أميدي لأنه أصرّ أن يكون في طليعة المقاتلين. كان بورمون غير مُصدِّقٍ ما يراه أمامه، مال وجهه إلى السّواد، وعجز عن الكلام، أومَأ إليهم بحمله إلى خيمته، وظلّ إلى جانبه طوال الليل.

في اليوم الثاني غادر القائد خيمته، بدت ملامحُه أكثر إصرارًا على المواصلة، نادى الجنود كي يستعدوا للزّحف، هبَّ الجميع كأنهم كانوا

ينتظرون إشارته، يَجرّون المدافع عبر الدروب التي أَعدَّتها الفرقة التي تقدّمتهم، بأوامر من كافيار، سار الجيش كأنه رجل واحـد، وفي كل مرة يظهر الأعراب من هناك على خُيولهم، يهاجموننا من بعيد، ثم يفرُّون ما إن يَتَصدّى لهم جنودنـا. كانوا يعطلون سيرنـا، يَظهرون مثل أشبـاحٍ، ثم يختفون بالسُرعة نفسها. لم يُواجهونا مثل جيش. أربعة أيام من المسير والتّوقُّف، ثم كنا نشاهد حصن الإمبراطور من أعلى الرّبوة. قال كافيـار لحظتها: إنه آخر الحواجز.

عسكرنا ليلتها هناك، رأيت مجموعةً من الأعراب يبحثُون عن القائد، البعض يُريد ضمان حياته وحياة أهله، ثم يرحلون وهم يحملون وثائق الأمان التي يُعطيها لهم بُورمون، رغم استياء بعض ضُبّاطه، لكنه ظـلّ يُردد عليهم: لم نأت هُنا لنقتل الناس، بل أتينا لنُخلِّصهُم من الأتراك. ولكنهم لا يَعُون كلماته، تظلُّ الحملة معنى لا يتفق عليه اثنان من المشاركين بها، وطوال اليوم الذي عسكرنا به، كان الجنـود يُعدُّون التَحصينَات ويحفرون الخنـادق، ويُرتِّبون الأمكنـة التي تُصوَّب منها المدافع أعـلى الرّبوات المحيطة بالحصن، وفي لحظة كان كل شيء مُعدًا، ينتظرون فقط إعلان القائد بداية القصف.

شعورٌ غريبٌ انتابني، أن تَرى مدينة لأول مرة وتَمتَلِئ بها، عندما تتراءى من أعلى الرّبوة مآذنها البيضاء، وأسوارُها الـمُمتدّة مثل طوقٍ حولها، والقباب الـمُتوزِّعة أعلاها، هل يمكن أن تَستَوعب مدينة مثل هذه فكرةً عن البربرية؟ هل يُعقل أن كلّ ما قاله كافيار كان حقيقةً؟ يبدو الأمر مُشوّشًا أكثر مما ينبغي، كل ما أرجوه استسلام المدينة دون أن يُراق الدّم.

أمر بورمون الجنود بالقصف، فأَشعلوا فَتيل المدافع. وما إن دَوّت في سماء المدينة أوّل طلقةٍ، حتى انحدرتُ عبر الرّبوة، فارا من منظر الحُطام. بالتأكيد لو رآني كافيار سيَسخر مني ويقول: ما الذي أجبرك على المجيء هنا ثم تفرَّ من رُؤية سورٍ يسقط، أو رجل يُقتل؟! ولن أُجادله! ما يُضيرني هو النهر الذي تُجذِّف به، قد أضحى كله دماءً.

أفيق على نفسي، أعتلي الرّبوة من جديد، أُطالع بقايا حصن الإمبراطور، بعد أن فجّره الأتراك. يتراءى من الرّبوة أيضا جُنودنا يُصوبون مدافعهم تجاه أسوار المدينة من جِهة القصبة. حملت نفسي وانحدرت عائدا إلى المعسكر.

الأسبوع الأول من جويلية

خيمةٌ فسيحةٌ تقاسمها الضُبّاط مع قائد الجيش، انزويت في نهايتها، أُراقب وُجوه الـمُور الثلاثة الذين حملوا شُروط استسلام المدينة. من مكاني تحرّيت وجوههم. قدّم التركي نفسه على أنه الخزناجي، أهمّ منصبٍ يمكن لرجلٍ أن يحتله بعد الباشا. ثم مَيمون الـمُترجم، بدا لي مريبا، يَتكلم بسرعة وبفرنسيةٍ بليغةٍ لا تعتريها لكنةٌ عربية، قدّرت أنه عاش طويلا في فرنسا، كان يلبس مثلما نلبس نحن الأوروبيين. قَدّم ابن ميّار نفسه كمُستشارٍ للباشا وكان من أعيان الـمُور. لا يُمكن أن تُخطئ وجه الموري. عيناه اللّتان كانتا تتحرّكان بهدوء وهو يُراقب الذين من حوله، بدا وكأنه لا يوافق على أشياء كثيرة تحدث أمامه، أو ربما لم يكن ليثق في الرجلين اللّذين رافقهُما، الأوّل لكونه تُركيا، والثاني لتَشبُّهه بنا. وقف يُصغي للخزناجي وهو يقرأ على مسامع الضُبّاط بالعربية بنود المعاهدة. حرّك المترجمون العرب الذين

قَاسمونا الخيمة رُؤوسهم دلالةً على الفهم، ولكنهم لم يقتربوا من أجل التَرجمة، بل جَلسوا مُصغين مثلما كان ابن ميّار يُصغي بانتباهٍ أكثر لتَرجمة مَيمون للبُنود، ولم يكن بها شيء يمكن أن يَرفضه بُورمون. لن يُمَرِّغ رجلٌ مثله مجد أُمته في حرمان الناس حياتهم وأموالهم ومساجدهم. ولكن ابن ميّار تقدّم من القائد وتكلّم. قلت في نفسي: إنّ رجلًا من الـمُور لا يُمكنه إلا أن يطلب مُترجما، ولكنّه خاطب القائد بفرنسية لم تخل من لكنة، ولكنها سَلِمَت من الأَخطاء، وصحّح ترجمة بندٍ في المعاهدة نصّ على بقاء الأتراك في المحروسة، بينما قام ميمون بنفيه في ترجمته، فنصّ على رحيلهم. قدّرت أن الشّرخ بين هؤلاء الرجال الثلاثة كان كفيلا، ليجعل كُلّا منهم يفكّر بالمدينة بالطريقة التي نختلف بها نحن في رُؤيتنا للحملة، خمّنت أن الخزناجي لن يبقى في المدينة أسبوعا آخر، وسيرحل في حاشية الباشا، وتَنبّأت أن مَيمونا لا تَنقصه الحيلة، لو أُغلق عليه بابٌ، فلديه آلاف من الأبواب سيطرُقُها، ولكن هذا الرجل من الـمُور، ماذا يريد حين يطلب بقاء الأتراك في المدينة؟ إما أنه رجلٌ مُخلصٌ، أو ربما مصالحه مُرتبطة بوجودهم في المدينة. ولكننا لو حكمنا المدينة لن تَبقى لبني عُثمان أيّ مصلحة حينها، ولم يبق إلا احتمال أن هذا الرجل كان بالفعل مُخلصًا لهم، ومُؤمنا بوجودهم في المدينة ليس مثلما أُشيع أنهم يضطهدونهم.

راقبت رحيلهم، ثم انتبهت إلى عودة المترجم والخزناجي، طلبا مقابلة القائد، لم يَطل مُكوثهما في خَيمته، إذ رفض القائد عرضهما بأن يُقدِّما له رأس الباشا وخزائن المدينة، مُقابل العرش.

لا يمكن إعادة تلك الرُؤية، أن تسير في الكتيبة التي تعبر بوابةً من بوابات مدينةٍ ظلّت حُلمًا مُشتهى لأُوروبا كلها. حتى نابليون الذي نصّب

نفسه إلهًا، وقاده طُموحه إلى أقصى الشرق، منىّ نفسه طويلًا بدخولها. المدينة البيضاء، أو الرُخامية، أو معقل القَراصنة، أو ربوة الدّم، أو مُضطهدة الأوروبيين ومُستعبدتهم. كلّ الكلمات كانت تضطرم في رأسي بينما لم تُكن هناك غير مَظاهر السُّكون، مدينة هادئةٌ بها أناسٌ مُسالمون، نوافذهم نصف مفتوحةٍ تُطلُّ منها نساء الـمُور تُراقبن الصّخب الذي يُحدثه الجُنود في دخولهم، وأبواقهم وأغانيهم. أما بعض رجال الـمُور فيَجلسون عند أبواب بُيوتهم، يُنكسون رُؤوسهم حينا، ومرّات يَرفعونها يُراقبوننا كأنهم غير مُبالين بدخولنا. تُرى ما الذي يدور في ذهن كافيار في دخوله الثاني؟ إنها اللحظة التي انتظرها أربعة عشر عاما. يراقب بصري الأمكنة من حولي، شوارع ضيّقه، سقائف أشدّ ضيقا، ووجوه مُتشابهة لا تكاد تُفرِّق بينها. يستمرُّ الجيش في المسير حتى يبلُغ قلب المدينة. نجتمع مع الفرق التي دخلت المدينة من كلِّ أبوابها، يُشكِّل الجُنود حلقةً مُتّسعةٍ، يَشرعُون في العزف والرقص مُحتفلين بنصرهم. أما بقيّة الجنود فيتفرّقُون في أزقّة المدينة يكتشفونها، كان حجم الأساطير كبيرا، وربما أكبر حتى من حجم المدينة. لمحت بعضهم يركض، لم يكن هناك أثر للجنود الأتراك، ولا أثر للمُقاتلين الأعراب، ثم صعدوا تجاه القصبة، أو هكذا سمعت أحدهم يهتف بالجنود أن الكنوز بالأعلى مُشيرا إليها. وخطوت أتبعهم، وحين بلغتُها رفعت رأسي فرأيت الجندي يستبدل بالعَلَم العثماني الأخضر عَلَمَنا الأبيض، مجد الأمة الفرنسية الآن عُلِّق في أعلى المدينة فلِم الركض؟! يَكفيكم هذا المجد، إنه ليس يسيرًا. ولكنهم ظلّوا يركضون ويقتحمون أبواب القصور، ويحملون ما استطاعوا من مُقتنيات ثمينةٍ. وآخرون نَثَروا أوراقًا وجدوها بالقصور حتى صارت السّقائف تعجُّ بها. أين أنت الآن يا بُورمون كي تُوقف هذه

الفوضى؟ لحظات ورأيت موكبه، وأومَأ لي أن ألتحِق به، وبلغنا قصر الباشا. لم يكن هناك، حتى الغُرف التي كان بها حريمه أخذت مقتنياتها. وجعل بورمون قصر الباشا مكانًا للحكم. بالأسفل كانت البحرية قد انتهت من احتلال مباني الميناء، واستقرّ الأميرال دوبيري بها، حانقًا على كل شيء، وانتقل حنقه إلى جنوده الذين عادوا خائبين من القصبة بعدما أفرغ الـمُشاة محتويات قُصورها، وتركوا لهم سقائف مليئة بالأوراق.

أشقُّ شوارع المدينة، أرى الشيوخ يَفترِشون الأرض، ينظرون إلى جنودنا الراكضين، والأطفال يصرخون في أحضان أمهاتهم، والرجال نكسوا رُؤوسهم. أين فرحة المسيح ونوره الذي آمنت به، يوم رَحيلي عن مرسيليا مثل حاجٍ يهدف إلى أورشليم؟ أو مثل حواريٍ يُغادر المدينة يُخبِئ الوصايا تحت ثيابِه. أذرع الشوارع باحثًا عن ابن ميّار، ولا أجده، ربما ذلك الرجل يمكنُه إجابتي عن بقية الأسئلة التي كانت مُعلّقة بيني وبين كافيار، عن تاريخٍ غامضٍ للمدينة وأهلها. وقفت قبالة الميناء، وكأني بكافيار يذرع الرصيف، ثم وقف وأبصر تجاهي، وبلغتني كلماته: يا ديبون قد انتهت الحملة، عليك الآن الرجوع إلى مرسيليا، لتُعيد صَياغَة ما دوّنته هنا. سيَحتفُون بك في السيمافور، وتصبح نجمًا لامِعًا، ودعك من أمر الحُروب إنها لا تَعنيك في شيء، لست من الصلابة تحتمل حقيقتها. إذ لم تُكتب العُهود بين الأُمَم إلا لتَخرقها القويّة منها. عُد إلى بيتك، استمتع بشبابك، ودع كل شيءٍ للقيصر.

يغيب الصوت وأكرِّر خلفه: في إفريقية لم تُخلِّفوا شيئا لله، كل شيءٍ قد آل إلى القيصر.

كافيار

مُختارات من الدِّيوان الإسبَرطي.

دُوِّنت ما بين 1816 و1830

اللوحة السادسة

أفيق على غُرفةٍ مُختلفةٍ، ولا أذكر من بقايا أيامي السّابقة إلا القليل، مثل كابوسٍ محمومٍ قطعت الطريق الـمُوصل إلى البيت الرِّيفي للقُنصل السُّويدي، أستفيقُ فأراه إلى جانبي، يبتسم ثم يُحدثني: أعدك أنك لن تتجاوز أيامًا ثلاثة حتى تشفى. لم أودّ الرّحيل عن المدينة، شعرت أن هناك أمكنةً لم أكتشفها، وحين أوشكت على ذلك داهمتني الحمّى. يعتذر القُنصل ثم يرحل، أغادر سريري، وأنظر من نافذة البيت إلى البُستان، لا أدري كم من الـمرّات طالعته بها خلال سنوات، ولكنني لم أنتبه إلى أزهار اللّوز، يتصاعد شَذاها إلى الأُفق، أملأُ صدري من عَبقها، فتعود بي إلى أيام الطُفولة، كم شَبكة كان على الطفل كافيار أن يُغرقها في المتوسط حتى يَعود مَزهوًا بالرنكة إلى بيته؟! والآن كم من خريطةٍ وَجَب عليّ رسمها؟! تـمرُّ السَنوات ولا يَتغيّر شَيء، تتراكم الدّفاتر من حولي، يركض الزَّمان ويَتجاوزني. كان لا بدَّ لي من مساحةٍ للتفكير في السّنوات الـماضية، وإلى أين يمكنُها المسير بكافيار وأحلامه.

أتطلّع إلى البُستان، أحاول عبثا ترتيب الصُّور في رأسي، أختار للخرائط مكانًا، وللدفاتر مكانًا آخر، وأقارن بينهما، فتَهبُّ المايسترال وتُبعثر كل شيء. لم يكن مُجديًا الاستغراق حتى أستعيد عافيتي. أحمل نفسي وأسير خطواتٍ تجاه السرير، وأستلقي عليه، أحدِّق في السَّقف طويلاً، أبحث عن قوارب جديدةٍ ستُقلع من سات، أتوق إلى مرافقة أحدها. لولا الخوف من رؤية القراصنة الأتراك. من مَكاني يَصلني الصَّوت، أطلُّ من النَافذة فلا أبصر أحدًا، ثم أرى فتاةً تركض بين الأشجار، ولا تتوقّف عن الصِّياح، كم تُزعجني الأصوات الصّارخة بهذه اللُغات، تُغادر أفواه اليولداش برائحتها النّتنة وهم يحملون أسواطهم، أو يصرخ بها أطفال المور وهم يركضون خلفنا: كِريستياني كِريستياني. كان الصوت لا يزال يَتعالى، هَممت بنهرها، وخذلني صوتي. ثم رأيتها تَركض بجنونٍ بين الأشجار في اتجاه البيت، ووَقفتْ تحت النّوافذ، راقبتها مَلياً ثم أسرعتْ عائدةً حين سمعت نداء أحدهم، قَدّرت أنها ابنة بُستاني القُنصل. لم أكن لأتّفق معه كثيرًا في طريقة تصرُّفه مع عُمّاله، كأنْ يُعاملهم مثل أصدقاءٍ يُقاسمهم الأكل أحيانًا، ولم يكن مبررًا من قُنصل أن يتواضع فيُساوي نفسه مع هؤلاء الفلّاحين. سيَثُورون عليه يوما ما، وربما يقتلونه. يُعلِّمك الـمُور والأعراب ألّا تَثِق بهم، تترك بينك وبينهم مسافة الرّهبة، كيلا يتجرؤوا حتى على رفع رؤوسهم في حُضورك، بهذه الطّريقة فقط استطاع الأتراك إحكام قبضتهم على الجزائر قرونا ثلاثة، وبهذه الطّريقة أيضا يُمكننا إخضاع الـمدينة لنا بعد احتلالها.

لم يخطئ القُنصل حين قال: إنها أيامٌ ثلاثة فقط. وأستعيد صحتي، استيقظت في اليوم الرابع أكثر نشاطاً، حتى رِجلاي كانتا تحثانني على السّير مسافة

طويلة، خطوت إلى الخزانة، وما إن فَتحتُها حتى وجدت كل ثِيابي وأحذيتي، كان القُنصل حريصًا على مقاسمتي الحياة التي يعيشها مثل صديقٍ وجعلني سيدًا مثله على خدمه، بالتأكيد لم تكن المرّة الأولى، ولكنني أعيد اكتشافها كلما قدمت إلى الرِّيف. أسحب من الخزانة أقرب الثياب إلى يدي، وأغادر البيت، كانت الأشجار ما تزال تحتفظ بزُهورها القُرنفلية. ولكن خفّ شَذاها. يخشاني الفلاحون أكثر من القُنصل، كنت أعرف ما يحملونه تجاهي من كَراهيةٍ، ولم تعنني، لم تُضف محبة هؤلاء لبعضهم شيئًا فما بالك بي، وأنا الغريب عنهم. لا تختلف ذهنيات أولئك الفلاحين إلا بالقدر اليَسير عن الـمُور. ميّالون إلى الاسترخاء، لا يعملون إلا والسّوط فوق ظُهورهم، اعتقدت دائما أن الشُّعوب الإفريقية والعربية لا يُمكنها تحقيق مصالحها إلا بالفرد الأوروبي. لا يستطيعون تنظيم حياتهم، يجب دائما أن يكون هُناك سيّد ينوب عنهم، يُسيِّر لهم حياتهم، وهُم ليس عليهم فعلُ شيء سوى الجدّ في العمل، ولكنّهم بالرغم من كل هذا تجدهم أميَل إلى الكسل، قانعين بحياة لا تختلف كثيرًا عن حياة حيواناتهم.

اللوحة السابعة

الأيّام الأخيرة لإزهار اللّوز، والقُنصل غائب منذ يومين في المدينة، وحين أظلمت تجاوز يومه الثالث. عُدت إلى غُرفتي، فَتَّشت بين أشيائي، فلم أجد دفاتري ولا خرائطي، تركها القنصل كلها بـمنزله في الجزائر، ولم يشأ أن يكون مقامي هنا إلا بغية شِفائي.

على أصوات عَجلات العَربة استيقظت مُتوثِّبا، ونَزلت الدّرج، شعرت أن هناك أشياء كثيرةً قد حدثتْ في غِيابي، ولكن ملامح القُنصل لم تَشِ

بشيء. سِرت إلى جانبه وعبرنا باب البيت حتى كُنّا في البهو، كان مُتعبًا من الطريق، ولم أستطع الانتظار حين شرعت أتقصّى منه تفاصيل كل شيء، السُفن التي رست في ميناء الـمدينة، وكم مرّة زار فيها دوفال قصر الباشا، وهل ما زال أعيان اليهود يزورونه في بَيته، وكل التّفاصيل الأخرى، عن آغا العرب، وعن وكيل الخَرج، وعن خزناجي الباشا، وحتى عن شُوّاشه، والأعراب الذين عند أطراف الـمدينة، هل نقلوا خِيامهم أم أنها ما زالت هُناك عند الطّريق الـمُوصلة إلى سِيدِي فرج.

صمت القنصل أمام أسئلتي، ثم حدّق بملامح مختلفة، بدا مترددا ولكنه خاطبني:

- أنت تعرف أنه كان دائما مريضا ولكنه لم يُخبر الجميع!!

- عمّن تَتكلم؟

- أخبرتني أنه كان يتألم حين كنتم في واترلو، ولكنه لم يُظهر ألمه خشيةً على معنويات جُنوده.

- لِماذا تَفعل هذا بي، قُل كل شيء دُفعةً واحدة.

- أنا آسف، قد مات نابليون في منفاه.

لم أستوعب لحظتها كلمات القُنصل، صرخت غير مُصدّقٍ. هل يُعقل أن يـموت رجلٌ مثل نابليون في جزيرةٍ نائيةٍ في الأطلسي؟ هل قُدّر لعظيم مِثله أن يُدفن هُناك بعيدًا عن أوروبا؟ أعجز عن تخيّل جسده صامتًا وباردًا في صُندوقٍ خشبي. لم أنتبه إلى أسئلتي التي تعالت في وجه القنصل: كيف مات، هل قتلوه أم أنه مات مريضا؟ رُبـما وَضعوا له سـمًا في الخمرة؟ لا بد أنها مكيدة مُدبّرة من هؤلاءِ الإنجليز، ظلوا وراءه حتى فرّقُوا من حوله

جَميع جنوده، لم يكونوا مخلصين! بعض الفرنسيين كانوا أقرب إلى الإنجليز منهم إلى عظيمٍ مثله.

ألوذ بالصمت بعد اضطرابي، ولكن الحُزن لم يُغادرني، بينما كان القُنصل مُتعبا من أعباءِ عمله، كل يومٍ تتجدّد مطالب الباشا وهؤلاءِ الأتراك، طمّاعون لدرجةٍ لا تتنبأ فيها بحجم مطالبهم، تَهبهم ألفًا فيُضاعفون الأرقام، مهووسون بالنِّساء والذّهب، لم يكن السُّويديون ليحتملوا تِلك الضّرائب الـمُتجدّدة. كرّرت اعتذاراتي للقُنصل الذي بدا مُتفهما كفايةً لحالتي، وأخبرني قبل صعوده إلى غرفته أنه عائد إلى المدينة بعد استراحة ساعة أخرى.

عرفت من القنصل أن نابليون قد فارق الحياة مُنذ أشهرٍ، وتساءلتُ: هل كانت الحمى التي اشتعل بها جسدي إشارة تُعلن عن موته؟ ربما قد تكون كذلك، فلا يرحل الكِبار دُون إعلانهم عن ذلك.

بصعوبةٍ ارتقيت الدّرجات إلى غُرفتي، كأني أدخلها للمرة الأولى. ما الذي يُبقيك هنا يا كافيار؟ تـمرُّ السّنوات ولا يتحقّق ما تريده، قد مات الرجل الذي كان يشعل أحلامك كلها خمدت. ولكنك يا كافيار لو ظللت مُؤمنا أن نابليون كان مُجرّد قائدٍ عاش عُمرًا من الانتصارات ثم هُزم، فقد تكون مُخطئا. نابليون أكبر مما تعتقد، إنه فكرةٌ لا تفنى يجب أن تُؤمن بها، مثلما آمنت به قائدًا عَظيمًا طوال السّنوات الـماضية.

أقف عند النافذة أبحث عن مزيد من الهواء، أملأ به صدري، ولكن نسمة الهواء الباردة لا تُسعفني في شيء، أُشيِّع بعينيّ العربة الراحلة بالقُنصل، ندمت أنني لم أودعه، ولكنني ندمت أكثر على أشياء كثيرة رغبت لو قمت بها قبل رحيلي عن واترلو، أشياء لا يمكن أن تُفهم حتى

ولو بُحت بها لفرنسي آخر. لا يمكن يا كافيار أن تظلّ مُعلقا، قد مضى الوقت، انتهت الـمعارك في أراضي الشّمال، ويجب أن تشتعل في إفريقية. في لحظة ما يمتدُّ إليّ صُراخها من النّافذة، ثم أراها تركض بين أشجار اللّوز. نقلت بصري إلى نهاية البُستان، فرأيت البُستاني مُتمدِّدًا عند طرفه، اشتدّ حنقي، لم أفهم الرغبة التي تَملّكتني ساعتها، نزلت وعبرت المسافة حتى بلغت مكانه، وقف مُطرقًا أمامي، أمرته بالعودة إلى عمله، فهَمهَم بكلماتٍ لم أعِها، وأعدت طلبي فكَرّر تمتمته. شعرت أن هذا الفلّاح كان يَتحدّاني بكلماتٍ رِيفية لم أَعهدها، نهرته ولكنه لم يُغيّر جُملته الغَريبة، ولم أنتبه إلى يَدي التي لَطمته، كنت أريد إبعاده عن ناظري، ولكنه سقط، هل تَصنّع سُقوطه، أم أنه كان بالفعل مُتعبًا من العمل؟ لم تعنني الإجابة عن السؤال، بقدر ما أزعجتني نظرة الفتاة الوقحة، وصراخها الحاد.

نظرة نساء الـمُور قاسية، تُولِّد الخوف في داخلك، تَحتدّ نِهايات العُيون، وتَتشعّب العُروق الحمـراء في بياضها، كأنّهـا تَتوعّدك بالموت. انحنت وأسندت أباها ثم رحلا سويا، وعدت إلى البيت عازما على طردهما من المزرعة، ولم تمض إلا أيام قليلة حتى بُلِّغت بأن الفلّاح قد مات تحت وطأة الحُمّى، وأن ابنته فرّت في عُمق الظّلام.

اللوحة الثامنة

تُرغمك الاستفاقة في إسبرطة في يومٍ مُختلفٍ كهذا، على النظر إلى ماضيك كأنه بَقايا أحلام مُشتّتة في الذّاكرة، ووجوه صارت مألوفة بعد أن ظللتُ سنوات أحفظها، وأيضا لُغَات صَارت تَجري على اللّسان مثلما يتكلّمُها أهلُها. الآن لا يجرؤ أحد على مخاطبتي بلغةٍ يدّعي أنني لن أفهمها،

لن أضطر إلى تفحّص الوُجوه لأقرأ ما تُبطنه النُّفوس، الـمُور والأتراك والأعراب والقَبائل وحتى الصَحراويين، أعرفهم مثل أصابع يدي، والأرض الـمُمتدّة من حول إسبرطة مثل راحتي. أبصرُ جوانبَ الغُرفة، ركام من الأوراق وحُزم الدّفاتر، والجُدران مُكتظة بالخرائط. أقف في قلب الغُرفة، وأبسط يدي، شُعور بالزّهو، كأنني في طَلائِع الجيش، أُنظّم سَيرهم، وأحدّد لهم الدُروب التي سيسلكونها بدءًا من سِيدي فرج وانتهاء إلى حصن الإمبراطور. أُطأطئ رأسي وأبصر الفراغ مكان الأصبع، وأتمتم: ستُقطع آلاف من الأصابع من أجلك. وأنزع ثيابي، غاب أثر الأسواط عن الجلد، ولكنه لم يَغب عن الرُوح. ستُجلد آلافٌ من الأجساد لتَخبر العذاب الذي انتاب جسدك. أعيدُ ارتداء ثيابي، وأطلُّ من نافذة البيت، فأرى الجبل الرُّخامي، قدّرت أنهم مازالوا هناك، يحملون الصُّخور حتى تتشابك عظامهم. لا تحزنوا يا رِفاق، لم يبق إلا زَمنٌ يَسير حتى يحملوا عنكم تلك الصُّخور الرُّخامية، وتتلوّن وُجوههم برمادها الأبيض. أُشيح بوجهي عن منظر الجَبل نحو الـمدينة، ظَلّت زمنا على حالها عدا ما حدث قبل سَنواتٍ قَليلةٍ. الإنجليز مُستمرون في حماقاتهم، غادر القُنصل حين اختلف مع الباشا بعدما أمره بتسليم خُدّامه من القبائل الثائرين. يصرّ الانجليز على التحلّي بالأخلاق الأوروبية الـمُبالغ فيها وهم بإفريقية. هنا لا يَنفع إلا أن تَتصرّف مثلهم. قد اعتاد الشَّرقيون استعارة أخلاقهم من الطبيعة التي حولهم. فلِمَ نُضطر إلى حمل أفلاطونيتنا إلى هؤلاءِ؟ كان عليه أن يفعل مثلما فعل دوفال، طلب من القبائل الثائرين مغادرة بيته، وأخبر القائد أنهم فرّوا في اللّيلة الماضية. كان القائد التركي يُريد فقط أن يُوافقه أحد على أنهم خارجون عن القانون، حتى لو لم يقبضوا عليهم، يكفيهم إيمان الناس بأنهم

الحكّام. لم يستطع القُنصل الإنجليزي معرفة ذهنياتهم رغم السّنوات التي قَضاها في إسبرطة.

أنظر إلى المدينة وأعدُّ أبوابها من مكاني، وأخمِّن من أيها سَأعبر، أمِن الباب الشّرقي أم من الباب الغربي، أو ربما الجنوبي؟ إذا قررنا الزحف بالمشاة فلا بدّ لي من عبور قوس بابها الجنوبي، لو يستطيع كافيار أن يكون أكثر من واحدٍ كي يعبر كل أبوابها دُفعةً واحدة. ثم تجتمع الصُّور في قلب الـمدينة، يكفيني أن أعبر من أفضل أبوابها، وأترك البقية للجُنود، في ذلك اليوم سأحرِّرهم من كل القُيود العسكرية والأخلاقية التي يلتزمون بها في حُروبهم بأرض الشّمال. سيفعلون ما يريدون، عليهم فقط اعتناق فكرة أن الأرض التي تطأها أقدامهم، هي مِلكٌ لهم، ولا يُنازعهم فيها أحد حتى ولو كان أميرالا على الجيش.

يتعالى طَرقٌ على الباب، ثم يُفتح فأرى القنصل، يقترب منّي، نُطل على الـمَدينة، ونُحدّق بها مليا ثم يُكلمني:

- أخشى أن تستغرق السنوات باحثا وألّا يتحوّل حلمك إلى واقع؟

- إنني أستمتع الآن يا صديقي باللّحظات الأخيرة، أحيانا تكون لذَّة البحث أفضَل من تَحقيقِه.

- يَعني أنك ستقابِل دوفال وتُرتّب معه موعدا لرحيلك إلى باريس؟

- هذا ما أفكر به منذ شهر، ولكن كيف يمكنني إقناعهم بمشروع الغزو.

- يَلزَمُك الآن إقناع دوفال فقط.

- لا يحتاج دوفال أحدًا يُقنعه، بل من يضمن له فائدة من الـمشروع كله.

في الطريق إلى القُنصل دوفال، اختلقت حُججا كثيرةً. شعرت حين قابلته أنه يُبيّت أشياء أخطر من التي أفكر بها. نادى على خادمه الذي عاد

يَحمل فنجانَي القهوة. أجزم أحيانا أنه لو قُدِّر له وكان مُمثّلا في الـمسرح، لصار أفضل من اعتلى الـمسارح الأوروبية. يَتقمّص الأدوار بطريقة عجيبة وكأنه وُلد في تلك الأمكنة، جلسنا مُتقابلين نستمتع بالقَهوة، ثم تحرّى وجهي كأنه يقرأ في عينيّ الرّغبات التي حملتني إليه، وبادَرني:

- هذه الأيّام هي أسوأ الأيّام التي لوّنَت العلاقة بين الباشا والملك.

- أهو موضوع الدُيون مرة أخرى؟

- نعم، الباشا يُصرُّ كعادته على طلب مالٍ ليس من حقه، واليهوديان قد وقّعا على وثيقة استلامهما كُلّ دُيونهما، وكتما الأمر عنه.

- وما الذي سيفعله عندما يكتشف الأمر؟

- سيقطع رأسيهما. وأنّى له ذلك وقد فرّا إلى أوروبا!

- نعم، اليهود أكثر الناس حَذرًا، ليسوا كهَؤلاءِ الـمُور.

- وأنت ألم تُقرِّر بعد العودة إلى باريس؟

- هذا ما دفعني لأزُورك اليوم.

- لن أعدم وسيلة في خدمتك.

- أريد لقاء وزير نافذ لدى الملك؟

- ولماذا؟!

- في باريس يوجد من لديه الرغبة في تنفيذ المشروع الذي استغرق سنوات من البحث، يجب أن نغزو هذه الربوة في القريب يا سيدي كفاهم تأجيلا.

- هم يبحثون عن سببٍ مُقنعٍ، ورُبما للإنجليز أيضا، قد اعتادوا الاعتراض على كل شيء.

- أنا أكثر الناس معايشةً لهذا الأمر.

- لن تنتظر كثيرا، زيارتي القادمة للباشا ستحمل الكثير معها، سأقصد قصره كي أُهنّئه بالعيد. سيسألني مرة أخرى عن الدُيون. وسأُنهي معه الموضوع في حينه.

بدا لي دوفال مُصرًّا على إنهاء الموضوع مع الباشا، ولكنني لم أعِ إن كانت تلك أوامر صادرة من باريس، أم أنه اجتهادٌ شخصي. في الطريق بحثت عن إجاباتٍ مقنعةٍ، ولكنني وأنا أعبر حديقة البيت انصرفت عن بحثي، وقد كانت النتيجة واحدةً. القطيعة بين الباشا والملك، وإعلان الحرب.

اللوحة التاسعة

يُقبل القُنصل تجاهي وملامح وجهه مُتغيرة، أستقبله في البهو مستفسرًا، فيجيب: اعتدنا على تهوّر دوفال، ولكن ما حدث هذا المساء كان مُبالغًا فيه، لقد أهان الباشا. واستغربت كيف أنه لم يقتله، ضربه بالمروحة فقط. كان القُنصل يعيد ما حدث في الديوان بينما تدفّق السرور إلى داخلي، الفرصة التي انتظرناها طويلًا استعجَلها القنصل بإهانته للباشا.

في طريقي إلى بيت القُنصل دوفال، فكرتُ أنه سيحتفل وحيدًا بهذه الليلة المغايرة. وجدته يقف عند باب بيته، كأنه كان ينتظرني. ابتسم حين رآني عند الحديقة، ثم توسّطنا البهو، نتقاسم الأنخاب، ونقرع الكأسين بعضهما ببعض، كم كانت لذّة الخمر مختلفةً، مع سَرد دوفال للحكاية، يظلُّ رجلًا ممتعًا مثلما كان المشهد الذي أعاد تمثيله أمامي بالأصوات واللّغات كلها. لم يخب ظنِّي فيه، دوفال كان أفضل ممثلٍ أنجبته هذه الأمة العريقة في

المسرح. ولكنه غيّر الوجهة من مسرحِ وهمي، إلى مسرح الحياة، وما أعظمَه وأخطرَه! خطأ واحد يؤدي إلى فقدانك رأسك. حدّثني دوفال أنه لم يكن خائفًا وهو يُهين الباشا، بل كان مُتيقّنا من عدم قتله، مادام المال معلقا ببقائه حيًا. وبدا لي أيضا يومها أن لدوفال يدًا ممدودةً في مال اليهوديَّيْن، كان قادرًا على اللعب فوق الحبال كلها دون أن يسقط، أو أن ينتابه خوفٌ من النار التي بالأسفل.

ليلتها شربنا الكثير من الخمرة المعتّقة القادمة من الشمال، يعرف دوفال كيف يعيش الحياة في الجزائر، وكيف يستحضر باريس في بيته، الكتب والتماثيل والخمور. عدت إلى بيتي مُترنحًا، أشدو بأغنيات قديمة غنيناها يوم سرنا تجاه واترلو. أحدثتْ حركاتي جلبةً في البيت استيقظ لها الخدم، ولكنهم عادوا ما إن رأوني أوصد الغرفة على نفسي، وأستمرُّ في غنائي.

أفقت في اليوم التالي على صداع يشتد في رأسي، وعرق يتفصد من جسدي، وقفتُ ونزلت الدرج، وطلبت من الخادم إحضار كأس من عصير الليمون، وعادتني أحداث الليلة السابقة، كنتُ مُختلفا فعلًا، إذ شربت بها ما لم أعتد شربه في شهرٍ من الخمر.

اللوحة العاشرة

مرّت ثلاثة أسابيع على حفلتي مع القُنصل ولم يحدث شيء، أتوثّب لأيّ قادم من البحر، ما إن أقف عند سيدي فرج حتى أشتم رائحة خُمورهم. وتمرُّ السفن بموازاة الخليج، أمدُّ بصري مُستجليا، وتخيّبني أعلامها، ثم أعيد الرحلة في اليوم الثاني، أقطعها على قدمي. الآن لم أعد في حاجةٍ إلى

خرائط من أجل البحث أو تتبّع مساراتٍ جديدة، كأنها حُفرت المسافة في ذاكرتي، وبمجرّد أن أغمض عيني تتراءى كلها، حتى الأرقام والتفاصيل التي دوّنتها عن العرب والـمُور والأتراك، صارت هي الأُخرى مُرتّبة في ذهني، أحيانا تدهمني رغبة القفز في البحر والتجذيف حتى أبلغ سات، ثم أعدل عن ذلك، بعض الجُنون لا يتخلّص منه صاحبه حتى بعد سنوات طويلة. وهكذا مرّت الأيام الأولى من الأسبوع الرابع، دون أي سفينة فرنسية في الأفق، وحتى دوفال كان غائبًا ومُنعزلًا عن العالم من حوله بعد الحفلة التي جمعتنا.

استفقت على صوت القُنصل، وقد دخل غرفتي أثناء نومي، كلّمني عن سفينةٍ فرنسية رست بميناء الجزائر. والتَحق دوفال بها، بينما نزل منها رسول الملك إلى الباشا. ارتديت ثيابي، ونزلنا معا إلى الميناء، لكنهم لم يسمحوا لنا بدخوله، كانت حركة الرّياس مُضطربة، حتى جنود اليولداش اجتمعوا أسفل المدينة على غير عادتهم، لم نُطل المكوث عند باب الميناء، حين رأينا وجوههم الـمُكفهرّة، خشينا ارتكابهم حماقات جديدة، وحين هَمَمنا بالرحيل رأينا الرسول من بعيد في عربته، عَبَر باب الميناء، بدا قلقًا في سيره المتعجّل، ثم رحلت السفينة عن الرصيف، وانسحبنا عائدين إلى البيت، استبدّ بي القلق ذلك المساء، كان القُنصل حينها يجلس قبالتي، وحين لم يرقه طول سكوتي قال:

- فيم حيرتك ورسول الملك قد عاد خائبًا؟

- أتساءل فقط هل سيعود دوفال أم أنه سيبقى في باريس، وقد كان بيني وبينه اتّفاق.

- لستَ مُلزمًا الآن بالبقاء هنا، عليك اللحاق به، كل شيء صار جليًا بدءًا من هذا الصباح، سيرحل الكثير من الفرنسيين الـمُقيمين هنا، هذا إن لم يطردهم الباشا.

- ربما أنت على حق، سننتظر صباح يوم آخر، فربما يحمل جديدا.

كانت تخميناتي في محلِّها، إذ لم تطلع شمس يومٍ جديدٍ، حتى نُودي في كل الـمُقيمين من الفرنسيين، الإفرنج مثلما كان يسميهم الـمُور والأتراك. اجتمعنا أسفَل المدينة، وسِرنا إلى باب القصبة. اليولداش يحوطوننا من كل جانبٍ، كان ذلك اليوم الوحيد الذي اقتربتُ فيه من قصر الباشا، وسمحوا لبعضنا بالدخول. أمرنا اليولداش بالصمت فصمتنا، ثم قالوا لنا لكم الحرية في البقاء أو الرحيل، معيدين سرد ما جرى بين القُنصل والباشا.

في انحداري عبر سقائف القصبة كنت مستاءً من بعض الفرنسيين الذين فضّلوا مصالحهم على مجد أُمتهم، إذ اتهموا القُنصل دوفال في حضور ممثِّلين عن الباشا.

بعد أيام كنت أُعد حقيبتي لأعود إلى باريس، وقد قررت ألا أدخل سات إلا حين نغزو هذه المدينة.

في العربة كان القُنصل حزينًا، أراد بقائي إلى جانبه، ولم يشأ الوقوف حجر عثرة في طريقي وهو الذي فتح باب بيته لي سنواتٍ عديدة، عمّقت معارفه إدراكي لهذه المدينة الإسبرطية. عبرتْ بنا العربة شوارع المدينة بعجلةٍ، ولم ننتبه إلا ونحن عند الميناء، ترجّلنا عنها وتعانقنا طويلًا. كان الميناء غاصًا حولنا بالفرنسيين العائدين إلى مُدنهم، بعد أن جاءت سفينة لتُقلَّهم، طُلب منا الصعود على متنها، فتباطأتُ لأكون آخر الصّاعدين.

الرحيل عن إسبرطة، هو نوعٌ آخر من العودة إليها، يدخلها كافيار الـمُقيّد بالأغلال، ليعود إليها من أجل وضع الأغلال في أرجل الأتراك والـمُور. ردّدت الجملة وأنا أصعد السفينة، وفي آخر إطلالةٍ لي على إسبرطة، أدركت أن أيام الرحلة لن تكون إلا إبصارًا تجاه الشمال.

ابن ميار

باريس مرّة أخرى، مدينة مفتوحة على احتمالات كثيرة.

تشقّ بنا العربة شوارعها الواسعة والممتدّة، وكأنّ الحوذي توقّع وجهتي، رغم أنني لم أعلمه بها، إلى أن توقّف عند الفندق الذي اعتدت الإقامة به. حمل عني الحقيبة وأنزلها، وحدّق بي عامل الفندق مليًا، وحين تذكّرني نطق اسمي ملحونًا. صعدت الدرجات إلى الغرفة، واستلقيت على الفراش، أردت استعادة نفسي من الرحلة الطويلة. قمتُ وتوضأت، ثم صليت ودعوت الله طويلًا أن تنجح رحلتي، التي لم يُوافقني الجميع عليها. ظلّوا يعتقدون أنهم لن يُعيدوا النا شيئًا، وظللتُ متشبثا بتفاؤلي. عدت إلى الفراش واستلقيت، حدّقت في الزّخرفة الجميلة التي عَلَت الباب والنافذة، كانت الأشكال مختلفة عن تلك التي خلّفتُها على أبواب المحروسة ونوافذها. الله حاضرٌ دومًا معنا حتى في زَخرفتنا، كأننا نَستغفره على تلك الأخطاء التي نُبيح لأنفسنا اقترافها، فنَحتفي باسمه على الدوام، ونجعل اسم النّبي الكريم أيقونةً بخطوطٍ مختلفة نُعلقها في بيوتنا ومساجدِنا. أقف وأطلُّ من نافذة الغرفة، فتتراءى لي كنائسهم الشّاهقة. كان في مقدورهم طلب بيوتٍ أخرى ولكنهم أصرّوا على المساجد. أشيح ببصري عن النافذة، ولكن الصُور تُحاصرني من كل جانبٍ. كان أعيان المحروسة يدركون أنني مُقدّم

عند القائد، لذا ظلّوا يُلحّون عليّ أن أتشفّع لهم، وفي كل مرة يُعيدني خائبًا، أقف أمام باب القصر، يعترضني الجنود ولا يسمحون لي بمقابلته، وأظلُّ أكرر عليهم أنني عُضو في المجلس البلدي لمدينة المحروسة، ولا يهتمُّون لكلامي، إلا حينما يتدخل دبيون، ألج القصر وأصعد الدرجات حتى أكون أمامه. أعيد طلباتهم بصياغة مُختلفة، ولم يكن القائد بُورمون ذلك الذي لقيته قبل شهرين، إذ تغيّر بعد موت ولده الثاني في وهران، يحدّق تجاهي وكأنه لا يراني، فأرحل عنه، حاملا خيبتي إلى الأعيان، يُحملقون بي كأنني المتسبّب في ضياع أملاكهم، لم يكن همّي على ما فقدت من ضِياعٍ، بقدر ما كنت حزينا على المساجد والأوقاف التي أُخذت عندما حل بُورمون ومن بعده كلوزيل، ومضت سنوات ثلاث لم نستطع استرجاع أيٍ منها، جامع الباديسان، جامع الرابطة، والصبّاغين، وجامع القبائل، وجامع الرّحبي، وعلي خوجة، وسيدي عمّار التّنسي، وجامع عبدي باشا، لا يمكنني إحصاؤها كلها. كان أجملها مسجد السيدة، قرونا ثلاثة وحكّامنا يُصلّون به، تُؤخذ البيعة لهم هناك، وقد بُني حتى قبل مجيء الأتراك. لا يمكننا تخيّل المحروسة دونه، ثم يأتي كافيار وببساطة يُقرّر تعويضه بساحة مثل التي في باريس، على الدوام لم نعتقد نحن المسلمين إلا في ديننا كخلاصٍ، ولم نَرَ في المدنية الأوروبية أي فائدةٍ.

يومها وقفت أمام كلوزيل، رجوته أن يَعدِل عن قراره، وقف ديبون له مُحاجّجا، ولكنه كان حانقًا عليه أكثر منّي، طردنا من مكتبه، وظللنا نشقُّ شوارع المحروسة حتى بلغنا المسجد، ووجدناه هناك ينتظر المعاول. كنت أرى كل زاويةٍ منه صلّيت بها، وكل جدارٍ اتّكأت عليه، رأيت الباشا يخطب

في الناس يحضّهم على مواصلة الجهاد، والعلماء يتوسّطون حِلَق العلم، والأصوات تردّد البخاري في ليالي المحروسة الخائفة من الحصار. نهبوا كل ما فيه، سُرق منبره، وكُتبٌ لا يَعون منها شيئا، وألواح الرُّخام المنقوشة بأسماء الله الحسنى، والأفرشة التي كانت أجمل ما فيه. ثم ارتفعت المعاول في السماء، وطَفقت تهدُّ جُدرانه، وظلّت على تلك الحال حتى سوّته بالأرض، وبقيَت مئذنته شاهدةً، كل يومٍ أمُرّ بها، ولعامين آخرين تركوها على تلك الحال، تقف وحيدةً في ساحةٍ خاويةٍ من أيّ شيء، وفي يوم اجتَمعوا حولها، أحاطوها من كل جانبٍ، سمعت رجاءها لهم أن يُعيدوا إليها الجدران، ولكنهم ربطوا أعلاها بالحبال، وشرَعوا يَسحبونها ولكنّ الحبال تقطّعت، ضجّوا محتجين، وهتف آخرون اهدموا أسفلها فتنهار دفعةً واحدةً، ثم اتّفقوا على إحراقها.

أحاطوها بالزّفت والحطب، وأشعلوا نارا حولها كي تتفتّت جُدرانها، وهَوت بها تجاه الشرق، ولم يكن الشرق بالنسبة لنا مُجرد جهةٍ، بل إننا كل يومٍ نتّجه بأجسادنا المنحنية إلى تلك الجهة، ولا يختلف حُكامنا عنّا في تقديسها. وسقطتْ يومها مئذنة جامع السيّدة.

ولم يختلف الأمر مع جامع كتشاوة. عَلَت ضجّة الناس ما إن سمعوا قرار تحويله إلى كنيسة، علّمتهم مئذنة جامع السيّدة أنهم سيزولون إن لم ينتفضوا. اجتمعوا أسفل المدينة وقصدوا المسجد للصلاة. كان الدوق روفيغو حينها قد فَصل في الأمر، ثم أحاط به الجنود من كل جانب، واعتصم المـُصلّون به يرفضون مغادرته، وما كان من الجنود إلا أن اقتحموه. تُرى كيف سيكون شعور أي مسيحي لو حُطّمت أبواب سانت شابيل، أو القلب المقدس

أو حتى كنيسة مريم العذراء، وهو بداخلها مستغرقٌ في الصلاة، يدهمها جنود اليولداش، ويخرجون كل ما فيها من الكتب المقدسة، ويحرقونها ثم يصوّبون بنادقهم تجاه الناس؟ هذا ما قام به جنود روفيغو يومها، حطّموا أبواب المسجد، وأخرجوا الناس من داخله بالقوة، كانوا يتدافعُون وهم يغادرونه، حتى اجتمعوا بالباحة، ثم أطلقوا عليهم الرصاص، ركضوا في كل جهةٍ، ثم سقطوا جميعا مُضرّجين بدمائهم، أما بقية الجنود فقد كوّموا كُتب القرآن ثم أحرقوها. لا أذكر أن أحدًا من أهالي المحروسة لم يفقد قريبا، وبعد أيام كنا نُصغي مُرغمين لأجراس الكنيسة الجديدة التي حلّت محل مسجدنا، وقد اعتادت أرجلنا الطّريق إليه، وصرنا لا ننتبه حتى نُفاجأ بأنفسنا أمام الكنيسة، وفي اعتقادنا أن المسجد لا يزال هناك.

تسرّبت نسمة باردة، تغلغلت إلى عظامي، فأغلقت النافذة، خطر لي أن أسير بالشوارع ليلًا، وعدلت عن رأيي عندما تذكّرت لصوص باريس، عجّت بهم الشوارع الخلفية وحتى الرئيسية منها. من الأشياء الغريبة التي أتذكّرها كل يوم، وقد كرّرتها على كافيار، المحروسة التي كنتم ترونها موطنا للبَرابرة لم يكن بها لصوصٌ، ولا قُطاع طُرق، كانت شُرطتها تسهر على حراستها ليلًا ونهارًا. عليكم الاعتراف أنها كانت آمَنَ مدينة في العالم يوم كان بنو عُثمان يحرسونها. يُصدّقني ديبون ويسخر كافيار مني: قل هذا لمن لم يعش في المدينة يا ابن ميّار، إنك لن تخدعني بكلامك.

أُصغي إلى ضحكات النساء والرجال من النافذة، لا يمكن لهذه الشوارع أن تتخلّص منهم، يلفظ الليل أسَافَل الناس، يحومُون في جماعات، يشربون ويغنون، ثم تنشب المعارك بينهم، وربما يلتقون في أعمالهم في يوم ثانٍ ناسين

كل شيء، بهذه الطريقة يعيش الناس في المدن الكبيرة، وربما بعد سنواتٍ قليلة فقط حتى تُصبح المحروسة مثلها. يستطيع السّلّاوي الحياة في أمكنةٍ مثل تلك، لم يكن ميالًا إلى الدين بقدر ما كان يميل إلى مُتع الحياة، يُحبُّ أن يجرّب أن يكون إنسانا خطّاءً، ولم يكن يستوعب ذلك وهو مُستغرق في مُتعه، يرتاد الحانات، ويُسامر البغايا، يُحبهنّ أكثر من حبه لأهل المحروسة.

أستيقظ في يوم جديدٍ، وأحمل حقيبتي، لأشقَّ شوارع تتدفّق بالحياة، وتمتزج حركة الأجساد بحركة العربات، أنادي على إحداها وأصعد على متنها، ثم أطلب أن يقلّني إلى قُنصلية إسطنبول. وتشقُّ بي العربة الشوارع الضّاجة بالناس، أستغرب ركضهم المتواصل دون توقفٍ. يختلف الزمن في أوروبا، يسير بوتيرةٍ سريعة، بينما لا يتغيّر في إفريقية، ربما لطبيعة البشر، فهذه الأمم قد وجدت ضالتها في مصانعها، وتجارتها. صار كل شيء قابلا للمتاجرة فيه، ومع هذا لم يتخلّوا عن منابع لهوِهم، تظلُّ المسارح مفتوحة، يتدفّق إليها الناس، وحتى عندما نمرُّ بدار الأوبرا، نرى بناءها الجميل، تُرى ماذا سيُعرض هذا المساء، وهل يكفيني الوقت كي أحصل على تذكرة؟ أشيح ببصري مبتعدًا عن النافذة متذكّرا القنصل، هل يدرج على عادته، يستقبل الصباح في بُستان بيته، يدخن غليونه الطويل، ويتأمّل حركة الزّمن المتسارعة، أم أنه تحول إلى تاجرٍ مثل هؤلاء الباريسيين؟ ترتجُّ العربة بي، فتتشتّت كل الخواطر، ويبتعد وجه القُنصل، ثم أراه إلى جانبي، يلّوح مودعًا الباشا في رحيله إلى مقامه الشّتوي. كان ذلك منذ سنتين قد خلتا، ولا أذكر عدد العرائض التي أرسلتها مُستعطفا السّلطان المعظّم ليتدخّل ويعيد المحروسة إلى سلطانه، ربما مئة أو أكثر أرسلتها من أمكنة مختلفة، وعبر أناس

كثيرين، التُجار، والجنود، والسياسيين، وحتى أولئك الذين لم يكونوا من المحروسة، إنجليز كانت المصالح تجمعهم مع السلطان، أصدقاء من تونس أو طرابلس، وأيضا حاكم قسنطينة لم يتوقّف عن إرسال عرائضه المستعطِفة، يرجوهم مدّه بالسلاح والجنود. كل سنة يُحاصره الفرنسيون، ويعودون خائبين، ولكن مُقاومته لن تستمر طويلا. إذن ما الذي يحدث في إسطنبول وجهلناه؟ ما الذي يُؤخّرهم عن استعادة المحروسة وقد كان السلطان يحتفي بها، ويراها ثغرًا من ثغور الجهاد؟ لم أستوعب كيف يحدث هذا، ثلاث سنوات ولم يتغيّر شيء! أنتبه إلى تضاؤل عدد الناس في الشوارع، ومن ثم إلى انعطاف العربة، سارت مسافة ثم توقّفت، وكنا حينها قد بلغنا بيت القُنصل، رافقني خادمه إلى البهو حيث وجدته في انتظاري. جلسنا متقابلين بينما كان يحشو غليونه، حدّقت بالخادم الشرقي الأسمر الذي وضع الفنجان الأول، ثم غاب ليعود بالثاني، تظلّ السلوكيات العثمانية تُرافق القُنصل. حلّ بباريس منذ سنوات إلا أنه لم يُغيِّر شيئا منها، أشعل غليونه، وخاطبني:

- ما الذي حدث لك يا ابن ميّار، سنتان تُسرعان بك إلى الشيخوخة؟

- لم تعد لنا طاقة على التحمّل، الفرنسيون يضطهدوننا من جهة، والسلطان لا يبالي بنا، فكيف لا نهرم يا سيدي؟

- السلطان قد بذل كل ما في وسعه، أرسل رُسله للصلح قبل بداية الحرب، ولكن الباشا تعنّت برأيه، أما في المرة الأخيرة فقد احتجز الفرنسيون الرسول وأعادوه إلى طولون ولم يطلقوا سراحه إلا بعد اجتياحهم المدينة.

- ولكن السلطان الـمُعظّم لم يكن هينًا سلطانه، ولا جيشه أيضا، فلِم لم يتوعدهم؟

- قد تغيّر العالم القديم ونحن الآن على مشارف عهدٍ مختلفٍ، الدولة التي كانت قوية لم تعد الآن مثل سابق عهدها، كل يوم تفقد أرضًا، الحرب مع روسيا مُشتعلة، ومحمد علي باشا بعد أن ساوم الفرنسيين لينوب عنهم في احتلال الجزائر، صار يبحث عن مجده الشّخصي في جزء آخر من هذه الدولة، وأمكنة أخرى لا تَفتأ تشعل الحروب تريد الانفصال، فكيف يلتفت السلطان إلى الجزائر وحدها؟

- ولكن للجزائر وضعٌ مختلفٌ.

- منذ سنوات ثلاث وأنا أتحاور مع الفرنسيين بالتعاون مع الانجليز وقد كانوا ضد الحملة على الجزائر، لكنهم سئموا من مماطلة الفرنسيين. أتدري بِمَا كانوا يُجيبوننا؟

- بِـمَ؟

- قالوا لنا: «اعتاد باشا الجزائر توقيع المعاهدات الدولية دون مشاورة السلطان في إسطنبول. وهذا كفيل بأن نتعامل معها على أنها دولة قائمة بذاتها وليس لكم أي سُلطان عليها، فلِم تُطالبون بإعادتها لكم؟!».

- لا يمكن أن يستوعب الأوروبيون كيف تقوم الدول في الشرق، أو مع نظام الخلافة إذ لم تخضع فقط للسياسة، بل أيضا إلى كونها أمـة مُسلمة واحدة.

- هم لا تَعنيهم هذه الأشياء يا ابن ميّار، قد تخلّصوا منها منذ زمن، لا يحكم الله علاقاتهم، بل يحتكمون إلى دَساتير هُم من شرّعها حسب حاجاتهم، وينظرون إلى العالم من حولهم أيضا من خلالها، فإما أن نكون الأقوى لنفرض وجهة نظرنا، أو نرضخ لهم.

- والآن ما الذي يجدر بنا فعله، هل ننتظر من السلطان شيئا؟

- الآن لا نستطيع فعل شيء إلا بعد الفراغ من مشاكلنا مع محمد علي، ومن ثم مع الروس، وبعدها يمكننا أن نتباحث طويلا في الطريقة التي نعيد بها المحروسة.

- يبدو الأمر بعيدًا يا سيدي، وحينها لن يبقى لنا شيء نُعيده.

- لا تكن متشائمًا بل عليك ألّا تتوقف عن إرسال عرائضك إلى الملك، فالملوك ليسوا مثل قادة الجيوش.

- نعم، ما مجيئي لباريس إلا لتسليم العريضة لوزير الحربية أو الملك.

- من الصعب لقاء الملك، ولكنني سأحاول ترتيب موعدلي مع وزير الحربية.

- وسأكون ممتنًا لك يا سيدي.

- هذا الأمر لا يعنيك وحدك، بل يعني الجميع في إسطنبول، ربما لا تتصوّر الخيبة التي استقبلوا بها احتلال الجزائر، كانت حلم الجميع، ولكن الباشا فرّط بها بسهولة، بعض الحماقات الصغيرة تجعلنا نُفرّط بأجمل الأشياء التي نملكها، كان يمكنه الاعتذار، ولكنه صدّق الوهم الذي أضلّ الكثيرين في إسطنبول أننا مازلنا أقوياء مثل الأيام الماضية، سأصارحك يا صديقي، أنا حزينٌ، حينما أتيقّن أن مصير العالم القديم قد بدأ في الزوال، يسير الشرق إلى الأفول، حين أدركَت أوروبا أن مجدها الآن متعلقٌ بقوتها الصناعية.

كان القُنصل محقًا على الدّوام، الآن لم تعد إسطنبول مثل سابق عهدها، بعد أن ضاع المجد الذي خلّفه السلطان سُليمان، والآن تتفكك الدولة لشَساعتها، وتنوُّع أعراق الناس، ومُيولاتهم ونزوعاتهم. ودعت القنصل وغادرت حديقته الجميلة، ولم أنتظر بلوغ المنعطف، إذ أشرت لأول عربة، وركبتها.

تُخلّفني العربة في قلب باريس، تخطو رجلاي أبحث عن أشياء لا أراها، ثم أنتبه إلى نفسي أنني اتّخذت من الشرق جهة. تظلُّ تلك الجهة مصيرًا مُحتّمًا على من تعلّق بالمحروسة، مثلي ومثل الكثيرين. لم يكن السّلّاوي ليُوافقني، وحتى ميمون. أيّ قناع اتّخذه بعد عودته إلى المحروسة؟ تذكّرت هيئته ونحن عائدون بالموافقة على شروط الاستسلام، كان خائبا من رفض بُورمون، وتراءت لي ملامحه حين عُيِّن على رأس المجلس البلدي للمدينة، إضافة إلى بعض أعيان المحروسة، ويهوديَّيْن، وفرنسيين. غَضِب السّلّاوي حين رآني معهم. وخاطبني:

- ما الذي تفعله بينهم، مجلسٌ أُنشئ لأخذ مالنا، وفوق كل هذا على رأسه ميمون!

- قبلت بالمنصب لأحافظ على ما تبقّى من مساجدنا، ومن أجل تعويض الناس الذين سُلبت منهم بيوتهم وبساتينهم.

- هيهات يا صديقي أن تحصِّلوا شيئا منهم!

ربما كان السّلّاوي محقًّا يومها، ولم يغظني أن يأخذ الفرنسي ضِياعي. بقدر ما آلمني أن يَضَع أحد أهالي المحروسة نفسه في خدمتهم، حرص ميمون على اختيار أفضل البيوت لمقام ضُباطهم، وأجمل المساجد كي يحولوها إلى مخازن وثكنات. وكلما التقيته في المجلس، كنت أواجهه:

- نحرص يا ميمون على أهالي المحروسة بقدر ما نحرص على أنفسنا، ومن لديه مصلحة في هذا المجلس فليَعلم أنه ليس غرفة تجارية لأحد.

يبتسم ببرودة، لا يخجل من كوني أعرف الحقيقة، ومقدار الأموال التي يأخُذها من الأعيان ليُرجع لهم ضياعهم. مثلما أنا مُتيقّن أنه لن يعيد شيئا، يُوهمهم حتى يأخذ مزيدًا من المال.

لا يمكن لأحدٍ أن يطلبه إلى القضاء، حتى وإن أنصفه القاضي المالكي فإن الحكم لن يُنفّذ. يعلم مَيمون كل تلك الأشياء وهو يرُاكم الوعود لهم مثلما يرُاكم أموالهم، ويُرسلها عبر شركائه إلى مرسيليا، ولعلّ قُرب ميمون من الضباط أوحى لهم بقدرته على تغيير أحوالهم. وأردّد على مسامعهم كلما جاءوني شاكين، ليس عليكم دفعُ مالكم إليه، فلن تحصِّلوا شيئا من خلاله. لكنهم لا يعون كلامي إلا بالقدر الذي يتكلمون بالسُّوء عني. وصرتُ في نظرهم عميلا للفرنسيين. وانتهت حكاية المجلس بطردي منه.

أظلُّ أنتقل من شارع إلى آخر، ويُقابلني فجأة باب الفندق، خطوت تجاهه، واستلقيتُ في غرفتي، مفكرا في الأيّام القادمة، وهل سيَجتهد القُنصل في تحديد موعدٍ مع الوزير. أتفقد العريضة، أبسطها أمامي، وكلما أعدت قراءتها، أكتشف تفاصيل أخرى كان عليّ تدوينها، أسحب الأوراق من المحفظة وأبسطُها، أبدأ في الكتابة، ولا أنتبه إلى نفسي إلا وقد حبّرت الصفحة تلو الأخرى، ومرّ الأسبوع الأول ولم يصلني شيء من القُنصل، لم أحزن إذ تخطّفتني حمّى الكتابة في الفندق كل صباح أستيقظ فلا أرى إلا الأوراق أمامي، أبدأ في استرجاع حكايات أهالي المحروسة، وبعض تاريخهم. تمنيت لو أردّ على كلوزيل وعلى كافيار، فأقول: على الباريسيين المتنورين معرفة أن ما يسمعونه من ضُباطهم لم يكن حقيقة، عليهم الإصغاء بانتباه إلى رجلٍ ولد في المحروسة وعاش بها، ثم حُرم جُلّ حقوقه. كانت حمَّى الكتابة تنتابني فلا تُغادرني إلا قليلا. والأوراق تتراكم كل يوم، حتى أنستني موعد القُنصل في الأسبوع الأخير من الشهر. كنت قد شارفت على إنهاء الكتاب، وتأخّر رسول القُنصل أسبوعًا آخر، وكأنّه يُمهلني حتى أنتهي من تصحيحه، أفقت في صباح مختلف على عامل الفندق يُعلمني

بوصوله، في عجلة ارتديت ثيابي، وحملت محفظتي، شقّت بنا العربة شوارع أعرفها وأخرى أجهلها حتى كنا أمام حديقة القنصلية، ووجدت القنصل في انتظاري. ابتسم كعادته وقال:

- قد أمضى السلطان مُعاهدة للسَّلام مع محمد علي وسيلتفت الآن إلى الجزائر.

- آه، هذا أجمل خبرٍ يبتدئ به المرء يومه.

- نعم، وسنذهب سويا إلى الموعد.

- لوزير الحربية؟

- لا بل لمسؤول في القصر، وسيسلِّم عريضتك للملك يدًا بيد.

- إنه لخبرٌ آخر مفرح يا سيدي القُنصل.

حملتنا العربة إلى باريس، وقد تراءت لنا الحقول من حولها ممتدّة، انعطفنا عبر درب في اتجاه مغاير، تحوطُه الأشجار على جانبيه ثم توقفت العربة، ونزل القُنصل وكنت في أعقابه، وحين استقامت أجسادنا على الأرض تراءى لي القصر يشهق عاليا، عند بابه عجوز بالكاد يستطيع الوقوف. صعدنا الدرجات وحيّيناه، وبخطى ثقيلةٍ سرنا إلى بَهو القصر، ثم إلى مكتبه، على جانبيْ جُدرانه اصطفّت مئات الكتب، أثارتني كثرتها، وألوانها المتباينة، يعرف أولئك الفرنسيون كيف يحتفون بثقافتهم.

سبقني القُنصل إلى الجلوس بينما ألهتني الكُتب، قرأت بعض العناوين، ربما أكثر شيء كان يجذبني السَّلاسل المتواصلة والمرتّبة أبجديًا أو بالأرقام، قدرّت أننا بالفعل كنا مفرِّطين في كتُبنا وتاريخنا وكل شيء يتعلق بثقافتنا. أومأ لي القنصل، فالتحقت بهما، وجلست إلى جانبه، وكان العجوز في قبالتنا، قدّمه لي القُنصل على أنه من رجال السياسة المقرّبين عند الملك،

ورحّب بنا العجوز في تعب بادٍ، ثم أومأ لي أن أبسط طلبي، ولم أدر من أين سأبدأ. فسحبت العريضة من محفظتي، وسلّمتها له، وقلت: إنك يا سيدي لن تجد مرآة تعكس الحقيقة مثلما تعكسها هذه العريضة بين يديك. كلُّ رجائي أن تُسلّمها إلى الملك، وسأكون ممتنًا لك. ثم صمتُّ وهو يُقلّب الوثيقة، طالعها من خلف نظارته ثم قال:

- أأنت من كتبها؟

- نعم يا سيدي.

- لم يخبرني أحد أن الـمُور يحسنون الفرنسية، ولو بهذا القَدر!

تصفح الشيخ الأوراق، كان يحرك رأسه بين الحين والآخر. لا يتسامح أولئك مع الأخطاء اللغوية بينما يدوس العسكريون المواثيق بأحذيتهم. استغرق الشيخ دقائق حتى انتهى منها، ثم خاطبني:

- إنْ كان ما كُتب في العريضة صحيحًا فلن نسكت عن الأمر، وستُشكَّل لجنة تُعاين المدينة في أجل أقصاه شهران أو ثلاثة.

- كل ما كُتب هناك له دلائله في الواقع، ليس على اللجنة إلا المجيء إلى الجزائر.

- وهذا ما سنَسعى إليه.

قال ذلك ثم قام، فقُمنا في إثره، شكرناه ثمّ ودعناه، ورافقنا بثقلٍ إلى الباب ثم شيّعنا بعينيه، ويده تقبض على العريضة. عبرت بنا العربة الدرب بين الأشجار، شقّت بنا شوارع باريس حتى كنا بالقُنصلية، وهناك تذكّرت الكِتاب، سحبته من المحفظة، وحدّقت بالقُنصل مليًا، ثم وضعت كومة الأوراق بين يديه، قلّبها ثم قال:

- أتريدني أن أبحث عن ناشرٍ لها؟

- نعم ستكون خدمة أخيرة لي.

- كن مطمئنًا يا ابن ميّار، لي أصدقاء منهم، وهناك من يتعاطف مع أفكارنا، سيُطبع الكتاب، وربما ستراه في المحروسة قبل وصول اللّجنة.

- آمل ذلك يا سيدي القُنصل.

ودعت القنصل وعدت إلى الفندق. في اليوم الثاني كنت ألوح لعربة تقلني إلى ليون، توقفت واحدة وطلب الحوذي سعرًا مضاعفًا، وافقت دون مناقشة، وتأملت سماء باريس للمرة الأخيرة، كنت متفائلًا أن تَنجلي الغمامة في داخلي، فربما أرى المستقبل بوضوح، ولكنها ظلّت على قتامتها، ثم بدأ الصّفاء يعود إلى نفسي مع توغّلنا أكثر في الحقول، مخلّفين باريس وزمنها المتسارع، وفي القلب رغبةٌ ألّا أعود إليها.

حمّة الشّاوي

أقف عند عتبة بيتي، فيُفاجئني الخواء الموصل إلى حارة الميّارين، كانت السقائف الملتوية يتيه بها حمّة الطفل. يظلُّ يركض مع انحناءاتها، ويدور في المكان نفسه دوراتٍ عديدة حتى يبلغها، متنقلًا بين أسواقها، يثيره ضجيج الباعة، واللهجات المتباينة. والآن أرى حارة الميّارين من عتبة بيتي، أقطع الدرب وحيدًا، مطأطئ الرأس، حتى أبلغ السُّوق. تواجهني أبواب حوانيته المغلقة، لم يبق منها إلا القليل، بعضه احتلّه الأوروبيون، من إسبانيا ومالطا وحتى من إيطاليا، يجتمعون عند أبوابها محتجين، يُريدون الاستحواذ على كل شيء. أتجاوزهم وأعبر شارع المحروسة الكبير، لأنعطف إلى حي المقاهي. لا يُفاجئونني هناك، يلتفُّ بعضهم في لباس أهل المحروسة والأتراك.

أكثر من شهرٍ وأنا أطوف المدينة، أبحث عن العيون التي زرعها الأمير الشّاب فلا أجدُها، يزداد غيظي كلما عبرت دربا أتوهم أني رأيت واحدًا منها، أتقفّى أثره عبر السقائف، ثم يخيب ظني فيه، وهكذا دواليك، في كل يوم أجدني أتتبّع الناس في دروبٍ مختلفة، وأستجلب لنفسي سباب الكثيرين. ولم أتوقف عن بحثي، ثم هممت بحمل صُرّتي والرحيل نحو الغرب. ولكن لم تنطفئ الحرائق بعد في داخلي، كلما أبصرت وجهه، أو

رأيت أحد جنوده، يُطوفون به المحروسة. وكلما عبرت إلى المبغى تُقابلني وجوه فتياتٍ قدمن حديثًا، يهتز قلبي كلما رأيتهنّ يَصطففن هناك، يختار بينهُن الـمِزوَار واحدة لليلته، كان الأمر قاسيًا كلما أبصرته خفية من سقيفة ما، ترتعش اليدان تبحثان عن خِنجر لتُقطّعا جسده. ولكنه يحتمي بجنوده. كان عليّ أن أنتهي منه بسرعةٍ، ولكنه يظلُّ يحصن نفسه. العديد من الخطط رسمتها في مُخيِّلتي كي أقتنصه بين جنوده، وكانت كلها غير مقنعة. كيف لي إذن أن أشبع جسده بالطعنات؟ لن تكون طعنةً وحيدة، تحتاج يداي أن تنال من جسده قطعا كثيرة، مِزَقًا تتوزّع مثل الأوراق التي نُثرت في سقائف المدينة، يسيل دمه مثل الذي ساحَ في سطاوالي، في الحراش، ومن أجساد كل الفَتيات اللّواتي اغتصبهن. ولكن الخُطط لا تستقيم في ذهني. من تراه يمدُّني بواحدةٍ؟ هل يستطيع ابن ميّار ذلك؟ كان سيرفض، ويقول:

- لن ينهي القتل المزوار، سيجد الفرنسيون شخصًا آخر ليشغل وظيفته.

وسأرد حينها بفمٍ ملآن:

- لا إن الأمر مختلفٌ، إنني لن أقتل رجلًا فاسدا من بقايا بني عثمان فقط، بل سأقتل أسوأ شيء استمر بين زمنين: زمن بني عثمان وزمن الفرنسيين.

حينها سيصمت ابن ميّار، لأنه لن يجد الكلمات التي يُقنعني بها، سيرى يديّ المرتجفتين، ولن يستغرقه الكثير، ليكتشف حجم الرغبة بداخلي.

أنسحبُ تجاه الباب الغربي، وأحث المسير كأنما ينتظرني أحدٌ هناك، ثم تراءت لي البوابة، سرت تجاهها، لم ينتبه إليّ الحراس. انحدرت عبر الطريق الترابي، جالت عيناي في فضاء المقابر، لم يكن هناك أناسٌ كثيرون، انحدرت حتى وقفت عند جدرانها الواطئة، ورأيت ديبون هناك يقف عند الباب،

يُوشك أن يتشابك مع شاب مالطي. خطَوت حتى كنت إلى جانبهما، وقبل أن أحيّيه سبقتني قبضتي إلى وجه الشّاب. لا يزالون على عادتهم وقد ظننت أنهم توقفوا بعد وصول المحقّق من مرسيليا، ومنعه نبش القبور، ولكنهم لم يتوقّفوا، ولم يستطع حراس المقابر مجابهتهم دون سلاحٍ. فرّ الشاب المالطي راكضا تجاه البوابة، كنت أدري أنه لن يجرؤ أن يشكوني إلى الحراس. كان المالطيون لا يختلفون عن اليهود في المحروسة، إذ احتقرهم الفرنسيون مثلما احتقرونا نحن أيضا. انتبهت إلى ديبون يحييني فالتفت إليه وسألته:

- منذ متى وأنت هنا، وما السرّ في عودتك؟

- منذ شهرين تقريبا وصلت من طولون، أما لماذا فتلك قصة طويلة.

- وما الذي تفعله في مقابرنا؟

- إنه الهدف نفسه الذي جعلني أركب البحر إلى الجزائر، وليتني ما وصلت؟

- نعم تغيّرت أشياء كثيرة!

- لم أكد أُميّز المحروسة التي تركتُها، وكل يوم أعبر شارعًا يتجلّى لي مُختلفًا، وحتى الناس استسلموا لهوانهم، مُطأطئين رؤوسهم، وراضخين بطريقة مُخزية. كيف لا يحتجون على سرقة عِظامهم.

- لم يبقوا لنا شيئا من المدينة التي نعرفها.

- لست متشائمًا مثلك، يمكننا أن نُغيّر أشياء كثيرة.

- أتعتقد فعلا يا ديبون أننا نتكلم عن المدينة نفسها؟!

- ولِمَ لا؟ قد نتفق في أشياء كثيرة.

- لا أريد الآن إلا جلاء جنودكم عن المحروسة يا ديبون.

- قد أتفق معك يا صديقي، ولكن قُل لي هل سيدفعهم اتفاقنا إلى الرحيل؟ إنك تفكر مثل طفل يريد أن يمحو بكفِّه شكلًا رسمه على التراب بأصبعه. الأمر يتجاوزنا جميعا. علينا اليوم تغيير ما نستطيعه، أما الجلاء فهو أمر بعيد المنال.

- أنت محق يا ديبون، حين يتعلق الأمر بالمحروسة فإنني أرغب مثل طفل.

يضحك ديبون، مثلما ضحك ابن ميّار. أُفكّر بطريقة مغايرة، وأنفعل من أشياء لا ينفعلون منها، وأبكي حين يضحكون، وأضحك حين يبكون.

أفترق عن ديبون، ما إن نعبر قوس الباب، انعطفت عبر أول سقيفة مع حلول الظلام. ثم رأيت القمر يطل من بين الأسطح، راقبته مليًا متكئًا على جدارٍ أشعل بي رغبات قديمة، يوم كنت أشرب في ليالي المحروسة المقمرة، فوق سطح البيت، وأراقبه حتى يأفل. تحرّكت رجلاي إلى الحانة، وكلما اقتربت منها أسمع وقع خطواتٍ خلفي، وحين اقترب الصّوت مني أكثر غيّرت الطريق، وأسرعت في مشيي، ثم كانت تتعقبني. حتى عبرت أمام باب الحانة ولم أدخلها، بل هرولت إلى أن وصلت إلى نهاية الشارع، واختبأت في بيتٍ نصف مُهدم، فمرّ بي خيال أحدهم سريعا، بينما عبر الخيال الثاني السور نصف المهدم، وحام قريبا مني. وما إن اقترب أكثر حتى داهمته من الخلف، وأحكمت الخناق على عنقه، فتوسل يطلب الأمان، بدا لي صوته مألوفًا، فككت يديّ عن عنقه، ولم أنتبه إلى الخيال الثاني يلتحق بنا، ثم وقفا في مقابلتي، قلت:

- لماذا تسيران في إثري؟

- بل ما الذي تريده أنت؟ كل يوم نراك تعترض الناس في الطريق، وتهذي بكلمات لا تعنيك في شيء.

- وما شأنكما فيما أفعله؟

عندئذٍ اقترب الشخص الثاني مني، وأضاء القمر جُزءا من وجهه، استعدت حينها ملامحه، كان من الذين حاربوا معنا في سيدي فرج. وها هو الآن يتراءى لي مثل شبحٍ، فما الذي يريده مني الآن، ولم يبق شخص يجرؤ على حمل بندقية داخل المحروسة. تراجع الشّاب إلى الخلف واقترب الأول مني، ثم همس لي:

- اسمَع يا حمّة، لعلك تذكر اليوم الذي تتبعتني حتى باب عزّون، وتذكر شَتيمتي لك، والآن نحن وحدنا، ما الذي كنت تريده مني يومها؟

صمتُّ مسترجعا وجهه، نعم قد كان هو، تُرى هل هؤلاء هم الذين كنت أبحث عنهم؟ أم أنهم جواسيس زرعهم كافيار، أو القائد الجديد فوارول في المدينة؟ ولكن ما الجدوى من ذلك، وقد أضحى عدد الجنود أكثر من سكان المحروسة. رفعت رأسي تجاه الأول ثم قلت:

- نعم كنت أبحث عن عُيون الأمير، أرغب في الالتحاق به.

- وهل يتم الأمر بقطعك الطَّريق على الناس؟

- لم يكن لي سبيلٌ غير ذلك.

- ولماذا تريد الالتحاق به؟

- لا يسأل عن هذا من قاتل في سيدي فرج وسطاوالي.

صمتنا دقائق، ثم أردفت:

- والآن، هل يمكن أن أعرف سبب هذه الأسئلة؟

أجابني أحدهما:

- سنرحل الآن يا حمّة، وإن رأيتنا مرّة أخرى فلا تعترض سبيلنا، وحين نبتُّ في الأمر سنجدك بالتأكيد.

بيسرٍ قفزا فوق الجدار المهدم، واختفيا في الظلمة، كان القمر شاهدا على ليلة غريبة من ليالي المحروسة. قفزت من فوق الجدار، ومضيت إلى بيتي، استغربت ليلتها كيف صدقتهما بسهولة، أصواتٌ في داخلي كانت تقول إنهما من كنت أبحث عنهما، هما سيُوصلانني إلى المكان الذي أريده.

في الصباح توجهت إلى بيت ابن ميار، ودققت الباب مرتين، ثم انتحيت جانبًا، لم أسمع صوتًا سوى لقلقة الطَّائر الذي رحل حين رآني، رفرف بحدة كأنه يحتج على دخولي السقيفة، وأشرع الباب على وجه دوجة، فاجتزته إلى الرواق، ولكن دُوجة لم تحضني، لم تقفز تجاهي، بل كان وجهها عابسًا. لم نعبر الرواق سويا، بل سبقتني إلى باحة البيت، وقفت لالّة سعدية هناك، كانت عيناها أيضا مُتعبتين. وددت البقاء لأعرف ما الذي غيّر دوجة، ولكن شيئا دفعني إلى الرحيل، سرت وكانت في إثري، ثم بلغنا الباب مخلّفين لالّة سعدية تعود إلى غرفتها، منذ رحل ابن ميّار صارت أميَل إلى الوحدة والدُّعاء، بهذا همست دُوجة قبل أيام، والآن بـمَ ستُجيب ونحن وحيدان في الرواق؟ هل يمكنني أن أُقبّلها؟ ولكنّ الرغبَة بدت مُنطفئة منذ تقابل الوجهان، اقتربت منها حتى تلامس الصّدران، ولم تلفح أنفاسها الحارة وجهي، بل كان العنق باردًا وأنا أحوطه بيدي، وظلت جامدة وأنا أطبع قبلة على شفتيها الباردتين، لم تتحرّكا لتلتهما شفتيّ، تراجعتُ حتى أسندني الحائط، كأنما اقترفت ذنبًا كبيرًا، وباضطراب قلت:

- دُوجة أهذه أنت؟

- نعم أنا.

- ما الذي حدث لك؟

- لا أدري يا حمّة، لم تعد لي رغبةٌ بك.

أهي كرامة السّلاوي التي جعلتني أصفق الباب وأرحل بعيدا؟ أم أنه الخوف من فقدان دوجة؟ عجزت عن الإجابة، كنت مثل مجنونٍ أعبر الحارات الباقية والمهدمة، كان الناس يراقبونني، مُتسائلين عما حدث لي، وشعرتُ أنني رأيت أحد الشّابين، لم أنظر تجاهه، كان كل شيء يبدو غريبًا لرجلٍ يركض ويُخيّل له أن كل الأشكال تبدو شكلًا واحدا، حتى الوجوه أضحت وجها واحدا، وانطلقت في شارع البحر مسرعا، لم أنتبه إلا وأنا أقفُ عند بوابة الميناء.

عدت على طريقي بالسرعة نفسها، وتجاوزت حي المقاهي، ثم انعطفت شرقًا، ولجت السّقائف حتى ترامت بنهايتها ساحة حي المبغى، وتوقفت كلما شدّتني وجُوه لصبايا قدمن حديثا، أجسادهنّ نحيفة، ووجوههنّ بريئة، يبتسم لهنّ الجنود، وانتصب الـمِزوَار بينهنّ، بدت إحداهن مثل دُوجة أوّل ما دخلت المحروسة، مُغبرة وملامحها الريفية بادية على هيئتها، استيقظت داخلي الرغبة في قتله، ولم أنتبه أنني كنت ألهث من ركضي، نادى عليها الـمِزوَار فتقدمت حافية، ووقفت أمامه، وشرع يتفحص جسدها بيديه، ما كان يفعله في زمن بني عثمان خفية، صار اليوم يفعله أمام الجميع، أي ريح عصفَت بي هناك، ولم أستطع ردّها، وقفت أراقب الفتاة، تراءت لي كأنها دُوجة، فانحنيت في مكاني، وتراخى جسدي مُنزلقا على الحائط حتى افترشت الأرض، كنت عاجزا، وبكيت ذلك الصّباح وحيدًا، لكنني قررت أن الـمِزوَار لن يرى نهار يوم آخر، نعم كان لا بد من إنهاء هذه الحكاية.

يضيء قمر المحروسة بجنونٍ، أحرّك الخنجر في يدي، فأرى لمعته، آه لو يراها الـمِزوَار مثلما أراها الآن، وأنا العاكف على سنّه منذ ساعات، أقلّبه ثم أهذي: حدّتك غير كافية لتقطيع بطنه، وقد صار مثل بطن ثور. ثم أعيده إلى غمده.

أصعدُ درجات البيت، وأرفع وجهي إلى القمر المضيء، يقترب من أسقف بيوت الحي، ويُخيّل لي أنه يضيء لي الشوارع، فأرى أثر الحُطام على جوانب الحارة، والفراغ الممتدّ بينها وبين حارة الميّارين، ويزيد في اقترابه، حتى يغمرني الضوء، لم تختلج يداي بل تتحركان بسرعة، واحدة تحمل الخنجر والأخرى تقبض على الغِمد، ولا أفطن إلى نفسي أرقص، وأقفز من مكان إلى آخر على سطح البيت، تملّكتني الرغبة نفسها، أكانت فرحًا أم استعدادًا للانتقام؟ حتى رجلاي لم ترتخيا، بل إنهما تحرّكتا وكأنهُما تطيران بي من جانب السّطح إلى طرفه الآخر، وكانت شفَتاي تَفتران عن ابتسامات ممزوجةٍ بكلمات بذيئةٍ. همستُ بالكلمات وأنا أقفز تجاه الدّرج، ثم نزلت بقية الدّرجات، غادرت بيتي وقلبي مليء باليقين، لم يخل منه وأنا أتجاوز حارة السّلّاويين، في الدّرب الموصل إلى سوق الميّارين، كمن يسير على رؤوس أصابعه انتقلت من سقيفةٍ إلى أخرى، إلى أن بلغت الشّارع الكبير، ثم انعطفت إلى شارع الباب الشرقي، جزمت أني سأراه هناك، ولم يظهر، صار الأمران سيّان عندي إن لمحته وحيدًا أو بين جنوده، قطعت الدرب إلى نهايته، ولكنني لم أبلغ الباب، خشيت أن يظهر لي فجأة الجنود وهم يتكوّمون أمامها، لذا انتحيت جانبًا وتناهت إليّ همهَمتهم، فعدت أدراجي، سالكا سقيفةً أخرى مُنتهاها باب القصبة، وعبرتها حتى كنت عند البوابة، ثم وقفت دون وعيٍ مني عند باب ابن ميّار، لا أدري أي رغبة قادتني

إلى هناك. وقفت طويلا عند الباب، هممت بطرقه، لكن يدي لم تجرؤ على ذلك، وبقيتْ قابضة على الخنجر تحت الحزام، ثم حرّكت رجليّ أحثهما على الإسراع، لعلّي أعثر عليه في المكانين المحبّبين إليه، الحانة أو المبغى.

أستمر في خطوي العَجِل، حتى يتراءى الضوء من بعيدٍ، وأظل أقترب إلى أن أجاور باب الحانة، أقف عند أحد جانبيه حذرا. فتدغدغ رائحة الخمر أنفي، حتى الخمرة الرديئة صارت مُشتهاة في هذه المدينة. وأطلُّ برأسي أبحث بين الوجوه لعله بينهم، لكنه لم يكن هناك، في نهايتها جنود يشربون بشراهة. ومن جهة أخرى بعض تجار المحروسة الذين كانوا يتسابقون إلى مسجد السّيدة، كي يكونوا إلى جانب بعض القادة من بني عُثمان. الدِّين في المحروسة لم يختلف كثيرًا عن الخمر، يودُّ التجار كلهم أن يصبحوا ندامى لملوكها. وكان المسجد يُوفِّر لهم مكانًا لتحقيق طموحاتهم، خمّنت ذلك وأنا أراهم يفرّون من حياتهم بإهراق مزيدٍ من الخمر. المـُحدَثُون في اللَّذة دومًا يبالغون بها، ويعتبرون أنفسهم أفضل من الـمُجرّبين. سحبت رأسي من فُسحة الضوءِ، وأعدته إلى الظلمة، وواصلت طريقي تجاه حارة المبغى، وظللت أنتقل من سقيفةٍ إلى أخرى ثم وجدتني أقف وسط السَّاحة الخاوية من البشر، عدا أضواء ضئيلة تتسلَّل من ثقوب الأبواب. خُيِّل لي أن جنودًا كثيرين كانوا يحتلونَ الغرفَ. كان قمر المحروسة قد بدأ يشحب من انتظاره لي، وأبت الأبواب لفظ أحدهم بمن فيهم المزوار، إذ لم يعتد المبيت هناك، جزء من الليل يكفيه كي ينتهي منها، ثم يغادر الفراش، وربما يعود في ليلةٍ أخرى. في لحظة ما انتبهتُ إلى صوت أزيز الباب، فتسلّلت إلى إحدى السقائف وانتظرت هناك، فُتح الباب، ثم أُغلق بقوةٍ، وظللت على تلك الحال حتى سمعت أصوات أقدامٍ، غاب عني مصدرها، ثم

رأيت شبحين يتسلّلان حتى وقفا عند الأبواب يتنصتّان عليها، ثم فرّا إلى إحدى السقائف، راقبتهما من الظُّلمة دون أن يتفطنا لي، ثم نقلت بصري إلى مصدر الصوت، حيث شُرِع الباب، ووقف الـمِزوَار عند عتبته، تمطّى ثم حرَّك رجليه في الساحة، صرخ الصَّوت في داخلي، عواء طويل لذئابٍ مجروحة، تختلج يداي تبحثان عن الخنجر، يشتد اهتزاز قلبي، ويتعالى الصُّراخ داخلي، ثم يلمع الخنجر في عينيّ ما إن أسحبه، أكلم نفسي لكن الأصوات ترتفع وتُغالبني، فأعوي مثل ذئبٍ وأقفز من مَكمني، وأركض تجاهه، خطواتٍ واسعة لا تكاد تلامس قدماي بها الأرض، أثب عليه، اتّسع القمر لحظتها حتى أضاء السَّاحة كلها، ولمع النَّصل في عينيه، رأيت خوفه القديم والجديد، كل الوجوه مرَّت أمامه دفعةً واحدة، صورٌ لأناسٍ ممزوجة بالدماء، كانت يدي تقبض على الخنجر، ثم هويت بها بكل جهدي، الطعنة الأولى في الصدر، سريعةً اخترقته، سمعت تكسُّر ضلعيه حين انغرز بينهما وسحبته، ليقطع جزءا من لحمه، ثم رفعته بالسرعة نفسها، وبرق مرَّة أخرى في عينيه المفزوعتين، وقد صارت حمراء، وغرزته في بطنه ثم أحنيته، فتدفَّق الدَّم حارًا من فمه، وانهمر الدّم من بطنه ما إن سحبت الخنجر، لم أدر كم كان عدد الطَّعنات التي سدَّدتها إليه ليخر فوقي، واتَّسعت مساحة الدَّمَ حتى ظننت أن باحة الحارة ستغدو بلونه، لكنني لم أنتبه أنهم أحاطوا المداخل كلها، بعضٌ من جنوده انتبهوا إلى الحركة والزّعيق خارجا، فأحكموا المنافذ، تحمل أيديهم البنادق، سدّدوها تجاهي بينما وقفت بقلب السَّاحة، تدفَّقت السعادة إلى قلبي كأنما قد رحل الفرنسيون، سعادةٌ لا يمكن للمرء أن يشعر بها إلا في ثوانٍ قليلة من عمره. ظللت مُتسمّرًا حتى انطلقت أصوات رصاصٍ، لم تكن نحوي بل تجاه السَّقائف، رأيت

الشَّبحين يركضان نحوي، ويصوّبان مسدَّسيهما إلى الجنود الذين كانوا يسدّون الممرّات، ضرب أحدهم كتفي بقبضته فانتبهت، وركضت إلى جانبهما، عند مدخل السَّقيفة تخبّط الجندي من أثر النَّار، ثم تحرَّك بجهدٍ، فركله أولنا حتى عاود السُّقوط، واعتقدت أنهم غابوا بينما كانوا يركضون خلفنا. قفزت متجاوزًا الشَّبحين، وقبل بلوغ السّقيفة رأيت الجنود يسدّونها، فانعطفت صارخا بالشّبحين أن يكونا في إثري، انعطف أولهما، واستمرّ الثاني في طريقه، ولم نصل إلى نهاية الطريق التي مِلنا معها إلا ونحن نسمع الطّلقات، ثم تراءى لنا يركض في انحناء خلفنا، وانتظرناه في مكمنٍ إلى أن بلغنا، شدَّ بيده اليسرى على كتفه اليمنى، أضاء لي نور القمر وجهيهما، تذكرتهما، كانا هما اللّذين التقيتهما في المنزل المهدّم، هممت بسؤالهما عن سبب مجيئهما إلى الحي، وهل كان لهما أيضا ثأر مع الـمِزوَار؟ ولكن الأصوات ظهرت ثانية، ورأيتهم عند المدخل يركضون نحونا. فانطلقنا بيننا وبين ثالثنا مسافةً، تلتوي بنا السقائف إلى أخرى، والتفتنا فجأة كان الجنود لا يزالون في أثرنا، دون أن نجد رفيقنا المصاب، شككت أنهم أمسكوا به، ولكنهم كانوا يصيحون بنا، ثم انفرجت السقيفة على طريق البحر، بعد أن تجاوزنا باحةً صغيرة، وأشرت على رفيقي أن نفترق، اختار هو دربًا يُفضي إلى أسفل المدينة، سلكت بدوري آخر غير بعيدٍ عن الذي كان الجنود يتدفقون منه، قدّرت أنهم لن يعودوا على أعقابهم، ولكنهم تركوا اثنين منهم يحرسان مفترقات الطريق، وما إن رأوا شبحي من بعيدٍ حتى صوّبوا نحوي، ثم كانت الطلقة تصيب رجلي، صرخت بصوت عال، ولكن شيئا غريبا كان يحثّني على الركض، وهم كانوا مثل ذئابٍ تتشمّم الدَّم من مسافةٍ بعيدة، وكلما انعطفت مع درب سلكوه، حتى أحسست أنه لا طائل من

ركضي المستمر. انتهيت حينها إلى مكان البيت المهدم، تسلّقت ما تبقى من سوره، ونويت أن أقبع هناك، وخشيت أنهم سيقفزون من خلفه، فبقيت أعلى الجدار، ثم سرت فوقه إلى سقف البيت، وإلى بيت ثان، ثم إلى ثالث، حتى نهاية الأبنية، وتراءوا لي من هناك يحدّقون أعلى الجدران، ويذرعون الطَّريق جيئة وذهابًا، ثم عادوا خائبين من بحثهم، فعدت على طريقي، نزلت السُّور بثقلٍ، ومكثت ساعة أسترد أنفاسي، واشتعل الجرح ألما بعد عودة البرودة إلى جسدي، فكرت في التوجه إلى بيت لالّة زهرة، لكنه كان بعيدًا، ولم يبق لي إلا بيت ابن ميّار، وبصعوبة تسلقت الجدار الواطئ، وسرت تحت شرفات البيوت مثل أعرج، كانت روحي مزهوة، أردتُ النداء عاليًا في ليل المحروسة المختلف، ولكني خشيت أن يستيقظ الناس لصراخي، وظللت أسحب رجلي حتى بلغت بوابة القصبة، خُيّل لي أن السِّلسلة كانت معلقة، وأن عهد الأمان قد صار ابن ميّار هو الذي يهبه لكل المنادين على اسمه.

طرقت الباب بقوةٍ، ولكن أحدًا لم يرُد، وواصلت أطرقه حتى سمعت صوت دُوجة، وحين ميّزت صوتي شرعت الباب، ثم كنت في حُضنها.

ذوجة

في الأيام الأولى من رحيله لم يظهر عليها الكثير، ولكن حين انقضى الشّهر تغيّرت لالّة سعدية، أضحت أميَل إلى العُزلة، ولا تكاد تشعر بها حينما تُغادر غُرفتها، تقطع الباحة إلى الرواق، تقف عند الباب كأنّها تسمع دقًا عليه، وتنتظر هناك دقائق دون طائل، تدخل غرفة جانبية تحدِّق من كُوّتها لعلّ المنعطف يُظهره لها، ثم تعود إلى غُرفتها خائبة. لا أكاد أذكر كم تكرّر المشهد أمامي، كأنها لا تَراني، بينما أفترش الباحة، أو أقف عند باب غرفتي، تمرُّ كأنني شبحٌ إلى جانبها، ترجع إلى غرفتها وتظلُّ بها بقيّة اليوم، هكذا مرّ الشهر على لالّة سعدية، ولكن حين انتصف الشهر الثاني ازدادتْ حيرتها، وظهرت المِسبحة تلزم يدها، بعد أن كانت تُرافقها أوقات الصلاة فقط، الآن أرى أصابعها تداعب بحبّاتها، وتُتمتم الشفاه بالأدعية. كلما دخلت عليها الغرفة، أرى كفّيها المبسوطتين إلى السماء، وأسمع بعض دُعائها كي يعود زوجها. أقترب منها، وأضع الصحن إلى جانبها، تَنقر منه مثل طيرٍ ثم تزيحه، وتعود إلى دُعائها. وددت لو سَمِعتْ كلامي، وأنا أحاول الترويح عنها، وهي كأنها لَا تُصغي لي.

أيامٌ من الانتظار، ولا طرق على الباب، تهبُّ إليه لالّة سعدية كأنها تسمع صوته مُناديا، وهي التي تعلم أن المفتاح لم يُفارقه كلما رحل عن البيت. لكن

الصوت المنادي لم يكن إلا صوت امرأة من نساءِ الجيران، لم تفتح الباب، بل عادت وانزوتْ في غرفتها، وأسرعت أنا إلى الباب أستقبل الجارة.

ويدقُّ الباب مرة أخرى، فأهبُّ إليه، وتبقى هي حبيسة غرفتها، أفتحه، وإذا بالسّلّاوي يقف في مُقابلتي، لا أدري ما الذي حدث ذلك اليوم، وقفت أمامه بكل برودة، كان هناك شيء يُغالبني على احتضانه، أصواتٌ تدعوني أن أبقى على حالتي تلك، وانتصرت وهي تجعل جسمي باردا، وتُغيِّب مُخاوفي كلها، حتى عينيّ لم أعرف ما انتابهما، لكنني قدّرت أنهما حملتا غضبا عليه. ووددت الصراخ به: أنت تجهل مقدار ما تحمله روحي من حرائق تُهملها كل يومٍ بغيابك، ولا مبالاتك، أتريد تقبيلي حينما تريد، وترحل عنّي مثلما تشاء؟ بالغياب الطويل تُعلّم المرأة أن تَستغني عنك، وأجدني قد ألفت غيابك، لم تعد لي رغبةٌ بك يا سلّاوي.

رحل السّلّاوي صافقًا الباب خلفه، وتركني وحيدة في الظلام، لا أدري ما الذي تَملّكني؟ شعورٌ ضئيلٌ بالندم بدأ يتضاعف، ما كان لك يا دوجة أن تكوني قاسية عليه بتلك الطريقة، يظل السّلّاوي مُختلفا عن الجميع، لكنك لم تستحضري كلمات لالّة زهرة. لماذا أتذكّرها وهو لا يدري بعذابي في انتظاره. لا يشعر لماذا تُلاحقني كلماتها، وقد سئمت من الملاحقات التي ظلَّلت حياتي دائما. لو شاركتني أنت أو السّلّاوي ليلة في المبغى لأدركتما أن الأمر لم يكن يسيرا. إذ اعتقدتم أنّ النساء هناك يضحكن لأنهنّ كنّ سعيدات. لا لم يكن الأمر دوما بهذه الصورة، كل امرأة تلجأ إلى حماية رجلٍ واحدٍ، وحولها أطفال عديدون. لا توجد امرأة ترضى أن يُقاسم جسدها رجالٌ تعرفهم، وآخرون لا تعرفهم، يتجدّدون كل يوم.

لو يدرك السّلّاوي فقط شعور امرأة تقف عند باب غُرفة بالمبغى تطالع الرجال المارِّين، لا تعرف أيّ رجل من بينهم سيختارها لتنام معه.

كان عليّ ألا أندم عما قلته، وبّخت نفسي بينما كنت وحيدة في غرفتي، والمشهد يتكرّر، في كل مرة أحاول جاهدةً أن أُزيحه، ولكنه يعود. السّلّاوي يمد يده إلى عنقي، يُفاجَأ من برودته، ومن ثم ينحني بشفتيه ليُقبِّلني، يبهت أكثر من جمودي، ويرحل دون وداعي مُحتجًا، لو عاد بالتأكيد فلن أحضنه، لن أُقبِّله طويلا مثل المرة الماضية، سأطلب منه الجلوس في الباحة، وأجلس قُبالته، أمدُّ رجليّ أمامه، وأقول: يجب أن تعرف أن ذلك الأسبوع الذي قضيته مع الـمِزوَار كان يُعادل كل أوجاعك. أسبوع حولني إلى بغي، وليتك قاسمتني الغرفة يومها، سَترى كيف ضُرب الباب بقوة في اليوم الأخير من ذلك الأسبوع، وقفت إلى جانبه امرأة، طَلب منها أن تُنظِّفني، وتُلبسني أفضل ما لديها من ثياب، وغادر البيت دون الالتفات، كان أكثر جدِّية، مثل تاجرٍ يحرص على بيع سلعته في وقت ضئيلٍ، شدّت المرأة على يدي وسحبتني، وفي الرواق الطويل كانت بناتٌ كثيرات يبتسمن لي، بدا لي أنهن معتاداتٌ على المكان، لم يشعرن بالخجل الذي شعرت به في عُريي بينهن، ومَضَت بي المرأة إلى غرفة في نهاية الرواق، ولجناها بانحناء، وأجلستني وسَطها، على يميني دَنٌّ الماء الممزوج بالصابون، وبقطعة قماش غمستها داخله فَرَكت ما بين ساقيّ، وكأنني لا أملك إلا ذلك المكان، حَرصَت المرأة أن يكون أكثر نظافة من بقيّة الجسد، أهرقَت الماء الفاتر فوق جسدي، ثم طَفقَت تنتقل من مكان إلى آخر، تصبُّ الماء الحار، ثم الفاتر، حتى كاد جسدي يتقطّع من كثرة الدّلك، ثم أحاطتني بقطعة القماش، التففت بها واحتللنا غرفة أوسع، حدّقت بي طويلا وأنا صامتة. تذكّرت

أبي، لو ظلّ حيا، لما كان هذا مآلي، ولما جرؤ أحدٌ على سجني في غرفة وحيدة عارية، ولَمَا قاسيت أكثر مما قاساه العبيد الذين كانوا يجولون في المدينة، وينظّفون الشوارع والإسطبلات.

كانت المرأة ما تزال تُحملق بوجهي، تحوّلت غِلظتها إلى ابتسام ثم إلى كلمات، اقتربت منّي وهي ترشّ العطر على جسدي العاري، وقالت: إنك نحيفة ولكن جسدك مع هذا جميل، سيَسعد الآغا به كثيرا، ويملأ حجرك بدنانير السُّلطاني الذهبية. ثم شرعت تتكلم ببذاءة عن محبّة الآغا للنساء، تشرح لي كيف يمكنني سلبه المال ونحن في الفِراش، كانت تهذر بكلمات كثيرة، وطُرقٍ مختلفة يحب الرجال فعلها مع النساء، جلستُ مبهوتة أسمع تلك الأشياء لأول مرة، عاجزة عن استيعابها كلها. كانت المرأة تعرف مكامن الشهوة في أجساد الرجال والنساء معا. ثم صَمتت وطلبت مني الوقوف، فقمت واستدرت ببطء حسب إرادتها، ثم فَتحت صندوقا خشبيا كبيرا، وأظهرتْ فُستانا في زُرقة داكنة، أكمامه طويلة، ويمتدّ إلى أسفل القدمين، ارتديته مُرغمة، وشهقت المرأة وهي تراه عليّ، ثم مدّت يدها إلى الصندوق ثانية، سحبت بُرنسا حريريا أسود، بقلنسوة واسعة، وارتديته هو الآخر، وجلسنا ننتظر قدوم الـمِزوَار، ولم يعد إلا حين فَرغنا من عشائنا.

سرت إلى جانب الـمِزوَار، نقطع الطريق نحو بيت الآغا، كنا وحيدين لكنني لم أجرؤ على الهرب، سلك بي دربا طويلا، لم يكلمني بشيء في بدايته، وعلا صوته مع انعطافنا إلى السّقيفة قائلا:

- عليك بطاعة الآغا في كل ما يطلبه وسيُصبح لك بيت يأويك، ولُقمة تأكلينها، أغريه كفايةً حتى تُحصّلي ما تستطيعين من دنانير السُلطاني، وسأعود لآخذك في الليلة القادمة.

أومأت برأسي أُوافقه، فصاح يريد سماع الموافقة، وافقت بصوت خفيضٍ، لنصعد المسلك المؤدي إلى القصبة، وقبل بلوغ بوابتها انعطف بي إلى درب بدا أكثر اتّساعا، وفي نهايته توقّفنا، إذ انتصبت خادمة عند الباب، أشارتْ إلي بالدخول، وانحدر الـمِزوَار عبر الطريق نفسه، رافقتُ الوصيفة في باحة واسعة، مُضاءة بالقناديل، صعدنا الدرجات حتى أشرفنا على بهو فَسيح، في نهايته بابان عبرنا أحدهما، خطوات سرناها حتى توقفت الوصيفة وطلبت أن أنتظرها، غابت هُنيهة ثم خرج كهل تكلّم مع الوصيفة بكلماتٍ عثمانية رَحلت على إثرها وبقينا وحيدين، كان يتفحصني سعيدا مثل طفلٍ، أمسكني من يدي وعبر بي إلى غرفة رحبة، معبّأة بالأثاث، مُضاءة بقناديل كثيرة، ومفروشةٍ بزرابي مُلونة، وترافقنا إلى سرير نُحاسي مُسقّف، يحوطه قماش شفّاف، افترش الأغا الأرض دونه، ثم كنت إلى جانبه، وقبضتْ يده على القنّينة إلى يمينه، وناولني الكأس ولكنني أبيت، لم أكن قد جرّبت الخمر من قبل. من نافذة بيت لالّة مريم رأيت اليولداش يتعاركون أثناء سكرهم، منذ ذلك اليوم تولّدت في نفسي مَخاوف، أججتها تحذيرات لالّة مريم منها. كان الكهل إلى جانبي، مُمسكا الكأس ويرشف الرَشفة تلو الأخرى، وأنا أتطلّع إليه في خوف، وحين رآني على حالتي تلك، ابتسم لي، وهو يسحب صُرّة المال من تحت الوسادة، وينثرها أمامي، دهشت من كثرة الدنانير والتماعها، أراد مني مشاركته كأسه وأغراني بمزيد من الدنانير، ومن خوفي ظللت مُحتمية برفضي، ولم يستمرّ في عرضه إذ انبسط وجهه مع رشفات أخرى، وبدأ يحادثني ولم أستوعب من كلماته شيئا، أُضطر أن يكلّمني بِلغة أهل المحروسة، أفهمه بمشقّة، وأجيبه بما يريد، أعجبه اسمي ووجهي، وهو يمدُّ يده وينزع عني القلنسوة، يمرر يده على شعري، ثم يُحركها إلى

عُنقي، كان قد انتشى، طلب مني الغناء، ولم أكن أحفظ أغانٍ عثمانية كثيرة، غنيتُ له واحدة على مضض، مال برأسه معها، ثم فجأة أشار إلى السرير، فصعدت إليه، ثم أردف أن أتحرّر من ثيابي، وشرعت أنزعها حتى كنت نصف عارية أنتظره، التحق بي، وأخذني هناك مرات عديدة مثل ثور، استغربت كيف كانت الشّهوة تتجدّد فيه، يظلّ يهزُّني ثم يرتخي، وينزل عن السرير، يجلس يرتشف من كأسه، أو يتناول من الفواكه المصفوفة بعناية في سلّتها، وأسمع قضمه لها، ثم يصعد على السرير، ويواصل رغم صراخي هزّه لي بالشدّة نفسها، ليرتخي إلى جانبي، حتى إخال أنه قد نام، أحدّق بعينيه، فأجدهما نصف مفتوحتين، ولكنه في المرة الأخيرة التي صعد بها بدا أكثر حدّة، التصق بي من الخلف أراد إتياني من هناك، رفضت بشدة، لكنه تشبّث بي أكثر، وازداد غضبه ثم انتفض في مكانه ووقف ثائرا، لم أعِ ما الذي كدّر مِزاجه بتلك السرعة، ولكنني بعد سنوات استوعبت كيف ينظر بعض الأتراك إلى تلك الرّغبة، رددت عجائز المبغى أن الفضل يعود للباشا حسين، إذ سَمح بعودتهن إلى بُيوتهن، وممارستهنّ البغاء، بعدما طُردن في زمن الباشا علي خوجة، ولم يكن رجوعهنّ إلا حين انتشرت شائعات في المحروسة، أن اليولداش صاروا يَدهمون بعضهم بعد غياب النساء عنهم، ربما كان الآغا جنديا من بين أولئك الجنود، وقد أَلِف تلك العادة، وأصبحت لذّته لا تكتمل إلا بها. وقف مُترنحا محاولا إبعاد يدي عنه، وارتخى في آخر محاولة له إلى جانبي ينتظر استعادة أنفاسه، تشجعت وحملت نفسي، ونزلت من على السرير، ونزل ليَمنعني من ارتداء ثيابي، ولكن قوة غريبة تملّكتني، ودفعته حتى سقط أرضا، غادرت الغُرفة بعد أن حملت دنانير السُّلطاني كلها، وعبرت الرواق، لم تكن الوصيفة هناك،

حتى وأنا في قلب الباحة لم أرها، ثم رحلتُ عن البيت، انحدرت عبر الطريق الذي عبرت منه والـمِزوَار.

تهتُ بين الدروب، اختلطت عليّ السّقائف المتشابهة، كلما رأيت جمعًا من اليولداش انزويت في مكان خبيء حتى يعبروا، ولولا أنهم كانوا سُكارى لتشمّموا رائحة العطر التي تفوح من جسدي، نزلت عبر درب آخر، اعتقدتُ أنه المؤدي إلى حي المبغى، ثم اكتشفت أنني عدت إلى المكان الذي نزلت منه، وخشيت الرجوع دون وعي منّي إلى بيت الآغا، وتناهت إليّ أصوات أقدام، وهَمهمة تتصاعد غير بعيدة مني، ثم لمحت خيال الجنديين، مثلما لمحَا خيالي، صرخت خوفا منهما، وركضا حين ميّزا صوت امرأة، مسافة ركضتها حتى أمسكا بي، وجرّاني عبر دربٍ ضّيقٍ يقطع شارعا، تجلى لي مقدار سعادتهما وهما يقبضان على ساعديّ، لم تستمرّ سعادتهما، فلم نكد نخطو مسافة حتى رأيت أشباحا أخرى تعترض الطريق، خمّنت أنهم مزيد من اليولداش كانوا يحرسون المدينة ليلا، أو ربما يبحثون عن نساء مثلي وحيدات في الظُّلمة. عندما بلغناهم اقترب بجسده الضّخم، ونادى عليهما، تفاجأت بأنه الـمِزوَار، رفضَا في البداية أن يُسلِّماني إليه، ولكنهما رَضَخا لطلبه حين أحاط بنا الجنود من كل جهة، وحين وقعت عينا الـمِزوَار عليّ لَطمني حتى سقطت، وعلا صوته:

- ألم أوصكِ ألا تغادري بيت الآغا حتى أعود لاصطحابك.

لم أجبه، ما كان المزوار ليهتمّ من أي جهة سيأخذني ذلك الآغا بقدر ما كان يريد دنانير السلطاني. عاد بي المزوار إلى المبغى، وحين عبرنا باب الغرفة سقطت مني صرة الدنانير، أحدث وقعها في نفسه حركة مفاجئة، وَثَب تجاهها، فتحها بسرعة ولمع الذّهب في عينيه، نظر إليّ بغضب ثم خطا تجاهي، وأمسكني من شعري، وجرّني مسافة، قائلا:

- إذن كنت ستستأثرين به وحدك، آه منكنّ، ولكنك لن تحلمي بدينار واحد منه، مثلك لا يستحق فراش القادة، لم تُخلقي إلا ليركبك الأعراب وجنود اليولداش.

قالها ثم صَفق الباب في وجهي ورحل، لتَبتدئ رحلةٌ أخرى ومع وجوه لا أكاد أذكر منها أحدا، تغيب ملامحهم، ربما لكثرتهم، أو لأنهم لم يعنوا شيئا لي، شهواتٌ عابرة، تُنسى سريعًا في زحام المحروسة.

من غرفتي في بيت ابن ميّار تصلني لقلقة الطائر، يَسحبني إلى الكُوّة، وأطلُّ منها، كان المساء حينها قد حل، اتسع ظلّه على الجدران، ولم يعتد الطائر اللقلقة مساءً، احترت لأمره وأنا أُسرع إلى الكوّة، وأمدُّ البصر حتى أراه، وقف بساقيه الطويلتين عند جدار الحوض، وغَطس منقاره الدقيق وسحب الماء، ثم رفع رأسه يُحدِّق في السماء، وترك بعضًا من الماء يفيض على عنقه. تساءلت: أمَقدم الطائر في غير موعده إشارة على عَدَم عودته؟ ألم يرتبط دائما حضور الأوّل بغياب الثاني؟ أحسست أن حكاياتٍ مُختلفة كان الطائر يحملها، ولكن اللقلقة لم تكن لتُسعفه، أحدِّق أكثر به، يُحرِّك جناحيه بسرعة، كأنما ينفض عنه قطرات الماء العالقة بها، ربما كانت ستَمنع تحليقه بِحرّية إن تَغلغلت إلى داخله، قال الطائر كل شيء بوضوح، ما كان عليّ إلا استيعابه، إذا استمررت أفكر بهذه الطريقة فلا يُمكنني الحياة بسلامٍ ولو عاد السّلّاوي.

يصمت الطائر حين ينتشر الظلام في السّقيفة، ثم ترتفع لقلقته حادّة، كأنه يبكي رحيل أحدهم، يهتزُّ قلبي لصوته، غادرت الغرفة، أوشكت على اللحاق به، أسأله عما يجعله حزينا، لكن رجليّ ارتختا، فافترشت الأرض

وعَلا شهيقي، ثم نأى الصوت، سمعت حينها رفرفةً قويةً، أحسست أنه لن يعود مرة أخرى، تمنيت ألا يرحل، لن أحتمل رحيل اثنين في أسبوع واحد، ثم غاب الطائر، فتحاملت على نفسي، وعبرت الرواق إلى الباحة، وتتبّعت شبح المرأة القادمة، كانت لالّة سعدية تسير ببطء، ثم همستْ حين دنت مني:

- أسمع شهيقك يا دُوجة ما الذي حدث لك؟

- الطائر كان يَبكي يا لالّة، ولم أدر أي شيء يُكدّره.

- يا الله لطفك، إنه فأل سُوء.

خلفتني لالّة سعدية وحيدةً في باحة البيت، أُتابعها تقبض على سبحتها، عائدة إلى سجادتها، لتصلي جُزءا من الليل، وتتمتم في بقيّته بالدعاء. ألجأ إلى غرفتي أراقب الظلام من الكوة، وأنتظر عودة الطائر، لكنه لم يعد أثناء يقظتي.

أراه في الحُلم قد تحوّل إلى غزالٍ، يركض بين الشوارع، واليولداش في إثره، يقفز في الهواء قفزة طويلة، ثم يختفي عن أعيُنهم، ليظهر في نهاية الطريق، يُصوِّبون بنادقهم كلها إليه، ولكنه يَسبقهم، يختفي عبر بوابة المدينة الشرقية، يتلاشى الحُلم، ثم أراني عند البوابة الغربية، أُطلّ منها على مقابر المدينة، مزيدٌ من الوجوه الأوروبّية، ينزلون مُنحدراتها، يحملون الأكياس، أنحدر في إثرهم، فأرى أهالي المحروسة يتجمّعُون داخلها، يَقبرون رجلا، أخطو تجاههم وكأنهم لا يَرونني، أدنو منهم، فيُطالعني النّعش ثم يكشفون عن وجهه، كان ابن ميّار يبتسم لهم، لم يفهموا سرّ ابتسامته، إلا أنا أدركت لماذا فعل ذلك، أخيرًا قد ارتاح مما كان يُثقله طوال سنوات ثلاث، ثم تمتدُّ

يد السّلّاوي الخشنة توسّده اللّحد، أغمضت عينيّ وهم يسقفون القبر، أشحت البصر حين كوّموا فوقه التراب، خلّفتُ الجميع وغادرت المقبرة. قبل أن أصل إلى البوابة، تراءى لي السّلّاوي يعبر قوسها فارًا تجاهي، يلاحقه الجنود الفرنسيون، ارتجفت في مكاني لكثرتهم، ثم مرَّ بي مثل برق، ولكنهم لم ينتظروا طويلًا بعد أن استَوت لهم الطريق وخلَت، توقّفُوا قربي، صوّبوا بنادقهم نحوه، وأطلقوا النار دُفعة واحدة، بدا لي أنهم لن يُخطئوه، رجوتُهم أن يتوقفوا، وهممت بالوقوف بين بنادقهم وبين السّلّاوي الراكض، لكن رجليّ خانَتَاني، ثم تعالى الدويُّ في الفضاء، وسقطت على الأرض فزِعة، وحين رفعت رأسي نحوه، كان يترنّح في آخر الخطوات، ثم سَقط أرضا، وهبّوا إليه حين كان يزحف على الأرض، كلما اقتربوا منه يزداد ارتعاش قلبي، وعندما أحاطوا به فقدت الوعي.

استيقظت حزينة، تتحرّك عيناي تمسحان الفضاء المظلم للغرفة، وتُتمتِم شفتاي باسمه، ولم أعتد أن أراه يموت في أحلامي، بل يفرّ، لكنه لم يستطع هذه المرة الفرار. احتدّت الأسئلة: نعم يا دُوجة أنت التي انتظرته سنوات وحين عاد وقفت في وجهه وآذيته، لماذا نُصرُّ على الجري خلف رغباتنا حتى ننالها ثم نُفرِّط بها بسهولة؟

أحمل نفسي حين تشتدُّ بي الهواجس إلى غرفة لالّة سعدية، أدنو من بابها، أتحرّى إن كانت قد نامت، لكن التَمتمة تَبلغُني حيث أقف، وأتجاوز الباب إليها، ما زالت على حالها، تبسط يديها، والقنديل يُظهر جُزءًا من وجهها المبلل بالدموع. يا الله بحقِّ محبّتك للأطفال، وقد كان منصور مِنهم، بحقّ كل الأيام التي قَضاها مريضًا يُغالب الآلام، والأيام التي قضيتُها ساهرةً إلى جانبه، وبحقِّ كل الأمّهات، وبحقّ كل الأيام المظلمة التي عِشتُها

منذ دخلت المحروسة. بحقّ كل هؤلاء، اجعَل كل الغائبين يهتدون إلى بيوتهم، يرجعون إلى أعزّائهم وأحبابهم! كنت أتمتم بالدعاء وأقترب من لالّة سعدية إلى أن وقفتُ عند رأسها، ثم جلستُ خلفها أتطلّع إلى ضوء القنديل، يشحب حينا ويزداد ضوؤُه كلما ألححت في الدعاء، كأنها إشارة أخرى. في لحظات لم أنتبه، سمعتُ طرقا على الباب، أو كأنه بدا لي ذلك، تساءلت أتتحقّق الإشارة في فترة قصيرة كهذه؟! وهكذا قمت من مكاني، اجتزت السقيفة ثم فتحت الباب فرأيته، صرخت مفزوعةً بينما وقف في انحناء، تتقطّع أنفاسه، أدركت أنه جريح حين أسندته مسافة السقيفة، كانت رجله مُصابة، وبثقلٍ وصلنا إلى الباحة، وهناك وقفتْ لالّة سعدية وأضاءت وجهه بالقنديل ثم قالت:

- لطفك يا الله، ما خاب ظنّي في الطائر، أصابك الملاعين.

وضحك السّلاوي ثم أجابها:

- لا يا عمّة، بل أنا الذي أصبتُهم، الآن فقط يمكن للمحروسة أن ترتاح، لقد قتلت الـمِزوَار.

وضربت لالّة سعدية صدرها بكفِها:

- أيها البائس، قد جلبت لنفسك الهلاك!

قُتل الـمِزوَار إذن وانتهت هذه الحكاية، ولكن ماذا ينتظر السّلاوي في أيامه المقبلة؟ كان المقتول رجلا مهمًّا بالنسبة للفرنسين، فزعت حين تخيّلت أنهم سيركضون خلفه ويكسروا الأبواب، ولن يُوقفهم أحدٌ. كانت لالّة سعدية ما تزال تُحدِّق في وجهه مَبهوتةً، ثم انحنَت إلى الجُرح وتفحّصته، لم يبد لها عميقا، ثم قامت مُتسائلة:

- هل هُم في إثرك؟

- لا أظن.

- هم يعرفون أنك صديق لابن ميّار، وسيأتون إلى هنا.

رأيت وجه لالّة سعدية عن كثبٍ، بدا أكثر جدية، طلبتْ أن نسير في أعقابها، وخَطت إلى غرفتها، ثم رجعتْ حاملةً معها كيسا صغيرا وبعض القماش، تمدّد حمّة واضعًا رجله في حجري، وحين شرعت لالّة سعدية تتفحّص الجرح، كانت أسنانه تَصطكُّ ببعضها، وظلّ عرقه ينضح، ثم رفعت رأسها إليه:

- من حُسن حظّك أنها كانت جانبية، ولم تستقر الرصاصة برجلك، كانت ستُقطع حينها.

وفي زمن قليل كان كل شيء قد انتهى، لفّت ساقه بقِطع القماش، وقبل أن تنتهي منها أردفتْ:

- عليك الآن الاختباء في القبو طويلا يا حمّة.

عاد السّلّاوي، سَاقه ترتاح في حجري، ويسيح عرقه فتَبتلُّ ثيابي منها، وحتى دمه تتّسع بُقعه في فستاني، وسيَظلّ حبيس البيت. الآن فقط سيصغي إلى الحكاية كلها.

القسم الخامس

ديبون

الجزائر مارس/ سبتمبر 1833

«شَاوُلُ! شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي، صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ الْمَنَاخِسَ!!»

هل كان المسيح قاسيًا يوم تجلّى لشاول من أعلى الجبل؟ لا، لم أعتقد ذلك يومًا، فلم يكن إلا محبّةً. ولكن لِمَ لا ينصرني الآن، وقد مَضى على وصولي إلى المحروسة أربعة أشهر، ولا شيء إلا مزيدا من الخيباتِ؟ آه لو يسطع نورك فوق بناء مكتبه، وتنادي كافيار فينتفض مرعوبًا، وحين يقوم فلن يبصر بعينيه المفتوحتين. آمن شاول حين أظهرتَ له معجزتك فهل سيؤمن كافيار إن صرختُ في وجهه بالتّرنيمة؟

عدت إذن إلى المحروسة، ولم تختلف أيامي الأولى بها عن أيامي الأخيرة، رغم ما أَضمَره لي البحر من أحلامٍ، ربما كانت مجرَّد أوهامٍ، أنه يمكنني تغيير الكثير، أطالع المقال، وأعيد ما جاء فيه، وتحدّثني نفسي بحواراتٍ طويلة، وصراخٍ في وجه كافيار: إن الشيطان ليس إلها لهذا العالم، بل نحن من نُغيِّره على طريقة الرب. ولكن حين وطئت رجلاي رصيف الميناء اكتشفت أنه قد آن لي الاستفاقة من الوهم. فالمحروسة التي خلّفتُها ليست نفسها اليوم. أسرعت إلى الفُندق كي أرتاح. أحببت فنادق الـمُور وقصدتها، ولكنني

لم أعثر عليهم هناك، ولم أقابلهم، بل إن الإيطاليين قد أصبحوا أصحاب الفندق الجدد، كلّموني بفرنسية لا تخلو من لكنة، وبقيت وحيدًا في الغرفة أعيد سِيرًا قديمة، وددت التخلص منها قبل أن أستقبل المدينة بوجه جديد، لا يخلو من أملٍ في أشياء كثيرة، متفائلًا بمن تبقّى من أناسها فلربما بينهم من يستطيع الوقوف في وجه كافيار.

أتوغل في شارع البحر غير عابئ بالوجوه من حولي، وحده كان قائدا حقيقيًا ولكنه رحل. أين أنت يا بورمون؟! تُرى أي منفى يسعك الآن؟ ساعات استعدت بها بُورمون وأنا أحدق من نافذة الغرفة. متذكّرًا سيرته، أتسلّق دروب القصبة حتى أبلغ مكتبه، أعبر إليه، فأجده وحيدًا على عادته، يبصر الباحة من نافذة الغرفة، يتأمّل حياته التي رآها تنهار أمامه دون أن يُحرّك ساكنا. أدلف إليه، لكنه لا ينتبه لي، إلا حين أقترب أكثر منه، ويلتفت بوجهٍ خالٍ من الملامح، ودّعها مع جثمان ابنه في المعركة. كان يوما قاسيًا، لكنه تحامل على نفسه، وواصل قيادة الجيش. ربما كنت الوحيد الذي قاسمه أيامه الأخيرة، مثلما كان القادة يجتمعون به من حين إلى آخر، يصرُّون على مسير الجيوش إلى بقية المدن. وافقهم على مضضٍ، لم تمض إلا أيام قليلة بعد احتلال الجزائر حتى زحفت الجيوش على المدن الثلاث، وعلى رأس أحدِها ابنه الثاني، ولكنها عادت مهزومة حاملة معها جثمانه. يومها وقفتُ عند مدخل المدينة أراقب العائدين وآثر هو البقاء في مكتبه. اجتمع الضباط في البهو واختاروني كي أبلغه بموت ابنه، لكني رفضت بشدة. مضى أحدهم إليه وأخبره، ثم غادروا القصر وخلّفوني وحيدًا، لم أدر بأي الكلمات سأعزيه، هل يستوعب مجد هذه الأمة أن يفقد عظيم مثله ابنين في شهرٍ واحد! هل ستُنسيه الأوسمة مصرعهما؟! غادرت مكتبه ولم

أعد إلا في يوم ثانٍ، أجلس في مقابلته، أحدق به طويلًا، ونهذر بكلماتٍ لا تعني شيئا لكلينا. مثلما لم تكن مجدية زيارات ابن ميّار وشكواه. يقف ويحتجُّ على تجاوزات الجنود، والقائد كأنه لا يراه. ثم اشتعلت الثورة في باريس، أزاحت الملك وعائلته، وأضحى الإكريلوس ضعيفًا، بدأت تضيع الأحلام الحقيقة للحملة.

يومها حدّق تجاهي بورمون، وقال:

- تكهّنت أن هذا سيحدث.

- كيف؟

- رفضوا منح الجنود عِلاواتهم التي وعدناهم بها، ثم أرادوا شراء صمتي بلقب الماريشال، بهذه الطريقة زادوا من حنق الجنود عليّ.

- وما العمل الآن يا سيدي؟ الرّاية الجديدة تعبر البحر، فهل سترضخ لهم؟

- لست مُجبرا يا ديبون.

- ولكنهم سيَعزلونك إن لم تفعل.

- لهم أن يفعلوا ذلك، لن أغيّر قناعاتي، دائما كنت وفيًا للبُوربون، وسأظلّ.

أنزل إلى أسفل المدينة فأرى الفوضى التي أحدثها الخبر بين المشاة، ضجُّوا قبل أيام واجتمعوا مع القائد يطلبون رواتبهم المضاعفة، الآن هم مرتبكون. لكن القائد بورمون تلافى انقسام الجيش، وسمح بتعليق العَلَم، ولو بعد أيام، لكنهم لم يغفروا له تأخيره، اعتقدوا دائما أنه خائن واترلو، وهكذا بعد أيام قليلة كنا نقرأ مرسوم نفيه.

من نافذة الفندق رأيت كوكبةً من الجنود تعبر الطَّريق، كأنهم وُلدوا في هذه المدينة، غير مبالين بقائدهم، وهو يغادر مكتبه، لطالما تجلّت الحقيقة لي.

لا يهتم الجنود بمجد أُمتهم، بل المال ما أغراهم على السير في هذه الحملة. سرتُ إلى جانب بورمون وهو يعبر الرصيف إلى الفرقاطة التي اكتراها بماله، حاملا خيبتين من البحرية، الأولى يوم اعترضوا تابوت آميدي في ميناء مرسيليا، كان إلى جانبه ابنه الثاني حاملًا عَلَم الجزائر ليُسلّمه للملك. أحاطت به شُرطة الميناء وفتّشوا التابوت، توهّموا أن القائد يُخبئ به الذَّهب. أي مجدٍ هذا الذي تفخر به هذه الأمة، وهي تُفتِّش التوابيت، ولا تُبالي بفتح عظيم؟! والثانية رفض الأميرال دوبيري أن تُقلّ سفينة من الأسطول بورمون، وكان قبل يومين فقط قائدا عليه. وقف يومها بورمون وحيدًا، يتأبّط الصندوق الصغير وقد حوى رماد ابنه، وصعد إلى الفرقاطه. القليل فقط من ودّعه، لوّحت أيديهم له وانصرفوا بعدما غيّب الأفق الفرقاطة، وبقيت وحيدًا مع ابن ميّار.

رحل بورمون يومها وتركني في الجزائر، لم يبق لي سوى الركض مع ابن ميار، نحلم أن نُغيّر المدينة، ونطرق الأبواب كلها لعلَّ واحدًا يفتح لنا. ولم نلق سوى السباب والشّتم، هذا إن لم نُضرب على أيدي الجنود، ورحلتُ يائسًا بينما واصل ابن ميّار ركضه، ثم التقيته فجأةً في الدّرب الموصل إلى مكتب القائد، أدركت حينها أن بعض الرّجال لا تبدلهم السُّنون، إذ ما زال يجِدُّ في استعادة المساجد. اقتربت منه فبدا لي أكبر بسنواتٍ كثيرة، حفرت أخاديد في وجهه، ذهبت ببعض مرحه، عانقني والعينانِ تتوقان إلى أمكنةٍ أخرى، كان مُستعجلًا فسلّمته نُسخة من الجريدة، قبل مغادرته أخبرني عن سفره إلى باريس من أجل عرائض جديدة. لو كان كافيار ثالثنا ذلك اليوم لسخر طويلًا منا. وحتمًا سيقول: أعجب لكما من أحمقين، موريٌّ يريد الخلاص لنفسه في باريس، وفرنسيٌّ يحلم بتغيير أرض البرابرة!

نعم يا كافيـار، ربما تكون محقًا، لا تهمُّ الدروب التي نسلكها، إن كانت الوجهة واحدة، هكـذا خمّنت ثم تجاوزت البوابـة، وقابلني وجـه القائد فوارول.

كلمات قليلة تبادلتها معه وهو يقرأ الجريدة، بالتأكيد كان سيستاء منها، ولكنه لم يُظهر شيئا، قال:

- قد قَدِم الوكيل المدني من مرسيليا ليُحقّق في الأمر، قضى يومين هنا ثم عاد إلى طولون مخلفًا توصياته إلى الجنود.

في الشّهر الأول زرت مكتب كافيـار، أقبض على الجريدة، وأقطع الطريق بخطى عجلة، أتوق فقط للصراخ في وجهه: ليس هناك شيطانٌ في هذا العالم إلا أنت!!

ما إن بلغت المكتب حتى أُذن لي، كأنه كان ينتظرني، حين عتّبت الغرفة حضنني بقوة، وصاح:

- آه يا ديبون الغالي كم اشتقت لك.

- أي شوقٍ ودائما كنا على طرفي نَقيض؟

- لماذا ترى الأمر على أنه شخصي، فنحن الآن فرنسيان في إفريقية.

لحظتها رميت الجريدة في وجهه، فأمسكها دون احتجاج، وقَرأ العنوان ثم رماها جانبا، وقال:

- مُشكلتك مع المالطيين وليست معي.

- لو لم تسمح لهم، لـمـا نَبَشوا القبور.

- ما دخلي أنا، وظيفتي هي إعادة بناء المدينة وليس التفتيش عن العظام.

لم تُغيّر السنوات من تفكير هذا الرجل، كافيار قبل سنتين هو نفسه بعد سنتين، تلزمنا أفكارٌ كبيرة بحجم التي يحملها في رأسه ومستعدٌ أن يُستعبد من أجلها، ويُجلَد حتى يتشقّقَ ظهره، كي يتغيّر.

يومها صَفقتُ الباب ورحلت، قرّرت أنني لن أرجع إليه، بيد أنني عدت، في صُحبة ابن ميّار، وما إن يراه حتى يضج بنا، ويصرخ في وجهينا، طرَدَنا في آخرها آمرا جنوده ألا يسمحوا لي بعبور البوابة، كان ابن ميّار حينها قد عاد من رحلةٍ ظنّ أنها ستعيد أشياء كثيرة، كنت أكثر تفاؤلا بكتابه الذي حدّثني عنه ونحن ننحدر إلى المقابر، وفي طريقنا إلى مكتب كافيار لم يتوقّف عن سَرد تفاصيل حملها الكتاب، ثم صمت ونحن نصعد الدرجات، طوال مسيرنا كنت أصلّي لعلّ النَّاصري يُلهمني فأرمي كل شيء دفعة واحدة في وجه كافيار، وأما حين التَقى الوجهان فقد عَلا صوتي بها: كافيار كافيار أنت لم تكن إلا شيطانًا في هذا العالم.

استَشاط كافيار غضبا، وطردنا مُناديا على جنوده، فرحلت وابن ميّار، كنت سعيدا، إذ لم أره بذلك الغضب من قبل، نزلنا الدرجات مُسرعين حتى بلغنا البوابة الخارجية، ولكن الوجوه التي كانت من حولي ساءتني، الناس لا يريدون التخلّي عن طباعهم، ألتفتُ إلى ابن ميّار، وأهمس له:

- لماذا لا يستجيبون لكلماتنا؟

- لا يمكن للنّاس الوثوق مرة أخرى في الأوروبيين. وهم كل يوم يجددون خيانتهم للمعاهدة.

- ولكن لماذا لا يحمون مقابرهم التي ينبُشها المالطيون؟

- أيهتمون بالموتى أم بالأحياء، وكل يوم تنحدر النُّعوش نحو المقبرة!

- أنت على حق. المعركة الحقيقية هي في المحافظة على من تبقى من الأحياء.

أفرُّ من شارع البحر إلى حي المقاهي، كنت في حاجة إلى نفث الدخان في وجه هذا العالم الذي لا ينتصر فيه إلا الحقراء. لطالما آمنت أن تغيير الشُّعوب لا بد له من أفكارٍ كبيرة، ولم يكن النُّور الذي حمله الربُّ هينًا. همست بالكلمات بعد أن رشفت من فنجان القهوة، نفثت الدخان، ثم انتبهت إلى الصّوت الذي ردَّد معي، حسبت أنني كنت وحيدًا، فوجدته يجلس إلى جانبي، رجلا أسمر، ملامح وجهه كانت أميل إلى الأوروبيين، ويرتدي زيهم، تأملت وجهه طويلا، لم تبد لي لهجته مثل لهجة المترجمين، أو الذين تعلموا اللغة حديثًا، بل كانت فرنَسية دقيقة، وكأنّه تربى في شوارع مرسيليا الخلفية، ولم يُطأطئ رأسه أو يُخفض عينيه، بل ظلّت عيناه مُستقرتين، تُحدّقان بي في رغبةٍ لمواصلة الكلام.

خاطبته قائلا:

- هل هناك شيء يا سيدي، هل تقابلنا سابقا؟

- لا، لم يحدث هذا، هل يمكن أن نتعرف؟

- ديبون مراسل صحفي في «لو سيمافور دو مارساي».

- ديبون، أنت صاحب الحوار الشّهير مع باشا الجزائر!

بالصدفة فقط، يعود لقائي بالباشا في باريس، حيث ظللت أتبعه أيامًا، وأتحيّن الفرص لأكون إلى جانبه، أسأله عن نهاية المحروسة، وعن بداياتها الأولى، عن زوجاته وعن طفولته، عرفت أنه لم يُعاقر الخمر إلا في شبابه، يهمس لي:

- للشَّباب جُموحه يا بني ولكنّ الله أرشدني إلى مضرّتها فتركتها!

كان يُشاع عن الأتراك محبّتهم للنِّساء وقد تزوّج الباشا امرأة واحدة، مثلما اختلف أيضا عن بقية الأتراك، إذ كان مُقبلًا على الحياة الأوروبية، يتجوّل في شوارع باريس ومسارحها، التقيته في مسرح «بروت سان مارتان» بعد مشاهدته مسرحية عن نابليون، ولم أفوّت الفرصة، سألته قبل رحيله عن رأيه بها، وترجم لي ابن ميّار وجهة نظره، لم تختلف ما حملته المسرحية عمّا كان مُشاعًا في الشرق عن نابليون، لكنني استغربت أمنيته في لقاء نابليون، وقلت في نفسي ربما كان مُعجبًا بكونه قائدا حربيًا رغم ما حمله رأسه من جنون. التقيت الباشا مرة أخرى بعد عرض مسرحية مأساوية لفيكتور هيغو بعنوان «ماريون دو لورم» ولم ترقه، إذ اختلفت العادات والتقاليد وحتى اللِّباس بين الأمّتين، ومنعت نفسي من سؤاله إن كان يعلم رأي صاحب المسرحية في الحملة التي سارت إلى الجزائر. لم يستطع الباشا الاختفاء عن العيون التي كانت تتعلّق به كلما دخل مسرحًا أو دار الأوبرا، تظلُّ ملتصقة بلباسه وعمامته الكبيرة، وإلى الخاتم الذي ارتداه، وإلى الخنجر المذهَّب الذي تقلّده، تنشر الصُّحف كل شيء، ما إن أتصفّح إحداها حتى أرى جداول لسير الباشا في العاصمة، والدروب التي سلكها والأشياء التي اشتراها، وحتى الأكل الذي يُحبه، ما أعجب هؤلاء الباريسيين! كان مُرحبًا بي في جرائد كبيرة، ومُحتفى بي في منابر عديدةٍ، وبعد نشر الحوار فقدت جميع صداقاتي، أو بالأحرى أشباه الأصدقاء الذين راسلوني مُعجبين بتتبُّعي للحملة، ومع عودتي إلى مرسيليا وجدت رسائل أخرى تَنعتني بأبشع الصِّفات.

كانت عينا الرجل الأسمر تترقبان سؤالي عن هويّته، وقبل أن أبادره اقترب عامل المقهى منه، حاوره بكلمات عربيةٍ، استغربت وأنا الذي التقيت جميع المترجمين، فعجّل ذلك من سؤالي:

- لم تُفصح لي عن هويتك بعد يا سيدي؟

- أتحبُّ أن تعرفني بإسماعيل أم بتوماس؟

- وهل هناك فرق؟

- نعم كانت هناك فروق ولكنها الآن غير موجودة.

- كيف؟

- كنت توماس المسيحي، ثم أصبحت إسماعيل المسلم دون المروق عن مسيحيتي.

- ولكن لماذا هذا الجهد كله؟

- أملي في هذه الحياة كلها إيصال الجسر بين هوّتي الشرق والغرب.

- أرى كلامك غامضًا يا سيد توماس أو إسماعيل.

- لا يهم يا سيد ديبون أن أكون إسماعيل أو توماس، أو حتى مسيحيًا أو مسلمًا، المهم أن أكون معك إنسانًا. هل يروقك هذا؟

- نعم يا سيد توماس، يروقني الأمر.

- والآن ما الذي أعادك إلى هذه المدينة بعد سفرك إلى مرسيليا؟

- وكيف تعرف هذا؟

- إننا نعرف كل شيء عن هذه المدينة ومنذ سنواتٍ.

- ولكن من أنتم؟

- نحن الذين سنعيد للإنسان قدسيته.

قبل قيامه مدّني بالجريدة التي كانت بيده، وحين طالعت العنوان تذكّرتها، كانت جريدة «الغلوب»، تصفّحتها، قد مرّ عليها أكثر من عام،

وقُدِّر لي يومها لقاء أول السّيمونيين القادمين إلى الجزائر، يبحثون عن مرفإ لهم من أجل تحقيق أحلام زعيمهم سان سيمون. دائما كنت معجبًا به، ولكن في وجود الملك لم أرَ جدوى من نشاطهم في باريس، وربما في بقية الدُّول، والآن أرى أن الجزائر في حاجة إليهم.

تأبّطت الجريدة ورحلت إلى الفندق، قلّبت صفحاتها، كل صفحة كانت تزيد من إعجابي بنداءات القديس سيمون، حَوَت المبادئ الأولى للمذهب الجديد، كم فَتنني أُسلوبه ومعانيه، إنه فعلًا تجلٍ للمُخلّص في هذه المدينة، قرأت المبادئ وكرّرتها، توقّفت عند بعض جملها طويلا، كان أثرها قويا على نفسي، نعم المجد لك يا سان سيمون، إذا كانت فعلا هذه الكلمات صادرة من روحك، فسأكون سيمونيا مُخلصًا، أسهر مع المبادئ بقية اللّيل، فتطالعني الجُمل المليئة بالمعاني الإنسانية «اهتزّت العروش، وتمزّقت الأُسَر، واختفى الحبُّ والملوك. دين جديدٌ وأدبٌ جديدٌ وسياسةٌ جديدةٌ... وليختف بيننا آخر أثر للرقِّ والعُبودية» كانت الكلمات تحفر في داخلي، وكأنها تجدِّد حكايات فتنتني بالإنجليز. أين كنت غائبا أيها المبجَّل سان سيمون؟ أقف وأشرع النّافذة كأنني أبحث عن توماس في الشّارع فلا أجده، وأمسك الجريدة أقلّب صفحاتها وكأنني أكتشفها للمرة الأولى، الآن فقط يمكن لأهالي المحروسة انتظار السيمونيين ليشيّدوا معالم لمجتمعٍ جديدٍ يعمّه السّلام والمساواة مع الفرنسيين وكل الأوروبيين، يكون العَمل جماعيًا، والرِبح يتقاسمه الجميع بعدل، ليت ابن ميّار معي الآن، فيقرأ كيف يسعى هؤلاء إلى تقديس الإنسان، السيمونيون هم مُستقبل الجزائر.

أذرع شوارع الجزائر باحثًا عن توماس، الجريدة في يدي، لم يمر إلا شهرٌ من البحث حتى حفظتها عن ظهر قلب، أعدّد المبادئ كلها وأنا أعبر شارع البحر، فلا أكاد أعثر عليه، وآوي إلى الفندق مع حلول الظلام، ثم أغادره مبكـرًا، جلس عند باب المقهى لعلّه يمـرّ من هناك ولكن لا أثـر. أسأل عامل المقهى، فيرد أنه كان هنا، وأمدّه بورقة بها عنوان الفندق، وحين أسأل عامله الإيطالي يُجيبني بالنفي، وهكذا أعبر شوارع لم أعتد السير بها، وفنادق أستعلم إن كان يحلّ بها، وتبوء رحلتي بالفشل، ألتقي ابن ميّار فأجده حزينا من بيتٍ جديد هدّه عمال كافيار بغرض التوسعة. أُسرُّ له:

- لا تحتَر يا ابن ميار إنهم قادمون، وسيتغيّر كل شيء، ويُعاد ما أخذ منكم، وسيرحل كافيار.

ينظر تجاهي مستغربًا، غير مصدقٍ كلامي، أرافقه إلى حي المقاهي، أجلس في مقابلته، وأهمس له مرة أخرى:

- ستتغير الأمور في وقت قريبٍ إلى الأفضل.

لكنه يظل عابسًا، أذكّره بالأيام القديمة التي طردنا فيها الجنود، فيبستم ثم ينبسط في الحديث، ولا يلبث أن يسحب من محفظته الصغيرة نسخة من كتابه. ويسلمني إياها موقعة باللغتين، تأمّلت الحروف العربية طويلا، ودهمني شعورٌ غامض، هل ستأتلف اللغتان في الجزائر؟ وهل ستحتمل العربية مبادئ السيمونيين؟ ثم عدت بوجهي أنادي العامل ليسعفنا بفنجاني القهوة كي نحتفل، ولكن ابن ميّار كان يحمل أيضا أخبارا أخرى. حدّثني طويلا عن رسالة رافقت الكتب، أشارت إلى قدوم لجنةٍ تفصل في بقاء الفرنسيين في الجزائر، أو في خروجهم منها، لم أشأ مناقشة ابن ميّار

طويلا في مضمون الرسالة. بدا لي عبثيًا، لن يتخلوا عن المدينة. ما سيحدث هو مجرد مراوغة منهم لإسكات بعض النواب المشاغبين في البرلمان. يضغطون على الملك، من أجل مصالح مالية.

عندما وصلت إلى الفندق تصفّحت الكتاب، قرأت تفاصيل حكايتي مع ابن ميّار، وكانت إلى جانبه الجريدة، كأنها تكمّل ما جاء فيه، أقرأ ما كتبه ابن ميّار فأحزن، أطالع ما كتبه سان سيمون، فأرى عالما مثاليًا متحققًا في الجزائر.

كان قد نال مني التّعب والإنهاك من طول بحثي، فوضعت رأسي على الوسادة وغبت في الأحلام، رأيت سان سيمون واقفًا إلى جانبي، وحقلا يمتدُّ إلى نهاية الرؤية، وفلاحي المحروسة يُغنّون طويلا، لكنني لم أفهم كلمات الأغاني، واكتفيت بأن رأيتهم سعداء.

شهرٌ آخر من الانتظار. أطوف بالشّوارع ولا يُصيبني العَياء، كل يوم أحتل كرسيا بالمقهى، وأروح إلى الفندق مع حلول الليل. لم تَعد الجريدة في قبضتي، بل صرت أتمتم بالمبادئ ذهابًا وإيابًا، يُبصرني بعض الأوروبيين، فيبتسمون من حالتي، لا أعيرهم اهتمامًا، وأعد نفسي بقادم أفضل. عبرت أمام مكتب الحاكم فوارول مرات عديدة، ولكن في اليوم الأخير من الشهر، لمحت وجوهًا لم أعتدها هناك، أدركت من حينها أن اللّجنة التي كلّمني عنها ابن ميّار قد حلّت بالمدينة، وأنها عائدةٌ للتو من رحلتها، في انتظار سماع تقارير الضبّاط، ثم من ابن ميّار. أَوَليست عرائضه هي التي أعلنت عن حضوره دومًا، وواصل إرسالها حتى التفَتُوا إليه؟! ها هي اللّجنة ستستقبل بعض أعيان الـمُور، والضُبّاط الذين أشرفوا على المحروسة في أكثر من سنواتٍ ثلاث.

تقدّمت من البوابة، تجاوزت الحُراس دون أن ينتبهوا لي، ثم جاورت باب مكتبه، حيث وقف الجندي يحرسه، طلبت الإذن لألتقيه، ثم أُذن لي، وقفت في مواجهته وقلت:

- ألا تعتقد يا سيدي الحاكم أنني معني بمقابلة اللّجنة؟

- ولكن اسمك غير مُدوّن يا سيد ديبون في القائمة.

- عن أي قائمة تتكلم؟

- اللّجنة الإفريقية حملت معها أسئلة محددة، لأشخاصٍ معيّنين، أنت لست بينهم.

ومدّني بقائمة المعنيين بمقابلة اللَّجنة، وعجبتُ وأنا أقرأ اسم ميمون بينهم، كان يتصدّر القائمة عن أهالي المدينة، يليه ابن ميّار، إذن لن أُكلّف نفسي، وأهذي بأشياء لم يأتوا من أجلها، أعدت القائمة إلى الحاكم، وغادرت مكتبه غير آسف على عدم مقابلتي اللَّجنة.

في موعدٍ آخر قابلته، كان ابن ميّار يحمل في نفسه آمالا كثيرة من اللَّجنة، كتمت خيبتي، وسرنا عبر شوارع المحروسة، رغبت لو استطال الطريق بنا فلا نكاد نصل إلى مكتب الحاكم، ولكننا بلغناه، ووقفت أطالعه وهو يعبُر البوابة، ثم غاب عن عينيّ، انتظرته ساعة من الزمن ثم لفظته البوابة، وكأنه شخص آخر غير الذي دخل، لا يقوى على جرّ رجليه، دنوت منه أستجلي الأمر، وبصعوبة همس لي:

- قد كان هناك يا ديبون وأفسد كل شيء علينا؟

- من تقصد؟

- وهل هناك غيره، إنه كافيار.

- وماذا قال؟

- بل قل ماذا فعل، صحت به وواجهته أمام الجميع بالأشياء التي قام بها، وذكرت أسماء المساجد التي هدمها، والبيوت التي أخذها من الجميع، وَضَيعتي التي سلبها مني، وسحبت الكتاب كي أسلّمه إلى أحد أعضاء اللجنة فخطفه من يدي، وأحرقه أمام عينيّ ولم يردعه أحد، حتى ميمون سلّمهم عريضته، احتفوا بها، أتعرف معنى هذا؟

- نعم أعي هذا.

أوصلته إلى بيته منهكًا، ورحلت اللَّجنة بعد أيامٍ قليلة، وجدتني أغادر المدينة باحثًا عن توماس. أنزل عبر المنحدر، وأعبر باب المقبرة، أتأمَّلها طويلا، فلا يقترب منها المالطيون، ربما يخشون قَبضة السّلّاوي، لو أدركوا مخبأه لكانوا أول من يَشي به إلى الشرطة، منذ سمعتُ بمقتل المزوار أدركت أن السلاوي هو من فعلها. أدخل المحروسة ولا جديد تحمله سوى سحابة من الغبار والرمل المتطاير في سمائها تثيره أبنية جديدة تسقط، كنت متشوقًا للقاء ابن ميّار، وقد غبت أياما، هكذا شققت الدروب ثم تسلّقت المؤدي إلى القصبة، ولم أقف عند بابه طويلا إذ فُتح وأطلّت الفتاة بوجهها الجميل متسائلة، عبرتُ الرواق ثم كنت أجلس إلى جانبه، وفزعت إذ رأيته على حالته تلك، كان أسوأ من المرة السابقة، كأني أكلِّم شخصا آخر، قلت:

- ما الذي حلّ بك؟

- وما الذي لم يحلّ بي يا ديبون؟

قالها بصوتٍ مخنوقٍ، وسحب الورقة من جيبه، سلمني إياها. حين بسطتها أمامي انتابني شعور قاس، وأنا أقرأ الجُملة تلو الأخرى، لأرى التوقيع أسفلها.

قرأت قرار النفي أكثر من مرة، وغضبت أكثر من إمضاء كافيار المرافق لإمضاء فوارول. ملأت عينيّ من وجهه، ولم يبق له إلا يومان عن رحيله، ثم وضعت الورقة إلى جانبه، وانصرفت عائدا إلى الفندق. يومان لم أعرف فيهما النوم، شعرت بمقدار من الكراهية لنفسي، ولكل الذين حملتهم السُّفن إلى المحروسة، كم كان قاسيا اكتشاف الحقائق بعد فوات الأوان.
في آخر يوم انحدرت إلى الميناء، رأيته واقفًا في انحناء، وزوجته إلى جانبه، افترّت شفتاه عن ابتسامة بائسةٍ حين لَـمحني، عانقته طويلًا، لوّحت له إلى أن غابت السفينة عنّي. ولم أدرِ أي جنون ركبني بعدها، ركضت صوب مكتب كافيار، لمحته يُطلُّ من النافذة، قفزت إلى البوابة ولكن الجنديين وقفَا دونها، وصرخت من هناك:

- اللَّعنة عليك يا كافيار، اللَّعنة على نابليون الذي أفسد الجميع بجنونه.

من النافذة تأمّلني كافيار ثم قال:

- عد يا ديبون إلى مارسليا، وعش حياتك، ودعك من أوهامك! إفريقية ليست أوروبا، حين تتجاوز البحر فكل شيء مباح، لا شيء هنا لله، وكل شيء للقيصر.

فأجبته:

- اللَّعنة عليك أيها الشَّيطان.

قفز نحوي أحد الحارسين، وضربني بعقب البندقية حتى سقطت أرضا، وهمّ بركلي لولا نداء كافيار المعنّف له، قمتُ، نفضتُ ثيابي وهممت بأن أشتمه، ولكن يدًا امتدّت وشدّت على ساعدي، سحبتني بعيدًا عن هناك، ثم سرنا مسافة حتى بلغنا البحر، أزرق ممتدًا، وهمس لي توماس:

- لا تنظر إلى الأمور بذاتية يا ديبون، إني أراك تُحيي مجد الإنسان، وهذا يحتاج الصبر والأناة زمنا طويلًا من أجل تحقيق أهدافنا، ألم تقرأ هذا في مبادئه؟

أومأت له برأسي موافقًا، ثم تأمّلت الزرقة أمامي وقلت:

- نعم إنك محقٌّ، كي نُغيّر العالم نحتاج إلى أفكارٍ كبيرة نؤمن بها، ونُقبل على الموت في سبيلها بسعادة.

كافيار

الجزائر مارس/ سبتمبر 1833

الرّحيل عن إسبرطة، هو رجوع آخر إليها، دخلها كافيار المغلول، ليعود إليها كي يضع القيود في أرجل الأتراك والـمُور. ردّدت الجملة وأنا أصعد السفينة راحلا عنها، ثم صحت بها ما إن قابلني خليج سيدي فرج خاليا من الجنود. آن للنهر أن يُغرق الرّبوة ثم ينحسر عنها لتتراءى لنا مدينة مُختلفة، أشبه بالتي خلّفناها هناك في الشّمال، والناس أيضا، ولماذا لا يكونون آخرين غير هؤلاء الـمُور والأتراك.

رحل ديبون بعد أن ملأني بالخيبة، ذلك الشّاب لا يعلم من الحقيقة إلا القليل، لا يرغب في التخلّص من الطفل الذي بداخله، كم أزعجني أن يضربه الجندي، لكنه بالغ في قوله، وشتمني أمام جنودي، وقد كانوا يرونني مُحاطًا بهالة من التّبجيل، ليس من السّهل أن تصنع لك مُريدين يحيطون بك، لكن من اليسير فقدانهم يا ديبون، ما كان عليك أن تَجهر بذلك الكلام. أتصدّق فعلا أنني أشبه ذلك الرجل الذي سحبته من الكتاب المقدَّس، لو تأملت قليلًا فقط في الكتاب الذي نشترك في الاقتباس منه، لوجدته مليئا بالاحتقار لنا نحن الأُميين فما بالك بهؤلاء الأفارقة! النّاصري الذي جلبته كشاهدٍ بيننا، ظلّ يردّد على هؤلاء الشّرقيين أنهم

خِرافه الضّالة التي أُرسل من أجلها. ولم يكن الأميون إلا وهمًا دعا إليه بولص، ثم أصبحنا نحن الأميين من نَجِدٌّ في إعلاء كلمته. تاريخنا الديني كله لحظة التباسٍ كبيرة، وجب علينا التخلّص منه، وفعلنا ذلك، لكن أصدقاءك من البُوربون ومن الإكريلوس، سرقوا الحلم من القائد العظيم، بعد أن خانوه، ثم جعلوه مرتبطًا بالرّب. ليس عليك قول كل شيء للنّاس، عليك فقط تغليف فكرتك أو حُلمك بالدِّين، ومن ثم دعها، ستصبح مثل كرة الثّلج، يزداد حجمها كلما انحدرت.

لم أُستَفزَّ منذ وَطئت رجلاي المدينة مثل ذلك اليوم، رأيته مثل مجنون يُحدّق نحوي. غابت نظرة الإعجاب القديمة بي، عندما خالط أولئك الـمُور وأفسدوه. قبل سنتين اعتقدت أنه شُفي عندما رحل إلى مرسيليا، بعد ركضه الطَّويل مع ابن ميّار.

طردته ذلك اليوم، لم أستطع أن أكون أقسى من ذلك. أُصبح ضعيفا حينما يتعلق الأمر به، الطِّفل الذي حمل أفكارا توقعه كل يوم في مأزقٍ جديد، يوَسوِس له ابن ميار بالكلمات، يزورني وحيدًا فأنصحه بالابتعاد عنه، والالتفات إلى مستقبله، وكأنه لا يسمعني، يغيب أيامًا ثم يصطحب ابن ميّار إليّ، وأجن حينما أراهما معًا، أدرك أنهما سيصبحان مثل مُغني الجوقة، يُعيدان الكلمات نفسها، أحتدُّ من رؤيتهما، يهذران بأشياء لا يتقبّلها ضابطٌ، وأضطر إلى ترديد ما قلته سابقا: نحن لم ندخل المحروسة لأنكم استنجدتم بنا، مثلما فعلتم مع الأتراك، جيشنا قد احتلّ المدينة، ليس عليكما الاحتجاج على شيء. فيردد ابن ميّار بنود المعاهدة مثل ببغاء، ويعيد خلفه ديبون مؤكّدا على كلماته، ويزيد غضبي، إذ لم يكن مُخولا لهما الحديث

نيابة عن الـمُور، يظلّ ذلك العجوز يجادلني كلما ذكرت شيئا، ويواجهني بمقارناته بزمن بني عثمان، فيزيد حنقي عليه، وأضطر إلى إنهاء المقابلة.

بعد نابليون لم أحسّ بضعفي إلا أمام رَجلين، القُنصل السويدي وديبون، فضّل الثاني جهة لا تستجلب له إلا مزيدًا من عداوتي، واختار الأول أن يكون استثناءً في حياتي، وبالرغم من المسافة التي تفصلني عنه الآن، أظلُّ أشتاق إليه. يتراءى لي آخر يوم كأنه بالأمس القريب، حين وقف ملوّحًا لي من الرصيف.

آلاف من الأفكار ضاق بها رأسي وأنا أعبر المتوسط إلى طولون، أفكّر كيف ستكون العودة، ومن أيّ الأبواب سنعبر إلى إسبرطة؟ حلمٌ طويل، وديوان من القصص لم ينته. لعلّ دوفال اختار الطريقة التي سيُنهي بها هذا الديوان، كان قد سبقنا إلى باريس، ومرّت أيام لم تحمل الجديد معها، أستيقظ على وجوه التجار الفرنسيين، وبعض الرحالة الفضوليين، وغرباء الأطوار الذين ودَّعوا المدينة باكين، كلما قابَلتني وجوههم زاد استغرابي، كيف يمكن أن يتعلّق أوروبي بمدينة مثل إسبرطة، وقد قضيت سنواتٍ طويلة بها، كل يومٍ تشعل في نفسي الحرائق. لم أستوعب كيف تتغيّر ضمائر أولئك الأوروبيين، وكيف يتنكّرون لجنسهم العريق، وخاصّة الألمان، يجلس إلى جانبي أحدهم، يبدو لي مثل طبيبٍ، يحدّثني عن المدينة، عن الصحراء الشاسعة، والرمال الذّهبية، وعن العرب وكرمهم، كيف كانوا أقرب إلى شخوص الكتاب المقدّس، ولا يعنيني كلامه إذ جزمت أن طبيبًا مثله سيكتشف بيسرٍ أن المدينة التي فُتن بها، لا تكاد تعثر بها على طبيب، أو حتى عالم طبيعة، أو مُهتمًا بعلوم أخرى. هم لا يُحسنون سوى الأكل والشرب،

ومضاجعة نسائهم من أجل مزيدٍ من الأطفال يُبعثرونهم حولهم، وتكتمل متعتهم بمصٍّ الغلايين واحتساء القهوة، يمتعض الطبيب من كلامي، أو ربما يستغرب وجهة نظري. ولا أجرؤ على السخرية منه، تُعلِّمك الحياة في إسبرطة الحذر من الكلمات التي تَفوه بها، لا تلبث أن تصبح مثل الـمُور مُتلوِّنا في آرائك بما يناسب حاجتك، رغم أن العرب كانوا دائما مخادعين ومراوغين يُبطنون عكس ما يُظهرون، مثلما كان أيضا هناك نوعٌ آخر من الناس يُقبلون على المدينة دون ضجّة ولا أحلام كبيرة، عُلماء يبحثون على أشياء تُعينهم في أبحاثهم، وربما كان الرجل الذي إلى جانبي من بينهم، لولا أنه فاجأني بأساطيره الدِّينية، لم أدر ما الفائدة في تشابه هؤلاء الـمُور، أو البدو ببني إسرائيل، وقد كانوا مجرّد أبناء عمومة اختاروا دينا آخر، زاد من احتقارهم لهم. ودّعت الطّبيب الألماني حين بلغنا طولون، واستقرّ بها، وواصلت طريقي إلى باريس. كلما تجاوزنا مدينة أتذكر سات، لكنني قررت أنني لن أزورها إلا بعد انتهائي من الحكاية الإسبرطية، وظللت على هذه الحال حتى تراءت لي باريس، ارتبكت وأنا أحلّ بها بعد غياب سنوات، كان آخرها يوم عُدت من واترلو، انتابني الإحساس نفسه، حتى أن يدي امتدت إلى جرحي تتحسّسه، أتراه ما زال غائرا في السّاق؟! وسحبتها ونحن نعبر بابها، كل يوم تزداد هذه المدينة اتساعًا، بالرغم من رحيل قائدها العظيم.

توقف الحوذي عند فندق متواضع، حجزت به غرفة ثم استلقيت على السرير، يشتعل رأسي بخطط كثيرة أغيّرها كل مرة كي تدنو ساعة الحرب.

حين أطللت من النافذة، نفض ديبون ثيابه، وتطلّع نحوي بحقدٍ، همّ أن يواصل شتمي، لكن شخصا غريبًا سحبه. لم يترك لي ديبون خيارًا، أجبرني على

وضع الحواجز بيننا. كنت قد أضمرت أكثر من سنواتٍ ثلاث نفي ابن ميّار، ولكن أشياء كثيرة حالت بيننا، انتظرت رحيله من تلقاء نفسه، أو ربما موته، لكنه كان متعلقًا بالحياة، يذرع الشّوارع ويجتمع بأعيان المدينة، يوقّعون له العرائض والشكايات، كل يوم تصلني الرسائل من باريس تتساءل عن مخطط المدينة الذي شرعت به، وعن شكاوى الـمُور التي تصلهم، ولم يكن أحدٌ من مُرتادي القصور يدرك ما نتجشّمه من عناء في إفريقية.

رحل ديبون وشعرت أني لن أراه ثانية، ظلّت كلمات كثيرة عالقة بلساني رغبت لو قلتها له، كان أفضل له أن يبقى إلى جانبي، ينتظره مستقبل مختلف، سيكتب الكثير عن الأحلام التي سنجسِّدها معًا في إفريقية، سيشهد على تاريخٍ جديد، مليء بالانتصارات، وسيتناقلون اسمه في صالونات باريس، كنجمٍ يستعيد لمعانه، وقد أفل بعد حواره المتعاطف مع الباشا حسين، لكنه اختار الجهة الثانية. رأيته ينعطف نهاية الدّرب غاضبًا، لأنني نَفيت ابن ميّار، ولم يكن مجديا بقاء ذلك الشيخ، وقد اعتاد الوقوف في طريقنا كلما هممنا بفتح طريق جديد. لا يعي هؤلاء الـمُور معنى المدينة، يظلّون يحلمون بقرية ضيّقة لا تتسع شوارعها لعربة يجرها حصانان، يحبّون سقائفهم وحواريهم التي تبدو مثل جحورٍ. كان من الصَّعب إقناعهم أن العالم قد صار مختلفًا، والعمارة قد تجاوزت الطريقة التي يبنون بها بيوتهم. حين لا يصغي الإنسان إلى كلماتك، ومن ثمة يقف عقبة في طريقك فليس عليك إلا إزاحته.

ولم تلبث أن وصلتني رسالة من ضابط بالبحرية، يشرح ما حدث في باريس بعد زيارة ابن ميار وتقديم عريضته يتهمني وكلوزيل والدوق روفيغو بأشياء كثيرة، استغل بعض النواب المعارضين للحملة العريضة، وقدموا شكاياتهم في البرلمان. تمنيت لو أرسل لي نسخة منها لأدحض كل

ما جاء فيها، ولكنه آثر تحذيري فقط، قرأت الرسالة بامتعاضٍ، ولكنني ذهلت أكثر وأنا أطالع الكتاب الذي رافقها، ولم أتكهّن أن ابن ميّار يجرؤ على سرد تلك التّفاصيل، لم يترك ضابطًا إلا وذكر اسمه، متتبعًا أثر أقدامه على دروب المدينة، أما حين أتى على ذكري، فإنه خصّص لي فصلًا مُنفردًا، نقل به جميع الحوارات التي خُضتها معه بتفاصيلها الدقيقة، مع كل صفحةٍ أقلّبها تزداد ثورتي، ويقيني بأن المدينة لن تحتملني وإياه معا، انتظرت الفُرصة المناسبة فقط، واعتقدت أن الرسالة التي وصلتني بعد أيام ستربك موقفي، غير أنها عجّلت من رحيله، ففككت حروفها المضطربة:

- صديقي كافيار، أنا مقدّرٌ ما تبذله في الجزائر، لذا عليك الحذر، أيام قليلة وستصل اللّجنة الإفريقية، وسيكون بها عدد من الضُّباط والمسؤولين ليحقّقوا في الدّعاوى التي رفعها أعيان المدينة إلى الحكومة مُتظلمين منكم.

طويت الرسالة، وهممت بدسّها في الظرف لكنني انتبهتُ إلى ورقة ثانية، تحرّيت الأسماء الموجودة بها، بدا لي الاسم الأول مألوفا، ثم تتابعت الأسماء، التقيت ببعض أصحابها فيما سبق، شعرت أن شيئا كان يتواطأ معي، إذ لم يحمل أغلب الضبُّاط إلا ما حملته، خبأت الرسالة في الدرج، ثم سحبت ورقة وكتبت قرار نفي ابن ميّار. لم يكن فواروول ليرفض هذا القرار، كان أكثر ميلا لأفكاري، ومنذ حل بالمدينة قاسمني العديد من مهامه مثلما فعل مع الكثير من الضباط.

هكذا استقام كل شيء، وشعرت أن الدِّيوان الإسبرطي لم تبق له إلا أيام قليلة حتى يُطوى نهائيًا مع رحيل ابن ميّار، وربما يومها فقط سيعود ديبون بعد أن يكتشف حجم الأخطاء التي قد ارتكبها، وسيقول لي:

- نعم يا كافيار، دائما كنت محقا، حربي معك لم يكن لها معنى، والأشياء التي بيننا لم تكن شخصية بالقدر الذي توهّمته يوم ثُرت عليك وشتمتك، نحن نحمل الفكرة نفسها، ولكن بوجهيها، المجد لهذه الأمة التي ستشمل إفريقية كلها عما قريب.

لن أحاكم ديبون على ما يضمره من أفكار. له أن ينشر كلمة الرّب في الأمكنة التي يريدها، وإذا أراد سأعطيه مفاتيح الكنيسة، ولكنني لا أريده فقط اعتراض طريقي.

انتهيت من كتابة قرار النّفي، ونسخته مرّتين دون توقيعه، وخبّأته في الدُّرج، ثم ارتخيت على الأريكة، تطلّعت إلى سقف المكتب، وكأنني مرة أخرى في الفندق، قد مضى أكثر من أسبوع، كل يوم أجدُّ باحثا عن القُنصل، أشقُّ الشَّوارع على قدمي أو في العربة، أشاهد شوارع باريس بعد غياب طويل، ومرّ أسبوع ثان وثالث، لم ألتق القُنصل إلا حين انقضى الشّهر، رأيته يدلف إلى أحد المطاعم الباريسية الفخمة، ثم كان يُقاسم طاولة مع أحدهم، بدا من هيأته أنه تاجر، شققتُ الصفوف حتى وقفت عند رأسه. وتفاجأ لما رآني، ربما لم يُخمّن أنني كنت جادًا في اللحاق به بباريس، لكنه دعاني إلى مقاسمتهما الطاولة، مكثت برهة ثم اعتذرت بعد أن رتّبت بيني وبينه موعدًا، لم يمض إلا يومان وكنا نحتل الطَّاولة نفسها في المطعم، ومن ثم حملتنا العربة إلى أن أشرفنا على مكتب وزير الحربية، لم نلتقه، بل استقبلنا ضابط مسؤول عن الإعداد للحملة، وتشاركنا ثلاثتنا غُرفة فسيحة، بعد ساعة اعتذر دوفال ورحل، لبثت مع الضَّابط أكثر من خمس ساعات، ولم يكن يصدق أنه أمام رجلٍ عاش تلك السَّنوات كلها

في إسبرطة، وحمل تلك المعارف، وهكذا أصبح كافيار شخصا مهمًا ومهندسًا لا يمكن الاستغناء عنه في الحملة.

لم يكن معقولًا أن يعرف الضُّباط حجم الكراهية التي أحملها لوزيرهم الذي خاننا في واترلو، وظللت بينهم مثل نهر، يغرفون منه أجوبةً على حيرتهم وأسئلتهم.

يُحدّثني فوارول عن ديبون بانزعاج، يقول إنه يظهر في أماكن ليس عليه الظهور بها، ومع أناس ليس مُحببًا وقوفه معهم، وأجيبه أنه لا خطر منه، ثم يردف أنه زاره في المكتب حين وصلت اللَّجنة الإفريقية. لم أتوقّع أنه سيسمح لنفسه بالتدخل في عملها، وعدت فوارول أن هذا الأمر سينتهي سريعًا.

بعد رحيل اللَّجنة بأيام أمضى فوارول قرار نفي ابن ميار، لم أكن لأدعه خاليا من إمضائي، كنت أريد أن أقول: يا ابن ميّار إنني الآن حاكمٌ على الجزائر، فليس عليك الاحتجاج عليّ. عليك الآن فقط حمل أشيائك والرحيل عن هنا، هي لا تستوعبنا نحن الاثنين، مثلما يجب أن يزول تأثيرك على ديبون ليعود مثلما كان في السَّابق.

لا أدري كم هي المرات التي رأيته ينزل من عربته، أو يقصد مكتبه، لكنني لم أُرد لقاءه في عزٍّ مجده، سنواتٍ طويلة قضيتها أشتمه في داخلي. حطّم كل أحلامنا في واترلو من أجل منصب الوزير، ثم ها هو يُعيّن قائدا للحملة، لم تكن لتنجح لولا جنود نابليون. بدءا من بوتان، وانتهاء بي، وبأولئك الذين يختبئون داخل الجيش، ينتظرون فقط شخصًا مثلي لبعث المجد القديم. اجتمعنا في سيدي فرج، وخطّطنا سويًا لمسيرنا، وتعمّدت التقليل من لقائي به، خشيت أن أغفر له ماضيه، ثم نصبح صديقين، تمنيت موته حين انفجرت القذيفة إلى جانبه، ثم كنت أكثر استياءً وأنا أراه يتصرف

مثل هؤلاء الحمقى من الإنجليز، يمضي وثيقة يهب الـمُور والأتراك المدينة بعدما قطعنا البحر من أجل احتلالها. واضطرنا إلى تجاوز المعاهدة. فكرت بكل هذا وأنا أسمع من الضُّباط بنودها، واكتشفت كم كان بورمون أكثرنا خُبثًا، ظنّ الجميع أنه جامل الأتراك وأهالي المدينة بأن سمح لهم بممارسة طقُوسهم الدينية، وصَون أموالهم مقابل خزينة الباشا، لأنه كان يعرف إلى أي درجةٍ يتعلّق بعض الـمُور والأتراك بمساجدهم، فضمن أن يدخل المدينة دون مقاومة، ومن أبوابها جميعا، وحتى في زمنٍ لا يكفيهم أن يمدّوا أيديهم إلى كنوزهم، وما إن تجاوزت الجيوش الأبواب حتى نهب جنده القصبة. ولكنه كان مطمئنًا فالخزينة بخير، سار محاطا بجنوده، حتى بلغ قصر الباشا، وأنشأ لجنة تعدُّ ما بها من عملات ذهبية وفضية، ثم تكوّمت الصناديق، ورحل بعضها إلى الملك، وأخرى احتفظ بها. زاد ذلك من الفجوة بينه وبين الأميرال دوبيري، إذ كانت الحرب مشتركة، ثم لم يستفد من الذهب إلا قائد واحد، ومن ثم تصنّع المعارضة من أجل أن يُفلت من المساءلة، وتأخّر يوم أُسقط صديقه الملك في رفع العلم الثُلاثي الألوان أعلى القصبة، فظنَّ الجميع أنه يعلن عِصيانه، لكننا تفاجأنا بالعَلم من مبنى البحرية، وكان الوقت قد تأخّر، إذ عُزل بعدها، وفي ذلك اليوم شقّت عربته شارع البحر تجاه الميناء، سار دون حُراسه يقصد القائد دوبيري، وكنت حينها أقاسمه المكتب، سمعنا وقع قدميه على الأرض، ومن ثم دقه على الباب، نادى الأميرال عليه أن يدخل، ولم يتفاجأ إذ رآني هناك، كان يدرك أنني أكثر ميلًا للبحرية، شاركتهم ميولاتهم المعارضة للبوربون. طلب بُورمون من الأميرال سفينة من الأسطول تصحبه إلى منفاه، رفض طلبه بهدوء، ثم عاد إلى خرائطه كأنه يصرفه بطريقة لبقة، وربما ودَّ لو يصرخ

في وجهه: أتريد منا أن نقلّك بالمجان، لم نرَ من صناديق الذهب التي سرقتها ولو قطعة واحدة، أتريد الالتحاق بملكك المنفي في إنجلترا على نفقتنا، لا يا سيد بورمون، اذهب واستأجر سفينة تُقلك.

لم ينبس بورمون بكلمة، رحل عن المكتب، وأطللتُ من النافذة فرأيته أسفل البناء، سار خطوات والتفت فجأةً، ولم أنتبه إلى نفسي وأنا أصيح به:

- تستحقُّ كل هذا يا خائن واترلو، أمثالك لا يصلح لهم سوى النفي عند هؤلاء الإنجليز.

طأطأ رأسه ومضى إلى العربة، وفي يوم آخر سمعنا أنه اكترى سفينة نمساوية أقلّته إلى إنجلترا حيث ينتظره ملكه المعزول.

عرفتُ أن ديبون وابن ميّار قد ودّعاه ذلك اليوم، استوعبت كيف يفكّر أو يخدع ديبون، ولكن ما الذي يجعل رجلًا مثل ابن ميّار يودّعه، ألم يأخذ الجيش أكبر عدد من المساجد أيضا حينما كان حاكمًا؟ لماذا لم يتكلم وهو عضو في مجلس البلدية؟ لو أعمل ديبون عقله لأدرك أن أمثال هؤلاء الـمُور مُتلوّنون، إنهم يحبُّون لعب أدوار مهمة، وربح المال في كل مرحلة، نحن بالنسبة لأمثال ابن ميّار لا نختلف عن بني عثمان، والقضية كلها مصالح يسعى إلى تجديدها، لذا فضّلت دوما ميمونا، يفكر ذلك الرجل بعقلانية، ويعيش الزمن الأوروبي، يفصح عن مَصالحه في حضوري، يفاوض على مزيد منها، لا يتخلص من عقلية التاجر حتى وهو يناقش أمور السياسة. أعارضه وأفاوضه، دائمًا كانت هناك طريقة تُسيِّر العلاقة بيننا، لم يُزايد على شيء وأخفاه، ومنذ أحكم قبضته على الأوقاف استطاع إرضاء الجميع، عدا أولئك الحمقى من الـمُور، أعياه تلوّنهم معه، وزاد إعجابي به حين

اختار مصلحته. حمل أموالهم وهرّبها إلى مرسيليا، وبعد أن جاؤوا يشكون ابن ميّار ويقترحون ميمونا، عادوا مرة أخرى يشكون ميمونا ويقترحون ابن ميّار، فرفضت استقبالهم. ولكنك عُدت واصطحبت ابن ميّار، وكأنني لم أحذرك.

في باريس كانت العربة كل يوم تسير بي إلى مكاتب الضباط، نظلُّ نعيد الكلام نفسه، والخطة قد شرحتها مئات المرات، يقولون إن وليّ العهد سيزوركم، ثم لا نرى شيئا، هكذا مرَّت شُهور، حتى كدت أيأس من هذه الحملة، بينما كان النُواب الليبيراليون كل يوم يشعلون حربًا ضد الملك، لم يبقَ على الانتخابات إلا أشهر قليلة، ولكنه لم يؤذن له بعد، صرت أتساءل كلّ لحظة، هل تُراهم سيحاربون، أم أنهم سيؤجلون الحملة؟ وبنو عثمان يعدّون أنفسهم لمواجهتنا، وتظلُّ الأخبار تصلني من حين إلى آخر، أنهم يَسعون جاهدين إلى الصُّلح، فأحدِّث نفسي هل يعقل أن يتصالحوا وتذهب كل أعوام شقائي هباء؟

في يوم آخر سارت بي العربة إلى مكاتب الضُّباط، انتبهت حين بلغتها إلى حركةٍ غريبة، شككت أن هناك زائرا مهما، وأنا أعبر الرواق أشار إلي أحد الضباط فالتحقت به، ولم أنتظر طويلا ليسلمني بالوثيقة، تفحّصت ما جاء فيها، وإذا بي أقرأ تكليفي مُوقعا من وزير الحربية، وقد أضحى أيضا قائدا على الحملة، اختلطت عليّ المشاعر، بعض الزّهو ولكنه لم يخل من خيبة، وأنا أرى حُلم نابليون يُحقّقه أحد الذين تسبّبوا في خسارته، دسستُ الوثيقة في محفظتي، وغادرت المبنى صوب الفندق، وأنا أردّد كلمات الضَّابط في سرّي، نلتقي يا كافيار في طولون.

هل فكرت وأنا في باريس أنني سأرحل إلى طولون لأقابل ديبون؟ لا لن أزعم هذا، كنت ممتلئا بتفاصيل الحملة، حتى فوجئت بشابٍ في طولون بملامح طفل، ذكّرني بالأحلام التي حملتها في سات قبل الالتحاق بنابليون، كان صحفيًا يعمل في «لو سيمافور دو مارساي»، يتكلّم عن أحلامه، ويريد تغيير العالم من حوله، ويؤمن بعمقٍ بالنّاصري، والنّور الذي سيشع في إفريقية، تشاركنا الغرفة في لوناجور، أحببت توقه للمعرفة، وخالجني شعوٌر أنني سأحظى برفقةٍ جيدة، لكنني لم أتنبّأ أنه مع بلوغنا خليج سيدي فرج سيصبح أقرب الناس لي، بعض الأشياء لا يمكن تفسيرها، على هذا النحو كان تعلُّقي بديبون، أو بالأحرى كافيار الذي فقد الآن الكثير من صفائه، عندما حملَت روحه العذاب، وخيبات أعادت تشكيله، فأضحى شخصًا مختلفا، لا يكادُ يُميّز ملامح روحه كلما أبصرها في مرآة لم تكن إلا وجه ديبون.

في اليوم الذي غاب ديبون عن ناظري، حملت نفسي ونزلت الدّرج، وغادرت المبنى وحيدًا، ربما كانت المرة الوحيدة التي أعبر بها شوارع المدينة وحدي، وتبعني الجنود لكنني أمرتهم بالبقاء في أماكنهم، شعرت أن هناك مقدارا من الحكايات وجب عليّ إعادتها، لم أعتد أن يحتدَّ عليّ ديبون بتلك الطريقة. قطعت الشوارع، ولكن الوجوه التي تُشابه وجه ابن ميّار كانت تكدّر صَفوي كلما طالعتها، قرأت تفاصيل ملامحها، كأنهم يشيرون عليّ مثلما أشار ذلك اليوم، وأنا بين ضباط اللجنة الإفريقية، كان يقف بكبرٍ، معتقدا أن الجميع قادمون لتأكيد اتهاماته.

التفت إليّ وحدّق تجاهي بنظرة وقحة، ثم امتدت يده مشيرة إليّ، خُيِّل لي أن أحد الأتراك رفع السوط في وجهي، وأراد جلدي، ولم أنتبه إلى نفسي

إلا وأنا أقف في مقابلته، لكنه لم يخشني، وظلَّ مُصرًّا على مدِّ يده تجاهي، يظن أنه يحتمي بأولئك الضُّباط الذين لا يُحسنون إلا الجلوس على الكراسي وإصدار الأوامر. ثم علا صوته صارخًا بهم، وأعاد جُزءًا من الكلمات التي دوّنها في عرائضه وكتابه، اقتربت منه ودفعته حتى كاد يسقط، ونزعتُ الكتاب من يده على مرأى من الجميع، وانتحيت مكانا في طرف الغرفة، وأشعلت به النار، ولم يُحرِّك أحد من الضُّباط ساكنًا، كنت واثقًا أنه لن يجرؤ أحد منهم فيعترضني، وظلّت نظرتهم اللامبالية تجاه ابن ميّار، انهار فجأة فابتسمت بسخرية، وحاول مواصلة مرافعته، ولكن الصّوت خانه، حمل نفسه وغادر المكتب مطأطئا رأسه، التحقت به وتأمّلته أثناء نزوله الدَّرجات لكنه لم يلتفت.

ها قد انتهت الحكاية يا ديبون، اختر أي الضفتين لتبقى بها. وأنا مؤمن أنه ليس لك إلا مكانان: العودة إلى مرسيليا، أو أن تكون إلى جانبي، حينها ستختار بنفسك قدرك، فالرِّجال الحقيقيون هم من يصنعون أقدارهم.

كان بعض الـمُور يحدقون بي، فأشحت عنهم بصري، لم يبق الكثير حتى يغيبوا عن ناظري، واستبدّت بي رغبة أن أبصر إسبرطة عن كثب، لأرى أي مدينة قد أضحت بعد دخولي إليها غازيا. ولكنني غيّرت دربي نحو البحر، امتدّ أزرق فاتحًا تتحرك موجاته كأنها تُنادي على صياد الرنكة بداخلي، ولم يُقدّر لي مطالعة رصيف سات من مكاني، فانعطفت تجاه الميناء، لعلي أعثر على سفينة هناك تُقلُّني إلى حلمي القديم، أن أعبر المتوسط باحثا عن الرنكة دون رؤية الأتراك يجوبون البحر، سأكون مزهوا بانتصاراتي كُلها، ولن ألبث حينها وأعود حاملًا كل الآمال ألا أرى بالمدينة مزيدًا من الـمُور.

ابن ميار

المحروسة مارس/ سبتمبر 1833

مرة أخرى...

أُبصرها فلا أكاد أُميِّزها، تتحوّل كل يوم في عينيّ، بينما تبقى صُورتها القديمة، يوم عادت بنا السفينة الإنجليزية إليها، أذكر يومها، أنني رأيتها مثل سحابة بيضاء تجوب الأفق، أشرت تجاهها وصحت. لكن أبي ضحك طويلًا، وهو يرى اجتماع البحّارة حولي لا يفقهون كلماتي. اقترب منّي وحملني حتى لامست قدماي حافة السفينة. أشار إليها بدوره، ثم همس لي: إنها المحروسة. تخيلتها سحابة بيضاء تطوي الأفق، ثم توقّفتْ وأضحى لونها أشدَّ قتامة وأنا أطالعها في عودتي من مرسيليا.

أنحدر بتؤدة عبر شارع القصبة، ويهاجمني مزيدٌ من الغبار المتصاعد. أنعطف مخلّفًا سور المدينة ورائي، باحثًا عن ديبون، يُصرُّ على المسير كل يوم إلى المقابر غرب المدينة، ولم تعُد هناك جدوى من حراستها بعد تخلّي الناس عنها، وعادوا يجوبون الشوارع، أو يتجمّعون عند ضريح سيدي عبد الرحمن، ثم لا يلبثون أن يتفرّقوا. لم يعد يوزع عند بابه شيء، والعصافير التي اعتادت التحليق فوق مئذنة المسجد الصغير، هاجرت دون عودة، عدا اللّقلق الأبيض، أتأمّله كلما عبرت إلى ساحة المسجد، يُراقبني مُتململًا في عُشِّه، يرفع رأسه يحدّق طويلا

في السماء. وقد اعتاد توزيع فأله الحسن على البيوت، كُلما حلّق فوقها استبشر له الناس. أنعطف عبر سقائفَ أخرى فتُواجهني فراغاتٌ جديدة. مرَّ شهران على عودتي، تتجدّد معها الأسئلة في داخلي، هل فعلًا سيحمل الرجل المقرّب من الملك عريضتي ويسلّمها له يدًا بيد؟ هل يمكنها جلب لجنة للتحقيق؟ أتجاوز الساحات كلها، إلى أن تقابلني السَّاحة في مكان جامع السيّدة. أشيح بوجهي عنها، لم يكن ليعينني أحد على تلك الأيام إلا ديبون. اعتدنا استكشاف الشّوارع، وكلما اكتشفنا بناء ينهدُّ نعود بخطى سريعة إلى مكتب كافيار، يرانا من نافذته فتتغيّر ملامحه، يستقبلنا على مضض، ويردُّ بحنق. لم يثن كافيار من عزيمتي، لكنني أفقد المقاومة حين يسعى بعض أبناء المحروسة للكيد لي. كنت لا أزال أحدِّث نفسي وأتمتم، ثم رفعت رأسي وتَراءى لي ديبون يجلس عند باب المقهى، ينفث الدّخان تجاه السماء، ثم ينظر نحوي ويسألني:

- ألم يصل كتابك لحدّ الآن؟

- لا لم يصل بعد، ولكن الشّهر القادم سيحمل الكثير.

- وكيف تنبّأت بهذا؟

- هو مجرد إحساس فقط.

لم أُقحم ديبون في الأصوات التي كانت تنتابني في الأحلام. وكيف له استيعاب كرامات سيدي عبد الرحمن؟ أو تصديق أني أسمع صوته في الحلم، ويتحوّل في يقظتي إلى طائر يُومئ لي أن أتبعه. ألتفتُ إلى ديبون، لا يزال ينفث دُخانه إلى السّماء. تأمّلت وجهه، أحسست بالصّوت يتعالى، استأذنته ورحلت. ناداني ديبون، لم أستطع الالتفات، كان صوت سيدي يدفعني للمسير إليه، ويتعالى كلما خطوت تجاه الضّريح، تجاوزت السَّقائف،

ثم تسلَّقت الدَّرب المؤدي إليه. حين وقفت عند الباب، انتقلَتْ إليّ لقلقة الطائر حادّة، جاوزت قوس الباب إلى ساحة المسجد، ورفعت رأسي لأرى الطَّائر لكنه حرَّك جناحيه بقوة وحلَّق بعيدًا، زاد يقيني أن سيّدي عاتب عليّ فدنوت من باب غرفة الضَّريح. فتحته بهدوء، دخلت إلى الغرفة مُسلِّما عليه، وما إن اتكأت على الجدار حتى شعرت بالنعاس، ثم غفوت.

كنت واقفا على الرصيف، أوّل ما نزلت من السفينة، أحمل شوقا للالّة سعدية وللسلاوي ودوجة، ولحارات المحروسة وأسواقها. تجاوزت الرّصيف، سرتُ برتابة بين الشوارع، أبنية جديدة ظهرت مكان دورنا، لا تشبهها في شيء، نظلُّ نميل إلى الأشكال الـمُنحنية، كالأقواس والدوائر، بينما ترتفع أبنيتهم مثل مربعاتٍ ومثلّثاتٍ، لا يمكن أن يُصبح الهلال صليبًا. قرون من الحُروب والموتى، وما حال هلالٌ إلى صليب، مثلما لم يتحوّل صليبٌ إلى هلال. بالنَّار لا تستطيع تغيير إيمان الناس، قد يتشبّهون بك زمنا طويلا، ولكن قلوبهم ستبقى معلقة بالشرق.

كنت أتسلّق شارع القصبة، أتأمّل السُّور إلى يميني. ثم أشحت بوجهي عنه، خشيت أن يُغرض بي هو أيضا لدى كافيار، كل الذين من حولي تحولوا إلى مُغرضين، صار مِقدار ثقتي في الجميع ضئيلًا. همست لي لالّة سعدية مراتٍ عديدة، ولكنني لم أصغ إليها، ورددّتُ حين هممت بالسَّفر:

- هم لن يعيدوا لنا شيئًا، لماذا لا نرحل؟ لا الناس صاروا يسمعونك، ولا الفرنسيون مُقتنعون بآرائك. قسنطينة لم يدخلها الفرنسيون بعد، لماذا لا نقصدها؟

لم تكن لالّة سعدية وحدها تردّد هذا الكلام، ديبون أيضا قالها بعد يأسه من ركضنا وصدِّنا من الضُّباط:

- يا ابن ميّار أنا راحلٌ، لم أعد أستطيع احتمال المزيد من الإهانات. أريد الكتابة عن أشياء أخرى، ونسيان هذه المدينة إن استطعت ذلك. اعتنِ بنفسك وصحتك وزوجك، أو ارحل، جرِّب السفر إلى قسنطينة، أو إلى تونس أو طرابلس، أخبرتني أنّ لك أصدقاء كثيرين هناك.

أجبته يومها:

- أستطيع أن أكون آمنا هنـا، ولكنني عاجـزٌ عن رؤية نفسي خارج أسوار المحروسة.

حين واجهتني بوابة القصبة، انتبهت إلى مكان السلسلة، اقتربت ومددت يدي أبحث عنها، وتذكّرت ركض السلاوي وإمساكه بها، ترى هل ستنفعُه الآن؟ بالأمس كان يقول ما يريد، ثم يطلب عهد السُّلطان. والآن من سينادي باسمه كي ينقذه؟! وتعود إليّ آخر كلماته، يزعم أن هناك عيونًا للأمير بالمدينة. لم أؤمن بالأمير يومًا، وما اعتقدت فيه الإمارة، كيف يفقه هؤلاء البدو تقاليدها. أيمكن أن تجتمع حفنةٌ من الناس ويعلنوا رجلًا من بينهم أميرا؟! أين كان يعيش هؤلاء الناس، خارج سلطان بني عثمان أم داخله؟ كان أولى لهم نصر باي وهران، لكنّهم تخلوا عنه، فالبدو بطبيعتهم يحبّون الحرية، مثلما كانوا يكرهون الأتراك. ربما كان للسّلّاوي جذور مع هؤلاء البدو، إذ لم يفكّر إلا مثلما فكّروا. يجنح إلى التمرد، وينغمس في الحياة كأنها لن تمتد إلا عند حد لذّاته. أتجاوز بوابة القصبة، أنعطف ليُقابلني باب بيتي. أبحث بين ثيابي عن المفتاح، ثم أسحبه، أعيده ما إن يُلامس الباب، وأضعُ بيني وبين نفسي رهانًا، إن كانت لالّة سعدية تتذكر طريقة دقي على الباب؟! مددت يدي إليه، وضربته مثلما اعتدت منذ سنوات، انتظرت

مليا، شعرت بحركة خلفه، ثم شرع في وجهي. لم تعتد لالّة سعدية فتح الباب منذ حلّت دُوجة بالبيت، ولكنها هذه المرة تيقّنتْ أنه ليس من ورائه سواي، كسبت لالّة سعدية الرهان. ليت كل الرِّهانات هكذا، خاصَّة إذا ما كانت متعلّقة بالمحروسة! ما إن حللت بالرواق حتى كانت تُعانقني وتُقبِّل يدي وتشهق بالبكاء، غير مُصدِّقةٍ أنني عدت ثانية. ثم تراءت لي دُوجة، وَقَفت تنظر إلينا،، اقتربت وقبّلت رأسي، وعادت لالّة سعدية إلى لَثم يدي، تتفحّص وجهي لتتأكد من أنني فعلًا قد رجعت، ثم ترافقنا جميعًا إلى غُرفتنا. حكيتُ لهما تفاصيل الرحلة، وسألتهما عن جديد المحروسة.

خاطبتني دوجة: السّلّاوي قد قتل الـمِزوَار. لكنِ وجهها لم يبدِ أي تفاصيل للفرح أو الخوف. كأنّ الخبر بات قديما، التفتُّ إليها متفاجئا. في حين أضافت لالّة سعدية:

- نعم قد فعل. قبل أيام طرق بابنا مع نهاية اللّيل جريحًا، ضمدت جرحه، والآن هو مختبئ في القبو.

- والجنود، ألم يتبعوه؟ ألم يفتشوا البيت؟

- نعم قد فتّشوه في اليوم الموالي، ولكنهم لم يكتشفوا مكان القبو.

- وهل آذوا إحداكما؟

- لم يكلمونا بل رافقهم مترجمٌ ناب عنهم في السؤال.

تنفست حينذاك الصُعداء، وقفت ثم نزلت إليه، وجدته مستلقيًا على فراشه، عانقته طويلًا، ورأيت نظرته المشتاقة، وذهوله ما إن رآني، لم يُصدّق أنني عدت حقا، دقائق من الصمت، ثم بادرني:

- أخيرا قد استرحنا منه، ولم يبق إلا الرحيل بعد أن أشفى.

- الآن أنت لا تختلف عن الذين يقتلون الجنود في اللَّيل!
- ولماذا يبقون عليهم أحياء، يجب أن يعودوا إلى بلادهم.
- لكن القتل لا يستجلب إلا مزيدًا من القتل.
- ولا تستجلب العرائض إلا مزيدًا من العرائض الأخرى.

يستمر السّلاوي في عناده، حتى وهو جريح، تترصّده آلافُ البنادق، لكنه يُصِرّ على التصرف مثل البطل الذي يمكنه مواجهة الجميع، والانتصار عليهم.

أفقتُ على لقلقة الطَّائر، لم تكن حادَّة مثلما في السَّابق، كأنه ينادي على اسمي، ودَّعت سيدي ووقفت عند الباب وجهي إلى المئذنة، لعلها تحمل الإشارة، لم أرَ الطَّائر أعلاها، وفجأة سمعت صوته خلفي، فالتفت متفاجئًا، لم يكن أبيض مثلما اعتدته، بل استحال لونه إلى رمادي، خطا برجليه الدَّقيقتين، يركض داخل الباحة في دوراتٍ مُتكرّرة، كنت مستغربًا ما الذي انتابه، تتبّعته، بدا لي أنه كان مصابًا، ولا دم ينزف من جسده. لحظات من التّحديق ثم حرّك جناحيه بصعوبة وحلّق حتى بلغ عشّه، تأمّلني من هناك مادًا رأسه، ثم رأيته يهوي. قَبضتُ عيناي على لحظة ارتطامه بالأرض، وأُذناي على صوته، فزعت من المشهد أمامي، أسرعت تجاهه، وحملته وهو لا يزال ساخنًا، حاولت أن أنفض عنه اللون الرمادي، لكنه كان لصيقًا به، وتأمّلتُ عينيه طويلًا، صغيرتين وحمراوين، تتطلّعان إليّ، تَغمضان ثم تفتحان، ثم أغمضهما ولم يفتحهما، وخفّ اهتزازه في يدي، حملته وعبرت به باب المقبرة الصغيرة المجاورة للضَّريح، ودفنته بها، ثم جلست أقابل المكان المستوي من الأرض، دقائق من الاستغراق حتى علا صوت لقلقةٍ أخرى، ثم حلّق الطّائر فوق المقبرة، راقبته من خصاص

بابها، لم أعرف كيف استطاع الطّائر اكتشاف شريكه. طفق يحفر الأرض يسحبه منها، وهو يزعق طويلًا، ثم حرّك جناحيه ورحل، رأيته يغيب في الأفق دون أن يلتفت. هل هذه آخر إشارة من سيدي عبد الرحمن؟ مثلما اتّضح رحيلي مع الطّائر الأزرق، ربما سيتجدد رحيلي مع هذا الطائر.

أحمل نفسي إلى بيتي لا أغادره إلا بعد أيامٍ أخرى، أجول المدينة بوجهٍ مختلف، كأنما أصبحت شخصا آخر. انحدرت إلى أن بلغت باب الميناء، قطعت مسافة غير قصيرة حتى عثرت على صاحب البريد. اعتاد أن يُخيّب أملي، يهزُّ رأسه بأسفٍ، فأنكس رأسي وأعود، ولكن هذه المرة ما إن التقى وجهانا، حتى مدّني بالعلبة، ثم مضى راحلا. فضضت الغلاف عنها، وإذا بنُسخٍ من الكتاب، سحبت أحدها، تفحّصته ثم انتبهت إلى الرسالة بين طيّاته، بلهفة فتحتها وقرأت ما جاء فيها، كان القُنصل يعلمني أنه لم يبق الكثير حتى تصل اللَّجنة الإفريقية. أخطو نحو بيتي حاملاً العُلبة، ألج البيت بوجه باشٍّ، تتساءل لالّة سعدية عن تغير حالي، فأبسط أمامها الكتاب، تَرى حروفًا لا تعيها. أحمل نسخة من الكتاب وأشقُّ الشّوارع بحثًا عن ديبون، ربما ما يزال يبحث عن الشخص الغريب الذي دخل المحروسة، مثلما حدّثني عامل المقهى، ينادونه أحيانا بإسماعيل، وتارة أخرى توماس. ألتقي ديبون صدفة عند باب المقهى، أسلمه الكتاب، يطالعه ببرودة، ويعيده لي بسرعة، تنبّأت أن يديه ستتخطّفانه، حتى وأنا أتلو عليه ما جاء في الرسالة، لم يهتم كثيرا، ليفاجئني بجملة غامضة:

- إننا مُقبلون على فتحٍ جديد يا ابن ميّار.

أظلُّ أتساءل عن علاقة كلمات ديبون بالرجل الذي يبحث عنه. تغيّر ديبون بعد أن طردنا كافيار من مكتبه، صار يتردّد كثيرًا على المقهى،

اعتقدت أنه قال كل شيء حين صرخ في وجه كافيار، وأنه ربما سيعود إلى مرسيليا. لكنه بقي هنا، في ذلك اليوم أصغى إليّ طويلا ونحن نرحل عن المقبرة. حدّثته عن عدم جدوى حراسة العظام، وعن تفاصيل كثيرة في كتابي، تحمّس له. وحين وقفنا أمام كافيار صاح بكلمات بدت من الإنجيل. استشاط كافيار غضبا، خُيّل لي أنه سيفرغ مسدّسه في رأسه، لكنه لم يفعل، بل طردنا من مكتبه. ولا أذكر أنه سُمح لنا بعبور البوابة مرة أخرى.

أعود إلى وجه لالّة سعدية البشوش، الآن فقط لم يعد يهمُّها شيء، وقد أضحيت إلى جانبها، تُسرُّ لي دُوجة أنها في غيابي أصبحت شخصًا آخر. عشنا وحيدين، وأملت أن نرحل وحيدين، مثلما أرى وجه دُوجة لا يزال يحمل اشتياقه للسّلّاوي، وهو الذي لم يُغادرها أيامًا طويلة، تعتذر كلما سمعتْ نداءه، تمنيت لو تنتهي حكايتهما في بيتي، ويُصبحا زوجين. أضمرت مفاتحة السّلّاوي بعد أيام. أنتظر المساء لأنزل إلى القبو، وحين أعبر بابه الواطئ يتراءى إليّ يذرع الغُرفة، وما إن يراني أسأله:

- لن أعترض على رحيلك إلى الغرب، ولكن هل بإمكانك مغادرة البيت دون أن ينتبهوا إليك؟ أنت بذلك تعرض الجميع للخطر.

ابتسم السّلّاوي، ثم قال:

- وما أدراك! قد غادرت البيت في منتصف الليل وعدتُ قبل الفجر دون أن يتفطن لي أحد.

- ولكن كيف؟

أشار إلى كوّة كانت في نهاية الغرفة، نسيت أمرها منذ زمن، لم أعتقد أنها تتّسع لعبور أحد، أطلّت على سقيفةٍ سُدّت من جانبيها، أسرعت

بخطاي إليها، أزحت عنها اللوح المثبّت بها، وأطللت منها كأنني أكتشفها للمرة الأولى. فاجأني السّلاوي ذلك اليوم. التفت إليه وابتسمت، أنساني التعجّب خوفي، ثم وجدت نفسي مُنخرطا معه في أسئلة عن المحروسة، وهل يحرسُها الجنود ليلًا، ومتى يتوقفون عن ذلك، وهل يداهمون بيوتا حين ينام أهلها؟ كان يجيبني عنها كلها. وقبل رحيلي عن القبو سألته:

- لماذا لا تبقى حتى ينسوا أمرك، وأتدبّر لك عفوا من القائد العام؟

- إنهم لن يعفوا عني، وليس لي إلا الرحيل.

- ودوجة؟

- لقد عثرت على من يوصلني إلى الأمير، وحين يستتبُّ الأمر لي هناك سأعود وآخذها.

- وهل حدّثتها بالأمر؟

- نعم قد اتّفقنا عليه منذ أيام فقط.

تراءت ملامح السّلاوي لي مختلفة، وهو ينطق بالكلماتِ الأخيرة، بدا أكثر حكمةً من ذي قبل، وغشيني بعض الارتياح، لكنني لم أستمتع به ولو برهة قصيرة، وأنا أصعد الدرجات وقف أسفلها وقال إنه راحلٌ بعد غدٍ، واصلت خُطواتي المثقلة على الدَّرج. سهرت تلك اللَّيلة، انتابتني هواجس وعلت لقلقةٌ حادَّة عند رأسي، كأنّ الطَّائر يسألني عن مصير شريكه، ثم تحوّل إلى السّلاوي، يجلس إلى جانبي ويُوصيني: يا ابن ميّار دوما كنت مُخلِّصا لي من مآزقي، ضع دُوجة في عينيك، فلن أعود إلى المحروسة. وأستيقظُ على صوت لالّة سعدية وهي تُحركني، كنت أتكلم أثناء نومي وأصرخ بكلمات، قالت إنها كانت: لا ترحل لا ترحل.

في ليلة أخرى عانقت السّلّاوي طويلًا، ووهبته بعض المال، ركزت عيني على تفاصيله الدَّقيقة كأنني لن أراه مجددًا، إذ عادتني خواطر من إشارة سيدي عبد الرحمن، أنني لن أبقى طويلًا بعد رحيله، ذرفتُ دموعا حاولت إخفاءها، مثلما طفَرت الدُّموع من عيني لالّة سعدية، وبقيت دُوجة حبيسة غُرفتها، انسحبت إلى غرفتي مصطحبًا لالّة سعدية، وتركتها تودّعه. وحين انتصف اللّيل رحل السّلّاوي، من الكوّة التي اعتاد أياما التسلل منها.

يوم آخر أجوب فيه المحروسة وحيدًا بعد أن اعتدت غياب ديبون، أعبر شارع البحر، ثم أنعطف حتى أبلغ مكتب الحاكم العام، أرى حركة الحراس الكثيفة، وتوقّف عربتين على غير العادة، تفحّصت الوجوه، بدت كأنها وصلت إلى المحروسة حديثا، تجاوزت الحراس حتى عثرت على ضابطٍ فسألته، نظر تجاهي شزرا وهو يجيبني:

- ها قد وصلت اللَّجنة التي ظللتم تطلبونها، لا تطمع بالكثير.

استغفلت الحرَّاس وعبرت صوب مكتب الحاكم فوارول، طلبت الإذن بالدُّخول، فُوجئت به يأتي سريعا، ثم وقفت في مقابلته، وسألته عن اللَّجنة. لم يطردني مثلما فعل كافيار، أو يصح في وجهي، بل حمل وجهه هدوءًا مريبا وهو يرمي الكلمات متطلّعًا إلى الأوراق المنثورة أمامه:

- نعم يا ابن ميّار لقد وصلت اللّجنة. وستستمع إليكم.

أردفت:

- هل ميمون من بين الذين ستستمع إليهم؟

طأطأ فوارول رأسه مُتحرّيا الوثيقة التي أمامه، ثم قال:

- نعم إنه على رأس القائمة.

ثم ذكر آخرين من أهل المدينة لم يعنني وجودهم بقدر ما أذهلني أن يكون ميمون بينهم. نعم كل ما يُريدونه الآن هو سماع أحد منا يعارضنا، لكنهم لن يستطيعوا دحض حججي، سأضع العريضة أمامهم، وأُتبِعها بالكتاب، سأفعل مثلما فعل ديبون بكافيار. رحلت لأعود بعد أيام، أخطو في شوارع المحروسة حاملًا محفظتي، ذرع ديبون الشوارع إلى جانبي، شعرت أنه يؤخر لقائي بهم، وكلما وقفنا أمام شارعين يختار أطولهما، لكننا بلغنا مبنى الحاكم بعد عبورنا شوارع المحروسة كلها، ووقفنا نقابل الحراس، تركت ديبون عند نهاية الطريق، وتجاوزت البوابة والدرج، ثم كنت بينهم، جلسوا مسترخين على مكاتبهم، لا أدري لماذا أحسست أن صمت ديبون كان وراءه حقائق كثيرة خشي إخباري بها! أن يقول إن هؤلاء الذين جاءوا سيدوّنون كل مظالمكم، ثم يرمون بها في البحر.

كان كافيار يجلس إلى جانبهم، لكنني لم أنحن أمامه، لم أُبدِ له ضعفًا، وكلّما رموا سؤالا في وجهي، كنت أذكر الضُّباط بأسمائهم، ردّدت اسمه أكثر من البقية، وكلما ذكرتُ له مسجدا سلبه منا، أو حارة هدّمها، يقف غاضبا يطلب الإجابة بقدر السؤال، عدت بوجهي إلى ضابطٍ آخر يسألني عن أشياء لا علاقة لها بمساجد المحروسة وأوقافها، أجيبه وأستطرد من الحكاية نفسها، كانت اللّجنة أمامي، ولا بد من قول كل شيء دفعة واحدة، سحبت الكتاب وشرعتُ أتلو منه، وأشير إليه. قفز كافيار تجاهي على مرأى الجميع، خطف من يدي الكتاب، ودفعني بقوة حتى كدت أسقط. انتحى مكانا في نهاية الغرفة، وأشعل النّار فيه، ثم نظر تجاهي بحقدٍ، قلت في نفسي بالتأكيد سيكتبون كل شيء، لكنهم لم يلتفتوا إلى ما فعله بي،

ولا بالكتـاب. جلسوا غير مبالين، تساءلت ما الذي سأفعلـه؟! وددت الصراخ بهم أيضا وشتمهم، خانني صوتي المخنوق، أدّوا أدوار المسرحية وخدعت إذ رضيت لنفسي دورًا بينهم. حملت نفسي وخطوت خـارج الغرفة، ونزلت الدّرجات، شعرت أنه كان يراقبني من مدخل الغرفة، لم ألتفت، وحين وقفت أمام ديبون، كنت مخنوقا بالكلمات. لا أذكر أي شيء مما فهت به ونحن نسير بثقل تجاه البيت، كأنني أعيش كابوسا لم أستطع الفكاك منه. عندما فُتح الباب كدت أسقط، لولا يدا دُوجة اللتان أمسكتا بي، ونادت على لالّة سعدية، أسندتاني حتى استرخيت على فراشي، وطلبت البقاء وحيدًا، بكيت مثلما أبكتني إشارة سيدي عبد الرحمن.

في اللّيل انتابتني الحمَّى، اختلطت الصُّور في عيني، أحيانًا تتجلى صورة أبي في فراغ الغُرفة فأنادي عليه. تلج لالّة سعدية الغرفة، وتضع القماش المبلول على جبهتي، وتأبى الحمّى الرحيل إلا في فجر يومٍ جديد، لم أستفق منها إلا في نهايـة الأسبوع. سندتني دُوجـة حتى بلغتُ الباحـة، كانت رجلاي لا تَقويان على حملي، بينما اشتاقت نفسي تأمّل السماء من هناك، ورئتي سحب المزيد من الهواء. أيام أخرى وصرت أستطيع السير منحنيًا، حتى أبلغ الباحة وحدي، يعجز صوتي عن مجاوزة حلقي، إلا بعد سلاسل من السعال الحاد، أبقى هناك أتطلع إلى شجرة الرُّمان، وربما كانت تحدّق بي، لكنها لم تدر أنني استفقت في يوم آخر، على ضربات عنيفة على الباب، سرت في انحناءة حتى بلغته، وفتحته على يد الجندي المبسوطة بالورقة، تكهّنت في ليالِي الحمّى الطويلة ما حوته، لكنني لم أتنبّأ أن الضّغينة تجعله يوقع باسمه أسفلها.

تعلّقت عينا لالّة سعدية بي ما إن عرفت محتوى الوثيقة، حملت نظرتها آمالا كثيرة، دائما كانت حريصةً على الرّحيل ليس لأنها تريد مفارقة المحروسة، بل لأنها لم تستطع احتمال المزيد من الانتظار. تخشى أن تستفيق في يومٍ على جُثّتي مرمية في الشّارع، مثلما تتوق أن نظلّ وحيدين بعيدين عن فوضى العالم، لكن دُوجة بقيت معلقةً بيننا، سألتها حين لم يبق الكثير عن رحيلنا:

- هل ترافقيننا يا دُوجة في منفانا؟ إسطنبول مدينةٌ جميلة، ستهبك حياة مختلفة.

- كم تمنيت الرحيل ولكنني الآن لا أستطيع ذلك.

لم أشأ الإلحاح على دوجة، إذ كانت متيقنةً من عودة السّلّاوي، لم أستطع الوقوف في دربها هي الأخرى. في يوم آخر جلس ديبون إلى جانبي وتأمّل الوثيقة بأسف، عجز عن فعل شيء، كان متعبًا وهو يفكر في الأسوار التي ارتفعت بيننا، ولكنني رأيت نظرة غامضة في عينيه، لعلّه قرّر ألا يغادر المحروسة بعد رحيلي، وسيواصل عرائضي، أو ربما صراخه في وجه كافيار.

قبل يوم عن رحيلي، سرت إلى جانب دُوجة أوصلها إلى بيت لالّة زهرة، شعرت أن شيئًا ما دار بينها وبين لالّة سعدية، إذ سهرتا جزءا من اللّيل. تجاوزنا السّقائف المليئة بالغبار ثم وقفنا عند باب لالّة زهرة، تعانقتا طويلًا حين تقابلت الوجوه، رأيت حزنها وهي تودّعني للمرة الأخيرة، قدرُها أن تبقى ونكون نحن الراحلين.

في الرصيف عانقني ديبون طويلًا، ثم صعدت السفينة تتلوني زوجتي، ورحلت بنا تاركين المحروسة لهم.

تتراءى لي المحروسة من هناك مدينة بيضاء، مثل غيمةٍ لم تفقد لمعتها، أُصِرُّ على الاحتفاظ بها على صورتها تلك، ألوّح لها كلما أقترب منها أو ربما

أبتعد عنها، بالتأكيد لم يكن هناك أبي، أو البحّارة الإنجليز، بل وقف ديبون على الرّصيف يلوِّح لي وحده، ودون أهلي غابت المحروسة عن عيني، لكنها لا يمكن أن ترحل عن القلب، غيمةٌ بيضاء ينادي عليها طفلٌ كان اسمه ابن ميّار.

حمة الشناوي

المحروسة مارس/ سبتمبر 1833

وأشرع الباب على وجهها مرة أخرى، وقفَت وشهقت في وجهي. أدركتُ عندها أن دُوجة قد عادت إليّ، وهي تُسندني مسافة الرِّواق، بينما وقفت لالّة سعدية بالباحة مستغربة انحنائي، ثم ضربت صَدرها بكفها حين سمعتني أردّد: نعم، قد قتلت الـمِزوَار يا لالّة سعدية، ومزّق خنجري أحشاءه، هو أهون من القتل رميا بالرصاص. اقتربت وسندتني حتى بلغنا الغرفة، ومددت ساقي في حجر دُوجة. حرّكت لالّة سعدية ساقي بعد أن تفحّصته، وهمست تطمئنني، ثم غابت ورجعت بصُرّتها، حرَصت على لفّ رجلي بقطعة القماش، مثلما أصرّت أن أختبئ في القبو، وهكذا كنت مستلقيا به، أراقب خيالات الأثاث القديم من حولي، يعكسها ضوء القنديل.

أفقت على جلبةٍ بالبيت، اهتزّ السقف من وقع الأقدام، أيقنت أن الجنود قد دهموا البيت يبحثون عني، وخمّنت أنهم لا بد سيدهمون بيت لالّة زهرة، وربما أيضا حي المقاهي، ثم صمتُّ مُنشغلا بالفراغ المظلم من حولي، وخيوط النُّور التي تسلّلت من الكوة في مقابلتي. يزداد وقع الأقدام بالأعلى، ويشتعل داخلي خوفا على لالّة سعدية وعلى دُوجة، ثم تساءلت: هل سيؤذونها إن اكتشفوا فعلًا أنني أختبئ هنا؟ ولكن لالّة سعدية كانت

مُتيقّنة ألّا دراية لأحدٍ بالقبو من أهالي المحروسة، فما بالك بجنود قادمين من أوروبا. أردفت: قد اعتادوا اصطحاب دليل معهم؟!

في تلك اللّحظة نأى الضجيج بعيدا، ثم لم أعد أسمعه، وحلّ محلهُ دقٌ على الباب، ثم فُتح وعبرت دُوجة مبتسمة:

- أخيرًا لقد رحلوا.

- هل كانوا كثيرين؟

- نعم، وقلبوا البيت.

رحلت دُوجة وخلّفتني وحيدًا، أعيد رسم ملامح وجهها، وتسلّل من الكُوة ضوءٌ ضئيل، قمتُ وسرت بتعثرٍ حتى بلغتها، أزحت اللّوح عنها، وانتشر النُّور يضيء الغرفة، جاست عيناي جُدران القبو، ثم أطللتُ منها وتفاجأت بالسّقيفة الضّيقة، لم أذكر أنني عبرتها من قبل، كأنّ ذلك الجزء مخفي عن المحروسة. تظلّ الأبنية غريبة بالنسبة للأوروبيين، وحتى أن هناك أسرارًا كثيرة مخفية بها، سمعتُ من عجائز المحروسة أن هناك آبارا وأقبية قد رُدمت على أناسٍ داخلها، وأخرى قد مُلئت ذهبًا، ثم ردمها أهلها خوفًا على حياتهم. فلم يختلف الباشوات كثيرا عن قُطّاع الطرق، يختلقون لهم حُججا، ويفتّشون بيوتهم، ولن يحتجّ من يدري أن السِّجن مصيره إن فعل! ربما هذه الحمّى قد انتقلت إلى الفرنسيين أيضا، مُعتقدين أن هناك كُنوزا في باحات البيوت، أو في بساتينها، وكلما مررت على بستانٍ وجدت مئات من الحُفر تتوزعُ بأرضه، ولكنهم لا يجدون إلا مزيدًا من الدود. حدّقت طويلًا إلى الحائط الذي قابلني من الكوّة، وددت لو أبصر نهايته، فسحبت كرسيًا قديما، ارتقيته بصعوبة وأطللت، وإذا بي أراها تمتد

بعيدًا من الجهتين، بيد أنها كانت مغلقة أيضا من الجهتين، وزاد استغرابي إذ لم تطل عليه أية نافذة أخرى، لم أفهم الغرض من هذا الشَّكل الـمُغلق من الجهات كلها، ولم يكن أحد يستطيع العبور إليه إلا من بيت ابن ميّار، أو يصعد الجدار الخارجي إليه، ولكن كيف يميّزه من بقية الجدران الأخرى. نزلت من على الكرسي ثم أعدته إلى مكانه، واستلقيت على الفراش مُفكّرا في مصير ابن ميّار.

حين غاب الضوء عن الكوّة، أشعلت القنديل وتفحّصت الجرح، مُعيدا مشهد قفزي تجاه الـمِزوَار، ثم تذكرت الصديقين اللّذين كانا معي، وتجددّت الأسئلة: أي مصير قد لقياه؟ وفي كل مرة أتيقّن أنهما قد فرّا من الجنود، إذ كانا يحفظان شوارع المحروسة وسقائفها. تمنيت أن يبرأ الجرح سريعًا. كل يوم يمرُّ يضيع بعيدًا عن وجهتي. في الماضي كانت هناك سلاسل تشدّني إلى المحروسة، كلما قررت الرحيل إلى الأمير، تسحبني بشدة، والآن قد قتلت الـمِزوَار، وصار الرحيل أمرا محتوما. ألتفتُ إلى الكوّة فلا أراها، أكتفي بالحملقة في القنديل، وكيف يُحدث نوره الضّئيل تلك الهالة، تزداد ضآلة كلما ابتعدت عنه وتمازجها الظلمة، حتى تكون سوادًا خالصا نهاية الجدار، بدا لي أنني أقاسم القنديل أشياء كثيرة، تلك التي تتعلق بعلاقتي بأهالي المحروسة، أردت أن تتّسع مساحة الضوء على حساب العتمة التي كانوا يعيشون بها، ولكنهم لم يصغوا لي وأنا أحرّضهم ضدّ بني عثمان، ثم فروا منّي حين حلّ الفرنسيون. اختلفت أحلامي عن أحلامهم. قبل سنواتٍ بعيدة راقبت وجوه الأوروبيين وهم يجوبون السَّقائف، أو يتحلّقون حول السَّحرة في الأسواق، أرى فُضولهم يزداد

كلما تجمّع الناس أكثر. وحدي استوعبت كيف يختلفون عنا، تحمل أيديهم أدوات لم نرها من قبل، يتكلّمون لغاتٍ عديدة أفهم بعضها، ويغيب عني بعضها الآخر، أتبعهم إلى الفندق، أجلس غير بعيدٍ عنهم، وأُصغي إلى صوت أحدهم يحدّثهم عن أدوية تشفي أمراضا يَخال الناس في المحروسة أنها بلاءٌ من عند الله، ما إن تظهر أعراضها حتى ييأسوا من عِلاجها ويرفعوا أيديهم بالدُّعاء. وحين يبحث علماؤهم عن مزيد من الاكتشافات، يسرع الرّياس إلى قواربهم ليعترضوا السُّفن الأوروبية. أكانت المحروسة في حاجة لمزيد من الذَّهب أو العبيد؟ ما فائدة الذَّهب المكنوز ولا تكاد تعثر على طبيبٍ بها؟! بهذه الكلمات كُنت أصرخ في الناس، فيبتسمون بسخريةٍ يرثون لحالي.

يقطع طرق الباب تأمّلاتي، ثم أرى دُوجة تحمل المنديل بيدها، وتبسط الأكل أمامي، أمسك عنها ما تحمله، وقبل أن ترحل تمتدُّ يدي إليها فتشدُّها. تلتفت ولا أكاد أميّز تفاصيل وجهها، لكنني أسمع حركة أنفاسها، لم أنتظر كثيرا إذ طلبت منها مشاركتي الطعام، لم تُمانع دُوجة، بل اعتقدت أنني لو لم أشُدّها إليّ، لكانت جلست إلى جانبي، تغمس الخبز في الزّيت، وتُلقمني القطعة بيدها. مددتُ يدي بقطعة الخبز وغمستُها بالصحن، ثم رفَعتُها إلى شفتيها، ابتَسَمَت والتَقَمتها، وعضّت على أصبعي، وكلما هممتُ بسحبه تأبى تركه، ضحكتُ عاليًا، ومددتُ يدي اليُسرى ودغدغتها، ندّت عنها ضحكة حرّرتُ على إثرها أصبعي، ثم جاء دورها، حمَلت أصابعها قطعة الخبز، وقبل أن تصل إلى فَمي أمسكتُها، قبّلتها طويلًا، ثم التقمت ما بها، مرّ المشهد مثل حلمٍ دافئ، أحزن كلما تذكرت رحيلي، ما هو مُقدّر لنا

كان أكبر منا جميعا، منّي ومنها ومن ابن ميّار وحتى من ذلك البائس ديبون، وربما أكبر من كافيار أو المحروسة. يتغيّر وجه دُوجة كلما تحرّك نور القنديل عليه، ترددت قبل أن تتكلم ثم تشجّعت:

- لا أريدك أن ترحل ثانية.

- ولكنني سأرجع إليك.

- ولماذا أحسُّ أنك لن تعود.

- سأرحل إلى الغرب حيث مدينة الأمير، وحين تستتبّ الأمور هناك سأعود لاصطحابك، تيقّني من ذلك.

حملت دُوجة نفسها ورحلت، بينما لذت إلى استغراقي، إلى أن خبَا نور القنديل، وانتشرت الظُّلمة في المكان كله.

لا أدري كم من يومٍ أظلمت فيه السماء، وكم قاسمت فيها دُوجة الطعام والقُبلات، ولكن ذلكَ اليوم بدا مختلفا من صباحه، أبصرت الكوّة، وخمنتُ أنّ أحدا ما أطلَّ منها، أو أن صوتًا ناداني من الخواء، فوقفت وأزحت اللوح عنها، ولم أر شيئًا، غير لقلقٍ أبيض يحدق نحوي، ثم حلّق هناك طائرٌ ثانٍ، بدَوَا لي أنهما رفيقان، وظلّا في أقصى السَّقيفة بُرهة ثم اعتليا الجدار، ورفرفا مرة أخرى وغادرا. انتابتني رغبة في العبور إلى هناك، أكتشف ما يوجد خلف الجدار، ولكن أشياء أخرى مَنعتني، مثلما شككت أنها لن تتّسع لعبوري، قلت في نفسي ما الضير لو جرّبت ذلك، سحبت صندوقًا، ووضعت الكرسي أعلاه، ثم صعدت، عبر رأسي منها، أبصرت من هناك الأرض أقرب منها في القبو، فعبرت حتى كان حدّ الكوة السُّفلي عند بطني، وانحدر جسمي مادًا يديّ حتى لامستا الجدار، بينما ارتفعت قدماي عن

الكرسي، أضحيت مثل معلقٍ، وظللت اهتزُّ حتى بلَغَت راحتاي الأرض. حين سحبت الرِجل الـمُصابة تصاعد الألم، كأنما تمزّق اللحم عنها. لم أتوقّف بل أرحتها على الحائط وأخرجت الثانية، وأمَلْتُها بمحاذاة الجدار حتى كنت مستلقيًا في السقيفة. جال بصري بها، وانتبهت إلى جهات لم تكن لتظهر لي، وقفت وانتقلت إلى نهاية السور، بحثت عما يعينني على الصعود، ولم أعثر على شيء، لكنني لمحت في الحائط المقابل ثقبًا يُحاذي الزاوية بين الجدارين، خطوت إليه، وغرست رجلي بها، ثم دفعت جسمي حتى بَلَغت يدي حافته، استطعت الرؤية من هناك، وإذا بها تطلُّ على سقيفة جانبية، استكشفت نهايتها ثم تراجعت إلى الكُوّة، وبصعوبةٍ عبرت منها. في القبو انتبهت إلى العرق المتفصّد من جسدي، وحتى الدماء طفرت من الجرح، واضطررت إلى اختلاق كذبة على لالّة سعدية حين أقبلت تتفقّد الجرح، ولم يمنعها حُزنها من توبيخي تلك اللّيلة.

عددتُها وكانت أسبوعا، الأيام التي تَلت مُروقي إلى الجهة الثانية. كلما وقع بصري عليها، أتمتم قد مرّ يوم، إلى أن حلّ اليوم الأخير منه، وما إن نطقَت شَفَتاي بالكلمات حتى تناهت إليّ حركةٌ على الدرج، فعرفت أن القادم لم يكن أي واحدة منهما، اعتادت أُذناي دبيبهما أيامًا، ثم فُتح الباب، ورأيت ابن ميّار أمامي، وكأنني في حلم، لم أُصدِّق أن العجوز قد عاد. دنا مني أكثر، ثم جلس إلى جانبي، وتعانقنا طويلًا، بدا سعيدًا بنَجاتي غير راضٍ عن قتلي الـمِزوَار. لم أستطرد في حواراتي معه، في جدوى قتله أو بقائه حيا، قد انتهى الخيط الذي يصله بالحياة. دقائق جلسها ابن ميّار معي ثم غادر، ليتشبّث ببحثه عن الغُبار المتطاير في سماء المحروسة، كدليلٍ يقوده إلى بناء آخر يُهدم.

لم أعد أرى ابن ميّار إلا لمامًا، كل صباح توقظني خطوات دُوجة، أستقبل وجهها الصغير، وما تحمله من طعام، أتأملها مليًا، وأحيانا نتقاسم الطعام ثم ترحل. وأواصل مراقبة الكُوّة، أحملق طويلًا بها، وأنتبه لنفسي في أحلام يقظةٍ تعبر بي منها. أجوب شوارع المدينة مثل سابق عهدي، وأحضُّ الناس أن يستيقظوا، ويخيبونني مثل كل مرة. ثم أقف وأزيح عنها اللوح الخشبي فلا أرى أثرًا للطّائر، ولا أي شيء آخر. تُطل لالّة سعدية تتفقّد الجرح، تُدقّق في ملامحي طويلًا، كأنها تُعاتبني، نظرةٌ لم أعتدها إلا في وجه لالّة زهرة، حين تحدثني عن دُوجة، أُخفض بصري، وأنقله بين الأثاث المركون عند الجدار. كان ينبغي عليّ الخروج إلى الشوارع، واستنشاق هواء مغاير. ولكن هل سأجدهما مرة أخرى؟ لم يتركا لي عنوانا ولا موعدًا. كان عليّ انتظار شهر آخر حتى يطيب الجرح.

أظلمت السماء عشرات المرات عن الكُوّة، وأعجبت في نهاراتها بعناق الطائرين، ولم أعبر إليهما، أشاهِدُهما دقائق ثم أنسحب. وأجتر حكاياتي كلها في سري، حتى تلج دُوجة القبو، فأعانقها مثلما يُعانق الطائر شريكه، أدسُّ وجهي في شعرها، وأسمع دقّ قلبها المتعالي كلما همست لها، ولكن شيئًا كان يحول بيني وبين جسدها. لم تجسُر يداي أن تمتدا إليه، كُلما تعانقنا يتعالى في داخلي النِّداء القديم، يوم هجرت مُعاشرة النِّساء في المبغى، كأنّ الصّوت لا يريدني أن أراها إلا مثلما رآها الجميع، ولم أكن لأوافقه، بالتأكيد ليس الأمر هينًا، بيد أنني تخلصت منه. تظل دُوجة في حضني دقائق ثم ترحل لأبقى في انتظارها، ولكنها لا تأتي.

أعود بوجهي إلى الكُوّة، أفكر طويلا لماذا لا أعبرها وقد طاب الجُرح، وصار في إمكاني المشي مسافة لا بأس بها. قمتُ من مكاني، ووضعت

القنديل في موازاتها، واعتليت الصندوق والكرسي معا، ثم مرقت عبرَها بيسرٍ، حتى كنت خارج القبو، سرت خطوات حتى بلغت الزّاوية بين الجدارين، وغرست رجلي في التجويف، ودفعت نفسي حتى كنت أعلاه، ثم نزلت إلى الجهة الأخرى، خطوت مسافة إلى جانب الحائط، ثم قطعت الشّارع إلى بوابة القصبة الخالية من الحراس، وانحدرت وكأنه لا سكان بها، تقتُ لزيارة حارة السّلّاويين. ساعة سرتها، عبرت حارة الميّارين والسّلّاويين، ولا أثر لأحدٍ، ثم شدّتني الهمهمة القادمة من الحانة، اقتربت منها وأطللت برأسي، لم تكن كالمعتاد تعجُّ بالمخمورين، فررت بوجهي إلى الطَّريق الذي قطعته المرة الماضية، حتى بلغت البيت المهدّم، دنوت من جداره، لعلّ همهمةً تصلني من داخله، لكن الصّمت كان يشغل الفضاء، فتسلقت الجدار، وتجوّلت به ولم أعثر على أحد. شققت الدروب صوب الكُوّة، بؤت بالفشل في أول رحلةٍ لي خارج بيت ابن ميّار. أسبوعا بعدها لم يتغيّر شيء، كل يوم أمرق منها ما إن ينتصف الليل، أتجول في مدينةٍ خاوية من أي شيء، ولا أكاد ألتقي الجنود إلا نادرا.

مرّ الأسبوع دون جديد، سوى قرارٍ واحد، استكشاف حي المبغى في هذه الليلة. قاسمتني دُوجة الأكل وحدّقت تجاهي بنظرة لم أفهمها، ربما شعرت أنني أخفي أمرا عنها، حتى وهي تُغادر التفتت مرّتين مؤكدة شكوكها حولي، ثم غادرت، وظللت ساعتين أو أكثر بعد رحيلها، سمعت دبيب أقدام على الدرج، فاستلقيت على فراشي بعدما كنت أدور في الغرفة، ثم نأى الصَّوت، وعمّ السُّكون المكان، وضعتُ القنديل في مكانه يقابل الكوّة، وأزحت عنها اللَّوح الخشبي، ثم مررت منها، وشرعت أطوف بالشَّوارع مثل شبحٍ، أنحدر وحيدا عبر السَّقائف التي تُفضي إلى شارع

المحروسة الكبير، حتى أبلغ نهايته شرقا، وأنعطف عبر سقيفةٍ تنتهي إلى ساحة حي المبغى، فلا أكاد أرى شيئا، غير أضواءٍ شحيحة من كُوّات البيوت، ولم أجرؤ على التوغّل في السّاحة، خشيت أن الحراس يقفون عندها، مكثت لحظات هناك، ثم عدت أدراجي، وقبل بلوغ نهاية السّقيفة رأيت شبحًا كأنه انبثق من الجدار، أو انشقّت الأرض عنه، بقيت واقفًا في مكاني، أُصغي إلى حركة أنفاسه، وبدا لي أنه كان يركض خلفي، اقترب بخطوة مني وقال:

- هذا أنت يا حمّة؟

أدركت أنني أخيرا عثرت عليهما، لا بد أنهما أيضا كانا يبحثان عني طوال الأيام الماضية، لكنه كان وحيدًا، اقترب حتى كان إلى جانبي، وتعانقنا نُهنّئ نفسينا بالنجاة، وصمت عند سؤالي عن شريكه، ولما خشيت أن يطول صمته أسعفني بالجواب:

- قد سبقنا إلى جيش الأمير، لم يعد يأمن على نفسه بالمدينة، وقرّرت أنا أن أبحث عنك وأصطحبك مثلما وعدتك.

- لماذا لا نرحل الآن؟

- لم يبق الكثير يا حمّة، سنرحل نهاية الأسبوع، عليك الاستعداد.

- أنا مستعدٌ منذ سنوات.

افترقنا على أن نلتقي في ليلةٍ أُخرى، والتقينا، وتحدّثنا طويلًا عن الطريق، وعن المتطوّعين الذين كانوا ينتظرون الدَّليل خارج المدينة، وعن قبائل الأعراب الموجودة على أطراف التَّل، كانوا يُنظّفون بنادقهم كل يوم، ويُخبّئونها في الأكياس عند المساء، ثم يستخرجونها في صباح يوم جديدٍ،

ويُعيدون تنظيفها، وقد استبدّ بهم الملل. أُودّع الشاب وأنسحب إلى الكُوّة بوجه مُختلف، وما إن أعبرها حتى أُفاجأ بدُوجة تفترش مكاني، تحمل القنديل وتُضيء وجهي، ثم يدوّي صوتها:

- أمجنون أنت! ما الذي يدور برأسك؟
- كيف أغادر المدينة وأنا السجين في القبو؟
- أتلتقي أحدهم خارجًا؟
- نعم، إنه الذي سيقودني إلى جيش الأمير.
- أتأمن هؤلاء؟!
- نعم قد جربتهم.
- وهل بقي الكثير؟
- نهاية الأسبوع يا دُوجة.

تغيّرتْ ملامحها، ثم تشبّثت بي، وشرَعت في البكاء، أكثر من ساعةٍ لم أستطع أن أهدئ من روعها، ثم صمتت فجأة، وحملت نفسها ورحلتْ، انتظرتها في اليوم الموالي ولكنها لم تأت، بل كانت لالّة سعدية من يفتح عني باب القبو، ويحمل إليّ الأكل، ثم ترحل بوجه يحمل امتعاضا. تمنيت ألا تخلف دوجة موعدها هذه الليلة، ولكنّ القادم كان مختلفا، وقف ابن ميّار يتأمّلني، ثم تكلّم عن الرحيل، أراد مني البقاء في القبو حتى يتوقف البحث عني، ويطلب العفو لي من القائد العام، كنت متيقنا أنهم لن يفعلوا ذلك. ولم أجد بدا من الاعتراف له: يا بن ميّار، أنا قد وجدت الطريق إلى المحروسة في قبو بيتك. ومددت يدي مشيرا إلى الكوة، لم يكن

مُصدقًا، اقترب منها وتحسَّس اللَّوح ثم سحبه مستغربًا، وعاد يجلس إلى جانبي، ولم يلبث أن أظهر لي كتابه، أمسكته بيدي، وتهجّيت العنوان، لم أكن لأعي الكثير منها كتابة، بينما وعيتها فهمًا، أعدته إليه وطلبت منه قراءة بعض الصّفحات، وكلما قرأ واحدة أكتشف جزءا من الحكاية، كأنني أرى النـاس يصرخون من حولي، يبكون ضياع المحروسـة. وسألته الانتقال إلى ما حدث في سيدي فرج، ووجدته قد دوّن الكثير، ولكنه لم يأت على ذكري. حمل ابن ميّار الكتاب وقبل صعوده الدّرج، التفت إليّ وقال:

- بعد أيام قليلة ستأتي لجنة من باريس لتحقّق في أوضاع الجزائر، وإذا اقتنعت بعدم جدوى بقاء الجيش بها سيرحلون.

- وهل سيستمعون إلى الأعيان أيضا؟

- نعم، فما مجيئها إلا تلبية لعرائضي.

بالتأكيد ستأتي اللّجنة، وسيستمعون إليه طويلا، وربما سيُجاملونه والأعيان، ولكنهم لن يرحلوا عن المدينة.

بعد غيابٍ تطل دُوجة، أتأمّلها طويلا كأنني أكتشفها للمرة الأولى، قمتُ وأزحت عن الكوة لوحها فأضاءت القبو، وبدا لي وجهها لما اقتربت أكثر مني، وتقاسمنا المكان، لم تهمس بكلمةٍ عدا تحية الصَّباح، تذكّرت صورتها أوّل ما سمعتها تُغني في العرس، كان اللِّباس نفسه الفستان الأبيض المائل إلى الصُفرة، تُغطي شعرها بخمارٍ مُشنشل تتدلّى خيوطه الوردية على جبهتها، حدّثت نفسي: هل يمكن أن تُعاد تلك الأيام يا دُوجة؟ كنت ما أزال أحدق في وجهها غائبا عنها، ثم انتبهت لنفسي، وعدت إليها برغبة

في سماع صوتها، فمددت يدي إلى يدها على سبيل الرجاء، وقلت: أتمنى يا دُوجة سماع أُغنية. وانتظرت أن تبدأ الغناء، ولكنها صمتت، اعتقدت أنها تبحث عن أغنية مما حفظته من لالّة مريم. ولم يصدق تخميني إذ غنت دُوجة أغنية مليئة بالمواجع، بدأ صوتها خفيضًا مثل الأنين، ثم تَعالى، تكلّمت عن منصور الذي عشق حلوى الطّحين، ولم يستطع بلعها، أصغى إلى نداء القبر وسار إليه، رَثت الأُغنية أيضا والدة لم تستطع احتمال المرض، أيامًا قليلة من العذاب واحتواها القبر، وعن والدٍ دهمت الحمّى جسده، وحين رحلت أضحى باردًا ومُتخشبًا، ثم دفن في قبرٍ وحيد قرب الغابة، ودُوجة التي فرّت إلى المحروسة، ولكنها لم تكن إلا قبرا لها. ردّدت دُوجة كلمة المحروسة مقرونة بالقبر، كفاتحة للأغنية وكخاتمة لها، ثم صمتت ومَسحت دموعها، وفتحتُ ذراعيّ واحتضنتها بقوة. لحظات من العناق ثم افترقنا، وقفت بهدوء ورحلت،

حلّ المساء، ترامى سواده القاتم من الكوّة، وتناهى إليّ الدّبيب، ثم عبر ابن ميّار قوس الباب، وصعدت الدَّرج إلى جانبه حتى أشرفنا على باحة البيت وتقاسمناها معًا، أكل الجميع في ذلك المساء من جفنة واحدة، أنا وابن ميّار ودُوجة ولالّة سعدية، كأننا نكتم في أنفسنا أنه لا بد يجيء يومٌ وتجمعنا الجفنة نفسها، أو ربما كان ذلك فألا حسنًا اختارته لالّة سعدية لليلتي الأخيرة معهم، هكذا وبعد لحظاتٍ فقط، غادرتنا دُوجة إلى غُرفتها، وبقيت أسامر ابن ميّار أكثر من ساعتين، لم نتكلّم عن رحيلي بقدر ما أعدنا حكايات بني عُثمان، وكيف كان يُنقذني من أيديهم كلما أحكموا وثاقي، وأحيانًا يظهر قبل أن أُقاد إلى السجن، يخلصني من بينهم بطرق متعددة.

يصمت ابن ميّار ثم يطلق تنهُّدًا أقف على إثره ويقوم في أعقابي. نعم لقد أزفت ساعة الرَّحيل، يعانقني طويلا، ويدسُّ في يدي النقود، وفي ثيابي بقايا من دموعه، مثلما تطفر الدموع من عيني لالّة سعدية، أقترب منها لأقبِّل يدها ورأسها، تذكّرت لالّة زهرة، وعزمت على التعريج عليها، وانتظرت بروز دُوجة من غُرفتها ولكنها لم تظهر إلا بعد توجه ابن ميّار ولالّة سعدية إلى غرفتهما، قابلتني في فستانها الأبيض وخمارها المشنشل، نزلت إلى القبو وكانت تلتحق بي، قبّلتها ليلتها طويلًا، وضممتها وأوجعني افتراق جسدينا، ثم تعالى الصوت في رأسي، ما الذي يرغمك على الرحيل؟ أليس أفضل لو ظللت إلى جانبها؟ الأمير ليس في حاجة إليك فالرجال كثيرون من حوله، بينما ستظل دوجة وحيدة دونك، ولم أحتمل مزيدا من الهتاف بداخلي، فأغمضت عيني ومرقت من الكُوّة دون التفات.

شوارع المحروسة غامضةٌ مثل أهلها، ولكنها ليست مُتخاذلة مثلهم. خطوت بها في عجلةٍ، وخضت السقائف كلها حتى كنت عند باب لالّة زهرة، طرقت الباب ولم يُجبني أحد، وانتظرت إلى أن نادت تسأل عن الطارق، ثم أشرعت الباب لما ميّزت صوتي، عبرت إلى الرِّواق وقبّلت يدها ورأسها، وكانت هي الأخرى تقبّل يدي ورأسي، لم تعتقد أنني حي. ترجّتني لالّة زهرة ألا أرحل وحيدا وأن آخذ دُوجة معي، ثم صمتت بامتعاض حين حكيت لها ما كان بيننا، ودّعتها وغادرت البيت، ووقَفَت تحمل القنديل تُشيّعني عند الباب، انعطفتُ وسرتُ مسافة غير قصيرة حتى بلغت البيت المهدّم، وعبرت سوره، وجدت الدّليل هناك مُستاء من تأخّري، لبثنا برهة ثم شرعت أرجلنا تنهب الطريق إلى باب

المدينة، ولم نعبره، إذ كان الجنود يتجمعون عنده، انزوينا في منعطفِ نهاية الطريق نرقب تفرّقهم، ثم كنا نجتازُه دون أن ألمح انحناء قوسه. كان السُّور ينأى عنا أو ربما نحن الذين نأينا عنه، وقرّر رفيقي مواصلة السير ليلًا، ولم أُوافقه، رغبت تأمّل المحروسة تحت ضوء النهار، لأبكيها طويلا، ثم أرمي عليها سلامي الأخير.

ذوجة

المحروسة مارس/ سبتمبر 1833

ما إن تناهى إليها دقٌّ على الباب حتى انتفضتْ من على جانبي، ثم قامت مُخَلِّفة مِسبحتها، خطوت في أعقاب لالّة سعدية، تركتُ بيني وبينها مسافة، وعَبرتْ هي الرواق، ووقفت أنتظرها بالباحة. من هناك سمعت شهقتها، ثم بُكاءها، عرفت أنها قد شرّعت الباب على وجه ابن ميّار، انتابتني رغبة في البكاء وأنا أراها تُقبِّل يده، وتتحسّسه غير مُصدِّقة أنه قد عاد. وبقيتُ أحدِّق فيه، ثم اقتربتُ أكثر وقبّلت رأسه، بدا لي كأنّ الرحلة أضافت سنوات أخرى إلى عُمره. كانت لالّة سعدية تتشبّث به في سيرنا إلى غُرفتهما، وحين دخلناها تأمّل ابن ميّار جُدرانها وتنهّد طويلًا، ثم جلس بيني وبينها مادًا رجليه على الأرض، مُعيدًا سرد رحلته، منذ حملته السفينة من رصيف الميناء إلى غاية وصوله إلى باريس.

أهمُّ بتركهما وحيدين، ولكن عينيه المتسائلتين تشدّانني إلى البقاء، كان وجه ابن ميّار يحمل أسئلةً كثيرة. وهكذا كنا نحدثه: قد فعلها السّلّاوي وقتل الـمِزوَار. طرق الباب جريحًا، وأسعفته لالّة سعدية ودَاوت جِراحه، ثم أخفته في القبو، لحظتها حمَل ابن ميّار نفسه، ونزل إلى القبو، كان صدري يضيق بحكايات أردت أن أعيدها عليه، فأقول: إن الجنود كانوا كثيرين،

غزوا كل الغُرف يبحثون عن السّلّاوي، سألَنَا المترجم الذي رافق الجنود، إن كنا خَبّأناه في مكان ما، تكلّم بلهجةٍ عربيةٍ مُختلفة عما ألفتهُ من أهل المحروسة، مع أنها كانت مَفهومة، جاب الباحة وتفرّق الجنود بين الغرف. ثم افترق عنهم، بالتأكيد لم يكن لرجل عربي أن يجهل كيف تُبنى البيوت في المحروسة، على الأقل كان أفضل من الفرنسيين، سار إلى أمكنة لم تخطُر على بال الجنود. ثم توقّف قليلا عند الباب المؤدّي إلى درج القبو، وقد أخفته لالّة سعدية بخزانة قديمةٍ، لكن المترجم تفطّن له، حين انحنى ينظر إلى أسفلها، ثم عاد وتأمّل وجهينا وقد ارتسمتْ عليهما علامات الخوف. غادر المكان مشيرا إلى الجنود أنه لا جَدوى من البحث، وحينئذٍ رحلوا وتخلّف عنهم بخطوات، حيّانا بأدبٍ ثم رحل. لطالما ردّد السّلّاوي أن هؤلاء المترجمين يُطاردون حلم الثّراء في المحروسة، ولكن ذلك المترجم لم يبد لي مثلهم.

بعد رحيلهم أزحتُ الخزانة ونزلت الدرجات، ثم وقفت أمامه، وبالرغم من أنّ الليلة الماضية كانت مُختلفة، ولكنّ السؤال بقي عالقا: لماذا يُصرُّ السّلّاوي على الرحيل وقد قتل الـمِزوَار، وانتهت بذلك حكاية كان يتعلل بها على فراره مني؟

أفكّر في كل هذه الأشياء ثم أرحل عنه، لأعود إليه ما إن تظلم. أجده بانتظاري، أضع الصحن إلى جانبه وأهمُّ بالعودة أدراجي، ولا تطاوعني نفسي تريد مقاسمته الطعام. جلست في مُقابلته يتوسّطُنا القنديل، امتدّت يدانا إلى قِطع الخُبز نغمسها بالزيت ثم نحملها ونمضغها مُبتسمين، وارتفعتْ يده إلى فمي بقطعة الخبز، وما إن لامستْ أصابعه فَمي، حتى عَضضت عليها، ورفضت إفلاتها، كان يصرخ ضاحكا، ويخفق قلبي

أكثر، سعيدا بتلك اللحظات، راغبا ألا تنقطع، وأسرعتْ يد السّلّاوي الأخرى إلى جسدي تدَغدغني، وفي نوبة الضحك الممزوجَة بالاشتهاءِ أفلتُّ أصبعه، أشعلتْ يده كل الحرائق في جسدي، ولكن الضحك يُغالبني عليها، عُدنا إلى الصحن مرة أخرى، امتدّت يدي بقطعة الخبز إلى فَمه، فجذبني بقوة إليه، وشرع يُقبلني على شفتيّ وعُنقي، ويعبث بشعري، ولم أدر أي جنون رَكبني. جرّبت أجساد الرجال حتى أحسست أنني أتعفّن كل يوم منها، ولكن ما حدث معي ذلك اليوم كان مُختلفا، الرغبة في أن أكون وإيّاه جسدًا واحدًا، ولكنه أفلَتني. التفت إليه وهمست:

- لا أريدك أن ترحل، وليست هناك جدوى من رحيلك؟!

ولكن السّلّاوي لم يصمتْ طويلا مثلما اعتاد، ولم يفرّ من وجهي، بل إنه حدّق فيّ بكل جدّية، ووعدني أنه سيعود، ثم رجاني لأول مرة أن أنتظره، وسيرجع من أجل اصطحابي. صدّقته يومها فلم يَعدني من قبل إلا وفيَ، ولم ألبث إلا هنيهةً ثم غادرت القبو، أحمل في نفسي شعورا متناقضا: سعيدةٌ بوعده وحزينة لانتظاره.

الأيام التي تَلت عودة ابن ميّار لم تختلف، يَقضي سحابة النهار خارج البيت، ويعود في المساء مُتعبا من الركض بين الشوارع، حتى صوته تنتابه بحّة فلا يقدر على الكلام إلا بعد أن يرتاح ساعة أخرى، أو يملأ جوفه بالزّيت، لا أدري كم مرة رأيته على حالته تلك، أياما كثيرة لم أعُدّها لتشابهها. ما إن يدخل البيت حتى يُنادي عليّ يطلب الماء، يغتسل ويفترش الباحة دقائق ثم تلتحق به لالّة سعدية، ويمكثان هناك بُرهة يتقاسمان الطعام وأحيانا أنضمُّ إليهما، ثم يأويان إلى غُرفتهما.

في ذلك اليوم خرج ابن ميار كعادته، ولكنّ الباب دُقّ مرة أخرى، واستغربت رجوعه المبكر. وفتحت الباب على رجلٍ مختلفٍ، كان منهكا، تغيّرت ملامح وجهه، اشتدّت سوادًا، قطع السقيفة منحنيا، وسندته خشية سقوطه، وسرنا حتى بلغنا غُرفته، فزعت لالّة سعدية لرؤيته واقتربت مسرعة تسنده معي، وبعد استعادته أنفاسه كلّمنا عن أشياء غريبة حدثتْ له عند الضريح. وعن موت الطائر الأبيض، فخفق قلبي بقوّة، وسقط من يدي إناء الماء، واستعاذت لالة سعدية، ودون وعيٍ مني نزلت درج القبو، شعرت أن سوءًا ما قد حلّ بحمّة، ثم عبرت الباب ووجدته مستلقيا في مكانه، تقرّى وجهي المخطوف وسألني، ولم يكن هناك بدّ من تكدير مزاجه، فعدت على أعقابي، وقد ركض خلفي نداء لالّة سعدية تتساءل عمّا حدث لي، خطوت مسرعة حتى دخلت غرفتها، كانت لالّة سعدية تصبُّ الماء على يديه، وهو يمسح بكفّيه المبلولتين وجهه، لم تُخفِ ملامحه خشيته مما حملته الإشارة، ولم أعرف تأويلها لكنني انتبهت إلى أنه لم يُغادر البيت في اليوم الموالي، بل مشى في الباحة، وتفقّد شجرة الرمان، وركّز بصره على الجدران مثل من يكتشفُها للمرة الأولى، ثم رجع إلى غُرفته وخلد إلى النوم. هكذا مرّت الأيام التالية، كل يومٍ يستيقظ فجرا، أسمع حركةً داخل غُرفته حين يُقيم صلاته، ثم أصبح مشهداً مُكررا في كل فجر، بعد الصلاة يفترش الباحة بعد أن يطوفها، ينتظر طلوع النهار، ثم يأوي إلى غرفته، وتُقاسمه لالّة سعدية المكان، يتحدّثان بالساعات، أنضمُّ إليهما أحيانا فأسمع حكايات غريبةٍ حدثت منذ مئات السنين، عن باشوات قُتلوا وآخرين جُنّوا، عن ريّاسٍ ألهبوا البحر، وزرعوا الخوف في العالم بأسره، ترددت أسماؤهم على ألسنةٍ ولغاتٍ كثيرةٍ، ثم يستطرد ابن ميّار في قصصٍ عن والده، وعن المحروسة في طفولته.

وفي اليوم التالي استيقظ فجرا، توضّأ وصلّى في الباحة، وبقي هُناك إلى طلوع النهار، ثم غادر البيت، ولم يلتفت إلى ندائي.

لم تطل غيبته يومها، إذ ضُرب الباب ضربا مُتواصلا قفزت له من مكاني، وقطعت الرواق حتى بلغت الباب وأشرعته على وجهه. يتغيّر مزاج هذا البيت في كلّ ساعة، في الصباح أرى الوجوه التي تحمل حزن العالم، وفي المساء ألمح الارتياح عليها، وربما السعادة المفرطة، هكذا طالعت ابن ميّار الحامل للعُلبة، وهو يخطو إلى الباحة، ومن ثمّ يفترش الأرض، في حين جلستْ لالّة سعدية إلى جانبه مُستغربة تغيّره، ثم سلمها بكتاب. كنت أدرك أنها لن تعي منه شيئا، وانشغل بقراءة ورقة بين يديه، يغدو أكثر سعادةً كلما أعاد قراءتها أقبل علينا وقال: نعم لقد حصل ما كنا نرجوه، لم تبقَ إلا أيام قليلة حتى تأتي اللّجنة إلى المحروسة لتُحقِّق معهم جميعا. وربما تُعيد لنا ما سُلب منا. وقف وحمل أحد الكتب، وغادر البيت، غاب الجزء الـمُتبقّي من النهار ثم رجع بالمساء، وكأنّ شيئا لم يحدث، اكتسح الجمود وجهه، حيّاني ثم عبر الرواق إلى غُرفته، وبعد أكثر من ساعةٍ رأيته يجوب الباحة ذهابًا وإيابًا، ثم عبر إلى القبو، أحسست أن أشياء كثيرة عالقة بينه وبين السّلّاوي، فطنت إلى أن ابن ميّار لم يعد يجتمع إليه كثيرا، حتى في أيام عُزلته لم ينزل القَبو إلا مرة أو مرتين.

في الأيام الأخيرة اعتدت زيارته أوّل الليل فأُقاسمه الأكل والعِناق، ثم عدت في إحدى الليالي، واكتشفت أنه لم يكن هناك، انتظرته على ضوء القنديل، لكنه لم يعُد، فرجعت إلى غرفتي، وآليت ألا أُحدّثه في الأمر. أسبوعا تلاها كان يمرق من الكُوّة بعد رحيلي عنه، لكنني قرّرت في الليلة

الأخيرة انتظاره، حتى يطلع الصباح، افترشت مكان نومـه، وظللت أحـدّق بالكوة إلى أن سمعت حركـة رجليه، ثم رأيت شبحـه، وقف إلى جانبي، فصرخت به، بيد أنـه كان أكثر هدوءًا، اقترب مني وأسرّ لي أنه راحلٌ في نهاية الأسبوع، ولم أدرِ أي شيء انتابني، داهمتني رغبةٌ في البكاء فبكيت إلى جانبه. بالتأكيد لم يكن السّلاوي ليشعر بي، لن يدرك أنه من اليَسير على المرأة أن تألف رجُلًا، ولو لحظات قليلة من عُمرها، فما بالك بأيامي الأخيرة معه، ثم يقف ويقولها ببساطة، سأرحل يا دُوجة نهاية الأسبوع، كان مُرهِقًا البقاء إلى جانبه، اشتقت إلى الوحدة طوال الليالي التي تلت حتى تعود إليّ دُوجة التي اعتادتْ النِسيان، وبهذه الطريقة غادرته، لم أزره في الليلة التي تَلتها، أومأت للالّة سعدية أن تنزل إلى القبو، وها هي ليلة أخرى، ينوب ابن ميّار عني، أراه من مكاني، لن يحتمِل رحيله، والإشارة التي لم أعها بعد، ولم تودّ لالّة سعدية أن تبوح بها، تلوذ بالصلاة والدعاء، فما موت الطائر إلا نهاية أحدهم، ربما كان السّلاوي أو ابن ميّار.

غاب بالقبو دقائق ثم رأيته يبرز من مدخله، ارتسمتْ على وجهه علامات الامتعاض، دنوت منه فبادرني:

- إنه عنيدٌ يا دُوجة يُريد الرحيل رغم أني عرضتُ عليه التوسّط له عند الحاكم ليعفو عنه، أجزم أنه لن يُشفى من جنونه أبدا.

حين لم يبق إلا يومان على رحيله، فكّرت طويلًا في كلمات ابن ميّار، الجُنون الذي انتاب السّلاوي لا يمكنه الشفاء منه. لم أعِ كيف يستطيع السّلاوي جمع كل تلك الأشياء في نفسه ولا يضيق بها، أسئلة تحتدّ

ولا مجيب عنها، أُعلِّقها على شجرة الرُمان. كلما عبرت إليه في القبو، ثم أعود إليها فأعلّقها في عنقي.

أُطلُّ على أيامي الماضية فأرى وجه أمي الـمُنتظرة لأبي، تنتابها رغبات محمومةٌ ومُختلطةٌ، قلبُها يخفق بالانتظار وجسدُها يشتعل إلى العناق، ووجه أبي المهان من كافيار، وأخي الذي لم يكمل الدرب الذي حلم به أبي. كل هؤلاء أراهم الآن ماثلين أمامي، وأرغب أن أسألهم واحدًا واحدًا، هل منكم من حُقِّقت رغباته؟ وهل منكم من تمنّى حلمًا فأنجزهُ؟ ولكنهم يصمتون ثم تحمل وجوههم الحزن، وأفهم أنهم كلهم كانوا مُجبرين على الحياة التي عاشوها ثم غادروها أيضا مُرغمين، وتُعودني الأيام الأولى لدخولي المحروسة، وتمتلئُ نفسي باليقين أنني أيضا لن أختلف عنهم، كنت مُجبرةً على كل شيء، والآن لا أريد أن أُجبر على شيء آخر، حتى ولو كان السّلّاوي نفسه، بالتأكيد كنت أحبه، وكلما قبّلني أحسُّ أن المحروسة لا تَسعني، وجب عليّ حسم أمري: أيّ الدربين سأختار؟ وبتُّ ليلتها يقظة، عيناي تحدّقان في الظلمة تبحثان عن إشارة تختلف عن إشارة الطائر، ولكن أحدا لم يُسعفني عدا لالّة زهرة، خيّل إليّ كأن صوتها يؤنبني، وقد عَرفتني أيامًا طويلة، مثلما فَهمت السّلّاوي مثل ابن لها، همَسَتْ لي وهي تعيد سيرة السّلّاوي أمامي، لعلّي أرى الحكاية بوضوح، ولكنني غفوت على وجهه وعلى شفتيه تقتربان من وجهي، وصحوت على شوقٍ إليه، ودون وعي مني امتدّت يدي إلى الخزانة وفتحتها، ثم اخترت أجمل ما لديّ من ثياب، فستانا أبيض مائلا إلى الصُفرة، وخمارا مشنشلا بخيوطٍ ورديةٍ، وخطوت حتى كنت بالقبو، تقت إلى تأمّل وجهه طويلا، وصمت وهو يُحدّق بي دهِشا،

أو ربما لأنه يراني لأول مرة بتلك الثياب، اقتربت وجلست إلى جانبه، وظللنا صامتين، ثم مدّ يده وشدّ على يدي كأنه يرجوني شيئا، طلب مني الغناء له، بحثتُ عن أغنية يمكنها أن تسعده، ولكنّ لساني تحرك بأخرى، أغنية ردّدتها طويلا بيني وبين نفسي كلما اشتقت إلى أبي وأخي وإلى وجه أمي الضاحك والمستبشر بالأيام الـمُقبلة. بدأت بُغنّة أكثر حُزنا ثم تصاعد صوتي بكل الأوجاع، افلتت دون وعيٍ مني، مُصرّة على أن يَعرفها السّلّاوي كلها. ومع انتهائها دنا مني، وضمّني إليه طويلا، وقبّلني على شفتيّ، وبقينا مُتعانقين، لكنني لم أستطع إطالة تلك اللحظة، كان قلبي قد امتلأ منه، سحبت نفسي من بين ذراعيه، وغادرت.

ولم أزره في الصباح الأخير، غير أنني التقيته مساءً، صعد إلى الباحة يُرافقه ابن ميّار، واجتمعنا حول جَفنة الطعام، نأكل دون أن ننظر إلى بعضنا، لُقمتين أو ثلاثا لم أحتمل الصمت المستديم بيننا، قمت وفررتُ منهم إلى غرفتي، أكثر من ساعتين مكثتها هناك، سمعت همهمته وابن ميّار، ثم التحقَت بهما لالّة سعدية، إلى أن غابت الأصوات، شعرت أنه ينتظرني وحيدا في الباحة، فقمت إليه، ووجدته هناك، يُطالعني كأنه لا يريد الرحيل، نزل إلى القبو، التحقت به هناك، تأملت وجهه مليا، وقبّلته طويلا مثلما كانت يداه تلتفان حولي، ذكّرني بأول حُمّى جمعتْ جَسدينا، واللحظات الأولى من اكتشافي له، وتأكّد لي حينها كم كانت لالّة زهرة مُحِقّةً في لومها، لا يمكن للسّلّاوي أن يتخلّى عني. ودّعني ثم عبر الكوة دون أن يلتفت، واقتربت منها تفتش عيناي عن خياله، ولا أثر، وتشبّثت طويلا بها، ولكنني لم أبك، بل غمر اليقين داخلي أنه لا بد عائدٌ.

إذن رحل السّلّاوي، وخلّفني أعيش انتظارا، حتى لالّة سعدية لم تُسعفني بتفسير الإشارة التي اعتقدت أننا جميعًا مَعنيون بها، مكثتُ أياما أخرى وحيدةً في غُرفتي، وكلما اشتقت إلى السّلّاوي أراقب الخواء من كُوّة القبو، عَسى أن يُطلّ خياله ثانية، فلا تَهبني إلا مزيدًا من العتمة، أفترش مكانه أبحث عن دفئه الغائب، إلى أن يطلع النّهار، فأصعد الأدراج عائدة إلى الباحة، وأجد ابن ميّار يخطو بها كمن ضيّع شيئا، يبصر تجاه الأرض، وتعبر لالّة سعدية إليه، يقتعدان مكانًا هناك، ويعودان إلى الحكايات القديمة، ويمضي العجوزان يوما آخر، لا يختلف عن أيام كثيرة ركضتْ لم تحمل معها خبرًا عن السّلّاوي، أتساءل خوفًا وأحيانا شوقًا، أتراه بلغ غايته التي رحل من أجلها، أم أنهم قَبضوا عليه؟ ربما قتلوه ورموه بالخلاء. أفرُّ من أجوبة تزيد خوفي، أنتظر نهاية النهار مُبعدة عن نفسي هاجس موت السلاوي على يد الجنود الفرنسيين.

يوم آخر يستفيق ابن ميّار فيه مُبكرا، وأستيقظ على حركةٍ من غرفته ثم يتصاعد دعاؤه، قدّرت أن هناك جديدا، إذ كان ابن ميّار يلحف في الدعاء، تعالى صوته حتى بلغتني الحروف جليّة وواضحة، ولم تمض إلا هنيهة حتى كان يُقاسِم لالّة سعدية مكانا بالباحة. ثم انضممت إليهما، وأسرّ لنا أنه اليوم المقرّر كي تسمع اللجنة شهادته. قَضى بيننا ساعة أخرى، ثم حمل محفظته وسار بخُطوات واسعة، ومع بلوغه مدخل الرواق التفت، ونظر تجاهنا بوجه يحمل مخاوف كثيرة. ثم عبره مغادرا البيت، بينما كانت لالّة سعدية ترفع يديها وتتمتم بالدعاء، لم أدرِ أي شيء أفعله عدا الدعاء له أنا الأخرى. لم يستحق ابن ميّار ولا لالّة سعدية كل ما يحدث لهما. اقتربت

منها وتوسّدت فخذها، وامتدت يدها إلى شعري، غاصتْ أصابعها به مثل أيام الطُفولة، حين كانت أمي تحبُّ فرك شعري، وهي تحكي لي عن الحطّابين الذين رحلوا إلى الجبال ثم اختفوا. وعن أرواح الأطفال التي تتحوّل إلى عصافير مُلوّنة تُحلّق كل صباح أمام بيوتهم. تُطمئن أُمهاتهم أنهم هناك ينتظرونهن في الجنّة، تمنيت لو رَوَت لي لالّة سعدية حكاية مثلها، ولكن الصمت تمدّد بالباحة، وحين ضاقت به لالة سعدية تكلمت، وباحت لي بسرِّ الإشارة، التي أوّلها ابن ميّار رحيلًا عن المحروسة، لم يرغب في فهمها على ذلك النحو، لكن كل شيء من حوله كان يقول ذلك.

من مكاني رأيتُ طائرا يعتلي شجرة الرُّمان، تلمع ألوانه كلّما حرّك جناحيه، قمت فجأة مُسرعة تجاهه، ثم وقفت عند الشّجرة وحرّكتها، لكن الطائر لم يكن هناك، عدت أجلس إلى جانب لالّة سعدية الصامتة، وتغلغلتْ يدها ثانية إلى شعري تعبث به، استعدت وجه أمي، وحكايات الطائر الذي لم يُرفرف إلا في أحلامي.

تلزم لالّة سعدية غُرفتها، وأعود إلى رحلتي التي أطوف بها أجزاء البيت، وأتأمل الجُدران، أنتقل من مكان إلى آخر حتى أبلغ القبو، مَنعتني رغبات كثيرةٌ من ترتيب فِراشه، أحببت أن يظلّ على حاله تلك إلى حين عودته، حتى الكُوّة لم أُغلقها، عليها انتظاره، والقنديل معلقٌ في قبالتها كي يُضيء له المكان، وكلّ الأثاث من حوله عليه أن يعيش انتظاره مثلي. ثم أصعد الدرجات حتى أبلغ مدخل القبو، وقبل أن أتجاوزه أسمع ضرباتٍ قوية على الباب، أضطرب منها، أسرع إليه، فأرى لالّة سعدية تخطو خارج غُرفتها إلى الباحة، أسبقُها إليه، وكلما خطوت تجاه الباب تتضاعف خِشيتي

من ضَرباته المتسارعة، وأفاجأ حين أفتحه بجسده يميل على كتفي، كان الشابُّ الفرنسي يسند ابن ميّار العاجز، تمعّنت في وجهه لم يكن به جروحٌ أو آثارُ ضربٍ، أسندته بقيّة الرواق إلى الباحة، وشهقت لالّة سعدية، ثم أقبلتْ وأسندته معي، وسرنا به حتى كنا بالغرفة، استلقى على فراشه، وطلب منا بصوتٍ مخنوق تركه وحده، وانزويت ولالّة سعدية في غرفةٍ قريبةٍ صامتتين حتى نادى عليها.

لم أتبيّن تفاصيل ما حدث، مثلما لم أستطع عدّ الأيام التي قضاها طريح الفراش، لا يستقيم إلا حين نُقعده. بدا الأمر أنه وَعكة عابرة، ولكن لالّة سعدية ظلّت تدعو وتُلحُّ في الدعاء على الذين تسبّبوا في مرضه، وكُلما أطللت عليه صباحا يحدّق تجاهي طويلا كأنه لا يراني، وتُومئ لي لالّة سعدية أن أدعه وحيدا. أسمع حركاتها ليلا، تحمل المناديل وصحن الماء، قد اشتدّت به الحمى، وأضحت لا تنام إلا قدرا ضئيلا. في الصباح أمرُّ به، يُظهر النهار وجهًا شاحبًا، وصوتا مخنوقًا بالكاد ينطق حروف اسمي وتحيّة الصباح، لكنني بعد أيام سمعته بوضوح، يسأل عنّي وعن أخبار السّلّاوي، ثم في صباحٍ مختلف كنت أسنده ولالّة سعدية حتى يجلس في الباحة يُقابل شجرة الرُّمان طوال النهار. أحيانا يكون وحيدًا، وأخرى إلى جانبه لالّة سعدية، يُحدّقان بعضهما في بعض ولا يتكلّمان، وأبقى مُعلّقة بينهما أنتظر عودة السّلّاوي، ينتابني قلقٌ من تحقُّق الإشارة، وقد بدأت علاماتها تتراءى لي في الحالات التي انتابت ابن ميّار. ثلاثة أيام أخرى، كان ابن ميّار يستطيع عبور المسافة القصيرة بين غُرفته والباحة في انحناء، تستقرُّ عيناه على شجرة الرُّمان، لكن ضرب الباب ذلك اليوم قطع عليه تأمّلاته. وقفتُ وهممت

بفتحه، لكنّ نظرته منعتني، ثم تحامل على نفسه وبصعوبة قام، قدّرت أن هناك موعدا كان بينه وبين من يدقُّ الباب، مشى في بطء حتى كان عنده، ثم رأيته بعد عودته شاحب الوجه، حاملا ورقة بيده، بسطها أمامنا ثم قال: قد تحقّقت إشارة سيدي عبد الرحمن، وانتصر كافيار يا لالّة سعدية، وقُدِّر علينا الرحيل عن المحروسة مجُبرين. النَفي هو الوسيلة الوحيدة التي يمكنهم إبعادي بها. تأمّلت وجه لالّة سعدية لحظتها، وامتلأت بشعورٍ غريبٍ، كأنّها كانت تريد الرحيل عن المحروسة، بالتأكيد كنت أدرك تعلّقها بزوجها، ولم تر في بقائه بالمدينة إلا مزيدا من القهر، لطالما اقترحتْ عليه الرحيل إلى مكان آخر، حيث لا فرنسيين يضطهدونه، ولا أعيان قد يَشون به، وفطنت إلى أنه يحدق بي، قد فُرض عليه مصيره وزوجته، وودّ لو يعرف مصيري أو ربما أمل ألا يختلف عنه، يُجاهد العجوز حتى في رحيله على اصطحاب أشياء تذكِّره بالمحروسة. طلب مني أن أكون إلى جانبهما في منفاهما بإسطنبول. لكنني لم أستطع يومها موافقته، ربما كان الرجاء الوحيد الذي لا يمكنني تلبيته، وأنا التي حلمت دائما بالخروج منها، لم أُحبّها مثلما أحبُّوها. لكن مصيري معلقٌ بالسّلّاوي، ولا معنى لسنوات الانتظار إذا لم أبق في المحروسة. لم يضف ابن ميّار كلمات أخرى، صمت ينتظر الأيام المتبقية على رحيله، يملأ عينيه من جدران بيته، ورئتيه من هواء المحروسة.

دُق الباب مرة أخرى، وما إن أشرعته حتى وجدته الشاب الفرنسي، عبر الرواق بعجلة، تفاجأ بابن ميّار في الباحة، ثم جلس إلى جانبه، وتحدّثا دقائق، رأيت من مكاني كيف تغيّرت ملامح الشاب وهو يُطالع الوثيقة، علا وجهه مِقدار كبير من الاستياء، ولكنه لم يُطل المكوث معه، ودّعه ورحل.

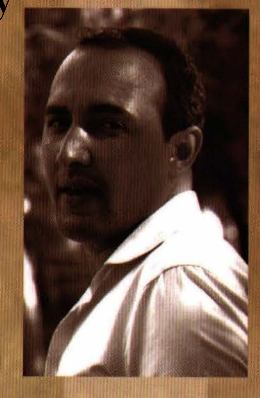
بعد رحيله نادى عليّ ابن ميّار، وعلى لالّة سعدية، أراد معرفة وجهتي بعد رحيلهم، كان يدري ألا بيت ألجأ إليه إلا بيت لالة زهرة، وهكذا اتفقنا على أنه سيأخذني إلى هناك يوما قبل الرحيل.

وجه لالّة سعدية المليء بالتجاعيد، كل فراغٍ بينها يشي بأحزانٍ قديمةٍ ومتجددةٍ، مثل وجه المحروسة، يُولّد فراغ شوارعها وحاراتها الحزن في قُلوب الذين أحبّوها، رغم أنني لم أكن من بينهم، تقف لالّة سعدية يوم رحيلي إلى جانبي، وتُقبّلني على جبهتي، تبكي لا تريد فراقي، لو كان الأمر بيدي لرحلت معها، سحبتْ من صندوقها قلادة ذهبٍ تحمل مُصحفا صغيرا، وعلّقتها في عُنقي وضمّتني إلى صدرها فبكيت، ثم همستْ لي: يا الله كم هو جميل على عنقك! لم يكتب لي الله أن تكون لي ذُرّية من بطني، ولكنه وهب لي دُوجة!

حملت صُرّة الثياب والتحقت بابن ميّار، ثم كنا نقطع شوارع المحروسة، أتأمّل ملامحها الشاحبة حتى بلغنا بيت لالّة زهرة، أما حين فتحت الباب فقد عانقتني طويلا غير مُصدّقة أنني عدت أخيرا إليها، آمنتُ يومها أن الله الذي أخذ مني أمي قد أحاطني بأُمهاتٍ كثيراتٍ، ما إن يفارقني حضنٌ حتى يضمنّي آخر. غادر ابن ميّار، رأيت خُطواته المثقلة على شوارع المحروسة المليئة بالغبار، وبكيت ليلة رحيلها، إذ لم يُقدَّر لي رؤية وجهيهما ساعة الرحيل. ولم يكن الرحيل عن المحروسة بالنسبة لـمُحِبّيها إلا وجها آخر للموت، بينما لم يكن بالنسبة لي إلا دربا أخيرا لإدراك بهجة الحياة.

الجلفة 5 مارس 2017

الفهرس



تعود طولون إلى الذّاكرة كمهرجانٍ من الـهُتاف، ووجوه مألوفة وأخرى غريبة تجوب الشّوارع. جنودٌ في صفوف لانهائية، خطواتها رتيبة تهدف إلى الميناء، الكل يودُّ أن يكون جزءا من الحـرب المقدَّسة، التي تبعث المجد لأمة خُدش شرفها وأُهين، الكلُّ يريد القضاء على ربوة القراصنة التي تستعبد المسيحيين، الكلُّ يحلم بالقضاء على أسطورة الأتراك المتوحشين في المتوسط، ولكن كيف هي طولون اليوم؟ أتراني سأسمع صدى الهُتاف، وأتبع آثار الجنود؟ أم أن الناس التفتوا إلى همومهم اليومية وتناسوا كل أحلامهم الماضية؟ بالتأكيد هذا ما حدث. ألم تنته المدينة التي أرعبت الجميع وانتقلت من الأتـراك إلى الرومان؟ هذا ما حدث، وما سأفكّر فيه حين أعبر المتوسط إليها لأراها بوجهها المختلفِ، بعد انتهاء عامين من غيابي وثلاث سنوات على احتلالها.

الديوان الإسبرطي

عبد الوهاب عيساوي

رواية



ميم للنشر
Mim Edition

ISBN:978-9931-585-60-2



9 789947 585602